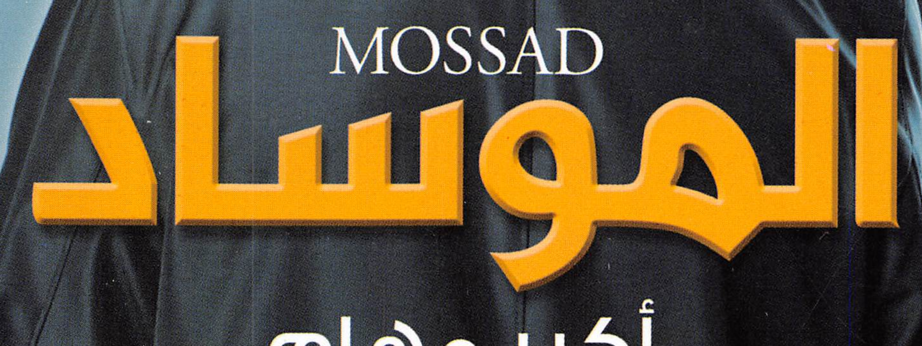


MOSSAD

الموساد

أكبر مهام جهاز المخابرات الإسرائيلي

ميخائيل بار زوهار
و
نسيم مِشعال



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

MOSSAD

الموساد

أكبر مهام
جهاز المخابرات الإسرائيلي

ميخائيل بار زوهار
و
نسيم مِيشعال

ترجمة

زينة إدريس

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL



يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي
MOSSAD
The Greatest Missions of the Israeli Secret Services
حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر
HarperCollins Publishers
بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

الطبعة الأولى
1434 هـ - 2013 م

ردمك 978-614-01-0826-4



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (1-961+)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (1-961+)

المحتويات

مقدّمة

وحيد، في عرين الأسد

فـي 12 نوفمبـر 2011، دمّـر انفجـار هائـل قاعـدة صواريخ سـرّية بالقرب من طهران، مسفراً عن مقتل 17 عنصراً من الحرس الثوري، ومحوّلاً عشرات الصواريخ إلـى كومـة حديـد متفحّم. أودى الانفجار بحياة اللواء حسـن طهراني مقدَّم؛ مبتكر صواريـخ شـهاب بعيـدة المدى، والمسـؤول عـن برنامج الصواريـخ الإيراني. لكنّ الهـدف السـرّي للتفجيـر لـم يكن اللواء مقـدّم، بل محرّك صواريـخ يعمل بالوقود الصلب، قادراً على حمل صاروخ نووي لمسافة أكثر من 6,000 ميل، من صوامع تحت الأرض في إيران، إلى أراضي الولايات المتّحدة.

كان الهـدف مـن الصـاروخ الجديـد الذي ابتكره قادة إيـران هو تركيع المدن الأميركيـة الكبـرى، وتحويـل إيران إلى قوّة عالمية مهيمنة. وقد أدّى انفجار نوفمبر إلى تأخير المشروع عدّة أشهر.

ومـع أنّ هـدف الصـاروخ بعيـد المدى الجديد كان الولايات المتّحدة، إلاّ أنّ المتفجرات التي دمّرت القاعدة الإيرانية زُرعت على الأرجح بيد جهاز المخابرات الإسـرائيلي؛ الموسـاد. فمنذ تأسـيس الموساد قبل أكثر من ستّين عاماً، تصدّى هذا الجهـاز بسـرّية للمخاطـر التـي هـدّدت إسـرائيل والغرب. وباتـت المعلومات التي يجمعهـا الموسـاد والعمليّـات التي ينفّذها تؤثّـر أكثر من أيّ وقت مضى في الأمن الأميركي، في الخارج والداخل على حدٍّ سواء.

الآن، واستناداً إلى مصادر أجنبية، يتحدّى الموساد الوعد الصريح الذي قطعته القيـادة الإيرانيـة، والقاضـي بمحو إسـرائيل من الخارطة. ولهذا، شـنّ الجهاز حرباً خفيّـة علـى إيـران من خـلال تخريب المنشـآت النووية، واغتيال العلمـاء، وتزويد

المحطّات بمعدّات ومواد أوّلية معابة عن طريق شركات وهمية، وتنظيم فرار عدد من كبار ضبّاط الجيش والشخصيّات الرئيسة في مجال البحوث النووية، هذا فضلاً عن إدخال فيروسات شرسة إلى أنظمة الحاسوب الإيرانية؛ ليحارب على حدّ زعمه تهديد السلاح النووي الإيراني، وما يعنيه ذلك بالنسبة إلى الولايات المتّحدة وبقيّة العالم. وفي حين أخّر الموساد إنتاج القنبلة النووية الإيرانية عدّة سنوات، فإنّ معركته تبلغ الآن ذروتها، قبل أن يتمّ اللجوء إلى استخدام الضربة العسكرية؛ كملاذ أخير.

وفي مجال مكافحة ما تسميه إسرائيل الإرهاب، كان الموساد يعتقل ويقضي على العشرات من كبار الشخصيات الذين يتم وصفهم بالإرهابيين في معاقلهم في بيروت ودمشق وبغداد وتونس، وفي مراكزهم في باريس وروما وأثينا وقبرص منذ سبعينيّات القرن العشرين. ففي 12 فبراير 2008 - استناداً إلى وسائل الإعلام الغربية - قام عملاء الموساد بنصب كمين لعماد مغنية، القائد العسكري لحزب الله، واغتياله في دمشق. كان مغنية من ألد أعداء إسرائيل، كما كان أيضاً على رأس لائحة المطلوبين لدى مكتب التحقيقات الفيدرالي (أف بي آي). فهو الرأس المدبّر والمنفّذ للعملية التي راح ضحيّتها 241 عنصراً من مشاة البحرية الأميركية (المارينز) في بيروت. فقد أدت أعماله إلى مقتل مئات الأميركيين، والإسرائيليين، والفرنسيين، والأرجنتينيين. وحتّى هذا اليوم، تتمّ ملاحقة قادة الجهاد الإسلامي والقاعدة في أنحاء الشرق الأوسط كافة.

مع ذلك، عندما حذّر الموساد الغرب من أنّ الربيع العربي قد يتحوّل إلى شتاء عربي، لم يصغِ إليه أحد. فخلال عام 2011، احتفل الغرب بما اعتُقِد أنّه بزوغ فجر جديد من الديمقراطية، والحرّية، وحقوق الإنسان في الشرق الأوسط. وعلى أمل نيل رضى المصريين، ضغطت الدول الغربية على الرئيس مبارك الذي كان أفضل حليف لها في العالم العربي للاستقالة. لكنّ الحشود الأولى التي اجتاحت ميدان التحرير في القاهرة أحرقت العلم الأميركي، ثمّ اقتحمت السفارة الإسرائيلية، وطالبت بإنهاء معاهدة السلام مع إسرائيل، كما اعتقلت نشطاء المنظّمات الأميركية غير الحكومية. جلبت الانتخابات الحرّة التي جرت في مصر الإخوان المسلمين

إلى السلطة. واليوم، تترنّح مصر على حافّة الفوضى والكارثة الاقتصادية. كما بدأ نظام إسلامي يترسّخ في تونس، ومن المرجّح أن تتبعه ليبيا. أما اليمن فتسوده الاضطرابات. بينما يقوم الرئيس الأسد في سوريا بقتل شعبه. وتشعر الدول العربية المعتدلة أنّها تعرّضت للخيانة من قبل حلفائها الغربيين. أمّا بالنسبة إلى الآمال المتعلقة بحقوق الإنسان، وحقوق المرأة، والقوانين الديمقراطية، وسيادة القانون التي ألهمت هذه الثورات التاريخية، فقد حطّمتها الأحزاب التي تولت السلطة، وهي الأكثر تنظيماً واتّصالاً بالجماهير.

وقد حوّل هذا الشتاء العربي منطقة الشرق الأوسط إلى قنبلة موقوتة تهدّد الشعب الإسرائيلي وحلفاءه في العالم الغربي. ومع تطوّر الأحداث، تصبح مهام الموساد أكثر خطورة، وفي الوقت نفسه أكثر أهمّية بالنسبة إلى الغرب. إذ يبدو أنّ الموساد يشكّل أفضل دفاع ضدّ التهديد النووي الإيراني، والإرهاب، وكلّ ما يمكن أن ينشأ عن الفوضى السائدة في الشرق الأوسط. والأهمّ من ذلك كلّه، أنّه يشكّل الملاذ الأخير في ظلّ غياب حرب مفتوحة.

يعتبر جنود الموساد المجهولون شريان حياته؛ رجال ونساء يخاطرون بحياتهم، ويعيشون بعيداً عن أسرهم بهويات مزيّفة، لتنفيذ عمليّات في بلاد العدوّ التي يمكن أن تؤدّي هفوة بسيطة ترتكب فيها إلى تعرّضهم للاعتقال، أو التعذيب، أو الموت. خلال الحرب الباردة، كان أسوأ ما يمكن أن يواجهه عميل سرّي يتمّ القبض عليه في الغرب أو في الكتلة الشيوعية هو تبادله مع عميل آخر على جسر بارد وضبابي في برلين. وسواء أكان العميل روسياً أم أميركياً، بريطانياً أم ألمانياً شرقياً، فقد كان يعرف دائماً أنّه ليس وحيداً، وأنّ هناك دائماً من سيعيده إلى برّ الأمان. لكن، بالنسبة إلى عملاء الموساد الوحيدين، ما من تبادلات ولا جسور باردة، بل إنهم يدفعون حياتهم ثمناً لأعمالهم.

في هذا الكتاب، نسلّط الضوء على أكبر مهام الموساد، فضلاً عن الأخطاء والإخفاقات التي وصمت الوكالة أكثر من مرّة وهزّت أُسسها. كان لهذه المهام دور كبير في صياغة مصير إسرائيل، لا بل ومن نواح عديدة، مصير العالم.

* ملاحظـة: إن نشـر هـذا الكتاب، يهدف إلى تسـليط الضـوء على العمليات القذرة التي ارتكبها عملاء الموساد في شتى أنحاء العالم وخاصة في الدول العربية وضـد قـادة ومجاهديـن وثوريـين عرب يصفهم الموسـاد وفقاً لأدبياتـه بالإرهابيين ويتباهـى بالأفعـال الإجراميـة التـي نفذها عمـلاؤه والتي هي فـي الحقيقة عمليات إجرامية، فاقتضى الإشارة إلى ذلك.

الناشر

الفصل الأوّل

ملك الظلال

في أواخر صيف 1971، ضربت عاصفة عنيفة ساحل البحر الأبيض المتوسّط، وغمرت أمواج عاتية شواطئ غزّة، فلازم الصيّادون المحلّيون العرب الشاطئ بحكمة؛ إذ إن هذا اليوم ليس مناسباً لتحدّي البحر الغدّار. رأوا باستغراب قارباً متداعياً يخرج فجأة من بين الأمواج الهادرة ويستقرّ على الرمال الرطبة. قفز منه بضعة فلسطينيين، ومشوا إلى الشاطئ بملابسهم وكفّياتهم المجعّدة والمبتلّة. أظهرت وجوههم غير الحليقة تعباً ناجماً عن رحلة طويلة في البحر. لكن، لم يكن لديهم الوقت للاستراحة، فقد كانوا يحاولون النجاة بأرواحهم. إذ خرج من البحر الثائر زورق إسرائيلي كان يلاحقهم بأقصى سرعة، حاملاً على متنه جنوداً بالزيّ العسكري الكامل. مع اقترابه من الشاطئ، قفز الجنود في المياه الضحلة، وأطلقوا النار على الفلسطينيين الذين فرّوا هاربين. حينها، ركض بضعة شبّان من غزّة كانوا يلعبون على الشاطئ نحو الفلسطينيين، وقادوهم إلى بستان آمن في الجوار. فقَدَ الجنود الإسرائيليون أثرهم، لكنّهم واصلوا تفتيش الشاطئ.

وفي وقت متأخّر من تلك الليلة، تسلّل شابّ فلسطيني يحمل كلاشينكوف إلى البستان للاستطلاع، فوجد الهاربين مجتمعين في زاوية بعيدة. سألهم: «من أنتم يا إخوان؟».

أتاه الجواب من أحدهم: «نحن أعضاء في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. أتينا من مخيّم صور للاجئين في لبنان».

قال الشابّ: «مرحباً بكم».

«هل تعرف قائدنا أبا سيف؟ فقد أرسلنا للقاء قادة الجبهة الشعبية في بيت

لاهيا. لدينا المال والسلاح، ونريد تنسيق عمليّاتنا».

قال لهم الشابّ: «سأساعدكم».

وفي الصباح التالي، قام عدد من المسلّحين باصطحاب القادمين الجدد إلى منزل منعزل في مخيّم جباليا للاجئين. تمّ اقتيادهم إلى غرفة كبيرة، ودعوتهم للجلوس إلى طاولة. بعد قليل، دخل قادة الجبهة الشعبية الذين كانوا يأملون الاجتماع بهم، فتبادلوا التحيّات الحارّة مع إخوانهم اللبنانيين، وجلسوا أمامهم.

سأل رجل أصلع ممتلئ الجسم يضع كفّية حمراء اللون، وهو على ما يبدو قائد المجموعة اللبنانية: «هل يمكننا أن نبدأ؟ هل الجميع هنا؟».

«الجميع هنا».

عندها، رفع اللبناني يده ونظر إلى ساعته. كانت هذه إشارة متّفقاً عليها مسبقاً. فجأة، سحب أعضاء الوفد اللبناني مسدّساتهم، وأطلقوا النار. وفي أقلّ من دقيقة، أردوا المجتمعين في بيت لاهيا قتلى. هرب اللبنانيون من المنزل، ثمّ شقّوا طريقهم عبر أزقّة مخيّم جباليا المتعرّجة، وشوارع غزّة المزدحمة، وسرعان ما عبروا إلى الأراضي الإسرائيلية. في ذلك المساء، أبلغ النقيب مئير داغان، قائد وحدة الكوماندوس السرّية ريمون التابعة للجيش الإسرائيلي، الجنرال أرييل شارون بنجاح عمليّة الحرباء. فقد تمّ قتل جميع قادة الجبهة الشعبية في بيت لاهيا، والتي تُعتبر مجموعة خطيرة.

لم يكن داغان قد تجاوز السادسة والعشرين من عمره، إلاّ أنّه كان يُعتبر مقاتلاً أسطورياً. فقد خطّط للعمليّة بأكملها: التنكّر، والإبحار على متن زورق قديم من ميناء أشدود الإسرائيلي، والاختباء طوال الليل، والاجتماع بالقادة الفلسطينيين، هذا فضلاً عن تأمين طريق الفرار بعد تنفيذ العملية. حتّى إنّه نظّم الملاحقة الوهمية بالزورق الإسرائيلي. كان داغان محارب عصابات فعليًّا، وليس ممّن يلتزمون بالقوانين. قال عنه إسحاق رابين مرّة: «يملك مئير قدرة فريدة على ابتكار عمليّات لمكافحة الإرهاب تبدو مثل أفلام الرعب».

يذكر رئيس الموساد المستقبلي داني ياتوم النقيب داغان كشابّ ممتلئ بنّي الشعر، تقدّم للانضمام إلى وحدة الكوماندوس الإسرائيلي المرموقة، سايريت

ماتكال، وأدهش الجميع بمهارته في رمي الخناجر. فبواسطة خنجر الكوماندوس الضخم، كان يستطيع القضاء على أيّ هدف يختاره. لكن، على الرغم من كونه هدّافاً ممتازاً، إلاّ أنّه فشل في اختبارات سايريت ماتكال، واضطرّ إلى الاكتفاء في البداية بالأجنحة الفضّية للمظليين.

في أوائل السبعينيات، تمّ إرساله إلى قطاع غزّة الذي استولت عليه إسرائيل في حرب الأيّام الستّة عام 1967، وأصبح منذ ذلك الحين معقلاً لنشاط المقاومين الفلسطينيين الذين يصفهم الإسرائيليون بالإرهابيين. استهدف الفلسطينيون الإسرائيليين بالقنابل يوميًّا؛ سواء أتمّ ذلك في قطاع غزّة أو في عمق الأراضي المحتلة، وبالمتفجرات، والأسلحة النارية، لكنّ الجيش الإسرائيلي لم يفقد سيطرته على مخيّمات اللاجئين. وفي 2 يناير 1971، عندما قام فلسطيني برمي قنبلة يدوية على سيّارة، وراح ضحيّتها طفلان من آل أرويو - أبيغيل ذات السنوات الخمس، ومارك ذو السنوات الثماني - وتحوّلا إلى أشلاء، قرّر الجنرال أرييل شارون وضع حدّ لسفك الدماء، فقام بتجنيد عدد من رفاق السلاح القدامى، فضلاً عن عدد من الجنود الشباب الموهوبين. كان داغان واحداً منهم، وكان ضابطاً مستدير الوجه وقوي البنية وقصير القامة، ويعاني من عرج بعد أن داس على لغم أرضي في حرب الأيّام الستّة. في أثناء تلقّيه العلاج في مستشفى سوروكا في بئر السبع، أُغرم بممرّضته، بينا، وتزوّجا بعدما استردّ عافيته.

لم يكن لوحدة شارون وجود رسمي. إذ تمثّلت مهمّتها في تدمير المنظّمات الفلسطينية في غزّة بواسطة وسائل خطرة وغير تقليدية. كان داغان يتجوّل في غزّة مستخدماً عصاً، وكلب دوبرمان، وعدداً من المسدّسات والبنادق الرشّاشة. وادّعى بعضهم أنهم رأوه متنكّراً في زيّ عربيّ يمتطي حماراً، ويتنقّل عليه متمهّلاً في أزقّة غزّة الخطرة. لم تقلّل إعاقته من عزمه على تنفيذ أخطر العمليّات. فوجهة نظره بسيطة: أعداؤنا هم العرب الأشرار الذين يريدون قتلنا، لذلك علينا أن نقتلهم أوّلاً.

أسّس داغان ضمن وحدة الكوماندوس وحدةً حملت اسم ريمون، وكانت أوّل وحدة كوماندوس إسرائيلي سرّية، وقد عملت متموهة في عمق أراضي العرب. وللتحرّك بحرّية بين الحشود العربية، وبلوغ أهدافها من دون أن يتمّ كشفها، كان

عليهـا أن تعمـل متنكّـرة. وهكذا، سـرعان ما أصبحت تُعرف باسـم فريق اغتيالات أريـك، وسـرت شـائعات بـأنّ أفرادهـا قتلوا أسـراهم غالباً بدم بـارد. قيل إنّهم في بعض الأحيان، كانوا يقتادون الأسـير إلى زقاق مظلم ويقولون له: «لديك دقيقتان للهـرب»، وعندمـا يحـاول الفرار، يطلقون عليـه الرصاص ويردونه قتيلاً. في بعض الأحيان، كانوا يتركون وراءهم خنجراً أو مسدّساً، وعندما يحاول الأسير الوصول إليه، يقتلونه على الفور. كتب أحد الصحفيين أنّ داغان يخرج كلّ يوم إلى الحقول، ويسـتخدم إحدى يديه للتبوّل، فيما يسـتخدم اليد الأخرى لإطلاق النار على عبوة كوكا كولا فارغة. غير أنّ داغان نفى هذه الروايات قائلاً: «ثمّة أساطير تلتصق بكلّ منّا، غير أنّ بعض ما يُكتب غير صحيح».

كان أعضـاء وحـدة الكومانـدوس الإسـرائيلي الصغيرة يخوضون حرباً قاسـية وشرسة، ويخاطرون بحياتهم يوميًا. فكان رجال داغان يخرجون كلّ ليلة متنكّرين بملابـس نسـاء أو صيّاديـن بحثـاً عـن أشـخاص معروفين. في أواسـط يناير 1971، تنكّروا بزيّ عرب في شـمال القطاع، واسـتدرجوا عناصر من فتح إلى كمين، وتم قتـل عناصـر فتـح فـي تبـادل لإطلاق النـار بينهم. في 29 يناير 1971، سـافر داغان ورجاله بزيّهم الرسـمي هذه المرّة، في سيّارتَي جيب، إلى ضواحي مخيّم جباليا. صادفوا في طريقهم سيّارة أجرة، وتعرّف داغان من بين ركّابها على أبي نمر، فأمر سيّارتي الجيب بالتوقّف، وأحاط جنودُه بسيّارة الأجرة. اقترب داغان من سـيّارة الأجـرة، فخـرج أبـو نمـر ملوّحـاً بقنبلة يدوية. حـدّق إلى داغان، وسـحب الفتيل. عندهـا، صـاح داغـان: «قنبلـة!»، ولكنه عوضاً عن الفـرار بحثاً عن مخبأ، قفز على الرجل، وسمّره، وأخذ القنبلة من يده. بعد تلك الحادثة، تمّ تقليده وسام الشجاعة. ويقال إنّه بعد أن رمى القنبلة بعيداً، قام بقتل أبي نمر بيديه.

بعد سنوات، وفي مقابلة نادرة مع الصحفي الإسرائيلي رون ليشيم، قال داغان: «لم تكن وحدة ريمون فريقَ اغتيالات... كما أنّها لم تكن الغرب المتوحّش الذي تجد فيه الجميع سعداء. لم نقم بإيذاء النساء والأطفال مطلقاً، بل هاجمْنا أشخاصاً نعتبرهم مجرمين عنيفين. اغتلنا البعض، وردعنا آخرين. فلحماية المدنيين، تحتاج الدولة أحياناً إلى القيام بأمور تعارض السـلوك الديمقراطي. وفي وحدة كوحدتنا،

قد تصبح الحدود الخارجية غير واضحة أحياناً. لهذا السبب، عليك أن تكون واثقاً من أنّ رجالك من أفضل الرجال. ويجب أن يتمّ تنفيذ أقذر العمليات على يد أكثرهم صدقاً».

سواء أكان ذلك السلوك ديمقراطياً أم لا، فقد تمكّن شارون، وداغان، وزملاؤهما من الحدّ كثيراً من مستوى العمليات في غزّة، وظلّت المنطقة هادئة ومسالمة لسنوات. غير أنّ البعض يؤكّدون أنّ شارون قال بشيء من المزاح عن مساعده الوفي: «مئير متخصّص في فصل رأس العربي عن جسده».

غير أنّ قلة يعرفون داغان الحقيقي. فقد ولد داغان باسم مئير هوبرمان عام 1945 في مقصورة قطار عند ضواحي هيرسون، في أوكرانيا، في أثناء هرب أسرته من سيبيريا إلى بولندا. لقي معظم أفراد أسرته حتفهم على أيدي النازيين، فهاجر مئير إلى إسرائيل مع أبويه، ونشأ في حيّ فقير في مدينة اللّد، وهي مدينة عربية قديمة تبعد حوالى 15 ميلاً جنوب تل أبيب. عرفه كثيرون كمحارب لا يُقهَر، إلاّ أنّ قليلين كانوا على اطّلاع على هواياته السرّية؛ فقد كان قارئاً نهماً للكتب التاريخية، ونباتياً. أحبّ الموسيقى الكلاسيكية، وهوى الرسم والنحت.

حمل داغان على كاهله المعاناة الفظيعة التي عاشتها أسرته واليهود على أيدي النازيين، فكرّس حياته للدفاع عن دولة إسرائيل الوليدة. وفي أثناء ارتقائه الهرم العسكري، كان أوّل ما يفعله عند تسلّم منصب جديد تعليقَ صورة كبيرة على الجدار ليهودي عجوز، كتفاه مغطاتان بوشاح، وهو راكع أمام ضابطين نازيَين، أحدهما يحمل عصا، والآخر بندقيّة. وكان داغان يقول للزوّار: «هذا الرجل العجوز هو جدّي. كلّما نظرت إلى الصورة، ذكّرت نفسي بأنّنا يجب أن نبقى أقوياء، وندافع عن أنفسنا لكي لا تتكرّر هذه الأفعال مجدّداً».

كان الرجل العجوز جدّ داغان بالفعل، واسمه بير إرليخ سلوشني، وقد قُتل في لوكوف بعد بضع ثوان من التقاط الصورة.

خلال حرب أكتوبر التي وقعت عام 1973، كان داغان من بين الإسرائيليين الأوائل الذين عبروا قناة السويس في وحدة استطلاع. وفي حرب لبنان عام 1982،

دخل بيروت على رأس فرقته المدرّعة، وسرعان ما أصبح قائد المنطقة الأمنية لجنوب لبنان. هناك، عاد مقاتل العصابات المغامر إلى الظهور في زيّ الكولونيل المنشّى. فأعاد فرض مبادئ السرّية والتمويه والتضليل التي استخدمها أيّام غزّة. وأطلق الجنود اسماً جديداً على قائدهم السرّي، فلقّبوه بملك الظلال. كانت الحياة في لبنان، بتحالفاتها السرّية، وخياناتها، وقسوتها، وحروبها الوهمية تشبهه. ويقول عن ذلك: «قبل أن يدخل لواء دبّاباتي بيروت، كنت أعرف هذه المدينة جيّداً». وبعد انتهاء الحرب في لبنان، لم يتخلَّ عن مغامراته السرّية. ففي عام 1984، تلقّى توبيخاً رسمياً من رئيس الأركان موشيه ليفي لتجوّله بزيّ عربي بالقرب من أحد مقرات الأعداء في بحمدون.

في أثناء الانتفاضة (1987–1993)، عندما تمّ نقل داغان إلى الضفّة الغربية كمستشار لرئيس هيئة الأركان إيهود باراك، استرجع عاداته القديمة، لا بل وأقنع باراك بالانضمام إليه. فتنكّر كلّ منهما بملابس رياضية – وكأنّهما فلسطينيان حقيقيان – وعثرا على مرسيدس زرقاء اللون تحمل لوحة محلّية، ثمّ ذهبا في جولة في منطقة نابلس الخطرة. وعند عودتهما، شك بهما حرّاس مقرّ القيادة العسكرية، قبل أن يندهشوا عندما تعرّفوا على الشخصين الجالسَين على المقعدين الأماميين.

في العام 1995، ترك داغان – الذي أصبح برتبة لواء – الجيش، وانضمّ إلى صديقه يوسي بن حنان في رحلة على الدرّاجة النارية لمدّة 18 شهراً عبر السهول الآسيوية. غير أنّهما اضطرّا إلى قطع رحلتهما عندما وصلهما خبر اغتيال إسحاق رابين. فعاد داغان إلى إسرائيل، وأمضى بعض الوقت على رأس سلطة مكافحة الإرهاب، كما قام بمحاولة للانضمام إلى عالم الأعمال، وساعد شارون في حملة الليكود الانتخابية. وفي العام 2002، تقاعد في منزله الريفي في الجليل، وتفرّغ لكتبه وأسطواناته ولوحاته وإزميل النحت الخاص به.

بعد مضيّ ثلاثين عاماً على بداية مسيرته في غزّة، بدأ الآن يتعرّف على أسرته بعد أن أصبح لواء متقاعداً؛ «استيقظت فجأة لأجد أطفالي قد كبروا». إلاّ أنّه تلقّى اتّصالاً هاتفياً من صديقه القديم، شارون، الذي أصبح رئيساً للوزراء. قال شارون لصديقه البالغ من العمر سبعة وخمسين عاماً: «أريدك على رأس الموساد. أحتاج

إلى رئيس للموساد يملك خنجراً بين أسنانه».

كان ذلك عام 2002، وكان الموساد حينها يفقد زخمه. فبعد عدّة إخفاقات في السنوات الأخيرة، تلقّت هيبة هذا الجهاز ضربات قاسية. ففشله ذائع الصيت في اغتيال أحد أهمّ قادة حماس في عمّان، والقبض على عملاء إسرائيليين في سويسرا وقبرص ونيوزيلندا نال إلى حدّ كبير من سمعة الموساد. وذلك لأنّ رئيس الموساد الأخير، إفراييم هاليفي، لم يرقَ إلى مستوى التوقّعات. فقد كان سفيراً سابقاً لدى الاتّحاد الأوروبي في بروكسل، كما كان دبلوماسياً ومحلّلاً جيّداً، إلاّ أنّه ليس قائداً ولا محارباً. لقد أراد شارون على رأس الموساد قائداً جريئاً ومبدعاً، يشكّل سلاحاً قويًّا يواجه به الخطر النووي الإيراني ونمو قدرات جماعات المقاومة الإسلامية.

غير أن داغان لم يكن مرحّباً به في الموساد. فقد اعتُبر دخيلاً، يصبّ تركيزه على العمليّات، ولا يأبه كثيراً بتحليلات المخابرات المكتسبة بالتعلّم أو بالتبادلات الدبلوماسية السرّية. لذا، استقال عدد من كبار ضبّاط الموساد احتجاجاً على ذلك، لكنّ داغان لم يأبه كثيراً؛ فقد أعاد بناء الوحدات التنفيذية، وأنشأ علاقات عمل وثيقة مع أجهزة مخابرات أجنبية، كما شغل نفسه بالتهديد الإيراني. وعندما اندلعت حرب لبنان الثانية الكارثية عام 2006، كان المسؤول الإسرائيلي الوحيد الذي اعترض على استراتيجية القصف الجوي الشامل. فقد فضّل الهجوم البرّي، وشكّك في قدرة سلاح الجوّ على كسب المعركة، وخرج من الحرب من دون أن تشوبه شائبة.

مع ذلك، وُجّهت إليه انتقادات كثيرة من قبل الصحافة بسبب موقفه الصارم تجاه مرؤوسيه. وذلك لأنّ ضبّاط الموساد المحبَطين والمتقاعدين راحوا يبكون على كتف وسائل الإعلام؛ ممّا جعل داغان هدفاً لانتقادات مستمرّة. فكتب أحد الصحفيين الذين يتمتّعون بشعبية واسعة: «من هو داغان؟».

وفي أحد الأيّام، تغيّرت عناوين الصحف فجأة. فقد ملأت مقالات المديح المحمّلة بصيغ التفضيل الصحفَ اليومية؛ مشيدة بالرجل الذي أعاد شرف الموساد إليه.

فقد حقّق الموساد - تحت إشراف داغان - ما لم يكن بالإمكان تصوّره

حتّى ذلك الوقت؛ إذ تمّ اغتيال القائد العسكري لحزب الله عماد مغنية في دمشق، وتدمير المفاعل النووي السـوري، وتصفية عدد من كبار القادة في لبنان وسـوريا، والأهمّ من ذلك كلّه، الحملة الناجحة التي شُنّت بلا هوادة على البرنامج الإيراني السرّي للأسلحة النووية.

الفصل الثاني

جنازات في طهران

في 23 يوليو 2011، عند الساعة الرابعة والنصف عصراً، ظهر مسلّحان على درّاجتين ناريتين في شارع بني هاشم في جنوب طهران، وسحبا سلاحَين أوتوماتيكيّين من سترتيهما الجلديتين، وأطلقا النار على رجل كان على وشك دخول منزله، ثم اختفيا على الفور؛ قبل وقت طويل من وصول الشرطة. كان الضحية هو داريوش رضائي نجاد؛ أستاذ فيزياء في الخامسة والثلاثين من عمره، وشخصيّة رئيسة في البرنامج الإيراني السرّي للأسلحة النووية. كان مكلّفاً بتطوير المفاتيح الإلكترونية اللازمة لتفعيل رأس حربي نووي.

لم يكن داريوش رضائي نجاد العالِم الإيراني الأوّل الذي لقي حتفه مؤخّراً. رسميًّا، كانت إيران تطوّر تكنولوجيا نووية لأغراض سلمية، وزعم قادتها أنّ مفاعل بوشهر - وهو مصدر هامّ للطاقة تمّ بناؤه بمساعدة روسيا - دليل على حسن نواياهم. لكن، بالإضافة إلى مفاعل بوشهر، تمّ اكتشاف منشآت نووية سرّية أخرى، تخضع كلّها لحراسة مشدّدة، ويتعذّر الوصول إليها تقريباً. ومع مرور الوقت، اضطرّت إيران إلى الاعتراف بوجود بعض هذه المراكز، على الرغم من نفيها مزاعم تطوير الأسلحة.

لكن، بحلول ذلك الوقت،كانت أجهزة المخابرات الغربية والمنظّمات السرّية المحلّية قد كشفت عدّة علماء كبار في الجامعات الإيرانية تمّ استخدامهم لبناء أوّل قنبلة نووية في إيران. وفي إيران، شنّت جهات لا يمكن تسميتها سوى بأطراف غير معروفة حرباً شرسة لوقف البرنامج الإيراني السرّي للأسلحة النووية.

في 29 نوفمبر 2010، عند الساعة السابعة وخمس وأربعين دقيقة صباحاً، في

شمال طهران، ظهرت درّاجة نارية من خلف سيّارة الدكتور مجيد شهرياري؛ وهو الرئيس العلمي للمشروع النووي الإيراني. وفي أثناء مرور الدرّاجة بجانب السيّارة، قام راكبها الذي كان يعتمر خوذة بلصق جهاز على زجاج السيّارة الخلفي. وبعد ثوان، انفجر الجهاز؛ مودياً بحياة الفيزيائي البالغ من العمر خمسة وأربعين عاماً، ومتسبّباً بجروح لزوجته. في الوقت نفسه، في شارع أتاشي في جنوب طهران، نفّذ راكب درّاجة نارية أخرى عملية مشابهة؛ إذ وضع جهاز مُعدّ للتفجير على سيارة بيجو 206 كان الدكتور فريدون عباسي دواني يستقلّها، وهو من كبار العلماء النوويين. أدّى الانفجار إلى إصابة عبّاس دواني وزوجته.

وجّهت الحكومة الإيرانية أصابع الاتّهام إلى الموساد فوراً. كان دور هذين العالمين في البرنامج الإيراني للأسلحة النووية محاطاً بسرّية تامّة، لكنّ علي أكبر صالحي – رئيس المشروع – أعلن أنّ الهجوم جعل من شهرياري شهيداً، وحرم فريقه من خبراته.

عبّر الرئيس أحمدي نجاد أيضاً عن تقديره للضحيتين بطريقة بارعة. فما إن تعافى عباسي دواني من إصابته حتّى عيّنه أحمدي نجاد نائباً للرئيس الإيراني.

لم يتمّ العثور على الرجال الذين هاجموا العلماء.

في 12 يناير 2010، عند الساعة السابعة والنصف صباحاً، خرج البروفيسور مسعود علي محمّدي من منزله في شارع شريعتي، الواقع في حيّ قيطريه في شمال طهران. كان في طريقه إلى مختبره في جامعة شريف للتكنولوجيا.

وعندما حاول فتح باب سيّارته، هزّ انفجار هائل الحيّ الهادئ. هُرعت قوّات الأمن إلى مسرح الانفجار فوراً لتجد سيّارة محمّدي محطّمة تماماً، وجثّته قد تناثرت أشلاء. قُتل محمّدي بعبوة ناسفة زُرعت في درّاجة نارية كانت متوقّفة بجانب سيّارته. زعمت وسائل الإعلام الإيرانية أنّ عمليّة الاغتيال كانت من تنفيذ عملاء الموساد. وأعلن الرئيس أحمدي نجاد أنّ «الاغتيال يذكّرنا بالطرائق الصهيونية».

كان البروفيسور محمّدي البالغ من العمر خمسين عاماً، خبيراً في فيزياء الكمّ، ومستشاراً للبرنامج النووي الإيراني. وذكرت وسائل الإعلام الأوروبية أنّه

كان عضواً في الحرس الثوري؛ وهو جيش موازٍ للجيش النظامي وموالٍ للحكومة. إلاّ أنّ حياة محمّدي كان يكتنفها الغموض؛ شأنها شأن مقتله. أكّد عدد من أصدقائه أنّه كان يشارك في بحوث نظرية وحسب، وأنّه لم يعمل قطّ في مشاريع عسكرية. وادّعى بعضهم أيضاً أنّه كان يؤيّد الحركات المنشقّة، وأنّه شارك في احتجاجات مناهضة للحكومة.

تبيّن لاحقاً أنّ حوالى نصف من مشوا في جنازته كانوا من الحرس الثوري. وكان ضبّاط الحرس الثوري هم الذين حملوا نعشه. وأكّدت التحقيقات التي جرت لاحقاً أنّ محمّدي كان بالفعل منخرطاً بعمق في تنفيذ الطموحات النووية الإيرانية.

في يناير 2007، زُعم أنّ الدكتور أردشير حسين بور قُتل على يد عملاء الموساد بالسمّ المشعّ. وظهر خبر الاغتيال في صحيفة صنداي تايمز في لندن؛ نقلاً عن معلومات من مؤسّسة ستراتفور للأبحاث الاستراتيجية والاستخبارية، ومقرّها تكساس. سخر المسؤولون الإيرانيون من التقرير، وادّعوا أنّ الموساد لا يمكن أن ينفّذ أبداً عمليّة كهذه داخل إيران. كما أكّدوا أنّ «الأستاذ حسين بور تعرّض للاختناق بسبب تنشّقه الدخان في أثناء نشوب حريق في منزله». وشدّدوا أيضاً على أنّ الأستاذ البالغ من العمر أربعة وأربعين عاماً لم يكن سوى خبير كهرومغناطيسي، ولم يشارك في المساعي النووية الإيرانية بأيّ شكل من الأشكال.

لكن، اتّضح أنّ الدكتور حسين بور كان يعمل في منشأة سرّية في أصفهان؛ يتمّ فيها تحويل اليورانيوم الخام إلى غاز، ثمّ يُستخدم هذا الغاز لتخصيب اليورانيوم من خلال سلسلة («شلاّلات») من أجهزة الطرد المركزي في ناتانز؛ وهي منشأة محصّنة تحت الأرض تقع على مسافة بعيدة. في عام 2006، مُنح حسين بور أعلى جائزة إيرانية للعلوم والتكنولوجيا، كما قُلّد قبل عامين أعلى وسام في بلاده للبحوث العسكرية.

لم تكن الاغتيالات التي طالت العلماء النوويين الإيرانيين سوى جبهة واحدة في حرب أكبر من ذلك بكثير. فاستناداً إلى صحيفة دايلي تلغراف في لندن، شكّل الموساد تحت قيادة داغان قوّة هجومية اعتمدت على العملاء المزدوجين وفرق الاغتيالات والتخريب والشركات الوهمية، وعزّزت قوّتها عبر سنوات وسنوات من

العمليات السرّية ضدّ البرنامج النووي الإيراني.

ونُقل عن مديرة قسم التحليلات في مؤسّسة ستراتفور، ريفا بهالا، قولها: «بالتعاون مع الولايات المتّحدة، ركّزت العمليّات السرّية الإسرائيلية على القضاء على الأصول البشرية الأساسيّة المشارِكة في البرنامج النووي، وعلى تخريب سلسلة التوريد الإيرانية». وزعمت أنّ إسرائيل استخدمت تكتيكات مشابهة في العراق في أوائل الثمانينيات؛ عندما قتل الموساد ثلاثة علماء نوويين عراقيين، ممّا أعاق إنهاء مفاعل أوزيراك الذرّي بالقرب من بغداد.

في الحرب التي شُنّت على البرنامج النووي الإيراني، كان موساد داغان يعمل جاهداً على تأخير تطوير القنبلة النووية الإيرانية لأطول فترة ممكنة، وبالتالي على إحباط أكبر خطر يُهدّد وجود إسرائيل منذ إنشائها؛ ألا وهو تهديدات أحمدي نجاد بضرورة إبادة إسرائيل.

غير أنّ هذه الانتصارات الصغيرة لا يمكن أن تكفّر عن أسوأ خطأ في تاريخ الموساد؛ وهو فشله في كشف المشروع النووي الإيراني السرّي في بدايته. إذ تعمل إيران منذ عدّة سنوات على بناء قوّتها النووية، من دون أن يكون لإسرائيل أيّ علم بذلك. استثمرت إيران مبالغ طائلة من المال لتحقيق هذا الهدف، وجنّدت العلماء، وبنت قواعد سرّية، وأجرت اختبارات متطوّرة، ولم يكن لدى إسرائيل أيّ فكرة عن ذلك. فمنذ اللحظة التي قرّرت فيها إيران تحت قيادة الإمام الخميني أن تصبح قوّة نووية، استخدمت الخداع والحيل والمخطّطات التي خدعت أجهزة المخابرات الغربية؛ بما فيها الموساد.

بدأ شاه إيران، رضا بهلوي، ببناء مفاعلَين نوويَين، لأغراض سلمية وعسكرية على حدٍّ سواء. لم يسبّب مشروع الشاه، الذي بدأ في سبعينيات القرن العشرين، أيّ قلق في إسرائيل. ففي ذلك الوقت، كانت إسرائيل حليفة مقرّبة من إيران. وفي العام 1977، استضاف وزير الدفاع الإسرائيلي وايزمن، الجنرال حسن توفانيان الذي كان مسؤولاً عن تحديث الجيش الإيراني، في وزارة الدفاع في تل أبيب. وقامت إسرائيل بتزويد إيران – بصفتهما دولتين حليفتين – بمعدّات عسكرية حديثة. استناداً إلى محضر الاجتماع السرّي بين الاثنين، عرض وايزمن تزويد إيران بصواريخ

أرض أرض متطوّرة، في حين أنّ مدير الوزارة العام، د. بنخاس زوسمان، أثّر في توفانيان بقوله إنّه يمكن تعديل الصواريخ الإسرائيلية لحمل رؤوس حربية نووية. لكن، قبل أن ينفّذ المسؤولون خططهم، اندلعت الثورة الإيرانية، وغيّرت العلاقة بين الدولتين. إذ قامت الحكومة الإسلامية الثورية بقتل أنصار الشاه، وانقلبت ضدّ إسرائيل، فهرب الشاه المريض من بلاده التي سقطت تحت سلطة آية الله الخميني وبين أيدي الملالي الموالين له.

وضع الإمام الخميني على الفور حدًّا للمشروع النووي الذي اعتبره «منافياً للإسلام». فتمّ إيقاف بناء المفاعلات وتفكيك معدّاتها. لكن، في ثمانينيات القرن العشرين، نشبت حرب دموية بين العراق وإيران، واستخدم صدّام حسين الغاز السامّ ضدّ الإيرانيين، فاضطرّ آيات الله إلى إعادة النظر في سياستهم نتيجة استخدام الأسلحة غير التقليدية من قبل ألدّ أعدائهم. هكذا، قبل وفاة الإمام الخميني، أمر خليفته المرتقب، آية الله علي خامنئي، جيشه بتطوير أسلحة جديدة بيولوجية وكيميائية ونووية للتصدّي للأسلحة التي أطلقها العراق على إيران. بعد فترة وجيزة، دعا الزعماء الدينيون من منابرهم إلى رفع الحظر عن الأسلحة «المنافية للإسلام».

في أواسط الثمانينيات بدأت تنتشر أنباء مجزّأة عن جهود إيران. ومع انهيار الاتّحاد السوفياتي في العام 1989، غمرت أوروبا شائعات عن محاولات إيران شراء قنابل ورؤوس حربية نووية من ضبّاط عاطلين عن العمل وعلماء جائعين في المؤسّسة العسكرية السوفياتية السابقة. ووصفت الصحافة الغربية، بتفصيل مثير، اختفاء علماء وجنرالات روس من منازلهم، بعد أن تمّ تجنيدهم من قبل الإيرانيين على ما يبدو. كما كتب صحفيون ذوو خيال خصب عن شاحنات مغلقة تسرع من أوروبا باتّجاه الشرق، وتتجاوز حواجز الحدود لتصل إلى الشرق الأوسط. من جهة أخرى، كشفت مصادر في طهران وموسكو وبكين أنّ إيران وقّعت على اتّفاق مع روسيا لبناء مفاعل ذرّي في بوشهر الواقعة على ساحل الخليج، واتّفاق آخر مع الصين؛ لبناء مفاعلَين أصغر حجماً.

انتاب الذعر الولايات المتّحدة وإسرائيل اللتين عمدتا إلى نشر فرق عملاء خاصّين في أنحاء أوروبا كافة؛ بحثاً عن القنابل السوفياتية التي تمّ بيعها إلى إيران،

وعن العلماء المجنّدين؛ لكنّهم لم يجدوا شيئاً. عندها، مارست الولايات المتّحدة ضغوطاً كبيرة على روسيا والصين لإلغاء اتفاقيتيهما مع إيران. على أثر ذلك، تراجعت الصين، وألغت الصفقة الإيرانية. أمّا روسيا، فقرّرت المضيّ قُدماً، لكنّها ما فتئت تؤجّل التنفيذ. وهكذا، استغرق بناء المفاعل أكثر من عشرين عاماً، وكان استخدامه محدوداً بضوابط روسية ودولية صارمة.

إلاّ أنّه كان ينبغي لإسرائيل والولايات المتّحدة عدم الركون إلى المظاهر، وتوسيع أبحاثهما لاحقاً. فقد فشل كلّ من رئيسَي الموساد والسي آي إيه في اكتشاف أنّ المفاعلات الروسية والصينية لم تكن سوى تمويه لتضليل «أفضل أجهزة المخابرات في العالم». وذلك لأنّ إيران أطلقت خلسة مشروعاً ضخماً يهدف إلى تحويلها إلى قوّة نووية.

في خريف عام 1987، عُقد اجتماع سرّي في دبي. فقد التقى ثمانية رجال في مكتب صغير – ثلاثة إيرانيين، وباكستانيان، وثلاثة خبراء أوروبيين (اثنان منهما ألمانيان) – كانوا يعملون لحساب إيران.

وقّع ممثّلو إيران وباكستان اتّفاقية سرّية. وتمّ بموجبها تحويل مبلغ ضخم من المال للباكستانيّين، وتحديداً إلى عبد القدير خان، رئيس البرنامج الرسمي للأسلحة النووية في باكستان.

قبل بضع سنوات، كانت باكستان قد أطلقت مشروعها النووي الخاصّ، وذلك لتحقيق توازن عسكري مع عدوّتها التاريخية؛ الهند. كان د. خان بحاجة ماسّة إلى الموادّ الانشطارية اللازمة لتجميع قنبلة نووية، غير أنّه قرّر عدم استخدام البلوتونيوم الذي يتمّ حصاده في المفاعلات النووية التقليدية، والاستعاضة عنه باليورانيوم المخصّب. يحتوي اليورانيوم الخام المستخرج من المناجم على 1 بالمئة فقط من اليورانيوم – 235 الذي يُعتبر حيويًا لإنتاج الأسلحة النووية، وعلى 99 بالمئة من اليورانيوم – 238 الذي لا طائل منه. فقام د. خان بتطوير طريقة لتحويل اليورانيوم الطبيعي إلى غاز، وتلقيم هذا الغاز في خطّ من أجهزة الطرد المركزي المرتبطة في سلسلة تسمّى شلاّلاً. فمع قيام أجهزة الطرد المركزي بخضّ غاز اليورانيوم

بسرعة مذهلة تبلغ 100,000 دورة في الدقيقة، ينفصل اليورانيوم – 235 الأخفّ وزناً عن اليورانيوم – 238 الأكثر ثقلاً. وبتكرار هذه العمليّة آلاف المرّات، يتمّ إنتاج يورانيوم – 235 مخصّب بواسطة أجهزة الطرد المركزي. وعندما يحوَّل هذا الغاز إلى مادة صلبة، يصبح المادّة اللازمة لصنع قنبلة نووية.

كان خان قد سرق مخطّطات أجهزة الطرد المركزي من أورينكو – وهي شركة أوروبية عمل فيها في أوائل سبعينيات القرن المنصرم – عندما بدأ بتصنيع أجهزته الخاصّة في باكستان. وسرعان ما تحوّل خان إلى تاجر موت؛ يبيع أساليبه وصيغه فضلاً عن أجهزة الطرد المركزي. وأصبحت إيران من أهمّ زبائنه، كما كانت ليبيا وكوريا الشمالية من زبائنه أيضاً.

> قام الإيرانيون بشراء أجهزة طرد مركزي من مصادر أخرى أيضاً، ثمّ تعلّموا كيفيّة صنعها محلياً. فكانت تصل إلى إيران بين الحين والآخر شحنات ضخمة من اليورانيوم، وأجهزة الطرد المركزي، والمواد الإلكترونية، وقطع الغيار. وتمّ بناء منشآت كبيرة لمعالجة اليورانيوم الخام، وتخزين أجهزة الطرد، وتحويل الغاز إلى مادّة صلبة. كما سافر علماء إيرانيون إلى باكستان، وجاء خبراء باكستانيون إلى إيران، ولم يدرِ أحد بذلك.

حرص الإيرانيون على عدم وضع كلّ البيض في سلّة واحدة، فوزّعوا مشروعهم النووي على أماكن متفرّقة في أنحاء البلاد كافّة، وذلك في قواعد عسكرية، ومختبرات مموّهة، ومنشآت نائية؛ تمّ بناء بعضها عميقاً تحت الأرض، وأحيطت ببطّاريات صواريخ أرض جوّ. بنيت إحدى المحطّات في أصفهان، وأخرى في أراك. أمّا منشأة الطرد المركزي، وهي أهمّها، فأُسّست في ناتانز، وتمّ بناء المركز الرابع في مدينة قم. وعند ورود أقلّ إشارة إلى احتمال انكشاف أحد المواقع، كان الإيرانيون يعمدون إلى نقل المنشأة النووية إلى مكان آخر، حتّى إنّهم كانوا يزيلون طبقات التربة التي يمكن أن تكون قد تعرّضت للمواد المشعّة. بالإضافة إلى ذلك، ضلّلوا وخدعوا بمهارة مفتّشي الوكالة الدولية للطاقة الذرّية. فقد تصرّف رئيسها، الدكتور المصري محمّد البرادعي، وكأنّه صدّق كلّ بيانات الإيرانيين الكاذبة، ونشر تقارير مطمئنة مكّنت إيران من مواصلة مخطّطها الخطير.

في 1 يونيو 1998، رأت السلطات الأميركية للمرّة الأولى الحجم الحقيقي

للمساعي الإيرانية. فقد ظهر منشقّ باكستاني أمام محقّقي مكتب التحقيقات الفدرالي (الأف بي آي) في نيويورك طالباً اللجوء السياسي. وعرّف عن نفسه بأنه د. إفتخار خان شودري، كاشفاً عن الامتداد الفعلي للتعاون السرّي بين إيران وباكستان. فضح المنشقّ أيضاً د. خان، ووصف اجتماعات شارك فيها، كما سمّى خبراء باكستانيين شاركوا في المشروع الإيراني.

تمّ التحقّق من الوقائع والأرقام التي وردت في شهادة شودري من قبل الأف بي آي، وتبيّن أنّها دقيقة. عندها، أوصى المكتب بالسماح لشودري بالبقاء في الولايات المتّحدة كلاجئ سياسي؛ إلاّ أنّه لم تتمّ متابعة شهادته المذهلة. فقد تجاهل المسؤولون الأميركيون شهادة شودري - ربّما بسبب إهمال بحت - ولم يقوموا بأيّ إجراء، كما أنّهم لم يحذّروا إسرائيل. وهكذا، مرّت أربع سنوات أخرى قبل أن تظهر حقيقة إيران إلى العلن.

فجأة، في أغسطس 2002، كشفت حركة مجاهدو خلق، لوسائل الإعلام العالمية عن وجود منشأتين نوويتين في أراك وناتانز. وفي السنوات التالية، واصلت الحركة فضح المزيد من الحقائق حول البرنامج النووي الإيراني؛ ممّا أثار بعض الشكوك في أنّ معلوماتها أتت من مصادر خارجية. وظلّت الشكوك تساور السي آي إيه التي افترضت أنّ الإسرائيليين والبريطانيين يحاولون توريط الولايات المتّحدة في عمليّات خطرة. وبدا تحديداً أنّ السي آي إيه تصدّق أنّ جهازي الموساد والمخابرات البريطانية يزوّدان مجاهدي خلق بمعلومات حصلا عليها، ويستخدمان المعارضة الإيرانية كمصدر موثوق للمعلومات. استناداً إلى المصادر الإسرائيلية، إنّ ضابط موساد يقظاً هو في الواقع من اكتشف منشأة الطرد المركزي الضخمة في ناتانز، في عمق الصحراء. وفي العام 2002 نفسه، سلّمت المنظّمة الإيرانية السرّية للسي آي إيه جهاز كمبيوتر محمولاً مليئاً بالوثائق. لم يكشف المنشقّون عن كيفيّة وضعهم أيديهم على الكمبيوتر، فاشتبه الأميركيون المتشكّكون في أن تكون الوثائق قد أُدخلت مؤخّراً إلى الكمبيوتر، واتّهموا الموساد بدسّ بعض المعلومات التي حصل عليها من مصادره الخاصّة، ثمّ مرّرها إلى زعماء الحركة لتسليمها إلى الغرب.

إلاّ أنّ أدلّة أخرى بدأت تتراكم على المكاتب الأميركية والأوروبية؛ ممّا دفع أصحابها أخيراً إلى فتح أعينهم. فقد انتشرت شائعات حول تجارة د. خان المربحة والقاتلة في جميع أنحاء العالم. أخيراً، وفي 4 فبراير 2004، ظهر د. خان بعينين دامعتين على شاشة التلفزيون الباكستاني، واعترف أنّه قام فعلاً ببيع المعرفة والخبرة وأجهزة الطرد المركزي إلى ليبيا وكوريا الشمالية وإيران، وجنى من جرّاء ذلك الملايين. غير أنّ الحكومة الباكستانية سارعت إلى منح دكتور الموت العفو التامّ لأنه أبو قنبلتهم النووية.

أصبحت إسرائيل الآن مصدراً رئيساً للمعلومات عن إيران. فقام مئير داغان وجهاز الموساد الذي يرأسه بتزويد المخابرات الأميركية ببيانات حديثة عن المنشأة السرّية التي بناها الإيرانيون في قم. وزُعم أنّ إسرائيل كانت متورّطة أيضاً في انشقاق العديد من كبار الضبّاط من الحرس الثوري والمشروع الذرّي. وزوّد الموساد عدّة دول بوقائع حديثة؛ ممّا دفعها إلى حجز سفن كانت تحمل معدّات نووية إلى إيران من موانئها.

لكنّ مجرّد الحصول على تلك المعلومات لم يكن كافياً لإسرائيل. ففي حين أنّ إيران تهدّدها علناً بالإبادة، يمتنع بقيّة العالم عن اتّخاذ أيّ إجراء حاسم. لهذا، لم يبقَ لدى إسرائيل أيّ خيار سوى شنّ حرب شاملة وسرّية ضدّ البرنامج النووي الإيراني.

بعد ستّة عشر عاماً من الجهل الذي سيطر على الرؤساء السابقين للموساد، قرّر داغان التحرّك.

في يناير 2006، تحطّمت طائرة وسط إيران، وهلك جميع ركابها. كان من بينهم ضبّاط كبار في الحرس الثوري، بمن فيهم أحمد كاظمي، أحد قادته. أكّد الإيرانيون أنّ تحطّم الطائرة نتج عن سوء الأحوال الجوّية، لكنّ مجموعة ستراتفور ألمحت إلى أنّ الطائرة تعرّضت للتخريب على يد عملاء غربيين.

وقبل شهر واحد، اصطدمت طائرة شحن عسكرية بمبنى سكني في طهران، ومات جميع ركابها البالغ عددهم 94 راكباً. كان عدد كبير منهم أيضاً ضبّاطاً في

الحرس الثوري، وصحفيين نافذين مؤيّدين للنظام. في نوفمبر 2006، تحطّمت طائرة عسكرية أخرى في أثناء إقلاعها من طهران، وأدّى الحادث إلى مصرع 36 عنصراً من الحرس الثوري. أعلن وزير الدفاع الإيراني على الإذاعة الوطنية: «استناداً إلى مصادر استخبارية، يمكننا القول إنّ عملاء أميركيين، وبريطانيين، وإسرائيليين كانوا مسؤولين عن تحطّم تلك الطائرات».

في تلك الأثناء، ومن دون إعلان صريح، تحوّل داغان بهدوء إلى المخطّط الرئيس للسياسة الإسرائيلية تجاه إيران. فقد كان يعتقد أنّ إسرائيل لا تملك أيّ خيار سوى شنّ هجوم شامل وواسع النطاق على إيران. لكن - برأي داغان - لا يمكن اتّخاذ هذا القرار سوى كملاذ أخير.

بدأ التخريب في فبراير 2005. فقد أوردت الصحافة الدولية وقوع انفجار في منشأة نووية في ديلم بعد أن ضربها صاروخ أُطلق من طائرة مجهولة. وفي الشهر نفسه، وقع انفجار بالقرب من بوشهر؛ في خطّ أنابيب ينقل الغاز إلى المفاعل النووي روسي الصنع.

المنشأة الأخرى التي تمّ استهدافها هي موقع الاختبار في بارشين، على مقربة من طهران. هناك، كان الخبراء الإيرانيون يطوّرون العدسة المتفجّرة؛ وهي الآليّة التي تحوّل قلب القنبلة إلى كتلة حرجة، وتحفز سلسلة التفاعل لانفجار ذرّي. ادّعت المنشأة الإيرانية السرّية أنّ انفجار بارشين تسبّب بأضرار كبيرة في المختبرات السرّية.

في أبريل 2006، كانت منشأة ناتانز المركزية - وهي أهمّ المنشآت النووية الإيرانية - مسرحاً لتجمّع احتفالي. فقد اجتمع حشد كبير من العلماء والفنّيين ورؤساء المشروع النووي تحت الأرض، وكانت آلاف أجهزة الطرد المركزي تعمل على مدار الساعة. فقد اجتمعوا في جو احتفالي لمشاهدة أوّل اختبار لتشغيل سلسلة جديدة من أجهزة الطرد المركزي. انتظر الجميع اللحظة المرتقبة التي ستبدأ فيها تشغيل أجهزة الطرد. وعندما ضغط كبير المهندسين على زرّ التشغيل، هزّ انفجار قويّ القاعة الضخمة؛ فقد انفجرت الأنابيب محدثة صوتاً يصمّ الآذان، وتحطّمت السلسلة بأكملها.

أمر رؤساء المشروع النووي الغاضبون بإجراء تحقيق شامل. وعلى ما يبدو، قام مجهولون بزرع أجزاء مَعيبة في المعدّات. وذكرت شبكة سي بي أس أنّ أجهزة الطرد المركزي دُمرّت بعبوات ناسفة ثُبّتت عليها قبل وقت قصير من الاختبار. كما زعمت أنّ الاستخبارات الإسرائيلية ساعدت عملاء أميركيين على التسبّب بانفجار ناتانز.

في يناير 2007، شكّلت أجهزة الطرد المركزي مجدّداً هدفاً لعمليّة تخريب متطوّرة. فقد أسّست أجهزة المخابرات الغربية شركات تمويه أوروبية شرقية تصنّع موادّ عازلة تُستخدم في الأنابيب بين أجهزة الطرد المركزي. لم يستطع الإيرانيون شراء تلك الموادّ في السوق المفتوحة؛ وذلك بسبب القيود المفروضة عليهم من قبل الأمم المتحدة. لذلك، تحوّلوا إلى شركات وهمية في أوروبا الشرقية، يديرها منفيون روس وإيرانيون يعملون سرًّا لصالح وكالات المخابرات الغربية. ولم يكتشف الإيرانيون أنّ المواد العازلة كانت مَعيبة وغير صالحة للاستخدام إلاّ بعد تثبيتها.

في مايو 2007، وقّع الرئيس الأميركي جورج بوش أمراً جمهورياً سرّياً يسمح للسي آي إيه بالقيام بعمليّات سرّية لتأخير المشروع النووي الإيراني. وبعد مدّة وجيزة، اتّخذت بعض أجهزة المخابرات الغربية قراراً بتخريب سلسلة التوريد المؤلّفة من القطع، والمعدّات، والمواد الخام اللازمة للمشروع. وفي أغسطس، اجتمع داغان بوكيل وزارة الخارجية نيكولاس بيرنز لمناقشة استراتيجيته تجاه إيران.

شهدت السنوات السبع الأخيرة حوادث، وأعمال تخريب، وانفجارات مستمرّة في منشآت في جميع أنحاء إيران. وتسبّبت إحدى الحوادث الغامضة بمشاكل في جهاز التبريد الخاصّ بمفاعل بوشهر؛ ممّا أخّر إنجازه لمدّة عامين. وفي مايو 2008، أدّى انفجار في مصنع لمستحضرات التجميل في أراك إلى إحداث أضرار كبيرة في المنشأة النووية المجاورة. فيما تسبّب انفجار آخر بتدمير مجمّع محاط بدرجة عالية من الأمان، كان يتمّ فيه تحويل اليورانيوم إلى غاز.

في عامَي 2008 و2010، كشفت صحيفة نيويورك تايمز أنّ آل تينر، وهم أسرة سويسرية من المهندسين، ساعدوا السي آي إيه على كشف البرامج النووية في ليبيا

وإيران، وتقاضوا من الوكالة 10 ملايين دولار. ساعدت السي آي إيه أيضاً على حمايتهم من الملاحقة القضائية من قبل السلطات السويسرية بتهمة الاتّجار غير المشروع بالمكوّنات النووية. وكان الأب - فريدريك تينر - وولداه - أورس وماركو - قد قاموا ببيع الإيرانيين موادّ مَعيبة للإمدادات الكهربائية لمنشأة ناتانز؛ ممّا تسبّب بتدمير 50 جهاز طرد مركزيًّا. وقام آل تينر بشراء مضخّات ضغط من شركة بفايفر فاكيوم في ألمانيا، ثمّ أُرسلت إلى نيو مكسيكو للتلاعب بها، قبل أن يتمّ بيعها للإيرانيين.

في سياق آخر، أكّدت مجلّة تايم تورّط الموساد في خطف سفينة آركتيك سي التي أبحرت من فنلندا إلى الجزائر بطاقم روسي وتحت علم مالطي، حاملة على متنها «شحنة من الخشب». في 24 يوليو 2009، أي بعد يومين من انطلاق السفينة، تمّ الاستيلاء عليها من قبل ثمانية خاطفين. ولم تعلن السلطات الروسية، سوى بعد مرور شهر، أنّ وحدة كوماندوس روسية استولت على السفينة. أكّدت صحيفتا لندن تايمز ودايلي تلغراف أنّ جهاز الموساد دقّ ناقوس الخطر، وأفادتا أنّ رجال داغان أبلغوا الروس أنّ السفينة كانت تقلّ حمولة من اليورانيوم، وأنّ الحمولة بيعت إلى الإيرانيين من قبل ضابط روسي سابق. لكنّ الأميرال كوتس - مسؤول مكافحة القرصنة البحرية في الاتّحاد الأوروبي - قدّم لمجلّة تايم روايته الخاصّة. فقال إنّ التفسير المعقول الوحيد هو أنّ السفينة قد خُطفت على يد عناصر في الموساد لاعتراض اليورانيوم.

على الرغم من هذه الهجمات المتواصلة، لم يوقف الإيرانيون محاولاتهم. فبين عامي 2005 و2008، قاموا بسرّية تامّة ببناء منشأة جديدة بالقرب من مدينة قم، وخطّطوا لتركيب ثلاثة آلاف جهاز طرد مركزي في القاعات الجديدة تحت الأرض. لكن، في أواسط عام 2009، أدرك الإيرانيون أنّ المنظّمات الاستخبارية الأميركية والبريطانية والإسرائيلية على علم كامل بأمر منشأة قُم، فتحرّكت إيران على الفور. في سبتمبر 2009، فاجأت طهران العالم بإبلاغها الوكالة الدولية للطاقة الذرّية على نحو عاجل بوجود منشأة قم. وادّعت بعض المصادر أنّ الإيرانيين قبضوا على جاسوس غربي (قد يكون عميلاً للمخابرات العسكرية البريطانية)، قام

بجمع معلومات موثوقة عن قم، فعمدوا إلى كشف وجودها للتقليل من الأضرار.

بعد شهر من ذلك، قال مدير السي آي إيه، ليون بانيتا، لمجلّة تايم إنّ منظّمته كانت على علم بأمر منشأة قم منذ ثلاث سنوات، وإنّ إسرائيل شاركت في الكشف عنها.

أعطى اكتشاف قم لمحة عن التحالف السرّي الذي جرى بين ثلاث مجموعات مشاركة في المعركة ضدّ إيران: السي آي إيه، والمخابرات العسكرية البريطانية، والموساد. واستناداً إلى المصادر الفرنسية، كانت الأجهزة الثلاثة تتعاون معاً؛ حيث يقوم الموساد بتنفيذ العمليّات داخل إيران، فيما تقدّم السي آي إيه والمخابرات البريطانية المساعدة إلى الإسرائيليين. كان الموساد مسؤولاً عن عدّة انفجارات في أكتوبر 2010، قُتل فيها 18 فنّياً إيرانياً في مصنع في جبال زاغروس، يتمّ فيه تجميع صواريخ شهاب. وبمساعدة من البريطانيين والأميركيين، قام جهاز الموساد أيضاً باغتيال خمسة علماء نوويين.

تمّ هذا التحالف الثلاثي بفضل جهود مئير داغان إلى حدّ كبير. فمنذ اللحظة التي أصبح فيها مديراً للموساد، راح يضغط على رجاله لإقامة تعاون وثيق مع أجهزة مخابرات أجنبية. ومع أنّ مساعديه نصحوه بعدم كشف أسرار الموساد لجهات أجنبية، إلاّ أنّه تجاهل اعتراضاتهم. فكان يقول متذمّراً: «كفّوا عن هذا الهراء، واذهبوا للعمل معهم!».

بالإضافة إلى البريطانيين والأميركيين، كان لدى داغان حليف مهمّ آخر يزوّده بمعلومات ثمينة من داخل إيران، ويتمثّل في قادة المقاومة الإيرانية. ففي مؤتمرات صحفية غير مألوفة عُقدت خارج إيران، كشف قادة المجلس الوطني للمقاومة الإيرانية اسم عالِم رائد في المشروع الإيراني، كانت هوّيته قد بقيت طيّ الكتمان حتّى ذلك الوقت. كان ذلك العالم هو محسن فخري زاده، البالغ من العمر 49 سنة، وأستاذ الفيزياء في جامعة طهران. قيل عنه إنّه رجل غامض ومحيّر. غير أنّ المقاومة الإيرانية كشفت تفاصيل كثيرة عنه، بما في ذلك انتماؤه إلى الحرس الثوري منذ سنّ الثامنة عشرة، فضلاً عن عنوانه – شارع الشهيد محلاتي، طهران – وأرقام جوازي سفره – 0009228 و4229533 – ورقم هاتف منزله أيضاً: 021-2448413.

كان فخري زاده متخصّصاً في العمليّة المعقّدة لتشكيل كتلة حرجة داخل الجهاز الذرّي من أجل تحفيز سلسلة التفاعل والانفجار النووي. وكان فريقه يعمل أيضاً على تصغير القنبلة، لكي تناسب حجم الرأس الحربي لصاروخ شهاب.

بعد افتضاح هذه المعلومات، مُنع زاده من دخول الولايات المتّحدة والاتّحاد الأوروبي، وتمّ تجميد حساباته المصرفية في الغرب. فقد وصفت المقاومة بالتفصيل جميع وظائفه، كما كشفت عن أسماء العملاء الذين يعملون معه، وعن مواقع مختبراته السرّية أيضاً. هذه الوفرة من التفاصيل تدفع إلى الاعتقاد مجدّداً أنّ جهاز مخابرات معيّناً لطالما اشتبه الغرب أنّه يسعى إلى تنفيذ أجندته الخاصّة، قد تكبّد عناء جمع هذه الحقائق والأرقام عن العالِم الإيراني، ثمّ مرّرها للمقاومة الإيرانية التي نقلتها إلى الغرب. وكان الهدف من كشف أمره هو تحذيره من أن يصبح التالي على لائحة الاغتيالات، والإيعاز إليه إمّا بالفرار بحثاً عن ملجأ، أو اختيار الحلّ الأفضل؛ ألا وهو تحويل ولائه للغرب.

اختفى اللواء علي رضا أصغري، نائب وزير الدفاع الإيراني السابق، في فبراير 2007 أثناء سفره إلى إسطنبول. كان اللواء مشاركاً إلى حدٍّ كبير في المشروع النووي. بحثت عنه الأجهزة الإيرانية في جميع أنحاء العالم، لكنّها لم تتمكّن من العثور عليه. بعد أربع سنوات تقريباً، في يناير 2011، توجّه وزير الخارجية الإيراني، علي أكبر صالحي، إلى أمين عام الأمم المتّحدة، واتّهم الموساد بخطفه وسجنه في إسرائيل.

لكن، استناداً إلى صحيفة صنداي تلغراف الصادرة في لندن، حوّل أصغري ولاءه إلى الغرب. فقد خطّط جهاز الموساد لانشقاقه، وتولّى حمايته في تركيا. وتؤكّد مصادر أخرى أنّه خضع للاستجواب لاحقاً من قبل السي آي إيه، وأمدّهم بمعلومات قيّمة عن البرنامج النووي الإيراني.

بعد شهر من اختفاء أصغري، أي في مارس 2007، اختفى أحد كبار الضبّاط الإيرانيين. خدم أمير الشيرازي في فيلق القدس - وهو قوّة النخبة في الحرس الثوري - المكلّف بتنفيذ عمليّات سرّية خارج الحدود الإيرانية. وكشف مصدر إيراني لصحيفة لندن تايمز أنّه بالإضافة إلى اختفاء أصغري والشيرازي، اختفى

ضابط آخر رفيع المستوى هو قائد الحرس الثوري في الخليج العربي، محمّد سلطاني.

في يوليو 2009، انضمّ العالِم النووي شهرام أميري إلى لائحة المنشقّين. كان أميري يعمل في قم، واختفى في المملكة العربية السعودية خلال أدائه مناسك الحج في مكّة المكرّمة. طلب الإيرانيون من المسؤولين السعوديين معرفة مصيره، غير أنّ أميري ظهر بعد بضعة أشهر في الولايات المتّحدة؛ فقد خضع لاستجواب دقيق، وتقاضى 5 ملايين دولار، كما حصل على جنسية جديدة، وعلى منزل في ولاية أريزونا. كشفت مصادر السي آي إيه أنّه كان مخبراً للمخابرات الغربية لسنوات، وأنّه أمدّها بمعلومات أصليّة وموضوعيّة. وكشف أميري أنّ جامعة مالك عشتار للتكنولوجيا، التي درس فيها، كانت تشكّل غطاء أكاديمياً لوحدة بحوث تعمل على تصميم رؤوس حربية للصواريخ الإيرانية بعيدة المدى. وكان فخري زاده رئيس تلك الجامعة.

بعد أن أمضى عاماً في أميركا، غيّر أميري رأيه وقرّر العودة إلى إيران؛ إذ لم يتمكّن على الأرجح من التعامل مع ضغوط حياته الجديدة. وفي شريط فيديو أُعدّ منزلياً، وعُرض على شبكة الإنترنت، ادّعى أنّه اختطف من قبل السي آي إيه. لكن، بعد بضع ساعات، عرض شريطاً آخر ينفي فيه الأوّل، ثمّ أنتج شريطاً ثالثاً ينفي الثاني. تواصل مع السفارة الباكستانية التي تمثّل المصالح الإيرانية في الولايات المتّحدة، وطلب إعادة إرساله إلى إيران. وبمساعدة الباكستانيين، هبط أميري في طهران في شهر يوليو 2010، ثمّ ظهر في مؤتمر صحفي اتّهم فيه السي آي إيه بخطفه وإساءة معاملته، ثمّ اختفى. اتّهم المراقبون السي آي إيه بالفشل، لكنّ متحدّثاً باسم الوكالة قال: «لقد حصلنا على معلومات هامّة، والإيرانيون حصلوا على أميري. إذاً، من الذي نال الصفقة الفضلى؟».

لكنّ الإيرانيين لم يقفوا مكتوفي الأيدي أمام الموساد. ففي ديسمبر 2004، اعتقلت إيران عشرة أشخاص مشتبه بهم بالتجسّس لصالح إسرائيل والولايات المتّحدة، وكان ثلاثة منهم يعملون داخل المنشآت النووية. في عام 2008، أعلن الإيرانيون تفكيك خلية أخرى للموساد مؤلّفة من ثلاثة مواطنين إيرانيين تمّ تدريبهم

على يد الموساد لاستخدام أجهزة اتّصالات متطوّرة، وأسلحة، ومتفجّرات. وفي نوفمبر 2008، قامت إيران بإعدام علي عشتاري البالغ من العمر 43 سنة، والذي أدين بتهمة التجسّس لصالح إسرائيل. في أثناء المحاكمة، أقرّ عشتاري أنّه اجتمع بثلاثة عملاء للموساد في أوروبا، وقال إنّهم قدّموا له المال والمعدّات الإلكترونية. قال عشتاري في شهادته: «أراد منّي الموساد بيع شحنات مَعيبة من أجهزة الكمبيوتر والمعدّات الإلكترونية لأجهزة المخابرات الإيرانية، وزرع أجهزة تنصّت في أدوات الاتّصال التي بعتها».

في 28 ديسمبر 2010، وفي باحة معتمة من سجن إيفين في طهران، قام ضبّاط إيرانيون بشنق جاسوس آخر، هو علي أكبر سيادت الذي أدين بالعمل لصالح الموساد وتزويده بمعلومات عن قدرات إيران العسكرية، وجهاز الصواريخ الذي يديره الحرس الثوري. خلال السنوات الستّ السابقة، كان سيادت يلتقي عملاء إسرائيليين في تركيا، وتايلاند، وهولندا، ويحصل على مبالغ تتراوح بين 3,000 و7,000 دولار عن كلّ اجتماع. ووعد المسؤولون الإيرانيون بأنّ مزيداً من الاعتقالات والإعدامات ستتبع ذلك.

لكنّ عام 2010 سجّل أعظم انتكاسة للمشروع النووي الإيراني. هل كان ذلك ناتجاً عن عدم توفّر قطع الغيار عالية الجودة للمعدّات الإيرانية؟ أم بسبب القطع والمعادن المعيبة التي باعتها الشركات الوهمية التابعة للموساد للإيرانيين؟ أم إنّ السبب يُعزى إلى حوادث تحطّم الطائرات، واحتراق المختبرات، والانفجارات في منشآت الصواريخ والأسلحة النووية، وانشقاق كبار المسؤولين، ومقتل كبار العلماء، والثورات والاضطرابات بين الأقلّيات؛ إلى كلّ تلك الأحداث والظواهر التي نسبتها إيران - عن حقّ أم عن غير حقّ - إلى رجال داغان؟

أم إنّ السبب يرجع إلى آخر ضربة كبيرة لداغان، استناداً إلى الصحافة الأوروبية؟ ففي صيف 2010، أصيبت آلاف أجهزة الكمبيوتر التي تتحكّم بالمشروع النووي الإيراني بفيروس ستاكسنت الغدّار. ضرب ذلك الفيروس الذي يُعتبر واحداً من الفيروسات الأكثر تطوّراً في العالم أجهزةَ الكمبيوتر التي تتحكّم بأجهزة الطرد المركزي في محطّة ناتانز، وعاث فيها فساداً. لم يترك تعقيد الفيروس أدنى شكّ

في أنّه ثمرة جهود فريق كبير من الخبراء، وأنّه كلّف مبالغ طائلة. فمن سماته المميّزة أنّه يستطيع استهداف نظام معيّن، من دون أن يسبّب أيّ ضرر للأنظمة الأخرى في طريقه. وكان من الصعب جدًّا كشف وجوده في جهاز الكمبيوتر. وما إن دخل نظام الكومبيوتر الإيراني، حتّى تمكّن من تعديل سرعة دوران جهاز الطرد المركزي – حيث إن إنتاجه أصبح بلا فائدة – من دون أن يدرك أحد ذلك. تحدّث المراقبون عن دولتين تملكان القدرة على تنفيذ هذا الاعتداء الإلكتروني، ألا وهما الولايات المتّحدة وإسرائيل.

حاول الرئيس أحمدي نجاد التقليل من أثر ستاكسنت، وأعلن أنّ إيران تسيطر جيّداً على الوضع. لكن في الواقع، في بداية عام 2011، توقّف حوالى نصف أجهزة الطرد المركزي الإيرانية عن الحركة.

زُعم أنّ رجال داغان أخّروا برنامج إيران للأسلحة النووية بهجماتهم المتواصلة على جبهات عديدة وعلى مدى سنوات: الضغط الدبلوماسي، والعقوبات التي فرضها مجلس الأمن الدولي لمكافحة انتشار الأسلحة النووية، والتي منعت الإيرانيين من الحصول على المواد اللازمة لإنتاج قنبلة، بالإضافة إلى الحرب الاقتصادية التي حالت دون تعامل مصارف العالم الحرّ مع إيران، فضلاً عن تغيير النظام؛ من خلال دعم الاضطرابات السياسية وإثارتها، وتأجيج الانقسامات العرقية داخل إيران التي يشكّل فيها الأكراد، والأذريون، والبلوش، والعرب، والتركمان 50 بالمئة من السكان؛ والهجمات الأكثر مباشرة هي التدابير والعمليّات الخاصّة والسرّية ضد المشروع الإيراني.

بيد أنّ رجال داغان لم يتمكّنوا من إيقاف البرنامج الإيراني نهائيًّا، مهما بذلوا من جهود، وأيًّا كانت الجهات التي تعاونوا معها. قال محلّل إسرائيلي رفيع المستوى عن داغان إنّه جايمس بوند إسرائيل، لكن جايمس بوند أيضاً ما كان ليتمكّن من إنقاذ العالم في هذه الحالة، وفي أحسن الأحوال، قد ينجح في إبطاء الإيرانيين فقط. وحده قرار الحكومة الإيرانية أو الهجوم الشامل من الخارج يمكنه وضع حدّ للحلم الإيراني بولادة عملاق نووي هائل في المكان الذي كانت فيه الإمبراطورية الفارسية في ما مضى.

مـع ذلـك، عندمـا تـمّ تعيين داغان في منصب رامسـاد (وهـو اختصار لعبارة روش هاموساد، أي رئيس الموساد) توقّع الخبراء أن تكتسب إيران القدرة النووية في عام 2005، ثمّ تأجّل هذا التاريخ إلى 2007، ثم 2009، ثم 2011. وعندما ترك داغان منصبه في 6 يناير 2011، كانت لديه رسالة لبلاده تفيد أنّ المشروع الإيراني قد تأجّل حتّى عام 2015 على الأقلّ. وبالتالي، أوصى بمواصلة الإجراءات نفسها التي كانت فعّالة جدًّا في السـنوات الثماني الماضية، وبتجميد أيّ هجوم عسـكري على إيران. وقال: «إنّنا لن نلجأ إلى الهجوم إلاّ عندما يصبح الخنجر على أعناقنا، وذلك الخنجر ما زال على بُعد أربع سنوات».

شـغل داغان منصب رامسـاد لمدّة ثماني سـنوات ونصف، متفوّقاً بذلك على معظم مديري الموسـاد. وحلّ مكانه تامر باردو، وهو ضابط موسـاد مخضرم، بدأ حياته العملية كمساعد مقرّب من يوني نتنياهو؛ بطل الغارة الإسرائيلية في عنتيبـي عـام 1976. وتميّـز لاحقـاً بكونه عميلاً جريئاً، وخبيـراً في التكنولوجيات الجديدة، ومخطّطاً مبدعاً لعمليّات غير مألوفة.

عندمـا سـلّم داغـان الشـعلة إلى باردو، تحدّث عن العزلـة الرهيبة التي يعيش فيها عملاء الموسـاد العاملون في بلاد العدوّ، لأنّهم لا يملكون من يلجأون إليه، ولا مـن ينقذهـم عنـد الحاجـة. كما اعترف أيضـاً ببعض إخفاقاتـه بصراحة، وكان أهمّها فشـله في إيجاد المكان الذي خبّأت فيه حماس الجندي الإسـرائيلي جلعاد شليط الذي خُطف قبل خمسة أعوام. لكن، على الرغم من تلك الإخفاقات، فإنّ إنجازاته جعلت منه أفضل رامسـاد حتّى الآن. شـكره رئيس الوزراء بنيامين نتنياهو باسم الشعب اليهودي، واحتضنه بحرارة. وفي ردّ فعل عفوي وغير مسبوق، وقف وزراء الحكومة الإسرائيلية وصفّقوا للرامساد البالغ من العمر 65 عاماً. أمّا جورج بوش فحيّاه في رسالة شخصيّة.

لكنّ أهمّ تكريم لداغان أتى قبل عام من مصدر أجنبي، وهو صحيفة الأهرام المصرية المعروفة بنقدها الضاري والعدواني لإسرائيل. ففي 16 يناير 2010، نشرت مقالاً للكاتب المعروف أشرف أبو الهول. كتب أبو الهول يقول: «من دون داغان، كان المشـروع النووي الإيراني سـيُنجز قبل سـنوات... يعرف الإيرانيون من يقف

خلف وفاة العالم النووي مسعود علي محمّدي. وكلّ زعيم إيراني بارز يعرف أنّ كلمة السرّ هي داغان. لكنّ قلّة من الناس يعرفون اسم مدير الموساد الإسرائيلي؛ فهو يعمل بهدوء، وبعيداً عن اهتمام وسائل الإعلام. إلاّ أنّه في السنوات السبع الماضية، وجّه ضربات موجعة للمشروع النووي الإيراني، وأعاق تقدّمه».

أضاف أبو الهول: «يُعتبر الموساد مسؤولاً عن عدّة عمليات جريئة نُفّذت في الشرق الأوسط». وذكر بعضاً من أعمال داغان ضدّ سوريا، وحزب الله، وحماس، وحركة الجهاد الإسلامي (انظر إلى الفصول 18-20).

ثمّ ختم قائلاً: «كلّ ذلك حوّل داغان إلى سوبرمان دولة إسرائيل».

لم يكن ثمّة سوبرمان حول مهد جهاز المخابرات الإسرائيلي عندما ولد في مايو 1948، بل مجرّد حفنة من قدامى المحاربين في «شاي»، الذين اكتسبوا خبرة كبيرة في التجسّس والعمليّات السرّية كأعضاء في جهاز المخابرات هاغاناه، وهو أهمّ منظّمة عسكرية سرّية لدى الجالية اليهودية في فلسطين. في العام الأوّل، عانى أولئك المحاربون السرّيون - الذين شكّلوا جهاز المخابرات العسكرية الوليد - من العنف، والصراع الداخلي، والقسوة، والقتل؛ في ما بات يعرف بقضيّة بثيري.

الفصل الثالث

إعدام في بغداد

كان إيسير بئيري، المعروف أيضاً باسم «إيسير الكبير»، رجلاً طويل القامة، ذا شعر خفيف غزاه الشيب. كان حاجباه الكثيفان يعلوان عينين غائرتين محاطتين بالسواد، وغالباً ما ارتسمت على شفتيه النحيفتين ابتسامة ساخرة. ولد في بولندا، وعُرف بكونه رجلاً متواضعاً وزاهداً، وتميّز بنزاهة مطلقة. إلاّ أنّ منافسيه ادّعوا أنّه رجل خطير وشرس، ويعاني من جنون العظمة. كان إيسير الكبير عضواً في الهاغاناه لمدّة طويلة، واحتلّ منصب مدير لشركة بناء خاصّة في حيفا. كان شخصاً وحيداً ومنطوياً على ذاته وكثير الصمت. عاش مع زوجته وابنه في منزل في قرية بات غاليم الساحلية.

قبل مدّة قصيرة من ولادة دولة إسرائيل، تمّ تعيين بئيري رئيساً لوحدة شاي من قبل قادة الهاغاناه. وعندما أعلن قيام دولة إسرائيل، في 14 مايو 1948، تعرّضت إسرائيل للهجوم من كلّ حدب وصوب من قبل جيرانها، وأصبح بئيري رئيساً لجهاز المخابرات العسكرية الوليد. كان بئيري ناشطاً في الجناح الأيسر للحركة العمّالية، ويتمتّع بعلاقات سياسية ممتازة. وقد أشاد أصدقاؤه وزملاؤه بتفانيه في الدفاع عن إسرائيل. ستستمرّ حرب الاستقلال/ نكبة 1948 حتّى أبريل 1949.

لكن، بعد مدّة قصيرة من استلام بئيري منصب رئيس المخابرات، بدأت تقع أحداث غريبة ومريعة وغير مترابطة في الظاهر.

فقد اكتشف اثنان من المتنزّهين في جبل الكرمل شيئاً مروّعاً؛ ففي أخدود عميق عند سفح الجبل، وجدا جثّة نصف محترقة تعرّضت لوابل من الرصاص. تمّ التعرّف على الجثّة على أنّها تعود للجاسوس العربي المعروف في الجهاز، علي

قاسم. فقد أقدم قاتلوه على إطلاق النار عليه، ثمّ حاولوا حرق جثّته.

وبعد بضعة أسابيع، وفي اجتماع سرّي مع رئيس الوزراء بن غوريون، وجّه إيسير الكبير اتّهاماً لأبا هوشي، القيادي البارز في حزب ماباي - حزب بن غوريون - بكونه خائناً وعميلاً بريطانياً، فذُهل بن غوريون. كانت بريطانيا العظمى هي السلطة الحاكمة في فلسطين قبل قيام دولة إسرائيل. وخاض الهاغاناه صراعاً سرّياً ضدّ القيود التي فرضتها على الجالية اليهودية. فقد حاولت المخابرات البريطانية في كثير من الأحيان زرع جواسيس لها داخل القيادة اليهودية. لكن القول إنّ أبا هوشي - أحد أعمدة المجتمع اليهودي، والقائد الكاريزماتي لعمّال حيفا - خائن بدا مستحيلاً. في البداية، رفض قادة إسرائيل بسخط الاتّهام الذي وجّهه بثيري. لكنّ بثيري كان قد عثر على برقيّتين سرّيتين أرسلتهما المخابرات البريطانية من مكتب بريد حيفا في مايو 1948 تثبتان صحة ادعائه، فوضعهما على مكتب بن غوريون، وشكّلتا دليلاً دامغاً على خيانة هوشي.

في الوقت نفسه، أمر بثيري باعتقال أحد أصدقاء هوشي، وهو جول أمستر. وطلب بثيري جلب أمستر إلى مستودع للملح في عتليت، خارج حيفا، حيث قام بضربه وتعذيبه لمدّة 76 يوماً، وضغط عليه للاعتراف أنّ هوشي خائن دنيء. لكنّ أمستر رفض الاستسلام، فأُفرج عنه أخيراً وهو بحالة يرثى لها. فقد قلعت أسنانه، واكتست ساقاه بالجروح والندوب، وعاش مسكوناً بالخوف لسنوات.

في 30 يونيو 1948، تمّ اعتقال نقيب في الجيش يدعى مئير توبيانسكي في أثناء خروجه للتسوّق في سوق تلّ أبيب، وأُحضر إلى بيت جيز؛ وهي قرية عربية تمّ احتلالها مؤخّراً. فقد اشتبهت المخابرات العسكرية في قيام توبيانسكي - في أثناء وجوده في القدس - بكشف معلومات بالغة السرّية إلى مواطن بريطاني قام بدوره بنقلها إلى الجيش العربي والجيش الأردني. وبناء على تلك المعلومات، قصفت المدفعية الأردنية بكثافة عدّة أهداف استراتيجية في أنحاء القدس. وفي محاكمة عسكرية مستعجلة استغرقت أقلّ من ساعة، تمّ اتّهام توبيانسكي بالتجسّس لصالح العرب، وإدانته، وحُكم عليه بالإعدام. وقامت فرقة تمّ جمعها على عجل بإعدامه رمياً بالرصاص أمام مجموعة من الجنود الإسرائيليين المذهولين. (توبيانسكي هو

الشخص الوحيد الذي أعدم في إسرائيل، بالإضافة إلى أدولف إيخمان).

قادت التحقيقات في حوادث الموت والتعذيب المحقّقين إلى الفاعل: إيسير الكبير.

فقد اشتبه في أنّ علي قاسم عميل مزدوج، وأمر باغتياله. وهو الذي لفّق التهمة لأبا هوشي. فاستناداً إلى عدّة محقّقين، كان لدى إيسير الكبير حساب شخصي مع هوشي أراد تسويته. وربّما كان سينجح في ذلك لو لم يعترف المزوّر الرئيس العامل في جهاز المخابرات لرؤسائه - بعدما أحسّ بالذنب - أنّه زوّر البرقيّتين اللتين ورطتا أبا هوشي، وذلك بأمر مباشر من بثيري.

كان بثيري أيضاً هو من أمر باعتقال النقيب توبيانسكي وبإعدامه بشكل عاجل.

تصرّف رئيس الوزراء بن غوريون على الفور. فتمّت محاكمة بثيري في محكمة عسكرية، ومن ثمّ في محكمة مدنية، وجُرّد من رتبته، كما سُرّح من الخدمة في الجيش الإسرائيلي على نحو مخزٍ، وأدين بجريمتَي قتل علي قاسم ومثير توبيانسكي.

دُهش قادة إسرائيل ممّا حصل، فقد بدت أساليب بثيري مطابقة لأساليب جهاز المخابرات السوفياتي (كي جي بي) سيّئ السمعة.

خلّفت قضيّة بثيري ندبة بشعة على جهاز المخابرات، وأثراً عميقاً في ما يتعلق بتطوّره. فلو أنّ قادة المجتمع المدني في زمن الحرب امتنعوا عن إدانة بثيري، لربّما اكتسب جهاز المخابرات الإسرائيلي طابعاً مختلفاً تماماً، ولربّما أصبح فعلاً منظّمة شبيهة بجهاز كي جي بي الذي يعتبر تلفيق التهم، والتزوير، والتعذيب، والقتل ممارسات روتينية. وعوضاً عن ذلك، تمّ حظر أساليب بثيري في المستقبل، وفرض جهاز المخابرات قيوداً على سلطته الخاصّة، واستند في عمليّاته المستقبلية على المبادئ القانونية التي تضمن حقوق الأفراد.

ومع عزل بثيري من منصبه، اعتلى رجل آخر مسرح عالم إسرائيل السرّي. إنّه نقيض بثيري؛ رؤوفين شيلواح (روفين شيلوا).

* * *

كان رؤوفين شيلواح البالغ من العمر أربعين عاماً رجلاً متحفّظاً، ودمث

الأخـلاق، وغامضـاً. أتـى مـن ثقافـة ثريـة، وتحلّى بعقـل تحليلي وحـادّ، وبمعرفة عميقة بالشـرق الأوسـط العربي وتقاليده القبلية وعشائره الحاكمة وتحالفاته العابرة ونزاعاتـه الثأريـة. وصفـه أحـد معجبيـه بأنه «الملكة في لعبة شـطرنج بن غوريون» وذلك عندما شـغل منصب مستشـاره السياسـي. وقارن البعض بينه وبين الكاردينال ريشليو الفرنسي الماكر. بينما وجده آخرون مناوراً ذكياً، وفنّاناً في التلاعب، ورجلاً يجيد شدّ الحبال من خلف الكواليس. كان شيلواح شخصاً ناشطاً طوال حياته في المهمّات السرّية والعمل في الخفاء.

ولـد شـيلواح فـي القـدس القديمـة، وكان ابـن حاخـام لطيفاً ومهذّبـاً. انطلق الشـابّ الأصلع والأنيق الذي يرتدي دائماً الملابس الرسـمية في مهمّة إلى بغداد قبل وقت طويل من قيام دولة إسرائيل. أمضى ثلاث سنوات في العراق، وهو يعمل كصحفـي ومدرّس، ويدرس سياسـة البلاد. خـلال الحرب العالمية الثانية، تفاوض مـع البريطانييـن على إنشـاء فرقة كوماندوس يهودية لإجهـاض عمليّات في أوروبا الواقعة تحت الاحتلال النازي، فسـاعد على تأسـيس وحدتَي كوماندوس يهوديتين خاصّتيـن. إحداهمـا كانـت كتيبة ألمانية مجهّزة بالأسـلحة والـزيّ الألماني؛ تولّت مهمّات جريئة خلف خطوط العدوّ في أوروبا. وكانت الأخرى كتيبة عربية، يتكلّم أعضاؤها اللغة العربية، ويلبسون مثل العرب، وتمّ تدريبهم لتنفيذ مهمّات في عمق الأراضـي العربيـة. قـام أيضاً بإقناع البريطانيين بإنزال مظلّيين من المتطوّعين اليهود مـن فلسـطين فـي أوروبـا المحتلّة؛ لتنظيم مقاومة يهوديـة محلّية ضدّ النازيين. كان شـيلواح أوّل من أقام علاقات مع مكتب الخدمات الاسـتراتيجية السـابق للسي آي إيه. وعشـية حرب الـ 48، سـافر إلى العواصم العربية المجاورة سـرًّا، وعاد بغنيمة لا تقدّر بثمن: خطط غزو الجيوش العربية.

أصبحت حاجة شيلواح الإلزامية إلى العمل تحت غطاء من السرّية المحكمة مصدر إلهام للعديد من الأساطير. فكان أصدقاؤه يمزحون قائلين إنّه عندما يوقف سـيّارة أجرة، ويسـأله السـائق: «إلى أين؟» يجيب شـيلواح: «هذا سـرّ من أسـرار الدولة».

خلال حرب 48، ترأس شـيلواح جهاز المعلومات السياسـية الخارجي. كان

جهاز المعلومات الذي ترأسه واحداً من عدد من المجموعات الاستخبارية شبه المستقلّة التي تأسّست قبل إعلان قيام دولة إسرائيل. لكن، في 13 ديسمبر 1949، أصدر بن غوريون أمراً بإنشاء «معهد (بالعبرية، موساد) لتنسيق عمل وكالات مخابرات الدولة»، على أن يرأسه رؤوفين شيلواح.

مرّ عامان من التأجيل والخلافات قبل أن يتمّ إنشاء الموساد. فقد ثارت إحدى الوحدات الاستخبارية - وتسمّى الدائرة السياسية - التي كان أعضاؤها يجمعون معلومات من الخارج، ويستمتعون بمصروف سخيّ وبنمط حياة مترف، ورفضت مواصلة التجسّس لصالح إسرائيل عندما سمعت بخطّة تفكيك وحدتها ودمجها في الموساد. ولم يتمكّن شيلواح من تأسيس الموساد إلاّ بعد تأنيب أعضائها، وإقالة معظمهم.

تمّ تغيير الاسم لاحقاً إلى معهد الاستخبارات والعمليّات الخاصّة، واختير شعاره من سفر الأمثال، 11:14: «يَسْقُطُ الشَّعْبُ حَيْثُ تَنْعَدِمُ الْهِدَايَةُ، وَبِكَثْرَةِ الْمُشِيرِينَ يَتَحَقَّقُ الْخَلاصُ».

لكن الاسم الجديد والشعار لم يجعلا من الموساد جهازاً فريداً من نوعه. وكان شيلواح مصمّماً على أن يضفي عليه ميزة استثنائية؛ لن يكون الموساد الذراع الطويلة لإسرائيل فقط، بل للشعب اليهودي بأسره. وفي اجتماع له مع مجنّديه الأوائل، أعلن الرامساد: «بالإضافة إلى جميع وظائف جهاز المخابرات، لدينا مهمّة رئيسة أخرى، تتمثّل في حماية الشعب اليهودي أينما كان، وتنظيم هجرته إلى إسرائيل». وبالفعل، في السنوات التالية، ساعد الموساد سرًّا على إنشاء وحدات للدفاع عن النفس في أماكن تُعتبر الجالية اليهودية فيها معرّضة للخطر: القاهرة، والإسكندرية، ودمشق، وبغداد، وبعض مدن أميركا الجنوبية. وتمّ جلب شباب يهود إلى إسرائيل خفية، وتدريبهم على يد الجيش والموساد، كما تمّ تهريب أسلحة إلى دول غير مستقرّة أو معادية وإخفاؤها، ونُظّم يهود محلّيون في وحدات دفاع لتشكيل قوّات قادرة على الدفاع عن الجالية اليهودية من هجمات الغوغاء أو المجموعات المسلّحة غير النظامية؛ على الأقلّ إلى أن تصل المساعدة من القوّات الحكومية أو المنظّمات الدولية.

في خمسينيات القرن المنصرم، جلب الموساد إلى إسرائيل عشرات آلاف اليهود المعرّضين للخطر من الدول العربية في الشرق الأوسط والمغرب. وبعد سنوات، أي في الثمانينيات، كان الموساد أيضاً هو الذي نظّم إنقاذ اليهود المحاصرين في إيران في عهد الخميني، كما نفّذ الهجرة الجماعية ليهود أثيوبيا إلى إسرائيل. لكن، خلال أوّل عملية سرّية له في العراق، وقعت كارثة.

* * *

في متجر أوروسدي بيك الكبير في بغداد، في شارع الرشيد، كان ثمّة شابّ اسمه أسعد يتولّى بيع ربطات العنق. كان لاجئاً فلسطينياً ترك منزله في عكّا بعد استيلاء الجيش إسرائيلي على تلك المدينة. قبل وقت قصير من مغادرته عكّا، أدّى خدمة لابن عمّه المريض، واحتلّ مكانه كنادل في مقهى بالقرب من مجمّع الحاكم العسكري. ظلّ أسعد لأسبوع يذرع أروقة مبنى الحاكم العسكري حاملاً صينية نحاسية مزخرفة، ومقدّماً أكواباً صغيرة من القهوة التركية القوية لضبّاط الجيش الإسرائيلي. وعلقت وجوه بعض أولئك الضبّاط الشباب في ذهنه.

في ذلك اليوم، في 22 مايو 1951، كان يراقب الزبائن الذين يدخلون المتجر، ولاحظ وجهاً مألوفاً. فكّر في بادئ الأمر أنّ الأمر مستحيل. لكنّه كان يذكر بالفعل وجه الرجل الذي رآه، ليس بقميص وسروال صيفيّين، كما هو اليوم، بل بزيّ كاكيّ اللون. فقام أسعد بإبلاغ الشرطة على الفور. «رأيت ضابطاً في الجيش الإسرائيلي! هنا في بغداد!».

وعلى الفور، ألقت الشرطة القبض على الرجل ذي الملامح الأوروبية الذي كان يرافقه يهودي عراقي نحيل، عاديّ الملامح، يضع نظّارة طبّية. كان اسمه نسيم موشيه، وقال للشرطة إنّه مجرّد موظّف مدني في مركز الجالية اليهودية. وشرح قائلاً: «التقيت هذا السائح يوم أمس في حفلة موسيقية، وطلب منّي اصطحابه إلى المتاجر». عندما وصلوا إلى المقرّ، تمّ الفصل بين الرجلين. استجوب المحقّقون العراقيون موشيه بقسوة بخصوص الرجل الذي تمّ التعرّف عليه على أنّه إسرائيلي، فتمسّك موشيه بروايته، وأكّد أنّه التقى السائح يوم أمس، وأنه لم يكن يعرفه من قبل. في أقبية مقرّ الشرطة المظلمة، قيّد المحقّقون يدي موشيه وقدميه، وضربوه،

وهدّدوه بالقتل. لكنّ سجينهم الضعيف بدا أنه لا يعرف شيئاً. وبعد أسبوع من التعذيب، قرّر العراقيون أنّ نسيم موشيه لا يشكّل أي خطورة وأطلقوا سراحه.

ظلّ السجين الآخر يردّد أنّه إيراني، وأن اسمه إسماعيل صالحون، وقدّم لمعتقليه جواز سفره الإيراني، إلاّ أنّهم واصلوا تعذيبه. فهو لم يكن يبدو إيرانياً، ولم ينطق بكلمة فارسية واحدة. أخيراً، واجهوه بأسعد، الفلسطيني الذي تعرّف عليه. قال السجين لاحقاً: «تجمّد الدم في عروقي عندما رأيته». عندها، استسلم واعترف أنّه يدعى يهودا تاغار (يودكي تادير)، وأنه إسرائيلي، ونقيب في الجيش الإسرائيلي. اصطحبه المحقّقون إلى شقّته، وكسّروا الأثاث، ومسحوا الجدران، ثمّ اكتشفوا كمّية من الوثائق في ملفّ ضخم مثبّت في أسفل درج في مكتبه.

هنا بدأ الكابوس. ليس بالنسبة إلى تاغار فحسب، بل للجالية اليهودية في بغداد بأكملها.

إذ كانت عدّة منظّمات سرّية يهودية وإسرائيلية تعمل في بغداد، بما في ذلك وحدة هجرة غير مشروعة، ومجموعة للدفاع عن النفس، وعدد من الحركات الصهيونية وحركات الشباب، أنشئ بعضها حتّى قبل ولادة دولة إسرائيل. وتمّ تخزين أسلحة ووثائق في مختلف أنحاء بغداد، في عدّة مخابئ، وأودع بعضها داخل كنيس مسعودة شمطوب (مسعودا شمتوف) المركزي. وآخر الإضافات إلى تلك المجموعات هي بضع شبكات تجسّس أُسّست على عجل قبل إنشاء الموساد. كان التقسيم شبه غائب، وسقوط واحد يجرّ معه سقوط الآخرين بسهولة. شعر يهود العراق أنّهم على برميل بارود، فقد كان العراق ألدّ عدوّ لدولة إسرائيل الفتيّة، والدولة الوحيدة التي رفضت التوقيع على اتّفاقية هدنة معها. وكان كلّ عضو من أعضاء الشبكات اليهودية السرّية يعرف أنّ العراقيين لن يرحموه، وأنّ نهايته ستكون على حبل المشنقة.

لهذا السبب، تمّ إرسال يهودا تاغار إلى هناك لفصل شبكة التجسّس عن جميع الشبكات الأخرى. كان تاغار، البالغ من العمر 27 عاماً، ضابطاً سابقاً في قوّات البلماح الخاصّة، ويتميّز بخصلة شعر متمرّدة تنسدل على جبينه، وبابتسامة حاضرة. كانت تلك مهمّته الأولى في الخارج. وقبل اعتقاله، بذل ما في وسعه لعزل الشبكة

التي يقودها عن المجموعات الأخرى. إلاّ أنّ بعض رجاله ظلّوا يشاركون في أنشطة سرّية أخرى. فقد قام إسرائيلي آخر يملك جواز سفر بريطانيًّا حقيقيًّا، ويدعى بيتر يانيف (رودني الهندوسي)، بإدارة شبكة منفصلة، لكنّه ظلّ على اتّصال بتاغار.

مرّت اتّصالات تاغار بتلّ أبيب عبر قائد كلّ المجموعات العاملة في بغداد، وهو رجل متكتّم لا يعرف هويّته سوى عدد قليل من الأشخاص. كان اسمه المعلن هو زكي حبيب، لكنّه كان في الواقع موردخاي بن بورات. وهو إسرائيلي عراقي المولد، وضابط سابق في حرب سنة 48. لم يكن راغباً في العودة إلى بغداد، وكان على وشك الزواج من فتاة تعرّف عليها في الجيش. إلاّ أنّه استسلم أخيراً لضغوط أجهزة المخابرات، وتولّى تلك المهمّة المحفوفة بالمخاطر.

في الأيّام التي تلت اعتقال تاغار، انهار التنظيم السرّي بأكمله. فقد اعتقلت وحدات الشرطة العراقية الخاصّة عشرات اليهود. وبعضهم انهار خلال الاستجواب، وأخبر المعتقلِين عن مخابئهم، فاكتشف العراقيون وثائق تربط بعض اليهود بالتجسّس. وتحت بلاط كنيس شمطوب، عثرت الشرطة على مخبأ كبير للأسلحة التي جُمعت على مرّ السنوات بعد مذبحة دموية وقعت في عام 1941 راح ضحيّتها 179 يهودياً، وأصيب فيها 2,118 شخصاً، وتعرّضت فيها مئات النساء للاغتصاب. أثار عدد الأسلحة المكتشفة دهشة العراقيين: 436 قنبلة يدوية، 33 مسدّساً آلياً، 186 مسدّساً، 97 مدفعاً رشّاشاً، 32 خنجر كوماندوس، و25,000 عيار ناري.

خلال الاستجواب العراقي الشرس، برز اسم على نحو متزايد: زكي حبيب، الرجل الأوّل الغامض في المنظّمة السرّية. لكن، من كان؟ وأين هو؟ أخيراً، أقام محقّق شابّ ذكيّ الرابط: لا بدّ أنّ زكي حبيب هو نسيم موشيه، الرجل الذي تمّ اعتقاله مع تاغار ومن ثمّ أطلق سراحه. داهم عشرات العملاء منزل موشيه، لكنّهم لم يجدوا أحداً. وجرت عمليّة مطاردة واسعة النطاق في جميع أنحاء بغداد، لكنّ زكي حبيب اختفى.

في الواقع، كان حبيب في مكان لم تحلم الشرطة بتفتيشه. كان... في السجن.

بعد بضعة أيّام من إطلاق سراح بن بورات بعد الاعتقال الأوّلي الذي تعرّض له مع تاغار، استيقظ على صوت طرقات قويّة على بابه. صاح رجال في الخارج:

«افتح، الشـرطة!». فاعتقد بن بورات أنّها نهايته. لم يكن للمنزل باب خلفي، ولم يكن في بغداد من يستطيع إنقاذه الآن. أدرك أنّه بالنسبة إلى رجل في وضعه، لن يصدر سوى حكم واحد في المحاكم العراقية: حبل المشنقة. فاستسلم وفتح الباب. كان ضابطا شرطة يقفان في الخارج، وقال له أحدهما: «أنت قيد الاعتقال».

تظاهر بن بورات بالدهشة وسأل: «لكن، ماذا فعلت؟».

قال الشـرطي: «لا شـيء خطير. مجرّد حادث سيّارة. والآن، ارتد ملابسك». لم يصدّق بن بورات أذنيه. نسي كلّ شيء عن الحادث الذي تورّط فيه قبل بضعة أشـهر. كان قد تجاهل استدعاء المحكمة، وعليه أن يواجه الآن القضاء العراقي. كانت المحاكمة سريعة، ولم تستغرق أكثر من ساعة. حكم عليه القاضي بالسجن لمدّة أسبوعين. وهكذا، في حين كان جيش من العملاء العراقيين في حالة تأهّب كامل، ويبحثون عنه، كان زكي حبيب يسدّد دينه للمجتمع في أحد سجون بغداد.

قبل إطلاق سراحه، كان سيتم نقله إلى المقرّ الرئيس لأخذ بصماته وتصويره. وعرف أنّه في حال حدوث ذلك، ستكون نهايته. إذ سيتمكّنون من تحديد هويّته على أنّه زكي حبيب، وهذه المرّة لن ينال حكماً لمدّة أسبوعين فقط. سار مع حارسيه في شوارع بغداد باتّجاه المقرّ الواقع على مسافة قصيرة. وفي الطريق، مرّوا بسوق الشورجة، وهي سوق مكتظة تتوزّع فيها محلاّت صغيرة مظلمة يصيح أصحابها بمزايا بضاعتهم، وتتخلّلها أزقّة ضيّقة وملتوية. وفي اللحظة التي اعتبرها بن بورات مناسبة، دفع حارسيه جانباً، ثمّ غاص بين الحشود، واختفى. لم يحاول الشرطيان اللحاق به. ففي النهاية، من المقرّر إطلاق سراحه في أقلّ من ساعة، فلماذا سيتكبّدان عناء مطاردته؟

لكن، عندما تمّ الإبلاغ عن الحادثة، فُتحت أبواب الجحيم. فقد تركا زكي حبيب - أهمّ مطلوب في العراق - يفلت منهما! اكتشفت الصحافة المعارضة ذلك، وهاجمت حماقة الحكومة بعناوين صارخة. وتساءلت إحدى الصحف: «أين حبيب؟». وأجابت: «حبيب في تلّ أبيب!».

في تلّ أبيب، حضّر رؤساء بن بورات لفراره من العراق بدقّة. فبينما اختبأ في منزل أحد أصدقائه، تمّ وضع الخطّة الجريئة قيد التنفيذ. في ذلك الوقت، كان يتمّ

مدّ جسر جوّي ضخم لجلب الجالية العراقية بكاملها من العراق إلى إسرائيل، عن طريـق قبـرص. فـكان حوالى 100,000 يهـودي يفرّون من العراق، وذلك على متن طائرات كبيرة تقلع كلّ ليلة تقريباً.

في ليلة 12 يونيو، ارتدى بن بورات أفضل ما لديه، وطلب سيّارة أجرة. كان أصدقاؤه قد أشربوه العرق، فانهار على مقعد السيارة الخلفي ورائحة العرق تفوح منه، وتظاهر بالنوم. ساعد السائق الراكب الثمل على النزول من السيّارة في شارع خلفي بالقرب من مطار بغداد، ثمّ رحل. وعندما أصبح بن بورات بمفرده، أسـرع إلى سياج المطار، وتسلّل عبره؛ فقد كان يعرف بالضبط أين تمّ قطعه. وعلى مدرج المطـار، كانـت ثمّـة طائرة انتهت للتوّ من تحميـل المهاجرين، وكانت متوقّفة على المدرج. فجأة، وجّه الطيّار أضواء الطيارة نحو برج المراقبة، ممّا أعمى المراقبين الجوّيين بشكل مؤقّت. استعدّت الطائرة للإقلاع، ثمّ فُتح بابها الخلفي الذي يعلو عـن الأرض عشـرة أقـدام، وتدلّـى منـه حبل. عندها، خرج بن بـورات من الظلام، واندفـع نحـو الطائرة، ثمّ أمسـك بالحبل، وتـمّ رفعه إلى داخل الطائرة التي أقلعت علـى الفـور. لـم يلاحـظ أحـد عملية الفرار التـي بدت وكأنّها مأخوذة مباشـرة من فيلم تشويق.

فـي أثنـاء مـرور الطائرة فـوق المدينة، ومضت أضواؤها ثـلاث مرّات، فتمتم بضعـة رجـال كانـوا مجتمعيـن علـى سـطح أحد المنـازل: «الحمد للـه». فقد كان صديقهم في طريقه إلى برّ الأمان.

بعد بضع ساعات، أصبح حبيب فعلاً في تلّ أبيب.

تـزوّج مـن حبيبتـه لاحقاً، وفي السـنوات التالية تحوّل إلى السياسـة، وأصبح عضـواً فـي البرلمـان، ووزيراً في الحكومـة. وهو اليوم زعيم موقّر لليهود العراقيين في إسرائيل.

أمّا من ظلّوا في بغداد فلم يحالفهم الحظّ إلى هذا الحدّ. فقد تعرّض عشرات اليهود للاعتقال، والضرب، والتعذيب. وحوكم تاغار، مع 21 شخصاً آخرين بتهمة التخريب. كما اتُّهم يهوديان بارزان في بغداد – شـالوم سـالاتش وجوزف باتزري – بحيازة متفجّرات وأسلحة، وحُكم عليهما بالإعدام.

قبل بدء المحاكمة بوقت قصير، تمّ إيقاظ تاغار في منتصف الليل، وكانت زنزانته مليئة برجال الشرطة، وأعلن كبير المحقّقين قائلاً: «سيتم إعدامك الليلة».

احتجّ تاغار قائلاً: «لا يمكنكم إعدام رجل من دون محاكمة!».

«ألا يمكننا ذلك؟ نحن نعرف عنك كلّ شيء، أنت ضابط إسرائيلي، وجاسوس. لا نحتاج إلى أكثر من ذلك».

دخل حاخام ملتح وجلس بجانب تاغار يقرأ له المزامير. وعند الساعة الثالثة والنصف من بعد منتصف الليل، اقتاد الضبّاط تاغار إلى غرفة الإعدام. سار بينهم مذهولاً؛ فمنذ بضعة أسابيع فقط كان يزور عائلته في القدس. وفي طريقه إلى هنا، استمتع بملذّات باريس وروما. والآن، سيتدلّى من طرف حبل.

طلب العراقيون من تاغار توقيع عدّة وثائق، فالبيروقراطية تأخذ مجراها حتّى في وقت كهذا. أخذ الجلاّد خواتمه وساعته. وطلب تاغار أن يتمّ إرسال جثّته إلى إسرائيل. جعله الجلاّد يقف على باب في الأرضيّة وربط أكياس رمل بقدميه، ثمّ أُجبر على إدارة ظهره للجلاّد الذي لفّ حبل المشنقة حول عنقه، وأمسك بالقبضة التي تتحكّم بالباب. رفض تاغار ارتداء غطاء الرأس الأسود الذي حاولوا وضعه على رأسه. نظر الجلاّد الآن إلى الضابط المسؤول عنه، الذي يقف مع عدّة رجال آخرين أمام الرجل الذي يوشك على الموت. فكّر تاغار بأسرته، وبالقدس التي ولد فيها، وبالحياة التي كان يأمل أن يعيشها. تساءل، هل سيكسر عنقي؟ وشعر بالرعب يتملّك كيانه.

فجأة، رحل الضبّاط، وأُبعد تاغار عن الباب الأرضي، ثمّ أبعد الجلاّد المتجهّم أكياس الرمل عن قدميه، وفكّ حبل المشنقة المعقود حول عنقه وهو يتمتم أنّه خسر أجرته لهذه الليلة. أدرك تاغار مذهولاً أنّه لن يموت. كان كلّ شيء مجرّد خدعة؛ حتّى أصغر التفاصيل. كانوا يأملون إجباره على الاستسلام وكشف المزيد من التفاصيل عن المتواطئين معه. لكن الآن، وهو يمشي عائداً إلى زنزانته حيًّا، كان تاغار واثقاً أنّه لن يموت في سجن عراقي؛ إذ سيخرجه أصدقاؤه من هنا.

عند انتهاء المحاكمة، حُكم عليه بالإعدام، لكن الحكم الصادر بحقّه تمّ تخفيفه على الفور إلى السجن لمدى الحياة. غير أنّ مصيراً آخر – وهو الشنق

- كان ينتظر باتزري وسالاتش اللذين أمضيا ليلتهما الأخيرة مع تاغار، وحاول التمويه عنهما.

ثمّ خاض «يودكي» طريق آلام تمكّن من عبوره حيًّا بشكل من الأشكال. فبرفقة القتلة، والسجناء السياسيين، والسجّانين الساديين في عدّة سجون عراقية، ظلّ يعتقد أنّه لن يموت في الأسر، وأنّه سيكون حرًّا في يوم من الأيّام!

كان عليه الانتظار تسع سنوات. ففي عام 1958، اعتلى اللواء عبد الكريم قاسم سدّة الحكم بعد حصول انقلاب، وقتل رئيس الوزراء العراقي والأسرة الملكية. لكن بعد عامين، تآمر عليه بعض مساعديه المقرّبين وخطّطوا لاغتياله (وهذا ما حدث بعد بضع سنوات). عرف الموساد بأمر المؤامرة، وأقام الراموساد على الفور اتّصالاً مع الموالين لقاسم، وتمّ التوصّل إلى اتّفاق: يعطيهم أسماء المتآمرين مقابل حرّية تاغار.

كان تاغار في زنزانته المظلمة عندما أتى سجّانوه الذين يرتدون الملابس الكاكية، وأمروه قائلين: «ارتدِ هذه الملابس! أنت ذاهب إلى بغداد».

أوصلت سيّارة شرطة تاغار المذهول إلى القصر الملكي، واصطحبه عدّة جنود إلى مكتب كبير. خلف المكتب المزخرف، جلس رجل مألوف الملامح؛ الرئيس قاسم شخصيًّا. أدرك تاغار على الفور أنّهم على وشك إطلاق سراحه. أخذ قاسم وقته في تأمّل الوجه الإسرائيلي، ثمّ قال أخيراً: «أخبرني، إن اندلعت حرب بين العراق وإسرائيل، فهل ستحارب ضدّنا؟».

«عندما أعود إلى بلدي، سأبذل كلّ ما في وسعي لتحقيق التفاهم والسلام بين إسرائيل والدول العربية. لكن، في حال اندلاع الحرب، فسأقاتل إلى جانب إسرائيل؛ تماماً مثلما خضت حروباً عديدة إلى جانب بلادكم».

لا بدّ أنّ قاسم أعجب بالجواب، إذ وقف وقال: «عندما ترجع إلى بلادك، أخبر شعبك أنّ العراق الآن دولة مستقلّة، ولم نعد أذيال الإمبريالية بعد الآن».

أقلّت إحدى السيارات تاغار من القصر إلى المطار. كان لا يزال غير مصدّق لما يجري. وضعوه على متن طائرة اتجهت به إلى بيروت، ومنها إلى نيقوسيا في قبرص، قبل أن يهبط أخيراً في إسرائيل. في المطار، كان أصدقاؤه وزملاؤه في

انتظاره. توقّعوا رؤية رجل محطّم، ومنهار، لكنّ الرجل الذي نزل من الطائرة كان الشـخص نفسه القويّ والمنفتح والمبتسم الذي فارقوه قبل تسع سنوات. سألوه، كيف تمكّنت من احتمال ذلك؟ كيف حافظت على عقلك وتفاؤلك؟ فأجاب يودكي ببساطة: «عرفت أنّكم ستخرجونني من هناك».

بإعادة تاغار إلى وطنه، التزم رؤساء الموساد بمبدأ آخر من المبادئ التي تأسّس عليها؛ ألا وهو عدم توفير أيّ جهد، أو وسيلة، أو تضحيات لإعادة الأبناء إلى وطنهم.

في إسرائيل، تزوّج تاغار، وأسّس أسرة، وبعد وظيفة دبلوماسية مرموقة في الخارج، أصبح أستاذاً في الجامعة.

لم يكن رؤوفين شيلواح متورّطاً بأيّ شكل من الأشكال بمأساة بغداد. مع ذلك، قدّم استقالته في نهاية عام 1952، وحلّ مكانه نجم سطع مؤخّراً في سماء أجهزة المخابرات السرّية الإسرائيلية المظلمة.

إيسير الصغير.

الفصل الرابع

جاسوس سوفياتي وجثّة في البحر

لطالما تمنّى زئيف أفني أن يصبح عميلاً في الموساد. وعندما وصل في يوم ممطر من أيّام أبريل 1956 إلى مقرّ الموساد، كان يأمل من أعماق قلبه أن يغادره وهو موظف فيه. حاول لسنوات أن يصبح واحداً من النخبة القلائل، وكان هذا أهمّ هدف في حياته.

ولد باسم وولف غولديشتاين، في ريغا، لاتفيا، ونشأ في سويسرا. خدم في الجيش السويسري خلال الحرب العالمية الثانية، ثمّ هاجر إلى إسرائيل عام 1948. غيّر اسمه إلى الاسم العبري زئيف أفني، وبعد بضع سنوات من العيش والعمل في كيبوتس هازوريا، انضمّ إلى وزارة الشؤون الخارجية وعُيّن في بروكسل. كان شخصاً أنيقاً، واسع الاطّلاع، يجيد عدّة لغات. دوَّخ رؤساءه بسلوكه واجتهاده وبرغبته في التطوّع للقيام بأي عمل، لا سيّما إن كان مرتبطاً بالموساد. وكلّما برزت حاجة إلى دبلوماسي لمهمّة مراسلة سرّية، أو لرحلة عاجلة إلى مدينة أخرى، أو لتقديم وثائق سرّية إلى وحدة موساد سرّية في أيّ مكان في أوروبا، يكون أفني أوّل المتطوّعين. جعل منه تعاونه المتكرّر مع الموساد واحداً من رجالهم في أوروبا على نحو غير رسمي. وازداد ذلك التعاون أكثر عندما نُقل إلى السفارة الإسرائيلية في بلغراد، يوغوسلافيا. في عدّة رسائل وجّهها إلى الرامساد، إيسير هاريل، اقترح أفني تأسيس مركز للموساد في بلغراد. لكنّ هاريل رفض ذلك؛ لأنّ الموساد لم يكن يحتاج برأيه إلى مركز في يوغوسلافيا. لكنّ أفني لم يستسلم. ففي أبريل 1956، عاد إلى إسرائيل في زيارة خاصّة، وطلب مقابلة الرامساد. تمّت تلبية طلبه، وكان سيلتقي إيسير هاريل في ذلك اليوم.

دخل أفني بتوتّر مكتب هاريل الواقع في منزل قديم في المستعمرة الألمانية السابقة في تلّ أبيب. كان هاريل قد عُيّن رئيساً للموساد منذ أقلّ من أربع سنوات، ولكنّه أصبح أسطورة خلال تلك الفترة القصيرة. فقد أُعجب الناس بهذا الرجل الغامض، قصير القامة، وخافوا منه. فقد حامت حوله قصص - منها الحقيقي ومنها المزيّف - في أروقة الموساد المعتمة. كان أفني قد سمع أجزاءً من تلك القصص عن هاريل الذي لُقّب بإيسير الصغير؛ لتمييزه عن إيسير الكبير سيّئ السمعة. وكان يخشى هذا اللقاء؛ نظراً إلى الشائعات التي سمعها عن عناد الرامساد،وسلوكه الفظّ، وحدسه الرائع.

لكنّ الرجل الأصلع الهزيل وقصير القامة الذي استقبل أفني بزيّه الكاكي وقميصه قصير الكمين في مكتبه، كان شخصاً لطيفاً ومعسول اللسان. أقرّ هاريل أنّه أعجب بسلوك أفني ودهائه السياسي، وسأل أفني عن سبب زيارته لإسرائيل الآن، فشرح له هذا الأخير أنّ ابنته من زواجه الأوّل طلبت منه المجيء لرؤيتها.

ابتسم إيسير وسأله: «وكم عمر ابنتك؟».

«ثمانية».

«ثمانية!». بدا إيسير متفاجئاً. فقد استغرب على ما يبدو أن يسرع دبلوماسي بالعودة من الخارج لمجرّد أنّ ابنته الصغيرة قامت باستدعائه. فشرح له أفني مفصّلاً عن علاقته المعقّدة بزوجته الأولى، وطفلته، وزوجته الحالية. فنفد صبر إيسير، وقاطعه وأخبره أنّه لن يكون ثمّة مركز للموساد في بلغراد. أمّا بالنسبة إلى مستقبل أفني، فقال له: «سنرى، بعدما تنهي مدّتك في يوغوسلافيا». فشعر أفني وكأنّه سُحق تماماً.

وقبل رحيله، عرض عليه إيسير لقاء آخر معه بعد بضعة أيّام. «لكن ليس في هذا المبنى، فالكثير من الناس يدخلون ويخرجون منه. سنجتمع في مكتبي السرّي وسط المدينة، سيقلّك سائقي إلى هناك».

ما زال ثمّة أمل، كما اعتقد أفني. لولا ذلك، لماذا يريد إيسير رؤيته مجدّداً؟

بعد بضعة أيّام، دخل أفني شقّة عادية في وسط تلّ أبيب. لم يعد لديه بعد الآن سبب لخشية إيسير؛ فقد كان ودوداً في لقائهما الأوّل.

كان إيسير بانتظاره. اصطحبه إلى غرفة كبيرة، جدرانها عالية، تحتوي على

مكتب وكرسيَّين، ونوافذها مغلقة. وما إن جلس أفني حتى تحوّل إيسير فجأة إلى ثور هائج. إذ تبدّلت تعابير وجهه، وراح يضرب بقبضتيه على المكتب ويصيح قائلاً: «أنت عميل سوفياتي! اعترف! اعترف!». ثمّ كرّر: «اعترف!» وهو يضرب المكتب بقبضتيه ويصيح: «أعرف أنّ السوفيات هم الذين أرسلوك! أعرف أنّك جاسوس! اعترف!».

شعر أفني بالدهشة، وجمد في مكانه. كان عاجزاً عن التفوّه بأيّ كلمة.

«اعترف. إن تعاونت معي، فسأحاول مساعدتك، لكن إن لم تفعل...».

أخذ قلب أفني ينبض بجنون، وكساه العرق البارد، وأصبح لسانه ثقيلاً كالصخر. كان واثقاً أنّ لحظته الأخيرة ستأتي وأنّ إيسير سيقتله.

أخيراً، استجمع ما يكفي من القوّة للفظ بضع كلمات، وتمتم قائلاً: «أنا أعترف. أنا أعمل لصالح الروس».

فتح إيسير باباً خفياً، ودخل منه اثنان من أفضل عملائه وضابط شرطة. اعتقل الضابط أفني، واقتيد إلى مركز للاستجواب. وتدريجيًّا، كشف عن هويته وهدفه الحقيقي. كان شيوعياً مخلصاً منذ سنوات المراهقة، فجنّده جهاز تجسّس الجيش الأحمر السوفياتي عندما كان يعيش في سويسرا، وتجسّس لحساب الاتّحاد السوفياتي خلال الحرب العالمية الثانية. بعد وقت قصير، نُصح بالهجرة إلى إسرائيل والانتظار. ظلّ ينتظر لسنوات رسالة من موسكو، لكنّ الجواسيس الروس لم يتّصلوا به إلاّ بعد أن تمّ تعيينه في بروكسل. هناك، زوّدهم بمعلومات هامّة عن صفقات إسرائيل مع شركة للأسلحة في بلجيكا، كما كشف لهم رموز وزارة الخارجية الإسرائيلية واسمَي اثنين من الألمان النازيين سابقاً اللذين كانا يتجسسان لحساب إسرائيل في مصر. فتمّ طرد الألمانيّين من مصر بشكل عاجل، ممّا أدهش رؤساءهما. لكنّ ذلك لم يكن كافياً للضبّاط الروس الذين يتلقّى أفني الأوامر منهم. فقد أرادوا منه اختراق الموساد. وهذا ما بذل أفني جهده للقيام به، حتّى اللحظة التي صاح بها إيسير في وجهه: «اعترف!».

عندما اعترف، لم يكن يعرف الحقيقة الفظيعة؛ ألا وهي أنّه كان بإمكانه الخروج من فخّ إيسير حرًّا! فالرامساد لم يكن يملك أيّ دليل يثبت أنّ أفني

كان جاسوساً، بل كانت لديه شكوك وحسب. صحيح أنّ شخصاً ما ذكر أمام إيسير منذ مدّة طويلة أنّ أفني طُرد من الكيبوتس الذي كان يعيش فيه بسبب آرائه الشيوعية، لكنه لم يكن واثقاً من أن أفني جاسوس سوفياتي، وكان تصرّفه مبنيًّا على الحدس وحده. فجهود أفني الدؤوبة للانضمام إلى الموساد، وزيارته الغريبة لابنته، ومحاولاته إقناع إيسير بإنشاء مركز للموساد في بلغراد... اندمجت كلها معاً في ذهن إيسير المتيقظ، ودفعته إلى استنتاج بعيد الاحتمال؛ أن يكون أفني جاسوساً خائناً اخترق تقريباً قدس أقداس إسرائيل.

في المحاكمة التي خضع لها، قدّم أفني اعترافاً كاملاً وحُكم عليه بالسجن لأربعة عشر عاماً. تمّ الإفراج عنه بعد مُضيّ تسعة أعوام، وأصبح مواطناً نموذجياً ومستشاراً نفسيًّا. قال إيسير لكاتب سيرته إنّ أفني كان أخطر جاسوس قُبض عليه في إسرائيل، لكنّه كان أيضاً «الأكثر سحراً»، ووصفه بالجاسوس النبيل.

أخبرنا أفني نفسه أنّه على مرّ السنوات أصبح بعض كبار ضبّاط الشرطة ومحقّقي الشاباك[1] (الذي يعادل الأف بي آي الأميركي) من أفضل أصدقائه.

شكّلت عمليّة بيغماليون، وهو الاسم الذي أطلق على قضيّة أفني، أحد أسرار الموساد الدفينة لسنوات عديدة. لكن، بالنسبة إلى القلّة الذين عرفوا بها، كانت دليلاً آخر على حدس إيسير المدهش.

لكن، من كان إيسير الصغير؟ زُعم أنّ ذلك الرجل قليل الكلام، والخجول، والعنيد قد ولد في بلدة دفينسك القديمة، في الإمبراطورية الروسية. قيل إنّه عندما هاجر إلى إسرائيل وهو في الثامنة عشرة من عمره، كان يحمل في حقيبته رغيف خبز؛ خُبِزَ وبداخله مسدّس. استقرّ إيسير الصغير أوّلاً في كيبوتس شيفايم، وتزوّج من الفارسة المرحة ريفكا. لكنّ الشابّ القويّ، والعنيد، والحازم غادر الكيبوتس لأسباب غير معروفة مع زوجته وطفله والقميص الذي يرتديه. خلال الحرب العالمية الثانية، انضمّ إلى الهاغاناه، وسرعان ما أصبح رئيساً للقسم اليهودي في الشاي الذي يتعقّب الخونة والمنشقّين. كان المنشقّون أعضاء في مجموعتَي إرغون

(1) جهاز الشاباك هو جهاز الأمن الداخلي في إسرائيل، ويدعى أحياناً الشين بيت (ش ب) اختصاراً لاسمه العبري (شيروت بيتحون كلالي) أي جهاز الأمن العام.

وشتيرن، وهما منظّمتان يمينيتان سرّيتان كانتا تعارضان سلطة ديفيد بن غوريون والجالية اليهودية المنظّمة وسياستهما. وبعد رحيل إيسير الكبير، أصبح إيسير الصغير رئيساً لجهاز الأمن الداخلي، الشاباك.

كان الموساد بالكاد قد بدأ يعمل عندما قبل بن غوريون، في خطوة مفاجئة، استقالة رؤوفين شيلواح، وعيّن إيسير رئيساً للموساد. كان السبب الرسمي المعلن لهذا التغيير هو حادث السير الذي قيل إنّه تسبّب بإعاقة لدى شيلواح. لكنّ الإشاعات التي انتشرت في الموساد أفادت أنّ إيسير عمل على إزاحة شيلوا بعد أن أقنع بن غوريون أنّ الرامساد كان رجلاً مثقّفاً ولطيفاً، ولكنّه غير قادر على قيادة عملاء قساة وعلى تنفيذ عمليّات سرّية.

تحت قيادة إيسير، اكتسبت أجهزة المخابرات شكلها النهائي. فقد كانت تتألّف من خمسة أجهزة: الموساد، والشاباك، والأمان (المخابرات العسكرية)، وفرع الشرطة الخاصّ، وشعبة الأبحاث في وزارة الخارجية. كانت الأجهزة الهامّة بينها هي الموساد، والأمان، والشاباك فقط. أمّا الجهازان الآخران فلم ينالا تقديراً كبيراً. شكّل مديرو الأجهزة الخمسة ونوّابهم «رؤساء لجنة الأجهزة»، وتمّ تعيين إيسير رئيساً لها. أطلق عليه بن غوريون أيضاً لقباً خاصّاً: ميمونيه، أي الرئيس التنفيذي المسؤول عن الأجهزة الأمنية. عندما عيَّن بن غوريون إيسير الصغير في هذا المنصب الجديد للمرّة الأولى، قال: «ستستمرّ بالطبع بإدارة الشاباك، حتّى لو أصبحت الآن مديراً للموساد». اختار إيسير مديراً جديداً للشاباك، مع أنّ زمام السيطرة الكاملة على كلّ من الموساد والشاباك بقي بين يديه.

وهكذا، أصبح إيسير الصغير قيصر المخابرات الإسرائيلية.

لم تكن قضيّة بيغماليون سوى واحدة من عدّة عمليّات هامّة أشرف عليها إيسير خلال السنوات الأولى من وجود إسرائيل، وكان معظمها ضدّ جواسيس سوفيات تمّ القبض على الكثير منهم، وسجنهم أو طردهم.

لكن، لم يكن كلّ الجواسيس يعملون لصالح السوفيات، ولم تكن نهاية الجميع سعيدة.

* * *

عصر يوم من أوائل ديسمبر 1954، استمرّت طائرة شحن بالتحليق وحيدة فوق شرق البحر الأبيض المتوسّط. وعندما تأكّد طيّاروها من عدم وجود سفن في المنطقة، فُتح أحد أبوابها وأُسقط منه جسم كبير في البحر؛ جثّة.

وبعد مرور ساعة، حطّت الطائرة في إسرائيل، مسجّلة نهاية عمليّة المهندس (ليس هذا اسمها الحقيقي)، وهي عمليّة ظلّت سرّيّة للغاية لأكثر من خمسين عاماً.

عام 1949، وصل ثلاثة أشقّاء ينتمون إلى أسرة يهودية في بلغاريا إلى إسرائيل. كان أكبرهم هو ألكسندر إسرائيل، الذي تخرّج للتوّ من كلّية الهندسة في صوفيا. فانضم إلى الجيش، ومُنح رتبة نقيب، وعُيّن في البحريّة الإسرائيلية. كان النقيب إسرائيل شابًّا وسيماً وجذّاباً للغاية. قدّره رؤساؤه، وكلّفوه ببحث سرّي للغاية في الحرب الإلكترونية وبتطوير أسلحة جديدة. وبفضل تصريح أمني عالي المستوى، كانت لديه إمكانيّة الوصول إلى بعض الموادّ الأكثر حساسية. غيّر اسمه الأوّل إلى الاسم العبري أفنِر، وعام 1953 تزوّج من ماتيلدا أرديتي، وهي امرأة شابّة وجميلة من أصل تركي. استقرّ الزوجان الشابّان في حيفا، على مقربة من القاعدة البحرية الرئيسة في إسرائيل. كانت ماتيلدا مغرمة جدًّا بزوجها الكاريزماتي، لكنّها تجهل النواحي الأقل جاذبية في شخصيّته.

ولم تكن تعرف أنّ أفنر إسرائيل يملك سجلاً طويلاً وملوّناً لدى الشرطة. فقد اتُّهم بتأجير الشقّة نفسها لأكثر من مستأجر في وقت واحد، وبالعمل كممثّل لشركة برّادات تقاضى دفعات على الحساب لبرّادات لم يتمّ تسليمها، وبتعاملات أخرى من هذا القبيل. وصلت إحدى القضايا إلى المحكمة، وتمّ استدعاؤه في 8 نوفمبر 1954.

لم تعرف ماتيلدا الحامل شيئاً عن عمليّات الغشّ التي مارسها زوجها، ولا عن علاقته بموظّفة جميلة في القنصلية الإيطالية في حيفا. حتّى إنّ أفنر عرض الزواج على الفتاة الإيطالية التي وافقت على ذلك بشرط واحد: أن يعتنق أوّلاً الديانة الكاثوليكية.

لم يمثّل ذلك بالنسبة إلى أفنر الشابّ مشكلة كبيرة. فقد سبق له أن ارتدّ عن دينه من قبل، في بلغاريا، عندما اضطرّ للزواج من فتاة مسيحية أخرى أغواها. إذ

طلبت منه أسرتها الغاضبة، تحت تهديد السلاح تقريباً، أن يعتنق المسيحية ويتزوّج الشابّة. وبعد حفل الزفاف فوراً، هرب من صوفيا، فأقدمت زوجته على الانتحار، وبعدها عاد إلى صوفيا وإلى ديانته اليهودية. لذا، أعاد الكرّة الآن، فسافر إلى القدس مع عشيقته، وعُمّد في دير سانتا تيرا، ثمّ غيّر شهرته إلى إيفور. استخدم النقيب الوثائق التي أصدرتها الكنيسة، وقدّمها إلى وزارة الداخلية ليحصل على جواز سفر باسمه الجديد، ألكسندر إيفور.

حدّد هو وصديقته الإيطالية تاريخ 7 نوفمبر 1954 موعداً لزفافهما. وتمّ تحديد موعد المحاكمة في حيفا في 8 نوفمبر. لم تكن لدى أفنر إسرائيل، المعروف أيضاً باسم ألكسندر إيفور، أيّ نيّة للالتزام بأيّ من هذين الموعدين؛ فقد حان الوقت بالنسبة إليه للاختفاء.

وفي نهاية شهر أكتوبر، ذهب النقيب إسرائيل في إجازة لمدّة أسبوعين. لم تكن لديه تأشيرة خروج، لكنّ ألكسندر إيفور كان يملك واحدة، بالإضافة إلى مجموعة كاملة من الوثائق، بعضها أصلي والآخر مزوّر. اشترى تذكرة طائرة إلى روما، وفي 4 نوفمبر غادر البلاد. ولم تعرف زوجته و«خطيبته» برحيله. بدأت المرأة الإيطالية بالبحث عن خطيبها المختفي بقلق. وأخيراً، لجأت إلى شرطة حيفا، وعثرت بمساعدتهم على عنوانه، وصُدمت حين قابلت السيّدة ماتيلدا إسرائيل، الحامل في شهرها السابع.

في روما، اختفى أفنر إسرائيل، ولكن ليس لمدّة طويلة. إذ كانت لدى عميل الموساد المقيم هناك مصادر جيّدة في المجتمع الدبلوماسي العربي في إيطاليا. وفي 17 نوفمبر، وصلت برقيّة عاجلة إلى مقرّ الموساد في تلّ أبيب: «يوجد هنا ضابط إسرائيلي يدعى ألكسندر إيفور، أو إيفون، أو آيفي، ويحاول بيع معلومات عسكرية إلى الملحق العسكري المصري».

عندها، تعاون الرامساد ورئيس الشاباك الجديد، عاموس مانور، لاكتشاف هويّته. وفي غضون أيّام قليلة عرفا من يكون، واستاءا عندما تبيّن لهما أنّه كان ضابطاً في البحرية الإسرائيلية. ثم وصلت برقيّة أخرى من روما أكثر إثارة للقلق، إذ ذكر عميل الموساد أنّ إسرائيل باع للمصريين الخطط التفصيلية لقاعدة كبيرة

للجيش الإسرائيلي في إسرائيل، وتقاضى مبلغ 1,500 دولار، أودعه في مصرف كريدي سويس. وقيل إنّه وعد المصريين بمزيد من المعلومات، ووافق على السفر إلى مصر للتحقيق معه.

بعد بضعة أيّام، وصلت برقيّة أخرى إلى مقرّ الموساد: «أمرت السفارة المصرية بشراء تذكرتين إلى القاهرة في آخر نوفمبر من وكالة TWA. ويبدو أنّ الراكبَين سيكونان الملحق العسكري المصري والضابط الإسرائيلي".

دقّ ناقوس الخطر في مقرّ الموساد. فبالنسبة إلى إيسير، ثمّة فرق هائل بين استخلاص المعلومات من مُخبر على يد ملحق عسكري في دولة غريبة، وبين نقل ذلك المخبر إلى العاصمة المصرية، حيث سيتمّ استجوابه من قبل خبراء يستطيعون الحصول منه على معلومات أكثر تفصيلاً وخطورة. لذا، صمّم إيسير على الحؤول دون سفر أفنر إسرائيل إلى القاهرة مهما كان الثمن.

قرّر إيسير إرسال فريق عمليّاته إلى روما. في أيّام الموساد الأولى تلك، لم يكن الجهاز يملك قسم عمليّات بعد، وكان يستخدم وحدة عمليّات الشاباك التي كان قائدها واحداً من أفضل عملاء إسرائيل، واعتُبر أسطورة بالنسبة إلى رجاله: رافي إيتان. ولد في كيبوتس، وكان رجلاً مرحاً وقصيراً وممتلئاً يضع نظّارة، كما كان أيضاً جريئاً، ومبدعاً، ولا يرحم. وفي السنوات التي سبقت إعلان دولة إسرائيل كان مقاتلاً في البلماح، وشارك بعمق في المنظمّة إيليا بيت السرّية التي هرّبت اليهود إلى فلسطين؛ بالرغم من القيود البريطانية. فقد اضطرّوا إلى الفرار من أوروبا على متن قوارب متداعية، كما اضطروا إلى مراوغة السفن الحربية البريطانية التي كانت تجوب شواطئ فلسطين للوصول إلى شوا-طئ مهجورة، ومن ثمّ للاختلاط مع الشعب اليهودي المحلّي. من أشهر إنجازات رافي تفجير منشأة الرادار البريطانية على جبل الكرمل بالقرب من حيفا، ذاك الرادار الذي كان يكشف اقتراب سفن إيليا بيت. لبلوغ الرادار، زحف رافي عبر مجاري مياه الصرف الصحي المثيرة للاشمئزاز، واكتسب لقب رافي المقرف. أكّدت أنشطته اللاحقة خلال حرب الاستقلال جرأته وذكاءه الماكر. وعندما جمع إيسير فريق عمليّاته، اختار أشخاصاً ذوي خلفيّات مختلفة؛ ناجين من المحرقة، ومحاربين قدامى في البلماح والهاغاناه،

وأعضاء سابقين في مجموعتَي إرغون وشتيرن - مقاتلين يمينيين لاحقهم خلال الصراع السابق لقيام الدولة. (كان أحد مجنّدي الموساد هو إسحاق شمير. وهو زعيم سابق لمجموعة شتيرن ورئيس وزراء إسرائيل لاحقاً).

وتمّ تعيين رافي رئيساً لفريق العمليّات.

سافر رافي إلى روما مع العميلَين رافاييل ميدان وإيمانويل (إيما) تالمور، ثمّ انضمّ إليهم عملاء آخرون بعد فترة وجيزة. وعلى الفور، نصبوا لأفنِر كميناً في مطار فيوميتشينو في روما. فاستناداً إلى التعليمات الأخيرة التي صدرت قبل انطلاقهم، أمرهم إيسير بإيقاف أفنِر إسرائيل في المطار. «لا يجب أن يصعد إلى تلك الطائرة أبداً. اختلقوا شجاراً، وتغلّبوا عليه، واجرحوه إن لزم الأمر. وإن فشلت كلّ الخيارات الأخرى، أطلقوا عليه النار واقتلوه».

كانت تلك هي المرة الأولى التي يُعطى فيها العملاء الإسرائيليون تصريحاً بالقتل.

لكنّ هجوم المطار لم يحدث؛ إذ يبدو أنّ المعلومات التي وصلت عن الرحلة كانت غير صحيحة. بقي إسرائيل في روما لبعض الوقت، ثمّ رحل فجأة، وبدأ يتنقّل في أنحاء أوروبا، وفريق إيتان في أعقابه. سافر من زوريخ، إلى جنيف، إلى جنوى، فباريس، ففيينا... وكأنّه يحاول إرباك مطارديه.

فجأة، اختفى النقيب إسرائيل. بحث عنه عملاء الموساد في كلّ مكان، ولكن من دون جدوى. غير أنّ الحظّ حالف رافي إيتان كالعادة. فقد كان مبعوث إسرائيلي لمنظّمة سرّية تسمّى ناتيف موجوداً في فيينا، وكانت مهمّته تسهيلَ هرب اليهود من روسيا والكتلة الشرقية، وجلبهم إلى إسرائيل. أقام عضو ناتيف علاقات وثيقة مع الموساد. وفي أحد أيّام ديسمبر، كانت لدى زوجته بلغارية المولد مفاجأة له.

فقد قالت له بوجه يشعّ سعادة: «لن تصدّق ما سأخبرك به. كنت أسير هذا الصباح في الشارع، فإذا بي ألتقي صديقاً لي من صوفيا لم أره منذ سنوات. كنّا رفيقين في المدرسة، وفي الصفّ نفسه. يا لها من مصادفة! ألا تظنّ ذلك؟».

سألها زوجها: «حقًّا؟ ما اسمه؟».

«ألكسندر إسرائيل. سنلتقي غداً لتناول الغداء».

كان مبعوث ناتيف يعرف أنّ إيتان يبحث عن رجل بمواصفات مشابهة للرجل الـذي وصفتـه لـه زوجتـه، فأبلغه بذلـك على الفور. وفي اليـوم التالي، ذهب اثنان من عملاء الموساد لتناول الطعام في المطعم نفسه، وجلسا على مقربة من طاولة ألكسندر إسرائيل وصديقة طفولته. وعندما ترك إسرائيل زوجة مبعوث ناتيف، لحقا به كظلّه.

بعد بضعة أيّام، استقلّ ألكسندر إيفور طائرة على الخطوط الجوّية النمساوية متّجهة إلى باريس. وعلى المقعد المجاور، جلسـت شـابّة جذّابة. لم يفوّت إيفور - وهـو زيـر نسـاء مـن الطـراز الأوّل - فرصـة تبادل حديث معهـا، فتجاوبت معه الفتـاة. قـرّرا الالتقـاء مجـدّداً فـي باريـس، لتمضيـة الليلـة معاً. ولكـن، قبل هبوط الطائـرة، التفتـت الفتـاة نحو الضابط وقالت له: «ينتظرني صديقاي في المطار. هل تودّ الانضمام إلينا؟ أنا واثقة أنّه ثمّة متّسع لك في السيّارة».

سـرّ إيفور حين سـمع عرضها. وفي المطار، كان ثمّة سـيّدان أنيقان ينتظران المرأة. ركب الأربعة في السيّارة وتوجّهوا إلى باريس. جلس إيفور بجانب السائق. كان الليل قد حلّ. وفي الطريق، لاحظ السائق وجود رجل يقف عند مفترق طريق خفيف الإضاءة ويلوّح بيده، وكأنّه يحاول إيقاف سيّارة، فقال: «لنقلّه معنا». وحين أوقف السـيّارة، تقدّم الرجل منهم فجأة مع عدّة رجال آخرين خرجوا من الظلام، وتجمّعوا حول السيّارة، فيما توقّفت سيّارة أخرى خلفهم.

صـاح إيفـور: «إنّنـا نتعـرّض للخطف». فجأة، أمسـكه الرجـل الجالس خلفه من عنقه. كافح إيفور بجنون للإفلات من قبضة مهاجمه. لكنّ باب السـيّارة فُتح، وانقـضّ الرجـل الواقـف فـي الخـارج على إيفـور وثبّته، ثمّ أخرج مسدّسـاً وصاح بالعبرية: «حركة أخرى وستموت!».

فجمد إيفور في مكانه. اقتربت منه يد تحمل قطعة قماش مبلّلة بالكلوروفورم ألصقتها على وجهه، فغرق في نوم عميق.

تـمّ أخـذه خلسـة إلـى بيـت آمن فـي باريس، وهناك قـام رافي إيتـان ورجاله باستجوابه. فاعترف أنّه باع وثائق بالغة السرّية للمصريين، وأنّه فعل ذلك من أجل الحصول على المال. أرسل إيسير من إسرائيل برقيّة يأمر فيها بإعادته. فبرأيه، حتّى

الخائن الأكثر دناءة يستحقّ المحاكمة، وينبغي احترام حقوقه القانونية. عندها، قام إيتـان ورجالـه بتخديـر أفنـر ووضعِه فـي صندوق كبير، ثمّ نقلوه إلـى طائرة داكوتا تابعة لسـلاح الجوّ الإسـرائيلي كانت تقوم برحلة واحدة في الأسـبوع من باريس إلى تلّ أبيب.

كان طريق العودة طويلاً وشـاقًّا. فقد اضطرّت الطائرة إلى التزوّد بالوقود في روما وفي أثينا. كان الفريق يضمّ طبيباً معروفاً، وهو طبيب تخدير يدعى يونا إليان. وقبل كلّ هبوط وإقلاع، كان الطبيب يحقن الراكب بدواء مخدّر. لكن بعد الإقلاع مـن أثينـا، وقعـت كارثـة. إذ بـدأ أفنر إسـرائيل الغائب عن الوعـي يتنفّس بصعوبة. وتسارع نبضه، وأصبحت دقّات قلبه غير منتظمة. بذل د. إليان جهوداً حثيثة لتهدئته والسـيطرة علـى وضعـه، بمـا في ذلك محاولة إعادة إنعـاش الرجل الذي عانى من التشـنّجات بواسـطة عمليـة التنفّـس الاصطناعـي، ولكن من دون جـدوى. وهكذا، توفّي الأسير قبل مدّة طويلة من هبوط الطائرة في إسرائيل.

فور هبوط الطائرة، اتّصل عملاء الموساد بإيسير وأبلغوه بوفاة الأسير. فأمرهم الرامسـاد بإبقـاء الجثّـة على متن الطائرة، وطلـب من الطيّار الإقلاع مجدّداً. هكذا، وبعيداً عن الساحل الإسرائيلي، ألقيت الجثّة من الطائرة.

أدّت هذه الحادثة غير المتوقّعة إلى حدوث ضجّة في مقرّ الموسـاد. وسـارع إيسـير إلى مكتب رئيس الوزراء موشـيه شـاريت، وطلب منه تعيين مجلس تحقيق للبحـث فـي وفاة الضابط، فعيّن شـاريت مجلسـاً مؤلّفاً مـن رجلين، وبرّأ المجلس عملاء الموساد من أيّ جرم. فاستناداً إلى رأي المجلس، كلّ ما فعلوه هو إحضار الرجـل للمحاكمـة، وليسـوا ملاميـن على موته. واسـتنتجا أنّ سـبب الوفاة الرئيس جرعة زائدة من المنوّم الذي حقنه به الطبيب. وعندما سئل الطبيب عن سبب الوفاة بعـد سـنوات، أكّـد أنّ السـبب نجم عن التغييرات المفاجئـة في ضغط الجوّ داخل الطائـرة. (وفـي عـام 1960، شـارك مجـدّداً في القبض على إيخمـان في الأرجنتين بصفته طبيب تخدير).

فحص رجال إيسـير أوراق أفنر إسـرائيل، واكتشـفوا شهادات ورسائل توصية من الكنيسة الكاثوليكية في القدس. وعرفوا أنه بعد أن باع أسراره للمصريين، كان

يخطّط للهرب إلى أميركا الجنوبية. فقد وجد العملاء في حقائبه تذكرة سفر على متن السفينة إلى البرازيل.

المشكلة التالية التي واجهها إيسير كانت أسرة إسرائيل. إذ كان يتعيّن عليه استدعاء ماتيلدا وإخبارها القصّة كاملة. لكنّ رؤساء الموساد الذين شعروا بالإحراج من النهاية المؤسفة التي آلت إليها القضيّة فضّلوا دفن القصّة، وحصلوا على الدعم الكامل من رئيس الوزراء شاريت. سرّب الموساد قصصاً ملفّقة عن النقيب أفنر إسرائيل للصحف. فلمّح إلى أنّه هرب من إسرائيل بعد تورّطه في ديون شخصيّة وعلاقات عاطفية. ونشرت تلك القصص في عناوين بارزة في الصحف.

ظلّت ماتيلدا وإخوة زوجها وابنها موشيه إسرائيل إيفور يجهلون لسنوات عديدة حقيقة ما جرى. ظلّوا يعتقدون أنّه ما زال يعيش في مكان ما، ربّما في أميركا الجنوبية. وكانت تلك الكذبة لا تُغتفر.

أوّل فشل واجهته هذه المهمّة هو طريقة التعامل مع إسرائيل؛ حتّى وإن كان خائناً. أمّا الثاني فهو مؤامرة الصمت، وحذف اسم إسرائيل من السجلاّت العسكرية، وتضليل الموساد لزوجته وإخوته. اعترض رافي إيتان وعدّة ضبّاط في الموساد بشدّة على قرار الرامساد برمي الجثّة في البحر وخداع الأسرة، لكنّ أيديهم كانت مكبّلة. فقد قال لنا إيتان: «كان إيسير الصغير هو الآمر الناهي في تلك الفترة. كان الحاكم المطلق للأجهزة السرّية، ولم تعارض أجهزة المخابرات قراراته قطّ».

أظهر نشر هذه القصّة بعد سنوات مدى صعوبة طمس وجود شخص ما. فحتّى بعد موته، يتحدّث إلينا أحياناً من قبره.

الفصل الخامس

«إنّه خطاب خروتشوف...»

بدأ كلّ شيء بقصّة حبّ.

ففي ربيع عام 1956، كانت لوسيا بارانوفسكي مغرمة حتّى أذنيها بصحفي وسيم يدعى فيكتور غرايفسكي. كان زواجها من نائب رئيس وزراء بولندا الشيوعية فاشلاً، وبالكاد كانا يريان بعضهما. عملت لوسيا سكرتيرة لدى إدوارد أوشاب، الأمين العام للحزب الشيوعي البولندي. وسرعان ما أصبح الموظفون معتادين على زيارات فيكتور الساحر المتكررة لصديقته الجميلة. لم تكن مشاعر لوسيا تجاه ذلك الشابّ الجذّاب سرًّا على أحد.

كان فيكتور محرّراً بارزاً في وكالة الأنباء البولندية، ومسؤولاً عن الشؤون السوفياتية وأوروبا الشرقية. في الواقع، كان يهودياً، واسمه الحقيقي فيكتور شبيلمان. لكن قبل سنوات، عندما انضمّ إلى الحزب الشيوعي، أوضح له أصدقاؤه أنّه لن يتمكّن من بلوغ مراتب عالية باسم شبيلمان، لذا غيّره إلى غرايفسكي الذي بدا بولندياً.

عندما اجتاح الجيش الألماني بولندا في الحرب العالمية الثانية، كان مجرّد طفل. تمكّنت أسرته من العبور إلى روسيا، ونجت من المحرقة بصعوبة. وبعد أن وضعت الحرب أوزارها، عادت الأسرة إلى بولندا. في عام 1949، هاجر أبوا فيكتور وشقيقته الصغرى إلى إسرائيل. أمّا هو، الشيوعي القوي والمتحمّس، فلم يغادر. كان معجباً بستالين، وتوّاقاً إلى المساعدة على بناء حياة مثالية للعمّال.

لكن، لم يعرف أيّ من أصدقائه أو زملائه أو حبيبته أنّ خيبة الأمل بدأت تغزو قلب الشيوعي الشابّ. ففي عام 1955، قام بزيارة إلى أسرته في إسرائيل. وهناك،

رأى عالماً آخر؛ رأى أمّة يهودية ديموقراطية، حرّة وتقدّمية؛ نوعاً من الأحلام مختلفاً كلّ الاختلاف عن البروباغاندا الشيوعية التي سادت في تلك البلاد. وعندما رجع فيكتور البالغ من العمر ثلاثين عاماً إلى بولندا، بدأ يفكّر في الهجرة إلى إسرائيل.

في صباح ذلك اليوم من أوائل أبريل 1956، ذهب فيكتور كالعادة لزيارة حبيبته في مكتب أمين عام الحزب، فرأى على زاوية مكتبها كتيّباً موضوعاً في مغلّف أحمر، مرقّماً ومختوماً بعبارة سرّي للغاية.

سألها: «ما هذا؟».

فأجابته بشكل عرضي: «آه، هذا خطاب خروتشوف».

جمد فيكتور في مكانه متفاجئاً؛ فقد سبق له أن سمع عن خطاب خروتشوف، ولكنّه لم يلتق أيّ شخص سمع أو قرأ جملة منه. فقد كان واحداً من الأسرار الدفينة للكتلة الشيوعية.

كان فيكتور يعلم أنّ نيكيتا خروتشوف، أمين عام الحزب الشيوعي السوفياتي، قد ألقى كلمة في المؤتمر العشرين للحزب الذي عُقد في فبراير الماضي في الكرملين. ففي 25 فبراير، قبل منتصف الليل بقليل، طُلب من جميع الضيوف ورؤساء الأحزاب الشيوعية الأجنبية مغادرة القاعة. وعند منتصف الليل، اعتلى خروتشوف المنبر، وتحدّث إلى 1400 مندوب سوفياتي. وقيل عن خطابه إنّه كان مفاجأة، وسبّب صدمة رهيبة لجميع الحاضرين.

لكن، ما الذي قيل فيه؟ استناداً إلى صحفي أميركي أرسل تقريراً أوّلياً إلى الغرب، دام الخطاب أربع ساعات، ووصف فيه خروتشوف بالتفصيل الجرائم الفظيعة التي ارتكبها الرجل الذي يبجّله ملايين الشيوعيين حول العالم: ستالين. وبحسب الشائعات، اتّهم خروتشوف ستالين بذبح الملايين. وقد تهامس البعض قائلين إنه في أثناء إلقاء الخطاب، بكى الكثير من المندوبين وشدّوا شعرهم من شدّة اليأس، كما تعرّض بعضهم للإغماء أو لنوبات قلبية، وأقدم اثنان منهم على الأقلّ على الانتحار بعد تلك الليلة.

غير أنّ وسائل الإعلام السوفياتية لم تنشر كلمة واحدة ممّا كشف عنه خروتشوف. وانتشرت الشائعات في موسكو، وتمّت قراءة بعض مقاطع الخطاب

فـي جلسـات مغلقـة للهيئات العليا للحزب. لكـنّ النصّ الكامل بقي طيّ الكتمان، كمـا لـو كان سـرًّا من أسـرار الدولة. قال المراسـلون الأجانب لفيكتـور إنّ أجهزة المخابرات الغربية تبذل مجهوداً كبيراً للحصول على النصّ. حتّى إنّ السي آي إيه عرضت مبلغ مليون دولار جائزة لمن يستطيع الحصول عليه. إذ أشارت التوقعات إلى أنّ نشر النصّ في ذروة الحرب الباردة بين الغرب والكتلة السوفياتية من شأنه أن يحدث زلزالاً سياسياً في الدول الشـيوعية ويؤدّي إلى أزمة لـم يسـبق لها مثيل. فقد كان مئات ملايين الشـيوعيين، داخل روسـيا وخارجها، يبجّلون سـتالين على نحو أعمى. ومن شأن عرض جرائمه على العلن أن يدمّر ثقتهم به، ويسبّب انهياراً للاتحاد السوفياتي.

لكـنّ كلّ الجهـود السـاعية إلـى الحصول على الخطاب باءت بالفشـل، وبقي ما قيل لغزاً.

عرف فيكتور مؤخّراً أنّ خروتشوف قرّر إرسال نسخ معدودة إلى قادة الحزب الشيوعي في أوروبا الشرقية، ولهذا وصل ذلك الكتيّب الموضوع في مغلف أحمر اللون إلى مكتب لوسيا.

عندما وقع نظر فيكتور غرايفسـكي عليه خطرت له فكرة جنونية، فطلب من لوسـيا أن تعيـره إيّـاه لبضـع سـاعات، كي يتمكّن من قراءته فـي المنزل، بعيداً عن صخب هذا المكتب، وفوجئ بموافقتها. كانت تسرّ بإرضائه... قالت له: «يمكنك أخذه. ولكن، عليك إعادته قبل الرابعة عصراً، إذ يجب عليّ إيداعه في الخزنة».

في المنزل، قرأ فيكتور الخطاب. كان مذهلاً بالفعل. فقد حطّم خروتشـوف بجرأة وبلا رحمة أسـطورة جوزيف فيسـاريونوفيتش سـتالين. كشـف خروتشـوف أنّ سـتالين قد ارتكب خلال سـنوات حكمه جرائم وحشـية، وأمر بقتل الملايين، وذكّـر جمهـوره أنّ لينيـن، أب الثورة البلشـفية، حذّر الحزب من سـتالين. كما ندّد خروتشـوف بالتبجيـل الـذي حظـي بـه رجل رُفع إلى منزلة شـمس الأمـم. وأخبر عن النقل القسـري - الذي قام به سـتالين - لمجموعات عرقية كاملة في الاتّحاد السوفياتي؛ ممّا أدّى إلى وفيات لا تحصى، وعن «التطهير الكبير» (1936-1937)،

عندما تمّ اعتقال 1.5 مليون شيوعي وإعدام 680,000 منهم. كما تمّ إعدام 848 من أصل 1,966 مندوباً في المؤتمر السابع عشر للحزب بناء على أوامر ستالين، فضلاً عن 98 من أصل 138 مرشّحاً للجنة المركزية. تحدّث خروتشوف أيضاً عن مؤامرة الأطبّاء التي تمّ فيها تلفيق اتّهامات لبعض الأطبّاء اليهود الذين زُعم أنّهم تآمروا لقتل ستالين وقادة سوفيات آخرين. أظهر كلام خروتشوف ستالين كقاتل قاسٍ ذبح ملايين الروس ورعايا الدول الأخرى؛ وكان الكثير منهم شيوعيين مخلصين. وخلال أربع ساعات، تحوّل ذلك الزعيم المبجّل إلى وحش كاسر.

حطّم خطاب خروتشوف آخر أوهام فيكتور حيال الشيوعية. فأدرك أنّه يحمل بين يديه عبوة ناسفة من شأنها أن تهزّ المعسكر السوفياتي من أساسه. قرّر إعادة الكتيّب إلى لوسيا. لكن، في طريقه إليها، أعاد التفكير بالأمر، وقادته قدماه إلى مكان آخر: السفارة الإسرائيلية. دخل بثقة، وتفرّق رجال الشرطة والعملاء السرّيون للسماح له بالمرور. بعد بضع دقائق، كان في مكتب يعقوب بارمور الذي يحتلّ رسمياً منصب السكرتير الأوّل للسفارة، إلاّ أنّه في الواقع كان ممثّل الشاباك في بولندا.

سلّمه غرايفسكي الكتيّب، فاطّلع عليه الإسرائيلي فاغراً فمه، ثم طلب منه الانتظار بضع دقائق، وحمل الكتيّب، وغادر الغرفة. عاد بعد ساعة، وأدرك غرايفسكي أنّ بارمور قام بتصويره، إلاّ أنّه لم يطرح أيّ أسئلة. أخذ الكتيّب منه وأخفاه تحت معطفه، ثمّ رحل. وصل إلى مكتب لوسيا في الوقت المناسب، فوضعته في الخزنة. لم يزعجه أحد أو يسأله عن سبب زيارته المفاجئة للسفارة الإسرائيلية.

في بداية عصر يوم الجمعة في 13 أبريل 1956، دخل زيليغ كاتز مكتب مدير الشاباك، عاموس مانور. كان كاتز مساعد مانور الشخصي. وكان مقرّ الشاباك يقع في مبنى قديم في يافا، ولا يبعد كثيراً عن سوق البرغوث الخلاّب. طرح مانور على كاتز سؤال يوم الجمعة المعتاد: «هل من أخبار من أوروبا الشرقية؟». فيوم الجمعة هو اليوم الذي يجلب فيه الدبلوماسي تقارير من عملاء الشاباك خلف الستار الحديدي.

قـال زيليـغ مـن دون اكتـراث إنّـه تلقّـى منذ بضـع دقائق من وارسـو «خطاباً لخروتشوف...». قفز مانور عن مقعده، وصاح: «ماذا؟ أحضره فوراً!».

كان مانور شـابًّا وسـيماً وطويل القامة، هاجر إلى إسـرائيل قبل بضع سـنوات وحسب. ولد في رومانيا لأسرة ثرية باسم آرثر مينديلوفيتش، ثمّ أُرسل إلى معتقل أوشـفيتز، وهناك قُتل جميع أفراد أسـرته: أبواه، وأخته، وأخواه. أمّا هو فبقي على قيد الحياة، ولم يكن وزنه يتجاوز ثمانين باونداً عندما تمّ تحرير المعتقل. عاد إلى بوخارسـت، وعمـل مـع إيليا بيت؛ حيث سـاعد على تهريـب اللاجئين اليهود إلى فلسـطين التي كانت خاضعة للسـيطرة البريطانية في ذلك الحين. اسـتخدم الاسـم الحركي عاموس وعدّة أسـماء أخرى لإخفاء تحرّكاته. وعندما حان دوره للرحيل إلى إسرائيل عام 1949، لم تسمح له السلطات الرومانية بذلك. فتمكّن من الفرار باسـتعمال جواز سـفر تشيكيياسـم أوتو ستانيك. وصار أصدقاؤه يطلقون عليه لقب «ذو الأسماء الألف». وفي إسرائيل، أصبح اسمه عاموس مانور.

ارتقى مانور في مراتب أجهزة المخابرات بسرعة، وافتتن إيسير به. كان مانور نقيضاً له. فإيسير قصير القامة على عكس مانور، كما أنّ إيسير خشن وفظّ، في حين أنّ عامـوس لطيـف وحضـاري. لم يكن إيسـير يمـارس أيّ رياضة، أمّا مانور فكان سبّاحاً، ويلعب كرة القدم والتنس والكرة الطائرة. وبينما لم يكن إيسير يتكلّم سوى الروسية واليديشية، كان مانور يتقن سبع لغات. كان إيسير عضواً متفانياً في حزب العمّال، لكنّ عاموس لم يهتمّ بالسياسة. وفي حين كانت ملابس إيسير متواضعة، كان عامـوس أنيـق الملبـس، وأوروبي المظهر. لكـن، بالإضافة إلى كلّ ذلك، كان ذكياً وشديد الدهاء. جنّده إيسير في الشاباك عام 1949. وبالكاد مضت أربع سنوات على ذلك حين قام بن غوريون بتعيينه مديراً؛ بناء على توصية من إيسير. كما عُيّن مسؤولاً عن العلاقات السرّية بين أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية والسي آي إيه.

في يوم الجمعة الممطر ذاك، غرق مانور بين الصفحات المصوّرة. لم يواجه أيّ مشاكل في قراءتها، فإحدى لغاته السبع كانت الروسية. قرأ الصفحات، وأدرك أهمّية خطاب خروتشوف، فاستقلّ سيّارته وهرع إلى منزل بن غوريون.

قال لرئيس الوزراء: «يجب أن تقرأ هذا». كان بن غوريون يجيد الروسية، فقرأ الخطاب. وفي صباح اليوم التالي، وكان يوم سبت، استدعى مانور على وجه السرعة وقال له: «هذه وثيقة تاريخية تثبت أنّ روسيا ستصبح في المستقبل دولة ديموقراطية».

وصل الخطاب إلى يد إيسير في 15 أبريل، فأدرك على الفور أنّه يمكن أن يشكّل منجم ذهب بالنسبة إلى إسرائيل. فقد كان أداة لرفع مستوى علاقات الموساد مع السي آي إيه، وهي علاقات بدأت عام 1947. ففي عام 1951، عندما كان بن غوريون في زيارة إلى الولايات المتّحدة، استدعى الجنرال والتر بيديل سميث، الذي التقاه في أوروبا في نهاية الحرب العالمية الثانية. كان بيديل سميث مديراً للسي آي إيه (وعلى وشك أن يحلّ مكانه آلن دوليس الذي كان مسؤولاً متمرّساً في مكتب الخدمات الاستراتيجية OSS، وشقيق وزير خارجية مستقبلي). فوافق بيديل سميث - بشيء من التردّد - على إقامة تعاون محدود بين السي آي إيه والموساد. وكان العنصر الرئيس في ذاك التعاون هو قيام الإسرائيليين باستخلاص معلومات من مهاجرين من الاتّحاد السوفياتي والكتلة الشرقية. كان معظم المهاجرين مهندسين، وفنّيين، وضبّاطاً في الجيش عملوا في منشآت سوفياتية أو تابعة لحلف وارسو، وكانوا قادرين على تقديم معلومات مفصّلة عن قدرات جيوش الكتلة الشيوعية. كان يتمّ نقل هذه المعلومات إلى السي آي إيه على نحو منتظم، وقد أعجبت الأميركيين. فعيّنت السي آي إيه شخصية أسطورية لتكون حلقة وصل بينها وبين إسرائيل؛ ألا وهي جايمس جيسوس أنغلتون، رئيس مكافحة التجسّس في السي آي إيه. فأقام علاقة ودّية مع عاموس مانور، حتّى إنّه أمضى بضع ليال في شقّته الصغيرة المؤلّفة من غرفتين.

لكن، هذه المرّة قدّم إيسير وعاموس ما هو أكثر بكثير من مجرّد استجواب للمهاجرين. فقد قرّرا تسليم الخطاب إلى الأميركيين، وليس عن طريق رجل السي آي إيه في تلّ أبيب، بل مباشرة في واشنطن. فأرسل مانور نسخة عن الخطاب مع ساعٍ خاصّ إلى عزّي دوروت، ممثّل الموساد في الولايات المتّحدة. فهرع هذا الأخير إلى لانغلي، وسلّمه لأنغلتون. وفي 17 أبريل، أخذ أنغلتون الخطاب إلى

ألـن دوليـس، وفـي وقت لاحق مـن ذلك اليوم وُضع الخطاب على مكتب الرئيس أيزنهاور.

ذُهل خبراء المخابرات الأميركية، فقد حصلت أجهزة التجسّـس الإسـرائيلية اليافعة على ما عجزت عن الحصول عليه الأجهزة العملاقة والمتطوّرة في الولايات المتّحدة وبريطانيا وفرنسا. طلب كبار المسؤولون في السي آي إيه من باب الحيطة والحـذر أن يقـوم الخبـراء بفحص الوثيقة. فأكّد أولئك الخبراء بالإجماع أنّها وثيقة أصلية. وبناء على ذلك، قامت السـي آي إيه بتسـريبها إلى صحيفة نيويورك تايمز التي نشرتها على صفحتها الأولى في 5 يونيو 1956. سبّب نشر الخطاب زلزالاً في العالم الشيوعي، ودفع الملايين إلى إدارة ظهورهم للاتّحاد السوفياتي. وأكّد بعض المؤرخيـن أنّ الانتفاضـات العفوية ضدّ السـوفيات فـي بولندا والمجر، في خريف عام 1956، كان سببها ما كشف عنه خروتشوف.

حقّق إنجاز المخابرات تقدّماً كبيراً في توثيق علاقات جهاز الموسـاد بنظيره الأميركي. والكتيّب المتواضع الذي سمحت لوسيا الجميلة لحبيبها الوسيم فيكتور بالحصول عليه لفترة أحاط الموساد الإسرائيلي بهالة أسطورية.

فـي وارسـو، لـم يشـتبه أحد فـي أنّ فيكتور غرايفسـكي هو من قام بتسـريب خطاب خروتشـوف الذي وصل إلى الولايات المتّحدة. وفي يناير من عام 1957، هاجر فيكتور إلى إسـرائيل، فسـاعده عاموس مانور - امتناناً له - للحصول على وظيفة في قسم الشؤون الأوروبية الشرقية في وزارة الشؤون الخارجية. وبعد وقت قصير، تمّ توظيفه أيضاً كمحرّر ومراسل في القسم البولندي في كول إسرائيل، وهي شبكة الإذاعة الحكومية.

إلاّ أنّه سرعان ما حصل أيضاً على وظيفة ثالثة. فبعد مدّة قصيرة من وصوله إلى إسرائيل، التقى بعض الدبلوماسيين السوفيات في أولبان، وهي مدرسة خاصّة يتـمّ فيهـا تعليـم اللغة العبرية للمهاجرين والأجانب. إذ صدف أن التقاه دبلوماسـي روسـي فـي أحـد أروقة وزارة الخارجيـة، وأُعجب بالمنصب الهامّ الذي احتلّه هذا المهاجر الجديد. وبعد فترة وجيزة، ظهر عميل كيه جي بي صدفة بجانب غرايفسكي

في أحد شوارع تلّ أبيب. تحدّث معه، وذكّره بماضيه في بولندا كشيوعي مناهض للنازية، ثمّ عرض عليه أن يصبح عميلاً للكيه جي بي في إسرائيل. وعده غرايفسكي بالتفكير في الأمر، ثمّ توجّه مباشرة إلى مقرّ الموساد وسألهم: «ماذا أفعل؟».

فرح رجال الموساد، وقالوا له: «رائع. اقبل من دون تردّد». وجعلوا غرايفسكي عميلاً مزدوجاً سيزوّد الروس بمعلومات كاذبة.

هكذا، بدأ فيكتور حياة مهنية جديدة وطويلة، فعمل لسنوات على تزويد الروس بمعلومات لفّقها الموساد وتلاعبوا بها. كان رجال الكيه جي بي يلتقونه في الغابات المنتشرة حول القدس والرملة، وفي الكنائس والأديرة الروسية في يافا والقدس وطبريا، وفي لقاءات عرضية في المطاعم المزدحمة وحفلات الاستقبال الدبلوماسية. لم يشتبه السوفيات ولو لمرّة واحدة خلال الأعوام الأربعة عشر التي أمضاها غرايفسكي كعميل مزدوج أنّه كان يستغلّهم. أثنوا عليه مراراً وتكراراً بفضل المواد الممتازة التي زوّدهم بها. وسرت شائعة في مقرّ الكيه جي بي في موسكو مفادها أنّ الاتّحاد السوفياتي زرع عميلاً في عمق الدوائر الإسرائيلية الحاكمة.

خلال كلّ تلك السنوات، وثق السوفيات بغرايفسكي ولم يشكّكوا إطلاقاً في مصداقيته. لكنّهم عام 1967، تجاهلوا المعلومات التي نقلها لهم واستنتاجاته. ومن المفارقات أنّ تلك المرّة كانت المرّة الوحيدة التي زوّدهم فيها بمعلومات دقيقة تماماً. فخلال فترة الانتظار عام 1967 قبل حرب الأيّام الستّة، اعتقد الرئيس جمال عبد الناصر على نحو خاطئ أنّ إسرائيل تعتزم مهاجمة سوريا في شهر مايو، فحشد قوّاته في سيناء، وطرد قوّات حفظ السلام التابعة للأمم المتّحدة، وأغلق مضيق البحر الأحمر أمام السفن الإسرائيلية، كما هدّد إسرائيل بالفناء. لم تكن لدى إسرائيل حينها أيّ نيّة بشنّ هجوم، بل كانت حريصة على منع نشوب حرب مع مصر. حينها طلب رئيس الوزراء أشكول من الموساد إبلاغ السوفيات أنّه في حال لم تلغِ مصر تدابيرها العدوانية تجاهها، فإنّ إسرائيل ستذهب إلى الحرب. وأمل أن يتمكّن الاتّحاد السوفياتي الذي يملك تأثيراً كبيراً على مصر من إيقاف عبد الناصر. في ذلك الحين، نقل غرايفسكي إلى الكيه جي بي وثيقة توضح بالتفصيل النوايا الإسرائيلية. لكنّ الاتّحاد السوفياتي أخطأ في تقييم الوضع، فتجاهلت موسكو تقرير

غرايفسكي، وشجّعت نوايا عبد الناصر العدوانية.

كانت النتيجة أن إسرائيل شنّت هجوماً دمّرت فيه جيوش مصر، وسوريا، والأردن واحتلّت معظم أراضيها. كما مُني الاتّحاد السوفياتي أيضاً بهزيمة كبيرة؛ فقد تبيّن أنّ أسلحته كانت أقلّ تفوّقاً، كما نكث بوعوده، وتخلّف عن دعم حلفائه بعد هزيمتهم النكراء.

رغم ذلك، بلغت العلاقة الطويلة بين غرايفسكي والكيه جي بي ذروتها في ذلك العام. فقد تمّ استدعاؤه إلى اجتماع مع رئيسه السوفياتي في غابة في وسط إسرائيل، وأبلغه عميل الكيه جي بي رسميًّا أنّ الحكومة تريد شكره على خدماته المتفانية، وأنّها قرّرت تقليده أعلى وسام، وهو وسام لينين.

اعتذر الروسي على عدم تمكّنه من تقليد غرايفسكي الوسام في إسرائيل، لكنّه أكّد له أنّه سيتمّ الاحتفاظ بالوسام من أجله في موسكو، وأنّه سيستلمه حالما يصل إلى هناك. غير أنّ غرايفسكي فضّل البقاء في إسرائيل.

وفي عام 1971، تقاعد من لعبة التجسّس، بيد أنّه لم يُنسَ. ففي عام 2007، دُعي إلى مقرّ الشاباك، وتمّ استقباله من قبل مجموعة من النخبة تتضمّن مديرين حاليين وسابقين للشاباك والموساد، فضلاً عن الكثير من أصدقائه، وزملائه، وأقاربه. ثمّ قدّم له مدير الشاباك آنذاك، يوفال ديسكن، جائزة مرموقة على جهوده المتميّزة. وهكذا، أصبح غرايفسكي أوّل عميل سرّي ينال وسامين؛ أحدهما من بلده الذي خدمه بإخلاص طوال حياته، والآخر من بلد العدوّ الذي قام بخداعه وتضليله؛ بغضّ النظر عن المخاطر.

أطلق عليه أحد المراسلين لقب «الرجل الذي بدأ نهاية الإمبراطورية السوفياتية»، لكنّ غرايفسكي لم يشعر أنّه كذلك، وقال: «أنا لست بطلاً، ولم أصنع التاريخ. من صنع التاريخ كان خروتشوف. لم ألتقِ التاريخ سوى لبضع ساعات، ثمّ تفرّقت بنا السبل».

توفّي في سنّ الحادية والثمانين. وفي مكان ما في الكرملين، في صندوق صغير مبطّن بالمخمل الأحمر، ربّما كانت ميداليته التي نُقشت عليها صورة جانبية لفلاديمير أليتش لينين ما زالت تنتظره.

الفصل السادس

«أحضروا إيخمان حيًا أو ميتًا!»

سألت الفتاة: «وما هو اسمك؟».

فأجاب المعجب مبتسماً: «نيكولاس، لكنّ جميع أصدقائي ينادونني نيك، نيك إيخمان».

ابنة اليهودي الأعمى

في أواخر خريف عام 1957، استلم إيسير هاريل رسالة غريبة آتية من فرانكفورت، في ألمانيا. كانت الرسالة تفيد أنّ د. فريتز باور، المدّعي العام في هيس، يطلب نقل بعض المعلومات السرّية إلى الموساد. كان إيسير يعرف أنّ باور شخص يحظى باحترام كبير في ألمانيا. فقد كان رجلاً كاريزماتياً طويل القامة، يمتاز بلسان لاذع، ومعروفاً بملاحقته المجرمين النازيين بشراسة. أضفى عليه شعره الأبيض الشبيه بعرف الأسد شبهاً بديفيد بن غوريون. كان باور يهودياً أيضاً، وولد محارباً. في عام 1933، مع وصول هتلر إلى السلطة، ألقي باور في أحد المعتقلات. لكنّ التجربة الفظيعة التي عاشها هناك لم تقض على معنوياته. هرب لاحقاً إلى الدانمارك، ومنها إلى السويد. وعند انتهاء الحرب، قرّر أن يكرّس حياته لملاحقة المجرمين النازيين ومعاقبتهم. كان يعبّر بصراحة عن خيبة أمله من سلطات ألمانيا الغربية التي لم تبذل جهدها لاجتثاث النازية.

في نوفمبر 1957، أرسل إيسير ضابطاً أمنياً إسرائيلياً يدعى شاؤول داروم للاجتماع مع باور. وصل داروم إلى فرانكفورت، وأجرى محادثة طويلة مع

المدّعي العامّ. وبعد بضعة أيّام، دخل داروم مكتب إيسير في تلّ أبيب، وقال: «أخبرني د. باور أنّ إيخمان حيّ، وأنّه يختبئ في الأرجنتين».

ذُهل إيسير؛ فهو - كملايين اليهود - كان يعرف أنّ الكولونيل النازي أدولف إيخمان يجسّد الرعب النازي. إذ كان القائد الأعلى لوحدة الهجوم إيخمان (أوبرشتورمبانفوهرر) قد قام شخصيًّا بإدارة الحلّ النهائي المتمثّل في الإبادة المنهجية ليهود أوروبا، وكرّس حياته بشكل دؤوب لقتل 6 ملايين يهودي. كان قد اختفى بعد الحرب، ولم يعرف أحد مكانه. قيل إنّه يعيش في سوريا، ومصر، والكويت، وأميركا الجنوبية.

روى داروم بالتفصيل محادثته مع باور. قبل بضعة أشهر، استلم باور رسالة من الأرجنتين أرسلها مهاجر ألماني أحد أبويه يهودي، وعانى في ظلّ الحكم النازي خلال الحرب. كان قد قرأ تقارير صحفية عن سعي باور الحثيث خلف المجرمين النازيين، وعرف أنّ أدولف إيخمان كان على رأس تلك اللائحة من المطلوبين. وعندما أخبرته ابنته الجميلة سيلفيا أنّها تواعد شابًّا يدعى نيك إيخمان أصيب بالذهول. وفكّر أنّ نيك الشابّ قد يكون قريباً للقاتل المفقود، فكتب إلى باور ليخبره أنه قد يكون قادراً على إيصال عملائه إلى مخبأ إيخمان الذي يقال إنّه يعيش في بوينس آيريس، تحت هويّة مزيّفة.

كان باور يعرف أنّ إيخمان هرب من ألمانيا بعد الحرب، وأنّ زوجته فيرا، وأبناءه الثلاثة مكثوا في النمسا، لكنّهم اختفوا بعد سنوات قليلة. لاحقاً، اكتشف باور أنّهم هاجروا إلى الأرجنتين، وأنّ فيرا تزوّجت هناك مجدداً. كان باور على قناعة تامة بأنها لحقت بإيخمان، وأنّ زواجها الثاني مجرّد كذبة. لا شكّ أنّ زوجها الثاني كان إيخمان نفسه الذي كان ينتظرها هناك.

خشي باور من احتمال فقدان إيخمان في حال طلب من الحكومة الألمانية أن تطلب من الأرجنتين تسليمه. في الواقع، لم يكن يثق بالقضاء الألماني الذي ما زال مليئاً بالنازيين السابقين. كما اشتبه ببضعة موظّفين في السفارة الألمانية في بوينس آيريس. وخشي باور أن يقوم شخص ما في السفارة أو في ألمانيا بتحذير إيخمان قبل أن يتمّ إرسال طلب تسليم رسمي إلى الأرجنتينيين، وأن يختفي مجدّداً.

تكلّم باور مع شاؤول داروم بصراحة. فقد أراد أن يحاول الموساد معرفة ما إذا كان هذا الرجل الموجود في بوينس آيريس هو إيخمان بالفعل. وفي هذه الحالة، على إسرائيل أن تطلب تسليمه، أو أن تقوم بعمليّة سرّية لاختطافه.

أقرّ باور قائلاً: «أنا أتحدّث إليكم بعد أيّام وليال عديدة من التفكير. وهناك رجل واحد فقط في ألمانيا يعرف بقراري إعطاءكم هذه المعلومات، وهو رئيس وزراء هيس، جورج أوغست زين (ديمقراطي اشتراكي، ورئيس مستقبلي للمجلس الاتّحادي في ألمانيا، البوندسرات).

عاد شاؤول داروم إلى إسرائيل، ووضع على مكتب إيسير ورقة تكشف عن مخبأ إيخمان. ركّز إيسير نظره على جملة واحدة: «4261 كاليه تشاكابوكو، أوليفوس، بوينس آيريس».

في مطلع يناير 1958، مرّ شابّ في شارع تشاكابوكو. كان الشابّ هو إيمانويل (إيما) تالمور، عضو في فريق العمليّات الخاصّة في الموساد. وكان إيسير قد أرسلهُ للتحقّق من دقّة رسالة باور. لم يحبّ إيما ما رآه، فقد كان حيّ أوليفوس فقيراً، وتقطنه أغلبية عمّالية. كما اصطفّت على جانبي الشارع غير المعبّد أكواخ متداعية، بما فيها الكوخ ذو الرقم 4261. وفي باحته الصغيرة، رأى تالمور امرأة بدينة.

قال تالمور لإيسير في مكتبه في تلّ أبيب بعد بضعة أيّام: «لا أصدّق أنّ ذلك المنزل يمكن أن يكون منزل إيخمان. فأنا واثق أنّ إيخمان حوّل إلى الأرجنتين مبالغ طائلة من المال، كما فعل جميع المسؤولين النازيين الذين حضّروا لفرارهم قبل وقت طويل من سقوط الرايخ. لا أصدّق أنّه يعيش في كوخ حقير، ولا يمكن أن تكون تلك السيّدة البدينة في الفناء فيرا إيخمان».

لم تقنع احتجاجات تالمور الرامساد. فقد أراد إيسير متابعة التحقيق، ولكنّه احتاج إلى الاتّصال بمصدر باور. لذا، اتصل بباور الذي كشف له فوراً عن اسم مخبره وعنوانه: لوثار هيرمان. كان هيرمان قد انتقل الآن إلى بلدة أخرى اسمها كورونيل سواريز، تقع على بعد حوالى ثلاثمئة ميل من بوينس آيريس. أرسل باور لإيسير رسالة تعريف يطلب فيها من هيرمان أن يبذل ما في وسعه لمساعدة حامل الرسالة.

في فبراير 1958، أتى زائر من خارج البلاد إلى كورونيل سواريز، وكان

يدعى إفراييم هوفشتيتر، رئيس التحقيق في شرطة تلّ أبيب. فقد صدف وجوده في الأرجنتين لحضور مؤتمر للإنتربول، ووافق على التعاون مع إيسير. لكن، من باب الحيطة، عندما طرق على الباب في جادة ليبرتاد، عرّف عن نفسه بأنه ألماني يدعى كارل هوبرت. رأى في غرفة المعيشة رجلاً أعمى يرتدي ملابس عادية، ويضع يديه على طاولة خشبية ضخمة. عندما دخل هوفشتيتر، سمع الرجل الأعمى خطاه والتفت نحوه، وهو يتلمّس المكان بيديه. كان ذاك هو لوثار هيرمان.

قال هوفشتيتر: «أنا صديق فريتز باور»، ولمّح إلى علاقته بالمخابرات الألمانية.

أخبره هيرمان أنّه يهودي، وأنّه كان شرطياً قبل انتقال السلطة إلى أيدي النازيين. قُتل والداه، وأُرسل إلى داخاو، وهناك فقد بصره. ثمّ هاجر لاحقاً إلى الأرجنتين مع زوجته الألمانية. وعندما سمع صدفة باسم إيخمان، اتّصل بباور. كان دافعه الوحيد - على حدّ زعمه - هو المساعدة على معاقبة المجرمين النازيين الذين قتلوا أسرته.

قال وهو يلمس ذراع ابنته الجميلة سيلفيا التي دخلت حينها: «كما ترى، هي التي وجدت لكم إيخمان».

احمرّت وجنتا الفتاة خجلاً، وروت قصّتها لهوفشتيتر بتردّد.

قالت إنّ أسرتها كانت تعيش في حيّ أوليفوس في بوينس آيريس قبل عام ونصف. وهناك، التقت شاباً لطيفاً يدعى نيك إيخمان، خرجت معه بضع مرّات. لم تخبره أنّها يهودية الأصل، وذلك لأنّ آل هيرمان معروفون بكونهم أسرة آرية. لكنّ نيك لم يكن متحفّظاً. ففي إحدى المرّات، أشار إلى أنّه كان يجدر بالألمان إتمام عملهم حتّى النهاية وإبادة جميع اليهود. وفي مناسبة أخرى، ذكر أنّ والده خدم كضابط في الجيش الألماني خلال الحرب العالمية الثانية وأدّى واجبه تجاه الوطن.

عبّر نيك عن آرائه بحرّية أمام سيلفيا، لكنّه لم يقم بدعوتها إلى منزله مطلقاً. وحتّى عندما غادرت أسرتها بوينس آيريس وبدأا يتبادلان الرسائل، أخفى عنها عنوان منزله، وطلب منها أن تراسله على عنوان أحد أصدقائه.

أثار هذا السلوك الغريب شكوك لوثار هيرمان في أنّ نيك قد يكون ابن

إيخمان. فسافر مع ابنته إلى بوينس آيريس، واستقلّ الحافلة إلى أوليفوس. وهناك، عثرت سيلفيا بمساعدة بعض الأصدقاء على عنوان إيخمان، حتّى إنّها تمكّنت من دخول المنزل الذي يقع في شارع تشاكابوكو، لكنّ نيك لم يكن في البيت. التقت هناك رجلاً أصلع ذا شارب رفيع يضع نظّارة، قال لها إنّه والد نيك.

قال هيرمان لهوفشتيتر إنّه سيوافق على الذهاب مجدّداً إلى بوينس آيريس مع سيلفيا للمساعدة على متابعة هذا التحقيق. كان من الضروري أن ترافق سيلفيا والدها الأعمى إلى كلّ مكان، وأن تكتب مراسلاته وتقرأها. أعطاه هوفشتيتر لائحة بما يحتاجون إليه لتحديد هويّة إيخمان بشكل حاسم: صورته، واسمه الحالي، ومكان عمله، فضلاً عن وثائق رسمية عنه، وبصمات أصابعه. ثمّ وضع هوفشتيتر وهيرمان نظاماً آمناً للمراسلة، وأعطى هوفشتيتر هيرمان بعض المال لتغطية نفقاته. أخيراً، أخرج من جيبه بطاقة بريدية ومزّقها إلى نصفين، ثمّ أعطى هيرمان أحدهما وقال: «إن أحضر لك شخص ما النصف الآخر، فبوسعك إخباره كلّ شيء. سيكون واحداً منّا».

تركهما هوفشتيتر، وعاد إلى إسرائيل، وقدّم تقريراً إلى إيسير.

بعد بضعة أشهر، وصل تقرير هيرمان إلى مقرّ الموساد. قال فيه بحماسة إنّه عرف كلّ شيء عن إيخمان. فالمنزل الواقع في شارع تشاكابوكو بناه نمساوي يدعى فرانسيسكو شميت، وذلك قبل عشر سنوات. كان شميت قد أجّر المنزل لأسرتين: داغوتو وكليمنت. وادّعى هيرمان بشكل قاطع أنّ شميت كان إيخمان. فقد اعتقد أنّ داغوتو وكليمنت غطاء وحسب لإيخمان الحقيقي.

طلب إيسير من عميله في الأرجنتين التحقّق من تقرير هيرمان. فأبرق له الرجل قائلاً: «لا شكّ في أنّ فرانسيسكو شميت ليس إيخمان. فهو لا يعيش حاليًّا ولم يعش مطلقاً في المنزل الواقع في شارع تشاكابوكو».

عندها، استنتج إيسير أنّ هيرمان ليس جديراً بالثقة، وقرّر إنهاء التحقيق.

الخطأ

كان قرار إيسير خطأً فادحاً، وكان من الممكن أن يقضي على فرصة إسرائيل في القبض على إيخمان. لا يمكن للمرء سوى أن يتساءل عن انعدام الكفاءة الذي طبع المراحل الأولى للعمليّة. كيف يمكن أن يُوكل تحقيق سرّي ومعقّد إلى عجوز

أعمى وغير كفوء؟! كيف أخذ الموساد على محمل الجدّ تحديده الخاطئ لهويّة إيخمان؟! كيف تجاهل إيسير واقع أنّ سيلفيا قد ذهبت إلى شارع تشاكابوكو والتقت والد نيك إيخمان؟ فعوضاً عن إرسال محقّق محترف إلى بوينس آيريس للتحقّق من هويّة المستأجرين والمالك، اكتفى إيسير بالتخلّي عن المسألة ببساطة. لم يكن ذلك الخطأ الفادح يشبه إيسير إطلاقاً.

بعد عام ونصف، أتى فريتز باور إلى إسرائيل. لم يرغب في لقاء إيسير هاريل الذي لامه على فشله في القبض على إيخمان، بل ذهب إلى القدس مباشرة للاجتماع بالنائب العام حاييم كوهين. فجّر غضبه وهو يصف لكوهين الطريقة الرديئة التي أجرى فيها الموساد هذا التحقيق.

استدعى حاييم كوهين إيسير وتسفي أهاروني - رئيس محقّقي الشاباك - إلى القدس. كان باور ينتظر في مكتب كوهين، واتّهم إيسير بإفشال التحقيق، كما هدّد بأنّه إن كان الموساد عاجزاً عن تولّي المهمّة، فلن يكون لديه أيّ خيار سوى الطلب من السلطات الألمانية القيام بها. لكن ما أقنع إيسير بإعادة فتح القضية ليس تهديده، بل معلومة جديدة أحضرها باور معه، وهي عبارة عن كلمتين حلّتا اللغز. فاسم إيخمان المزيّف في الأرجنتين كان - كما كشف باور - ريكاردو كليمنت.

أدرك إيسير على الفور مكمن الخطأ. في الواقع، كان إيخمان أحد المستأجرين في شارع تشاكابوكو. إلاّ أنّه لم يكن شميت، بل كليمنت.

قامت ابنة هيرمان بالفعل بمواعدة ابن إيخمان، وكانت أسرة إيخمان تعيش فعلاً في شارع تشاكابوكو. لكنّ هيرمان لم يعرف أنّ إيخمان غيّر اسمه إلى كليمنت، بل أشار إليه عن طريق الخطأ على أنّه فرانسيسكو شميت. ولو أنّ إيسير قام بعمله كما ينبغي، وأرسل عملاء مهرة للتحقيق في قصّة هيرمان، لكان قد اكتشف هويّة إيخمان الحقيقية منذ وقت طويل.

اقترح إيسير على كوهين وباور أن يتولّى تسفي أهاروني التحقيق. كان أهاروني رجلاً طويل القامة، وعريض الجبهة، وذا شارب، ويتمتّع بذكاء حادّ. كان هو نفسه يهودياً ألمانياً، وعلى علاقة شخصية طيبة بكوهين؛ على عكس علاقته بإيسير. كان أهاروني لا يزال يشعر بالاستياء لأنّه أتى إلى بوينس آيريس عام 1958 من أجل

قضيّة أخرى، ولم يكلّفه إيسير حينها بالتحقّق من شهادة هيرمان. لكن، يجب نسيان هذا الأمر الآن لأنّ إيسير بحاجة ماسّة إلى خبرته.

هكذا، في فبراير 1960 وصل أهاروني إلى بوينس آيريس على متن طائرة، وطلب من أحد أصدقائه اليهود الذين يعيشون في المنطقة إلقاء نظرة على المنزل الواقع في شارع تشاكابوكو. عاد الرجل مساء، وأبلغه أنّ المنزل خالٍ. فقد كان عدد من الدهّانين والبنّائين يرمّمون إحدى الشقّتين، التي كانت في الواقع المنزل السابق لآل كليمنت الذين غادروا إلى وجهة مجهولة. والآن، توجب على أهاروني إيجاد طريقة لتعقّب كليمنت من دون إثارة الشكوك.

في أوائل مارس، جاء شابّ أرجنتيني في زيّ خادم فندق إلى المنزل الواقع في شارع تشاكابوكو حاملاً هدية صغيرة موجّهة إلى نيكولاس كليمنت. كانت تحتوي على ولاّعة ثمينة وبطاقة معطّرة كُتب عليها: «عزيزي نيك، يوم ميلاد سعيد». بدت الهدية وكأنّها هدية أرسلتها امرأة فضّلت عدم الكشف عن هويّتها.

دخل الخادم الشقّة التي كان يعمل فيها عدد من الدهّانين، وسأل عن أسرة كليمنت، إلاّ أنّ معظم العمّال لم تكن لديهم أي فكرة عن مكانها. غير أنّ أحد العمّال قال للخادم إنّه يظنّ أنّهم انتقلوا إلى حيّ سان فرناندو في الجانب الآخر من بوينس آيريس، ثمّ قاده إلى ورشة مجاورة يعمل فيها شقيق نيك إيخمان الذي كان رجلاً أشقر الشعر يدعى ديتر. لكن، على الرغم من سلوك ديتر اللطيف، رفض الكشف عن عنوان آل كليمنت الجديد. مع ذلك، كشف ديتر الثرثار للخادم أنّ والده يعمل بشكل مؤقّت في مدينة توكومان البعيدة.

عاد الخادم إلى شارع تشاكابوكو، وظلّ يضايق الدهّانين بأسئلته المتواصلة. وأخيراً، وجد رجلاً يعرف العنوان الجديد لآل كليمنت. فقد قال له: «عليك أن تستقلّ القطار إلى محطّة سان فرناندو، ثمّ تركب الحافلة رقم 203 وتنزل في أفيخيندا. وعندما تعبر الشارع، سترى كشكاً. إلى يمينه، وعلى مسافة من المنازل الأخرى، سترى منزلاً صغيراً سطحه مغطّى بالقرميد. ذاك هو منزل آل كليمنت».

عاد الخادم مسروراً وأبلغ أهاروني بما توصّل إليه. وفي اليوم التالي، استقلّ أهاروني القطار إلى سان فرناندو، ونفّذ تعليمات الدهّان، ووجد المنزل على الفور.

توقّف عند الكشك القريب، وسأل عن اسم الشارع.

أجابه البائع العجوز: «شارع غاريبالدي».

عاد التحقيق إلى مساره الصحيح.

شارع غاريبالدي

في أواسط مارس، ارتدى أهاروني بذلة رجل أعمال، وتوجّه إلى منزل في شارع غاريبالدي، مقابل منزل آل كليمنت. قال للمرأة التي فتحت له الباب: «أنا مندوب شركة أميركية. نحن نصنّع آلات خياطة، ونريد بناء مصنع في هذه المنطقة، ونرغب في شراء منزلك». ثمّ أضاف مشيراً إلى منزل آل كليمنت: «وذلك المنزل أيضاً. هل ترغبين في البيع؟».

وفيما كان يتحدّث مع المرأة، أخذ أهاروني يضغط على زرّ مخفيّ في قبضة حقيبة صغيرة يحملها. كان الزرّ يشغّل كاميرا خفية تلتقط صوراً لمنزل آل كليمنت من زوايا مختلفة.

في اليوم التالي، اطّلع أهاروني على محفوظات المدينة، ووجد أنّ منزل آل كليمنت يخصّ السيّدة فيرا ليبل دي إيخمان، وهذا دليل على أنّ فيرا لم تتزوّج مجدّداً، وأنّها سجّلت صكّ الملكيّة باسمها بشهرتها قبل الزواج وبعده، بحسب العرف الأرجنتيني. يبدو أنّ ريكاردو كليمنت فضّل ألاّ يرد اسمه في الوثائق الرسمية.

عاد أهاروني إلى شارع غاريبالدي عدّة مرّات، سيراً على الأقدام، أو بالسيّارة، أو في شاحنة صغيرة، والتقط صوراً للمنزل، ولفيرا، وللصبيّ الصغير الذي رآه يلعب في الفناء. لم ير كليمنت، لكنّه قرّر انتظار تاريخ مميّز: 21 مارس. كان ملفّ أهاروني يشير إلى أنّ هذا التاريخ هو الذكرى الخامسة والعشرون لزواج أدولف إيخمان وفيرا ليبل. وتوقّع أن يعود إيخمان من توكومان للاحتفال به مع أسرته.

في 21 مارس، عاد أهاروني إلى هناك حاملاً الكاميرا. رأى في الفناء رجلاً نحيلاً أصلع الرأس، متوسّط الطول، ذا فم رقيق، وأنف كبير، وشارب. وكان يضع نظّارة. كانت هذه الأوصاف تناسب تلك المذكورة في ملفّ المخابرات.

إيخمان

في إسرائيل، قاد إيسير سيّارته إلى منزل بن غوريون وقال له: "لقد عثرنا على إيخمان في الأرجنتين. أظنّ أنّنا نستطيع خطفه وإحضاره إلى إسرائيل".

أجاب بن غوريون على الفور: "أحضروه حيًا أو ميتاً". ثمّ فكّر للحظة وأضاف: "سيكون من الأفضل أن تجلبوه حيًّا، فهذا مهمّ جدًّا لشبابنا".

وصول الفريق المتقدّم

شكّل إيسير فريق العمليّات. كان جميع أعضائه الاثني عشر متطوّعين؛ بعضهم من الناجين من المحرقة، وما زالوا يحملون أرقام المعتقل موشومةً على سواعدهم. شكّلت وحدة عمليّات الجهاز الأمني جوهر الفريق. وكان على رأسها العميلان الأوّلان في الشاباك. عُيّن رافي إيتان قائداً، وإلى جانبه تسفي مالكين الذي وصفه إيتان بأنّه «شجاع، وقويّ البنية، ويمتاز بإبداع تكتيكي». كان رجلاً أصلع الرأس، ذا حاجبين كثيفَين، وفكّ قويّ، وعينين كثيبتين وعميقتين، ويُعرف أنّه أفضل صيّاد جواسيس في الشاباك. لم يحمل مسدّساً قطّ («فالمرء قد يشعر بالإغراء لاستخدامه»)، بل كان يعتمد على: «الحسّ العامّ، والإبداع، والارتجال». وقد كشف عدّة عملاء سوفيات كبار. أمضى جزءاً من طفولته في بولندا، ثمّ هاجر مع أسرته إلى إسرائيل بعد المجزرة الدامية التي شهدتها قرية غراسنيك لوبلسكي. لم يبقَ أحد هناك باستثناء أخته فروما وأفراد أسرتها، وقد قضوا جميعاً في المحرقة، بالإضافة إلى بعض أقارب تسفي. نشأ في حيفا، وقاتل في حرب إعلان الدولة. من مواهبه العديدة الرسم، والكتابة «الإلزامية»، والتمثيل. خلال إقامته في نيويورك، أصبح مقرّباً من لي ستراسبرغ، مؤسّس أكتورز ستوديو (ستوديو الممثّلين)، وتعلّم منه الكثير عن التمثيل. قال في وقت لاحق: «في كثير من عمليّات الموساد التي شاركت فيها، تصرّفت كما لو أنني كنت على المسرح، واستخدمت التنكّر ومستحضرات التجميل. وفي عمليّات أخرى، شعرت كما لو أنني كنت أقوم بإخراج مسرحية. كتبت أوامري العمليّاتية وكأنّها سيناريو».

كان من بين أعضاء الفريق الآخرين رجل ولد في فيينا يدعى أبراهام (أفروم)

شالوم، وهو رجل ممتلئ الجسم، وكثير الصمت، كان نائب إيتان واحتلّ لاحقاً منصب مدير الشاباك. ومن بين الأعضاء الآخرين كان يعقوب غات، وهو عميل سرّي في باريس، وموشي تافور، الجندي السابق في الجيش البريطاني الذي لاحق مع مجموعة سرّية من «المنتقمين» المجرمين النازيين بعد انتهاء الحرب، وقام شخصيًّا بقتل بعضهم، هذا بالإضافة إلى شالوم داني، الرجل الهادئ، والرسّام الموهوب، و«عبقريّ» تزوير الوثائق. يدّعي البعض أنّه نجا من معتقل نازي عبر تزوير تصريح على ورق صحّي.

كان معظم الرجال متزوّجين، ولديهم أسر.

كان الفريق أيضاً حسن التأليف من الناحية المهنية. فقد كان إفرايم إيلاني يعرف الأرجنتين جيّداً، وعلى دراية بشوارع بوينس آيريس. كان خبيراً بالأقفال، ويتمتّع بقوّة بدنية كبيرة، كما كان عميلاً يمتاز بوجه «صادق» جدًّا، يوحي بالثقة لأيّ كان. وكانت يهوديث نيسياهو امرأة متديّنة، وأفضل عميلة - أنثى - في الموساد، ومتطوّعة أيضاً. كانت يهوديث هادئة، وخجولة، وغير مزعجة، وزائدة الوزن بعض الشيء، وعادية المظهر. كانت متزوّجة من موردخاي نيسياهو أحد نشطاء حزب العمّال. استقبلت أحد مؤلّفي هذا الكتاب عدّة مرّات، ولم يكن في سلوكها شيء يبدو خارجاً عن المألوف.

كان د. يونا إليان طبيباً شارك في عدّة عمليّات للموساد في الماضي، وسيكون حاضراً للمساعدة في جلب إيخمان إلى إسرائيل. انضمّ إليهم أيضاً تسفي أهاروني. لكنّ أوّل المتطوّعين في الانضمام إلى الفريق هو إيسير نفسه. فقد كان يحبّ قيادة رجاله في عمليّات خطيرة في الخارج. لكنّه عرف هذه المرّة أنّه في أثناء التنفيذ، ينبغي اتّخاذ قرارات على أعلى مستوى. وقد تكون لتلك القرارات عواقب سياسية بعيدة المدى. بالتالي، من الضروري بالنسبة إلى الإسرائيليين أن يتولّى القيادة شخص قادر على اتّخاذ قرارات سياسية إذا لزم الأمر. ولهذا السبب شعر إيسير أنّ عليه تولّي القيادة.

في أواخر أبريل، دخل فريق متقدّم من أربعة عملاء الأرجنتين من اتّجاهات مختلفة. قاموا بتهريب معدّات أساسية إلى داخل البلاد: أجهزة اتّصال لاسلكي،

وأدوات وأجهـزة إلكترونيـة، ومسـتلزمات طبّيـة، فضلاً عن جزء من مختبر شـالوم داني المتنقّل والمجهّز لإصدار جوازات سفر، ومستندات، وشهادات.

اسـتأجروا شـقّة في بوينس آيريس (كان اسـمها الرمزي «القلعة»)، ليعيش فيها عـدّة أعضـاء مـن الفريق وليعملوا هناك، وقاموا بتجهيزها بالطعام. في اليوم التالي، اسـتأجر الأربعة سـيّارة وذهبوا إلى سـان فرناندو، ووصلوا إلى هناك عند السـاعة 7:40 مساء.

كان الظـلام قـد حـلّ، ووجـدوا مفاجـأة كبيـرة بانتظارهم. ففي أثنـاء قيادتهم السيّارة ببطء في الطريق 202، رأوا فجأة ريكاردو كليمنت يسير باتّجاههم مباشرة. لم يعرهم أيّ انتباه، بل استدار ببساطة ودخل منزله.

اسـتنتج العملاء أنّ كليمنت يعود إلى منزله على الأرجح كلّ مسـاء، في مثل هذا الوقت تقريباً، ويمكن تنفيذ عمليّة خطفه على الطريق المظلم والمهجور الذي يفصل بين محطّة الحافلات وبيته.

في تلك الليلة، أبرقوا إلى إسرائيل رسالة مشفّرة مفادها: «العمليّة مجدية».

طائرة لأبا إيبان

شـعر إيسـير أنّ الحظّ يحالفه. فقد علم أنّه في 20 مايو سـتحتفل الأرجنتين بالذكرى المئة والخمسـين لاسـتقلالها. وسـتحضر وفود رفيعة المستوى من جميع أنحاء العالم للمشاركة في الاحتفالات. كما سيأتي أيضاً وفد إسرائيلي برئاسة وزير التربية والتعليم أبا إيبان. كان أبا إيبان سعيداً لمعرفته أنّ شركة العال ستضع تحت تصرّفه طائرة خاصّة؛ الطائرة البريطانية «العملاق الهامس». لم يخبر أحد إيبان أنّ السبب الحقيقي وراء كرم شركة العال هو عمليّة إيخمان.

تـمّ تحديـد موعـد الرحلـة 601 إلـى بوينـس آيريس في 11 مايـو. وتمّ اختيار طاقم الطائرة بعناية، ولم يكشـف إيسير السرّ سوى لاثنين من كبار مسؤولي شركة العال، وهما موردخاي بن آري وإفراييم بن أرتسي. وأوصي الطيّار، تسفي توهار، باصطحـاب ميكانيكـي خبيـر معـه، في حال اضطرّت الطائـرة إلى الإقلاع فجأة من دون مساعدة طاقم أرضي أرجنتيني.

في فجر 1 مايو، حطّت طائرة تقلّ إيسير الذي دخل البلد بواسطة جواز سفر

أوروبي في بوينس آيريس. كانت رياح قارسة البرودة تعصف بمدارج المطار. وكان الشتاء يخيّم تقريباً على الأرجنتين. بعد ثمانية أيّام، في مساء 9 مايو، تسلّل عدّة إسرائيليين إلى مبنى سكني عالٍ في بوينس آيريس، وتوجّهوا إلى شقّة تمّ استئجارها قبل بضعة أيّام (اسمها الرمزي «الهضبة»). كان جميع أعضاء الوحدة التنفيذية حاضرين، ونزلوا في فنادق مختلفة في المدينة. أمّا آخر القادمين فكان إيسير، وللمرّة الأولى اجتمع أعضاء الفريق البالغ عددهم اثني عشر عضواً معاً.

منذ وصول إيسير إلى الأرجنتين، اعتمد طريقة تواصل مع فريقه بالغة الذكاء: إذ حمل في جيبه لائحة بأسماء ثلاثمئة مقهى في بوينس آيريس، مع عناوينها وساعات العمل فيها. وكان كلّ صباح يقوم بجولة بين هذه المقاهي سيراً على الأقدام، ويتّبع خطّ سير وجدولاً زمنياً حدّدهما مسبقاً. بهذه الطريقة، كان رجاله يعرفون بالضبط مكان وجوده في كلّ لحظة من النهار. لكنّ سبب الإزعاج الوحيد في هذه الخطة كان كمّيات القهوة الأرجنتينية القوية التي اضطرّ الرامساد إلى شربها في جولاته اليومية. من تلك المقاهي، قاد إيسير تحضيرات العملية.

ساد في تلك الأيّام نشاط محموم: جلب المعدّات اللازمة للاحتفاظ بالسجين وتركيبها، واستئجار سيّارات للمراقبة والخطف، واستئجار شقق إضافية وفيلات معزولة خارج المدينة ليتمّ احتجاز إيخمان فيها. أهمّ تلك الفيلات وهي الفيلاّ التي تدعى «القاعدة» كانت على طريق المطار. استأجرها عميلان للموساد تنكّرا بزيّ سائحَين. كان أحدهما هو يعقوب مئيداد (ميو)، وهو رجل بدين ألماني المولد، خسر أبويه في المحرقة، وقاتل في صفوف الجيش البريطاني خلال الحرب. أمّا المرأة التي أدّت دور رفيقته فكانت يهوديث نيسياهو. أعدّ العملاء داخل الفيلا مخبأً لإيخمان وحارسه؛ تحسّباً في حال قامت الشرطة المحلّية بالتفتيش. وتمّ تجهيز الطابق الثاني كبديل.

نصّت الخطّة على خطف إيخمان في 10 مايو، وعلى وصول الطائرة في 11 مايو، وانطلاقها إلى إسرائيل في 12 مايو.

لكنّ تغييراً حدث في اللحظة الأخيرة أفشل الخطّة. فبسبب العدد الكبير من الزوّار القادمين لحضور الاحتفالات، قامت إدارة المراسم في وزارة الشؤون

الخارجيـة الأرجنتينيـة بإبـلاغ الوفد الإسـرائيلي أنّه سـيتمّ تأجيل وصولهم حتّى 19 مايو، عند الساعة الثانية ظهراً. كان ذلك يعني بالنسبة إلى إيسير إمّا تأجيل اختطاف إيخمان حتّى 19 مايو، أو تنفيذ الخطّة في 10 مايو والانتظار في الخفاء مع الأسير تسـعة أيّام أو عشـرة. لكنّ الخيار الثاني كان ينطوي على خطورة شـديدة، لا سـيّما إن تمّ تنظيم عمليّة بحث مكثّفة عن إيخمان المفقود، بناء على طلب أسرته. فثمّة احتمال حقيقي عندها بأن يتمّ العثور على إيخمان وخاطفيه الإسـرائيليين من قبل الشرطة.

بالرغم من التحفّظات، قرّر إيسير المضيّ قدماً بحسب الخطّة الأصلية. لكن، نظراً إلى شـعور رجاله بالتعب، قرّر تأجيل التنفيذ يوماً واحداً. حُدّد هذا اليوم في 11 مايو، عند الساعة 7:40 مساء.

وُضعـت الخطّـة التنفيذية وأصبحـت جاهزة بأدقّ تفاصيلها: يعود إيخمان من عمله كلّ مسـاء عند السـاعة 7:40. ينزل من الحافلة 203 عند الكشـك، ويمشـي إلـى منزلـه علـى طـول شـارع غاريبالـدي. يكون الشـارع مظلماً في تلك السـاعة، وحركـة السـير خفيفـة فيه. سـيقوم العملاء بتنفيـذ العمليّة في سـيّارتين: فريق ينفّذ عمليّة الخطف، والآخر يتولّى الأمن والحماية. يتمّ ركن السيّارة الأولى على جانب الطريـق، وفتـح غطـاء المحرّك، حيث يبدو الأمر وكأنّ العملاء يقومون بإصلاحها. وعندما يمرّ بهم إيخمان، ينقضّون عليه، ويرمونه داخل السيّارة التي تنطلق به على الفور، وتلحق بها السيّارة الأخرى. سيجلس الطبيب في السيّارة الثانية، ليكون قريباً في حال احتاجوا إلى تخدير المختطَف.

أعطـى إيسـير بنبـرة صارمـة أوامـر صريحـة وواضحـة: «إن واجهتـم أيّ نوع من المشاكل، لا تفلتوا إيخمان حتّى لو تمّ إيقافكم. وفي حال قبضت عليكم الشرطة، قولوا إنّكم إسرائيليون تعملون من تلقاء أنفسكم لتسليم هذا المجرم النازي إلى العدالة». ثمّ أضاف أنّ كلّ من يفلت من الاعتقال عليه أن يغادر البلاد وفقاً للخطّة الحالية.

أمـر كذلـك مئيـداد ويهوديث نيسـياهو بالانتقال إلى الفيـلا والتصرّف كما لو أنّهما سائحان. «اخرجا من وقت إلى آخر واجلسا في الحديقة لتناول الطعام وقراءة الصحف».

تلقّى جميع العملاء الآخرين أوامر بمغادرة فنادقهم والانتقال إلى المنازل الآمنة المحدّدة.

العدّ التنازلي

11 مايو، صباحاً

أتمّت الوحدة التنفيذية استعداداتها. وقبل الساعة المحدّدة، بدأ الرجال بتغطية آثارهم، فأعادوا معظم السيّارات المستأجرة، وأتمّ جميع أعضاء المجموعة تنكّرهم: مستحضرات التجميل، والشوارب، واللحى المزيّفة، والشعر المستعار. كما حصل كلّ منهم على وثائق جديدة تناسب وجوههم الجديدة. وهكذا، اختفى الاثنا عشر شخصاً الذين وصلوا إلى بوينس آيريس قبل بضعة أيّام، وساروا في شوارعها، واستأجروا السيّارات والشقق، ونزلوا في الفنادق، وراقبوا المنزل في شارع غاريبالدي، وحلّ محلّهم اثنا عشر شخصاً آخرون، مختلفو المظهر، ويحملون وثائق مختلفة بأسماء جديدة.

غادر إيسير فندقه أيضاً، ووضع حقائبه في محطّة القطار، ثم عاد إلى المدينة. فهو اليوم سيواصل التنقّل بين المقاهي كما فعل يوميًّا منذ وصوله إلى البلد. ستكون تحرّكاته اليوم في منطقة الأعمال والترفيه التي تتوزّع فيها المقاهي على مسافات متقاربة لا تتجاوز خمس دقائق.

1:00 ظهراً، التقى إيسير رافي إيتان وعدداً من الأعضاء الأساسيين في اجتماع أخير عُقد في مطعم كبير في وسط المدينة. كان الأرجنتينيون المرحون يضحكون حولهم، ويحتسون الشراب، ويلتهمون المشاوي المحلّية. وعند الساعة 2:00 ظهراً، تفرّق المجتمعون.

2:30 ظهراً، أخرج العملاء سيّارة الخطف من مرأب كبير في وسط المدينة، بعد أن كانت متوقّفة هناك لعدّة أيّام، وقادوها إلى "القاعدة". وانطلقت السيّارة الثانية من مرأب آخر.

3:30 عصراً، كانت السيّارتان متوقّفتين بالقرب من "القاعدة"، وجاهزتين للتحرّك.

4:30 عصراً، اجتماع أخير في "القاعدة". بدّل رجال الوحدة التنفيذية ملابسهم، وأخذوا أوراقهم، واستعدّوا للمغادرة.

6:30 مساء، انطلقت السيّارتان. جلس في سيّارة الخطف أربعة عملاء، وهم تسفي أهاروني الذي قاد السيارة، ورافي إيتان القائد، وموشيه تافور وتسفي مالكين. فيما جلس في السيّارة الثانية ثلاثة عملاء آخرين هم أبراهام شالوم، ويعقوب غات، ود. إليان الذي حمل حقيبة تحتوي على أدوية وأدوات ومهدّئات.

انطلقت السيّارتان كلّ على حدة، والتقتا عند مفترق طرق، على مسافة غير بعيدة من منزل كليمنت. تحقّق العملاء من المكان، وتأكّدوا من عدم وجود نقاط تفتيش أو شرطة في الجوار.

7:35 مساء، تمّ ركن السيّارتين في شارع غاريبالدي الذي خيّم عليه ظلام دامس. كانت سيّارة الخطف، وهي من نوع شيفروليه سيدان سوداء، متوقّفة إلى جانب الرصيف، وموجّهة نحو منزل كليمنت. ترجّل منها عميلان وفتحا الغطاء. أمّا أهاروني فبقي أمام المقود، فيما انحنى العميل الرابع الذي ظلّ داخل السيّارة مراقباً الجهة التي يتوقّع أن يظهر فيها إيخمان من الظلام. ارتدى أحد الرجال زوجاً من القفازات الرقيقة تحسّباً في حال اضطرّ إلى لمس إيخمان، فمجرّد فكرة لمسه كانت تسبّب له الاشمئزاز. توقّفت السيّارة الثانية في الشارع نفسه، وكانت عبارة عن بويك سوداء. خرج منها عميلان وشغلا نفسيهما حول السيّارة. أمّا الثالث فظلّ جالساً وراء المقود، وجاهزاً لإضاءة المصابيح في وجه كليمنت عند اقترابه. هكذا نُصب الفخّ.

لكنّ كليمنت لم يظهر.

7:40 مساء، توقّفت الحافلة 203 عند الناصية، لكن لم يخرج منها أحد.

7:50 مساء، وصلت حافلتان أخريان، الواحدة تلو الأخرى، لكنّ كليمنت لم يكن في أيّ منهما. ازداد قلق العملاء. ما الذي جرى؟ هل غيّر عاداته؟ هل اشتمّ رائحة الخطر ولاذ بالفرار؟

8:00 مساء، كان إيسير قد أبلغ المجموعة في اجتماع سابق أنّه في حال لم يظهر كليمنت بحلول الساعة الثامنة، فعليهم إجهاض العمليّة ومغادرة المكان. لكنّ

رافي إيتان قرّر الانتظار حتّى الساعة الثامنة والنصف.

8:05 مساء، توقّفت حافلة أخرى عند ناصية الشارع. في البداية، لم يرَ الإسرائيليون شيئاً. لكنّ أفروم شالوم الذي كان في الفريق الثاني لاحظ فجأة شخصاً آتياً على طول شارع غاريبالدي. كان كليمنت. أضاء مصابيحه فوراً؛ موجّهاً ضوءاً باهراً نحو الشخص المقترب.

كان ريكاردو كليمنت يسير نحو منزله. فاجأته الأضواء الباهرة، فرفع يده إلى عينيه وتابع السير. لاحظ وجود سيّارة مركونة إلى جانب الطريق وحولها بضعة أشخاص، ففكر في أن محركها قد تعطّل على الأرجح. في تلك اللحظة، التفت نحوه رجل واقف بجانب الشيفروليه وقال له: "مومينتيتو، سينيور"، (لحظة واحدة من فضلك). كان ذاك هو تسفي مالكين، وقد استخدم الكلمتين الإسبانيتين الوحيدتين اللتين يعرفهما.

مدّ كليمنت يده إلى مصباح يدوي في جيبه، غالباً ما يستخدمه في هذا الجزء المظلم من الشارع. ثمّ حدث كلّ شيء بسرعة البرق. فقد خشي مالكين من أن يسحب كليمنت مسدّساً، فانقضّ عليه ودفعه على الأرض على جانب الطريق المكسوّ بالتراب. أطلق كليمنت صيحة عالية. غير أنّ رجلين آخرين خرجا من السيّارة وانقضّا عليه. أمسكت برأسه ذراعان قويتان وغطّت يد فمه. جرّوه إلى الجزء الخلفي من السيّارة، ومدّدوه على أرضيتها، فيما كان مذهولاً. شغّل السائق محرّك السيّارة وسرعان ما اندفعت إلى الأمام. ولم تمضِ نصف دقيقة بين اللحظة التي ظهر فيها كليمنت وانطلاق السيّارة.

بعد ثوان، انطلقت السيّارة الأخرى في أعقابها.

قامت أيادٍ رشيقة بتقييد يدي كليمنت وقدميه، وأقحم شخص ما خرقة في فمه. نُزعت النظّارة عن وجهه لتحلّ مكانها نظّارة سوداء. ثمّ تحدّث أحدهم على مقربة من أذنه قائلاً بالألمانية: "حركة واحدة وتموت!" فانصاع له، ولم يتزحزح طوال الرحلة. في تلك الأثناء، امتدّت يدان تحت ملابسه لتحسّس جلده. كانت يدا رافي إيتان تبحثان عن ندبتيه؛ واحدة تحت الإبط الأيسر، والثانية على الجانب الأيمن من بطنه. نظر إيتان إلى مالكين وهزّ رأسه، ثمّ تصافحا. أصبح إيخمان في قبضتهم.

اعتقد إيتان أنّه يسيطر على أحاسيسه، لكنّه أدرك فجأة أنّه يدندن بكلمات أغنية مناصري اليهود في الحرب ضدّ النازيين، ويكرّر اللازمة: "نحن هنا! نحن هنا!".

كانت السيّارة تسير بسرعة كبيرة، ولكنها توقّفت فجأة، وظلّ محرّكها شغّالاً. لم يعرف كليمنت أنّهم أمام حاجز قطار. اضطرت السيّارتان للانتظار دقائق عديدة، إلى أن مرّ قطار شحن كبير. شعر العملاء أنّ تلك اللحظات كانت الأكثر خطورة في العمليّة بأكملها. فقد كانت السيّارتان محاطتين بسيّارات أخرى، وجميعها تنتظر رفع الحاجز. استطاعوا سماع أصوات من الخارج، لكنّ كليمنت لم يجرؤ على التحرّك. لم يلاحظ أيّ من الأرجنتينيين المارّين شيئاً غريباً، ولم ينتبهوا إلى الرجل الملقى على أرضيّة السيّارة. بعد دقائق، ارتفع الحاجز، وانطلقت السيارات.

8:55 مساء، توقّفت السيّارتان في مدخل "القاعدة". تمّ اقتياد كليمنت، الذي مشى كالأعمى بين خاطفيه، إلى داخل المنزل. ولم يعترض عندما بدأوا بتجريده من ملابسه. طلبوا منه بالألمانية أن يفتح فمه، فأطاعهم. تحقّقوا مما إذا كان يملك كبسولة سمّ بين أسنانه. وبما أنّه كان لا يزال يضع النظّارة السوداء، فهو لم يرَ شيئاً، لكنّه شعر بأيد تفحص جسده مجدّداً وتلمس ندبَيه. انزلقت يد خبيرة تحت إبطه الأيسر ولمست الندب الصغير الذي بقي على جسده عندما حاول منذ بضع سنوات إزالة الوشم الصغير لفئة دمه؛ وهو وشم متعارف عليه بين الضبّاط النازيين.

فجأة، علا صوت يتحدّث بالألمانية.

"مقاس قبّعتك... مقاس حذائك... تاريخ ميلادك... اسم الأب... اسم الأمّ...".

أجاب بالألمانية مثل روبوت. وحتّى عندما سألوه: "ما هو رقم بطاقة الحزب النازي الخاصّة بك؟ ما هو رقمك في الجيش النازي؟". لم يستطع التزام الصمت.

45326. ورقم آخر، 63752.

"ما اسمك؟".

"ريكاردو كليمنت".

كرّر الصوت: "ما اسمك؟".

ارتعش وأجاب: "أوتو هنينغر".

"ما اسمك؟".

"أدولف إيخمان".

حلّ الصمت حوله، فكسره قائلاً: "أنا أدولف إيخمان. أعرف أنّني بين أيدي الإسرائيليين. وأعرف أيضاً بعض العبرية، فقد درست مع حاخام في وارسو...".

تذكّر بعض المقاطع من الكتاب المقدّس، وبدأ يتلوها، محاولاً نطق الكلمات العبرية بشكل سليم.

لم يتكلّم أحد.

حدّق الإسرائيليون إليه مذهولين.

مبعوث إلى سديه بوكر

كان إيسير يتنقّل من مقهى إلى آخر. وفي ساعة متأخّرة من الليل، دخل مقهى آخر، وتهالك على كرسي مواجه للباب. فجأة، رأى اثنين من رجاله عند المدخل، فقفز من مكانه. قال له أهاروني مبتهجاً: «قبضنا عليه وتحقّقنا من هويّته، واعترف أنّه أدولف إيخمان».

صافحهما إيسير وغادرا المقهى. عليه الآن العودة إلى محطّة القطار، وأخْذ حقيبته، والنزول في فندق جديد تحت هويّة جديدة؛ كما لو أنّه قد وصل للتوّ إلى بوينس آيريس. قرّر السير في هواء الليل البارد. كان يعاني من حمّى طفيفة إثر نزلة برد، لكنّه شعر في تلك اللحظات أنّه بأفضل حال. مشى بمفرده في الظلام، مستمتعاً بهواء الليل العليل ويشعر بالنشوة. كان ذلك الإحساس رائعاً لن ينساه أبداً.

في اليوم التالي، توقّفت سيّارة أمام كوخ خشبي في كيبوتس سديه بوكر. ترجّل منها رجل نحيل يضع نظّارة، وأبرز هويّته للحرّاس قبل أن يدخل مكتب بن غوريون. كان ذاك الرجل هو يعقوب كاروز، أحد مساعدي إيسير المقرّبين.

قال: «أرسلني إيسير، فقد وصلتنا برقيّة منه. أصبح إيخمان بين أيدينا».

التزم العجوز الصمت، ثمّ سأل: «متى سيعود إيسير؟ أنا أحتاج إليه».

نظر إيسير إلى وجوه رجاله الذين بدا عليهم الذهول، وأدرك أنّ وجود إيخمان برفقتهم يسبّب لهم الاكتئاب. فالوحش الألماني بجانبهم الآن، ولا يفصلهم عنه

سوى جدار رقيق، ممّا يثير توتّر هؤلاء الناس الأشدّاء، واشمئزازهم. فهم لم يعتادوا على رعاية شخص يمثّل في نظرهم رمز الشرّ، إذ كان بالنسبة إلى الكثيرين منهم قاتل أحبّائهم؛ قاتل آبائهم، وأمّهاتهم، وإخوتهم، وأخواتهم الذين لقوا حتفهم في المعتقلات. وكانت العناية بإيخمان تعني تلبية احتياجاته أربعاً وعشرين ساعة في اليوم. لم يكن بإمكانهم إعطاؤه شفرة حلاقة، لذا كانوا يحلقون له بأنفسهم. ولم يكن باستطاعتهم تركه بمفرده ولو لثانية واحدة، خشية أن يُقدم على الانتحار. كان عليهم ملازمته حتّى عندما يدخل الحمّام. كانت يهوديث نيسياهو تطهو وتقدّم لإيخمان وجباته، لكنّها رفضت غسل الأطباق التي يأكل منها. كان اشمئزازها منه طاغياً. وقاوم تسفي مالكين اشمئزازه منه عبر رسمه صوراً لإيخمان على نسخة قديمة من دليل إلى أميركا الجنوبية. أمّا الحرّاس الذين كانوا يتبدّلون كلّ أربع وعشرين ساعة، فشعروا بتوتّر كبير، لذا قرّر إيسير أن يمنح كلاًّ منهم إجازة ليوم كامل. فكّر بتركهم يجوبون شوارع بوينس آيريس لبضع ساعات، ويستمتعون بالحياة الصاخبة في هذه المدينة الكبيرة لنسيان الواقع المرّ في «القاعدة».

كانت تلك أطول عشرة أيّام في حياتهم، أمضوها مختبئين في بلد غريب، وخائفين من ارتكاب خطأ صغير قد يؤدّي إلى عثور الشرطة عليهم، والتسبّب بفضيحة دولية.

التخطيط للهرب

جلس إيخمان في غرفة خالية من الأثاث والنوافذ، يضيئها ليلاً ونهاراً مصباح واحد. كان مطيعاً، وجاهزاً لتنفيذ تعليمات حرّاسه. بدا وكأنّه قد استسلم لمصيره. وكان الشخص الوحيد الذي يتكلّم معه هو أهاروني الذي استجوبه عن حياته قبل الاختطاف. أجاب إيخمان عن جميع الأسئلة، وأخبر أهاروني أنّه بعد هزيمة ألمانيا في مايو 1945، انتحل هويّة عنصر في القوّات الجوّية يدعى أدولف كارل بارث، ثمّ تنكّر لاحقاً كملازم في شعبة الفرسان النازية الثانية والعشرين، أوتو إيكمان، وسجن في معسكر لأسرى الحرب. في نهاية تلك السنة، عندما قُدّم اسمه في محاكمات نورمبيرغ للقادة النازيين، هرب من المعسكر، واختبأ باسم أوتو هينينغر حتّى عام 1950 في زيليه، في ساكسونيا السفلى، وفرّ في ذلك العام إلى الأرجنتين،

عبر إيطاليا، مستخدماً إحدى طرق فرار المجرمين النازيين.

مرّت تسع سنوات منذ وصوله إلى الأرجنتين مرتدياً قميصاً أبيض ومعطفاً شتوياً، وواضعاً ربطة عنق ونظّارة شمسية، مع شارب رفيع. أمضى أربعة أشهر مع أصدقاء له في نزل جرمان في إحدى ضواحي بوينس آيريس، وأربعة أشهر أخرى في منزل أحد معارفه الألمان ويدعى ريلر. عندها فقط خاطر بالتنقّل بمفرده، وانتقل من بوينس آيريس إلى توكومان، وهي بلدة صغيرة تبعد حوالى 600 ميل. عمل هناك لدى كابري، وهي شركة بناء غير معروفة، قيل إنّها شركة تمويه مهمّتها تأمين وظائف للنازيين الهاربين.

في 4 أبريل 1952، استلم إيخمان بطاقة هويّة أرجنتينية باسم ريكاردو كليمنت، المولود في بولزانو، إيطاليا، والذي كان أعزب، ويعمل ميكانيكيًّا.

قبل عام، أي في مطلع سنة 1951، استخدم اسماً مستعاراً، وأرسل رسالة إلى زوجته في النمسا. أبلغها فيها أنّ «عمّ أطفالها، الرجل الذي ظنّته ميتاً، هو في الواقع على قيد الحياة وبصحّة جيّدة». تعرّفت فيرا ليبل على خطّه على الفور، وأخبرت أبناءها أنّ العمّ ريكاردو، ابن عمّ والدهم المتوفّى، قد دعاهم للعيش معه في الأرجنتين.

حصلت على جوازات سفر قانونية لها ولأبنائها، ثمّ بدأت الآلة النازية السرّية عملاً محموماً وتولّت طمس آثار فيرا. وعندما وضع العملاء السرّيون الإسرائيليون أخيراً أيديهم على ملفّ «فيرا ليبل» في المحفوظات النمساوية، لم يجدوا سوى ملفّ فارغ تبخّرت محتوياته على ما يبدو.

في يونيو 1952، اختفت فيرا وأبناؤها الثلاثة هورست، وديتر، وكلاوس من منزلهم في النمسا، وظهروا في أوائل يوليو لمدّة وجيزة في جنوى، ثمّ وصلوا إلى شواطئ بوينس آيريس في 28 يوليو. وفي 15 أغسطس، ترجّلوا من القطار في محطّة توكومان المغبرّة.

كتب موشيه بيرلمان في كتابه: "كانت فيرا إيخمان تحمل في ذاكرتها صورة للضابط النازي الجذّاب الذي كان مثيراً للإعجاب كثيراً بزيّه وحذائه اللامع. لكنّ الرجل الذي وقف بانتظارها عند محطّة توكومان كان رجلاً في منتصف العمر،

يرتدي ملابس متواضعة، ووجهه شـاحب غزته التجاعيد، وملامحه كئيبة، ومشـيته بطيئة. ذاك كان زوجها أدولف".

أصبـح إيخمـان المخيـف شـخصاً آخـر، نحيل الجسـد، أصلع الـرأس، غائر الخدّين، كما خسر وجهه الغطرسة التي كانت تميّزه. بدا مستسلماً لمصيره وقلقاً، وحدهما شفتاه الرقيقتان ظلّتا توحيان بالقسوة والمكر.

عام 1953، أفلست شركة كابري، واضطرّ إيخمان للبحث عن وظيفة. حاول فـي البدايـة فتـح مصبغـة فـي بوينس آيريس مع نازيّين آخرَيـن، ثمّ عمل في مزرعة أرانـب، ولاحقـاً فـي مصنع لتعليـب عصير الفاكهة. أخيراً، وبمسـاعدة منظّمة نازية سـرّية أخرى، تمّ تعيين ريكاردو كليمنت رئيس عمّال في مصنع لتجميع سـيّارات مرسـيدس بينز في سـواريز. في تلك المرحلة، كان قد بدأ يعتقد أنّه سـيمضي بقيّة حياته بسلام؛ حتّى 11 مايو 1960.

في تلك الأثناء، بحث أبناء إيخمان عنه في المستشفيات، والمشارح، ومراكز الشرطة. ثمّ طلبوا مساعدة منظمة الشباب الفاشية البيرونية تاكوارا التي شاركت في عمليّة البحث. لكنّ أبناء إيخمان سـرعان ما اسـتنتجوا أنّ الإسـرائيليين قد اختطفوا والدهم على الأرجح. بعد ذلك، حاولوا عبثاً إقناع المنظّمات المؤيّدة للنازية باتّخاذ إجراء جذري، كخطف السـفير الإسـرائيلي على سـبيل المثال، واحتجازه حتّى يتمّ الإفراج عن أبيهم. لكنّ الأرجنتينيين رفضوا القيام بذلك.

أعطى إيسير رجاله تعليمات واضحة حول ما ينبغي فعله إن اكتشفت الشرطة المخبأ. قال إيسير إنّه في حال أغارت الشرطة على "القاعدة"، فعليهم أخذ إيخمان بسـرعة إلى الغرفة السـرّية التي تمّ إعدادها في المنزل. وفي حال قرّرت الشـرطة تفتيش المنزل بدقّة، عليهم إخراج إيخمان من باب جانبي أعدّ خصّيصاً للطوارئ. وسـيتوجب علـى عـدّة عمـلاء الهـرب مع إيخمان، في حين يبـذل الآخرون ما في وسعهم لإعاقة عمليّة البحث؛ على الرغم من المخاطر التي قد ينطوي عليها ذلك.

قال إيسـير لمن قد يتواجد مع إيخمان: "إن عثرت الشـرطة على المخبأ وتمّ اقتحامـه، فلتكبّـل نفسـك معـه، ولتتخلّص من المفاتيح كـي لا يتمكنوا من فصلك

عنـه. أخبرهـم أنّـك إسـرائيلي، وأنّك قمت مـع أصدقائك باعتقـال أكثر المجرمين قسوة في العالم، أدولف إيخمان، لتقديمه للمحاكمة. ثمّ قم بإعطاء الشرطة اسمي الحقيقي، إيسـير هاريل، واسـمي المزيّف، واسـم الفندق الذي أنزل فيه. وفي حال قبضوا عليك وعلى إيخمان، سيتمّ توقيفي أنا أيضاً".

بعد بضعة أيّام، وافق إيخمان على توقيع وثيقة تنصّ على أنّه مستعدّ للذهاب إلى إسرائيل والخضوع للمحاكمة هناك. تفيد الوثيقة:

> أنـا الموقّع أدناه أدولف إيخمان، أعلن بملء إرادتي ما يلي: بما أنّ هويّتي الحقيقية قد اكتُشـفت، أعترف أنّه ما من جدوى لمحاولة الهرب من سـير العدالة. لـذا، أوافق على الذهاب إلى إسـرائيل والخضوع للمحاكمة أمام محكمـة مؤهّلة. ومن المفهوم أنّني سـأُمنح مسـاعدة محامي دفاع، وأنّه سيُسـمح لي بأن أروي أمام المحكمة - من دون تحريف للحقائق - وقائع السـنوات الأخيرة من خدمتي في ألمانيا، لكي يتمّ نقل وصف دقيق لتلك الأحداث إلى الأجيال القادمة. وأنا أقدّم هذا الإعلان بملء إرادتي. لم أتلقّ أيّ وعد لقاء ذلك، ولم أخضع لأيّ تهديد. رغبتي الوحيدة هي إيجاد السلام الداخلي أخيراً.
>
> وبما أنّني لسـت قـادراً على تذكّر كلّ التفاصيل، وقد يتشـوّش ذهني وأنا أروي الوقائع، أطلب أن توضع تحت تصرّفي الوثائق والشهادات ذات الصلة لمساعدتي في جهودي الرامية إلى إثبات الحقيقة.
>
> **أدولف إيخمان، بوينس آيريس، مايو 1960**

لم يكن لهذا الإعلان بالطبع أيّ قيمة قانونية.

وصول الطائرة

18 مايو 1960، 11:00 صباحاً

جرى احتفال رسـمي في مطار اللد الدولي بالقرب من تلّ أبيب. فقد حضر عدد كبير من الشـخصيّات المرموقة، ومنهم رئيس هيئة الأركان العامة لاسـكوف، والمدير العامّ لوزارة الشـؤون الخارجية، والسـفير الأرجنتيني في إسـرائيل لتوديع الوفد عالي المستوى الذاهب إلى الأرجنتين للمشاركة في الاحتفال بالذكرى المئة

والخمسين للاستقلال. انطلقت طائرة شركة العال "العملاق الهامس" حاملة على متنها أيضاً بعض الركّاب العاديين المتّجهين إلى محطّات في الطريق.

لـم يلاحـظ سـوى قلّـة من الركّاب أنّ ثلاثة مدنييـن آخرين صعدوا على متن الطائـرة فـي رومـا. وبعـد بضـع سـاعات، أصبح أولئك الـركّاب الجـدد من طاقم العال، وأخذوا يتنقّلون في الممرّات بزيّ شركة العال. كانوا في الواقع من عملاء الموساد، وكانوا في طريقهم لمساعدة زملائهم في بوينس آيريس. أحدهم هو يهودا كرمل، وهو رجل أصلع الرأس، ذو أنف بارز، وشارب رفيع. لم يكن سعيداً جدًّا بالقيام بهذه الرحلة. إذ أدرك أنّه لم يتمّ اختياره بسـبب مواهبه، بل بسـبب مظهره الخارجـي. فقبـل بضعـة أيّـام، دُعي إلى مكتب رئيسـه، ورأى هنـاك صورتين على المكتـب، واحـدة لـه والأخـرى لرجـل مجهول. بـدت الصورتان متشـابهتين جدًّا. وعندما قيل له إنّ الرجل المجهول هو أدولف إيخمان، اقشعرّ جسمه. وتضاعفت صدمته عندما أخبروه أنّه اختير ليؤدّي دور شبيه إيخمان. كانت خطّة إيسير تقضي بذهاب كرمل إلى الأرجنتين كعضو في طاقم العال، حيث يأخذ زيّه وأوراقه معه، والتي سيتم استخدامها لوضع إيخمان المخدّر على متن الطائرة. حمل كرمل جواز سفر إسرائيليًّا باسم زئيف زيكروني.

أعدّ إيسـير أيضاً خطّة احتياطية. فقد اسـتدعى بمسـاعدة وسـيط، عضواً شـابًّا فـي الكيبوتـس، اسـمه مئيـر بـار هون، كان في زيارة إلـى أقاربه في بوينس آيريس. طُلب من مئير المجيء إلى مقهى غلوريا في جادة بارتلومي ميتري، حيث سيكون رجلان بانتظاره هناك؛ وهما إيسـير ودكتور إليان. قال له إيسـير: "عندما تعود إلى منزل أقاربك، اتّصل بأحد الأطباء وأخبره أنّك تعرّضت لحادث سيّارة، وأنّك تعاني من الدوار، والغثيان، ومن ضعف عامّ. وعندها سيستنتج الطبيب على الأرجح أنّك تعاني من ارتجاج دماغي وسيدخلك المستشفى. في 19 مايو، في الصباح، ستخبره أنّك تحسّـنت كثيراً وسـتطلب العودة إلى المنزل. سـيتمّ إخراجك، وسيعطونك في المستشفى وثيقة تفيد أنّك عولجت من حالة ارتجاج في الدماغ".

ثمّ أوجز د. إليان لمئير الأعراض التي يجب أن تصاحب حالات الارتجاج. غادر مئير مقهى غلوريا ونفّذ تعليمات إيسير. رقد لثلاثة أيّام في مستشفى كبير

في بوينس آيريس وهو يئنّ. وفي 19 مايو، تمّ إخراجه. بعد ساعة، كان يحمل بين يديه وثيقة طبّية رسمية تمّ إصدارها لمئير بار هون تفيد أنّه أُخرج من المستشفى بعدما تمّت معالجته من ارتجاج دماغي أصيب به بعد تعرّضه لحادث سيّارة.

هكذا، إن فشلت خطّة تهريب إيخمان من الأرجنتين كعضو في طاقم العال، سيتعيّن على إيسير وضعه على حمّالة ونقله إلى الطائرة على أنّه مئير بار هون، المريض الذي لا يزال يعاني من ارتجاج خطير.

19 مايو

عصر ذلك اليوم، هبطت طائرة العال في بوينس آيريس. وقف مسؤولو البروتوكول من وزارة الشؤون الخارجية، ويهود محلّيون متحمّسون، وأطفال يحملون أعلاماً صغيرة زرقاء وبيضاء إلى جانبي السجّادة الحمراء التي امتدّت أمام الطائرة.

بعد بضع ساعات، تباحث إيسير مع الطيّار، تسفي توهار، وأحد مديري العال، وحدّد موعد الإقلاع: 20 مايو، عند منتصف الليل.

أعدّ إيسير خططه. وبعد مناقشة قصيرة، اتّفقوا على تنفيذ الخطّة أ: سيتمّ إدخال إيخمان إلى الطائرة بصفته عضواً في الطاقم أصيب بالمرض. أمّا شبيهه، يهودا كرمل، فقد سلّم زيّه ووثائقه التي تحمل اسم زئيف زيكروني - ملاّح في شركة العال - إلى فريق الموساد. وقام شالوم داني، مزوّر الفريق، بالتلاعب بالوثائق لتناسب إيخمان تماماً. أعطي كرمل وثائق جديدة، وقيل له إنّه سيغادر الأرجنتين قريباً.

في ذلك المساء، كانت "القاعدة" تعجّ بالنشاط مثل خلية نحل. فبعد أسبوع صعب من الانتظار، عاد عملاء الموساد إلى الحياة. تمّ تخدير إيخمان الذي استغرق في النوم، ثمّ قام العملاء بجردة دقيقة للفيلا. ففكّوا جميع الأدوات والأجهزة، وحزموا الأمتعة الشخصيّة، وأعادوا الفيلا إلى حالتها السابقة. ومع حلول ساعات الصباح الأولى، لم يبقَ في الفيلا أيّ دليل على الدور الذي لعبته خلال الأيّام الثمانية الأخيرة. واتُّخذت إجراءات مماثلة في جميع البيوت الآمنة الأخرى.

20 مايو

غادر إيسير الفندق للمرّة الأخيرة، ثمّ استقلّ سيّارة أجرة إلى محطّة القطار، وأدخل حقائبه للفحص. بعد ذلك، استأنف روتين المقاهي الذي التزم به في الأيّام السابقة. كان رجال العال هم الأوائل في تقديم تقريرهم إليه، وأعدّوا معاً جدولاً زمنياً مفصّلاً.

عند الظهيرة، بدأ تنفيذ المرحلة الأخيرة. فقد دفع إيسير فاتورته في آخر مقهى زاره، ثمّ تناول حقائبه، وتوجّه إلى المطار للإشراف على عمليّة الفرار. تجوّل فيه بحثاً عن أفضل مكان يقيم فيه مركز القيادة. تجوّل في منطقتي التسوّق وقطع التذاكر، إلى أن اكتشف أخيراً "كافيتيريا" موظّفي المطار. كان الطقس في الخارج قارس البرودة. وكانت "الكافيتيريا" تعجّ بالموظّفين، والطواقم الأرضية، وموظّفي الطيران الذين دخلوا لتناول شراب ساخن أو وجبة خفيفة. شعر إيسير بالسرور، فهذا المكان مثالي. لن يلاحظه أحد هنا أو ينتبه إلى مشاوراته السريعة والمتكتّمة مع رجاله. انتظر حتّى تمّ إخلاء أحد المقاعد، ثم جلس وبدأ بالإشراف على الخطوات النهائية على الأراضي الأرجنتينية.

«مرحباً، العال»

9:00 مساء، في المنزل الآمن، كان كلّ شيء جاهزاً. فقد تمّ تنظيف إيخمان، وحلاقة لحيته، وأُلبس زيّ شركة العال، ووضعت في جيبه بطاقة هويّة باسم زئيف زيكروني. تمّ تغيير ملامح وجهه بواسطة مستحضرات التجميل؛ إلى درجة أنّ ابنه ما كان بإمكانه أن يتعرف عليه. ارتدى الطبيب واثنان من العملاء أيضاً زيّ شركة العال. حقن الطبيب إيخمان بمخدّر لا يجعله ينام، وإنّما يخفّف من تنبّه حواسّه. كان قادراً على السمع، والرؤية، وحتّى السير، ولكنّه لا يستطيع الكلام، ولا يفهم تماماً ما يجري من حوله.

تولّى أهاروني قيادة السيّارة، وكان يرتدي هو أيضاً زيّ العال، وجلس بجانبه أحد العملاء. وُضِع إيخمان على المقعد الخلفي، بين الطبيب وعميل آخر في جهاز الموساد، ثمّ انطلقت السيّارة.

في الوقت نفسه، انطلقت سيّارتان أخريان من فندق شعبي في وسط المدينة.

كانتا تقلاّن الطاقم الحقيقي لشـركة العال. وتزامنت رحلتهما إلى المطار تماماً مع تقدّم سيارة الموساد.

في مركز القيادة المرتجل، تلقّى إيسـير آخر المسـتجدّات دقيقة تلو الأخرى. أمـر بإحضـار أمتعـة رجالـه إلى المطار، وأعدّ طريق هـرب فرديًّا لكلّ واحد منهم. لكن، في حال نُفّذت الخطّة الأصلية بسلاسـة، فسـيغادرون الأرجنتين جميعاً على متن طائرة العال. على مقربة من إيسير، جلس شالوم داني يحتسي كوباً من القهوة السـوداء السـاخنة. لم تكن لدى المارّة أيّ فكرة عن مدى جرأة هذا الرجل، فقد أقام مختبر تزوير أمام أعينهم، وكان مشغولاً بتزوير جوازات سفر عملاء الموساد؛ فيضع عليها الأختام، ويُجري التعديلات اللازمة لتسهيل رحيلهم.

11:00 مسـاء، وقـف رجـل بالقـرب من إيسـير، وأخبره أنّ جميع السـيّارات، الخاصّة بالموساد وبطاقم العال، قد وصلت. أسرع إيسير إلى الموقف، وتحقّق من وصول سيّارات العال. خيّم الصمت على أعضاء الطاقم. فقد شعروا أنّهم يشاركون في أمر غير اعتيادي، لكنّهم لا يملكون أيّ فكرة عن ماهيّته. نظر إيسير إلى السيّارة الثالثة التي غفا فيها إيخمان بين مرافقيه، ثمّ قال لهم: «انطلقوا، حظًّا سعيداً!».

تقدّمت السيّارات الثلاث، في حين بقي إيسير في المطار. وصل الوفد الصغير إلى حاجز الخطوط الجوّية الأرجنتينية، فقد كانت الطائرة الإسرائيلية متوقّفة لديهم. حيّاهم أحد الإسـرائيليين بمرح: «مرحباً، العال!». تعرّف عليه الحرّاس، فقد كانوا معتادين على رؤية الإسرائيليين يدخلون ويخرجون من موقفهم طوال اليوم. ألقوا نظرة متعبة على ركّاب السيّارات الثلاث الذين كانوا جميعاً يرتدون الزيّ الرسمي لشركة العال. في اثنتين من السيّارات، كان الركّاب يغنّون، ويضحكون، ويثرثرون بصوت عال، بينما كان ركّاب السيّارة الثالثة نائمين على مقاعدهم.

رُفـع الحاجـز، ومرّت السـيّارات الثلاث متّجهة نحـو الطائرة. وما إن وصلت حتى فتحت أبوابها، وترجّل منها رجالها، ثمّ توجّهوا ضمن مجموعة نحو الطائرة. مشـى إيخمـان فـي وسـطهم، وأخفتـه أجسـاد الآخريـن جيّداً. أمسـك بـه رجلان، وسـاعداه علـى صعـود السـلّم، ثمّ أجلسـاه قرب النافذة في الدرجـة الأولى. توزّع الطبيـب وفريـق الأمـن على المقاعد المحيطة به، وتظاهروا بالنوم. وإن أتى موظّفو

الهجرة الأرجنتينية للتحقّق من أوراقهم، فسيقال لهم إنّ هؤلاء الرجال يعملون في المناوبة الثانية، ويحتاجون إلى الاستراحة قبل الوصول إلى المحطّة التالية من الرحلة.

11:15 مساء، سمع إيسير الجالس على مقعده في «الكافيتيريا» الهدير المميّز لمحرّكات «العملاق الهامس». تقدّمت الطائرة نحو المحطّة، وتوقّفت عند بوّابة المغادرة. مشى إيسير بسرعة إلى قاعة المغادرة، ونظر حوله. رأى رجاله موزّعين في زوايا متفرّقة، ويقفون قرب أمتعتهم. توجّه نحوهم، وكلّما اقترب من أحد العملاء، همس له قائلاً: «اصعد على متن الطائرة». فانتقلوا جميعاً من دون أن يلفتوا الانتباه إليهم، وانضمّوا إلى المسافرين المصطفين أمام مراقبة الجوازات. كانت جميع جوازات السفر جاهزة، فقد قام شالوم داني بعمل ممتاز.

11:45 مساء، بعد المرور بقسم الهجرة والجمارك من دون أيّ مشاكل، عبرت المجموعة بوّابة المغادرة واتّجهت نحو الطائرة. كان إيسير آخر من حمل حقائبه وعبر نقاط التفتيش ليصعد على متن الطائرة التي انطلقت على الفور تقريباً باتّجاه المدرج.

0:00، منتصف الليل بين 20 و21 مايو. توقّفت الطائرة بعد أن وُجِّه إليها أمر من برج المراقبة بالتأخير، فشعر العملاء بالتوتّر والقلق. هل حدث شيء ما؟ هل بلغت معلومة ما في اللحظة الأخيرة الشرطة الأرجنتينية؟ هل سيؤمرون بالعودة؟ لكن، بعد بضع دقائق من القلق المرعب، مُنِحت الطائرة أخيراً الإذن بالانطلاق. فحلّقت «العملاق الهامس» فوق مياه ريو دي لا بلاتا الفضّية، وتنفّس إيسير الصعداء.

«عليّ إبلاغ الكنيست...»

22 مايو، حطّت الطائرة في مطار اللد في الصباح الباكر.

عند الساعة التاسعة صباحاً، توجّه إيسير إلى القدس مباشرة، فأدخله أمين سرّ بن غوريون، إسحاق نافون، إلى مكتب رئيس الوزراء مباشرة.

فوجئ بن غوريون لدى رؤيته، فسأله: «متى وصلتم؟».

«منذ ساعتين. قبضنا على إيخمان».

سأل الرجل العجوز: «أين هو؟».

«هنا، في إسـرائيل. أدولف إيخمان في إسـرائيل. وإن وافقتم، فسنسـلّمه إلى الشرطة على الفور».

غرق بن غوريون في الصمت. لم ينفجر باكياً كما ذكر بعض الصحفيين، كما أنّه لم يضحك منتصراً كما كتب آخرون. ولم يعانق إيسير، أو يظهر أيّ انفعال.

سأله: «هل أنت متأكّد من أنّه إيخمان؟ كيف تعرّفت عليه؟».

فوجئ إيسير بالسؤال وأجابه بكلمة نعم. ثمّ فصّل لبن غوريون جميع النقاط التي تميّز إيخمان، وشدّد على أنّ الأسير أقرّ بنفسه أنّه أدولف إيخمان. لكنّ الرجل العجـوز لـم يقتنـع تمامـاً، وقـال إنّ ذلـك ليس كافيـاً. وقبل أن يسـمح بالقيام بأيّ خطوات أخرى، أراد أن يقوم شخصان كانا يعرفان إيخمان بمقابلته والتعرّف عليه رسميًّا. أراد أن يكون متأكّداً مئة في المئة، وقرّر أنّه لن يقول شيئاً لحكومته حتّى ذلك الحين.

اتّصل إيسـير بمكتبه، وأمر موظّفيه بإيجاد بعض الناس القادرين على تحديد هويّة إيخمان شخصيًّا، فعثروا فوراً على اثنين من الإسرائيليين الذين التقوا إيخمان فـي الماضـي. تـمّ اصطحابهما إلى الزنزانة التي احتجـز فيها، وتحدّثا معه، وتعرّفا عليه رسمياً.

عنـد الظهيـرة، دخـل مبعـوث إسـرائيلي مطعماً في فرانكفـورت، ثمّ هُرع إلى إحـدى الطـاولات التـي يجلـس إليهـا رجـل أشـيب بمفرده، وقـد بدا عليـه التوتّر بوضـوح. قـال لـه: «هير باور، لقد أصبح أدولـف إيخمان بين أيدينا. خطفه رجالنا وأحضروه إلى إسرائيل. ونحن الآن نتوقّع في أيّ لحظة صدور بيان من قبل رئيس الوزراء».

نهض باور من مكانه وقد بدا عليه الشـحوب والتأثّر. وكانت يداه ترتجفان. فالرجـل الـذي أعطـى الموسـاد عنوان إيخمـان في الأرجنتين، الرجـل الذي لولاه لمـا كان قـد تـمّ القبـض على إيخمان على الأرجح، لم يعد قادراً على كبح جماح مشاعره، وانفجر في البكاء، وأمسك بكتف الإسرائيلي، ثمّ احتضنه وقبّله.

4:00 عصـراً، فـي الجلسـة العامّـة للكنيسـت، وقف بن غوريـون على المنبر.

وبصوت واضح وحازم، قرأ بياناً مقتضباً: «لا بدّ لي من إبلاغ الكنيست أنّ الأجهزة الأمنية في إسرائيل قد وضعت يدها مؤخّراً على واحد من أكبر المجرمين النازيين؛ أدولف إيخمان الذي كان مسؤولاً بالإضافة إلى زعماء نازيين آخرين عمّا أُطلق عليه اسم «الحلّ النهائي»؛ القاضي بإبادة ستّة ملايين يهودي أوروبي. إيخمان حاليًّا قيد الاعتقال هنا في إسرائيل، وسيتمّ تقديمه للمحاكمة قريباً؛ وفقاً لقانون جرائم النازيين والمتعاونين معهم».

قوبل بيان بن غوريون بالصدمة والدهشة اللتين تحوّلتا إلى تصفيق عفوي هائل. وانتشر الإعجاب والدهشة بين جميع أعضاء الكنيست، ليمتدّ بعد ذلك إلى أنحاء العالم كافّة. وعند انتهاء جلسة الكنيست، نهض رجل عن مقعده، وراء مقاعد الحكومة. قلّة كانوا يعرفون وجهه أو اسمه. كان ذاك هو إيسير هاريل.

افتتحت محاكمة أدولف إيخمان في القدس في 11 أبريل 1961. وشهد المحاكمة 110 أشخاص من الناجين من المحرقة. بعضهم لم يسبق لهم قطّ التحدّث عن ماضيهم، وراحوا الآن يروون قصصهم المروّعة. تسمّرت دولة إسرائيل بأكملها أمام المذياع، وتابعت بكثير من الألم والرعب القصص المروّعة التي ظهرت مع الشهادات. وبدا وكأنّ كلّ الشعب اليهودي قد وضع نفسه مكان المدّعي العامّ، جدعون هاوزنير، الذي تصدّى للمجرم النازي بصفته ممثّلاً للضحايا البالغ عددهم ستة ملايين.

في 15 ديسمبر 1961، حُكم على إيخمان بالإعدام. رُفض الاستئناف من قبل المحكمة العليا، كما رفض العفو من قبل الرئيس إسحاق بن تسفي. وفي 31 مايو 1962، أُبلغ أدولف إيخمان أنّ نهايته باتت وشيكة. في زنزانة الاعتقال، كتب الرجل المحكوم عليه بالإعدام بضع رسائل إلى أسرته، وشرب نصف زجاجة من شراب الكرمل الأحمر. وقرابة منتصف الليل، دخل زنزانة إيخمان رجل دين – مثلما حدث في مناسبات سابقة – فقال له إيخمان: «لن أناقش معك الليلة الكتاب المقدّس، فليس لديّ وقت لأضيعه».

غادر الكاهن، لكنّ زائراً غير متوقّع أتى من بعده؛ إنه رافي إيتان.

وقف الخاطف أمام إيخمان الذي كان يرتدي زيّ سجين بنيًا فاتحاً من دون أن يقول شيئاً. نظر إليه إيخمان، وقال له بالألمانية: «آمل أن يأتي دورك من بعدي».

اقتاد الحرّاس إيخمان إلى حجرة صغيرة تمّ تحويلها إلى غرفة إعدام. وتمّ إيقافه على باب أرضي ولفّ حبل حول عنقه. سُمح لمجموعة صغيرة من المسؤولين، والصحفيين، فضلاً عن طبيب بحضور تنفيذ الحكم، وسماع كلماته الأخيرة التي نطق بها بحسب التقليد النازي: «سوف نجتمع مرّة أخرى... لقد عشت مؤمناً بالله... أطعت قوانين الحرب وكنت مخلصاً للوائي...».

ضغط اثنان من ضبّاط الشرطة الواقفين خلف حجاب على زرّين في الوقت نفسه، وكان واحد منهما فقط يتحكّم بالباب الأرضي. لم يعرف أحد منهما أيّ زرّ فتح الباب. وهكذا، بقي اسم منفذ حكم الإعدام بإيخمان مجهولاً. لم يحضر إيتان عمليّة الإعدام فعليًا، لكنّه سمع صوت الباب الأرضي.

تمّ إحراق جثّة إيخمان في فرن مصنوع من الألمنيوم في باحة السجن. كتب مراسل أميركي: «تصاعد الدخان الأسود نحو السماء. ومع أنّ أحداً لم ينطق بكلمة، إلاّ أنّه كان من المستحيل ألاّ نتذكّر محارق أوشفيتز...».

قبل وقت قصير من فجر يوم 1 يونيو 1962، مرّ قارب سريع لخفر السواحل الإسرائيلية وراء المياه الإقليمية الإسرائيلية. تمّ إطفاء المحرّك، وبينما راح الزورق يتمايل بصمت، قام ضابط شرطة بإلقاء رماد إيخمان في مياه البحر الأبيض المتوسّط.

بعثرت الرياح والأمواج رماد الرجل الذي أعلن قبل عشرين عاماً بمرح: «سأقفز في القبر وأنا أضحك، سعيداً بإبادة 6 ملايين يهودي».

عندما كانت والدة تسفي مالكين على فراش الموت، فكّر تسفي مالكين بأقاربه الذين قُتلوا، وبشقيقته فروما وأطفالها الصغار الذين قضوا في المحرقة. فانحنى نحو أمّه، وهمس لها قائلاً: «أمّي، لقد قبضت على إيخمان وانتقمت لفروما».

همست المرأة المحتضرة: «كنت أعرف أنّك لن تنسى أختك».

الفصل السابع

أين هو؟

بينما كان إيسير وعملاؤه وأسيره إيخمان ينتظرون في مخابئهم في بوينس آيريس وصول الطائرة البريطانية من تلّ أبيب، كان الرامساد مشغولاً بمشروع آخر. فقد قرّر إيسير التحقّق من صحّة الشائعات التي أفادت بوجود مجرم نازي آخر مختبئ في المدينة هو د. جوزيف مينغلي، «طبيب الموت» المتوحّش الذي كان يستلم شحنات اليهود الآتين عبر القطار عند منصّة أوشفيتز، ويرسل من دون اكتراث الأصحّاء منهم إلى العمل، والضعفاء والنساء والأطفال والعجزة إلى غرف الغاز. أصبح مينغلي رمزاً لوحشيّة الرايخ الثالث وجنونه. وقد اختفى بعد الحرب، ولجأ على الأرجح إلى الأرجنتين.

كان مينغلي سليل أسرة ثرية. وفي أثناء اختبائه، ظلّت أسرته تدعمه وتحوّل له مبالغ كبيرة من المال. وأدّى تتبّع أثر المال من قبل عملاء الموساد إلى بوينس آيريس، إلاّ أنّهم فشلوا في إيجاد مينغلي.

غير أنّ الحظّ حالفهم هذه المرّة. ففي مايو 1960، قبل وقت قصير من هبوط الطائرة البريطانية في بوينس آيريس، وجد عملاء إيسير عنوان مينغلي. كان الرجل يعيش في بوينس آيريس مستعملاً اسمه الحقيقي. من الواضح أنّه كان متأكّداً من أنّه محميّ كما ينبغي. أرسل إيسير أفضل محقّقيه، تسفي أهاروني، للتحقّق من العنوان. لكنّ مينغلي لم يكن في المنزل. قال له الجيران إنّ الزوجين مينغلي قد غادرا منزلهما لبضعة أيّام، لكنّهما سيعودان قريباً. استدعى إيسير بحماسة رافي إيتان، وقال له: «لنراقب ونتابع، وعندما يعود مينغلي، سنختطفه أيضاً ونأخذه إلى إسرائيل مع إيخمان».

رفـض رافـي اقتـراح إيسـير؛ فقد كانـت عمليّة إيخمـان معقّـدة للغاية، لذلك قال: «سـنختطف رجلاً واحداً فقط، ولدينا فرصة جيّدة في نقله على متن الطائرة واصطحابه إلى إسـرائيل. لكنّ عمليّة اختطاف رجل آخر سـتضاعف المخاطر إلى حـدّ كبيـر. سيشـكّل هـذا خطأً فادحاً». وهكذا، استسـلم إيسـير، فيمـا قدّم له رافي عرضاً بديلاً: «إن أحضرتم إيخمان إلى إسرائيل وأبقيتم عمليّة اختطافه طيّ الكتمان لمدّة أسبوع، فسأحضر لكم مينغلي».

سأله إيسير: «كيف ستفعل ذلك؟».

«مـا زالـت لدينـا بضعـة منازل آمنة في بوينس آيريـس من عمليّة إيخمان التي لم يعرف بها أحد، لنحتفظ بها. وعندما تأخذون إيخمان إلى إسرائيل، سأطير مع مالكين وأبراهام شالوم إلى إحدى الدول المجاورة للأرجنتين. وحين تصلون إلى إسـرائيل، ستُبقون خبر اختطاف إيخمان سـرّياً. وعندها، لن يعرف أحد بما فعلناه، ولـن يبحـث أحـد عنّـا. بعد ذلك، سـنعود إلى بوينس آيريس، وسـنخطف مينغلي. سنحتفظ به في أحد المنازل الآمنة، وبعد بضعة أيّام سنأخذه إلى إسرائيل».

وافـق إيسـير علـى خطّة إيتـان. وعندما أقلعت الطائرة البريطانية إلى إسـرائيل وعلـى متنهـا إيخمـان، سـافر إيتان وشـالوم ومالكيـن إلى سـانتياغو، عاصمة دولة تشـيلي المجـاورة. كانـوا ينـوون العودة إلـى بوينس آيريس بعد يـوم أو يومين، إن بقي اختطاف إيخمان سرًّا، لإطلاق عمليّة مينغلي.

لكـن، فـي صبـاح اليـوم التالي، نشـرت كلّ وسـائل الإعلام حـول العالم في عناوينها الرئيسة خبر اختطاف إيخمان في الأرجنتين من قبل الإسرائيليين. وهكذا، لـم يعـد مـن الممكـن أن يعود ثلاثة من أهمّ عملاء الموسـاد إلى الأرجنتين لتنفيذ عمليّـة اختطـاف أخـرى. لذا، تخلّى رافي وزميلاه عن مشـروعهم وعادوا أدراجهم إلى إسرائيل.

فـي وقـت لاحـق، قال إيسـير هاريل لرافي إنّه طلب مـن بن غوريون الحفاظ على سرّية اختطاف إيخمان لمدّة أسبوع، لكنّ العجوز رفض. إذ قال له بن غوريون على حدّ زعمه: «الكثير من الناس أصبحوا يعرفون أنّ إيخمان بين أيدينا. لن نتمكّن من إبقاء الخبر طيّ الكتمان لمدّة أطول. لذلك قرّرت إبلاغ الكنيست باعتقاله عصر

هذا اليوم».

أُعلن خبر اختطاف إيخمان، وخسـرت إسـرائيل فرصتها في خطف واحد من أكثر المجرمين سادية في التاريخ.

بعـد مـدّة قصيـرة مـن اعتقال إيخمان، شـعر مينغلي أنّه فـي خطر، فانتقل إلى الباراغـواي واختفـى إلـى أن توفـي بأزمة قلبية بعد عشـرين عامـاً تقريباً، في فبراير 1979.

في مطلع مارس 1962، قام بن غوريون باستدعاء إيسير هاريل. حيّاه العجوز بحرارة، وحدّثه لبعض الوقت في مواضيع شتّى. تساءل إيسير عمّا يريده. فقد كان يعرف بن غوريون جيّداً، وكان واثقاً أنّه لم يدعُهُ لمجرّد تبادل الحديث معه. كان الرجلان يحبّان بعضهما، ومتشـابهَين. فكلاهما قصيرا القامة، وعنيدان، وحازمان، ووُلِـدا ليكونـا قائديـن، وكرّسـا حياتيهما للحفاظ على أمن إسـرائيل. ولم يكن أيّ منهمـا مـن محبّـي إضاعة الوقت والكلام. وبعد إلقاء القبض على إيخمان، أصبحا مقرّبَين أكثر بكثير.

فجأة، في منتصف الحديث، التفت بن غوريون إلى إيسـير وسـأله: «أخبرني، هل يمكنك إيجاد الولد؟».

لم يقل أيّ ولد يقصد، لكنّ إيسير فهم ما قصده على الفور. فخلال العامين الفائتَين، كان ثمّة سؤال يُطرح في جميع أنحاء إسرائيل، ويتصدّر عناوين الصحف، وتصيح به المنابر في الكنيست، ويلقى بغضب في وجوه المتشدّدين اليهود من قبل الشباب العلمانيين: «أين يوسلي؟».

يوسـلي هو يوسـلي شـوخماخر، صبيّ في الثامنة من عمره من مدينة حولون، اختطـف علـى أيـدي اليهود المتشـدّدين الذيـن يتزعّمهم جدّه. فقد أراد الحسـيدي العجوز تربية يوسـلي بحسـب التقاليد المتشـدّدة، فخطف الولد من والديه. ومنذ ذلـك الحيـن، اختفـى الولـد من دون أن يترك وراءه أثراً. ومع كلّ يوم يمرّ، يتحوّل النزاع بشـأنه من كونه مسـألة عائلية، إلى فضيحة وطنية، وإلى مواجهة تزداد عنفاً بين اليهود العلمانيين واليهود المتشـدّدين. وخشـي البعض من اندلاع حرب أهلية

تمزّق الأمّة. وكملاذ أخير، لجأ بن غوريون إلى إيسير.

قال إيسير: «إن أردت ذلك فسأحاول». ثم عاد إلى مكتبه، وفتح ملفًّا عمليّاتياً سمّاه عمليّة شبل النمر.

كان يوسلي صبيًّا حسن المظهر ومرحاً. وكان خطؤه الوحيد على ما يبدو هو سوء اختياره لوالديه؛ ذاك كان رأي جدّه، نحمان شتاركس. كان شتاركس العجوز رجلاً نحيلاً جدًّا، ملتحياً، يضع نظّارة، وينتمي إلى الحسيديين المتعصّبين. كما كان عنيداً وصعب المراس. لم يتمكّن أحد من جعله يرضخ له، سواء أكان من الكيه جي بي، أو من معسكرات العمل السوفياتية في سيبيريا المتجمّدة التي أمضى فيها جزءًا من الحرب العالمية الثانية. في سيبيريا، خسر إحدى عينيه وثلاث أصابع بسبب الجليد، لكنّ معنويّاته لم تتأثّر. إذ لم تنجح تلك النكسات سوى بتغذية كراهيّته للسوفيات؛ تلك الكراهية التي بلغت ذروتها عام 1951 عندما قامت مجموعة من السفّاحين بطعن أحد أبنائه حتّى الموت. وجد المواساة في ولديه الآخرَين، شالوم وعوباديا، وابنته إيدا التي تزوّجت من خيّاط.

عاش الزوجان فترة في منزل شتاركس القديم في لفوف التي استقرّوا فيها بعدما تجوّلوا في أنحاء روسيا وبولندا. هناك، عام 1953، ولد الطفل الثاني في أسرة شوخماخر: يوسلي.

كان الطفل في الرابعة من عمره عندما هاجر إلى إسرائيل مع والديه. ثمّ لحق بهم الجدّ والجدّة شتاركس، وأحد ولديهما، شالوم، بعد بضعة أشهر. استقرّ نحمان شتاركس، الذي كان ينتمي إلى طائفة حسيديم بريسلاو، في ميا شيريم؛ القطاع المتطرّف في القدس. كان ذاك المكان بمثابة عالم آخر مختلف؛ حيث يرتدي الرجال المعاطف السوداء الطويلة أو القفطان الحريرية، ويعتمرون القبّعات السوداء أو المصنوعة من الفراء، كما يملكون لحى كثيفة وخصلاً جانبية طويلة. وكانت النساء يرتدين الملابس الطويلة المتزمّتة، ويغطّين رؤوسهنّ بالشعر المستعار أو الأوشحة. كان عالماً من المعاهد الدينية، والمعابد اليهودية، ومحاكم الحاخامات المشهورين. انضمّ شالوم إلى أحد المعاهد، بينما انتقل شقيقه الآخر عوباديا إلى

إنكلترا.

استقرّت إيدا وألتر شوخماخر في حولون. لاحقاً، عثر ألتر على وظيفة في مصنع للنسيج في منطقة تل أبيب، وعملت إيدا لدى مصوّر، فاشتريا شقّة صغيرة، وكافحا لكسب رزقهما. غير أنّهما وقعا تحت دين كبير. وسعياً منهما لتدبّر أمورهما، أرسلا ابنتهما زينا إلى مؤسّسة دينية في كفر حاباد، وتركا يوسلي إلى جدّيه.

تحت وطأة الأوضاع الصعبة، كتبت إيدا وألتر شوخماخر إلى أصدقائهما في روسيا قائلَيْن لهم إنّه ما كان ينبغي لهم ربّما المجيء إلى إسرائيل. فوقعت بعض الردود على شكاوى الزوجين بين يدي نحمان شتاركس العجوز الذي استنتج أنّ ابنته وزوجها ينويان العودة إلى روسيا مع طفليهما، وثار غضبه وقرّر عدم إعادة يوسلي إلى أبويه.

لكن، بحلول عام 1959، تحسّنت أوضاع الزوجين شوخماخر الاقتصادية، وأصبحا أفضل حالاً، وقرّرا لمّ شمل أسرتهما. وفي ديسمبر، ذهبت إيدا إلى القدس لأخذ ابنها، لكنّها لم تجد يوسلي أو أباها في المنزل. وقالت لها أمّها: «غداً، سيجلب لك شقيقك الصبيّ. فهو الآن مع جدّه في الكنيس، ولا يجب إزعاجهما».

غير أنّ شالوم وصل في اليوم التالي إلى حولون بمفرده، وأخبر أخته أنّ والده قرّر عدم إعادة يوسلي إليها. فسارعت إيدا المذهولة إلى القدس مع زوجها. وقضيا عطلة نهاية الأسبوع في منزل شتاركس، وكان يوسلي هناك هذه المرّة. مساء السبت، وفيما كانا على وشك الرحيل مع ابنهما، اعترضت والدة إيدا قائلة: «الجوّ بارد جدًّا في الخارج. اتركاه لينام هنا الليلة، وغداً سأعيده إليكما». فقبّلت إيدا ابنها الذي تكوّر في فراشه، ثم غادرت مع زوجها. كيف كان لها أن تعلم أنّ سنوات ستمرّ قبل أن ترى ابنها الصغير مجدّداً؟

في اليوم التالي، لم يأتِ يوسلي أو جدّته إلى حولون. فتوجّهت إيدا وألتر مجدّداً إلى القدس، ولكن من دون جدوى. فقد اختفى الولد، ورفض شتاركس العجوز بصراحة إعادته إلى إيدا، على الرغم من دموعها. لقد اختفى ابنها.

بعد عدد من الرحلات الأخرى، أدركت إيدا وألتر أنّ العجوز لن يعيد إليهما ابنهما أو يكشف عن مكان وجوده. وفي يناير 1960، قرّرا اللجوء إلى المحاكم.

فتقدّما بشكوى ضدّ نحمان شتاركس في محكمة تل أبيب اليهودية. لكنّ شتاركس لم يلِن، وبدأ كابوسهما...

15 يناير – أمرت المحكمة العليا في إسرائيل نحمان شتاركس بإعادة الولد إلى أبويه خلال مدّة أقصاها ثلاثين يوماً، واستدعته إلى المحكمة. لكنّه أجاب بعد يومين: «لا أستطيع المجيء نظراً لحالتي الصحّية السيّئة».

17 فبراير – تقدّمت الأسرة بشكوى لدى الشرطة، وطلبت توقيف نحمان شتاركس واحتجازه حتّى يُعيد ابنهما. فأمرت المحكمة العليا الشرطة بالعثور على الولد. وبعد عشرة أيّام، فتحت الشرطة ملفًّا ليوسلي وبدأت عمليّات البحث.

7 أبريل – لم تستطع الشرطة إيجاد أيّ أثر ليوسلي، فطلبت من المحكمة العليا إعفاءها من البحث.

12 مايو – أمرت المحكمة العليا الساخطة الشرطة بمواصلة البحث،كما أمرت أخيراً بإلقاء القبض على نحمان شتاركس الذي اقتيد إلى الحجز في اليوم التالي.

لكن، إن ظنّ شخص ما أنّ دخول شتاركس السجن سيكسر عزيمته فهو مخطئ تماماً. وذلك لأنّ الرجل العنيد لم يتفوّه بكلمة واحدة.

أصبح من الواضح على الفور أنّ شتاركس لم يخبّئ الولد بنفسه، بل تلقّى مساعدة من شبكة من اليهود المتشدّدين الذين قاموا بخداع الشرطة. فقد شاركوا جميعاً في مهمّة مقدّسة: إحباط الخطّة الملتوية القاضية بأخذ الولد إلى روسيا وتحويل ديانته إلى المسيحية؛ أو هذا ما أخبرهم به شتاركس. حتّى إن الحاخام فرانك، الحاخام الأكبر في القدس، أصدر حكماً يدعم فيه شتاركس العجوز ويحثّ المجتمع المتشدّد على مساعدته بجميع السبل.

أدرجت المسألة على جدول أعمال الكنيست في مايو 1960، وكان لدى الصحافة يوم ميداني. كان ممثّلو الأحزاب الدينية هم الأوائل في إدراك الآثار بعيدة المدى لهذه القضية. إذ رأى عضو الكنيست شلومو لورينز أنّ اختطاف الولد من شأنه أن يشعل حرباً دينية في إسرائيل، فعرض على شتاركس وأسرة شوخماخر خدماته كوسيط. وأحضر لشتاركس، الذي كان لا يزال في السجن، مشروع اتّفاق

يعد فيه الأبوان بتربية ابنهما تربية أرثوذكسية. فوافق شتاركس على التوقيع بشرط واحد؛ أن يأمره بذلك الحاخام ميتسيش، أحد أكثر الحاخامات تعصّباً في القدس.

أسرع لورينز إلى القدس وقابل الحاخام. فلمّح ميتسيش إلى أنّه سيوافق على الاتّفاق، شريطة ألاّ تتم ملاحقة الخاطفين.

عندها، ذهب لورينز إلى رئيس الشرطة، جوزيف نحمياس وأخبره بما توصل إليه، فقال نحمياس: «أنا موافق. خذ سيّارتي وأحضر الولد. لديك حصانة برلمانية، ولن يتبع أحد سيّارتي على أيّ حال، وهكذا سيبقى المتورّطون مجهولين».

عاد لورينز إلى الحاخام ميتسيش وهو يشعر بسعادة عارمة، فوجده قد عدل عن رأيه. وهكذا، عاد لورينز إلى نقطة البداية. كان يعرف أنّ الطفل مخبّأ على الأرجح في إحدى الجمعيّات الدينية، أو المدارس التلمودية، أو القرى الأرثوذكسية. لكن، أمام جدار الصمت الذي واجهه، كان العثور على الصبيّ مهمّة مستحيلة.

في 12 أبريل 1961، تمّ الإفراج عن نحمان شتاركس «لأسباب صحّية»، بعدما وعد بمحاولة العثور على الصبيّ الصغير. لكنّه لم يلتزم بوعده، فقامت المحكمة العليا باعتقاله مجدّداً؛ مشيرة إلى أنّ عمليّة الخطف تعتبر «جريمة مروّعة وحقيرة». وفي أغسطس 1961، تمّ تأسيس «اللجنة الوطنية لإعادة يوسلي»، فبدأت بتوزيع المنشورات، وتنظيم اللقاءات العامّة، وتنبيه وسائل الإعلام. وقّع الآلاف على عرائضها، وبدأ ظلّ حرب ثقافية يلوح في الأفق.

في أغسطس 1961، داهمت الشرطة قرية كوميميوت الحسيدية، لتكتشف أنّ العصفور قد طار من قفصه. فقد كان يوسلي مخبًّا في القرية قبل عام ونصف، منذ ديسمبر 1959؛ عندما اصطحبه خاله شالون إلى منزل السيّد زلمان كوت، فتمّ إخفاؤه تحت اسم «إسرائيل حازاك».

لكن في تلك الأثناء، نقل يوسلي بعيداً، وغادر شالوم شتاركس البلاد واستقرّ في مجتمع غولدرز غرين الحسيدي في لندن. وبناء على طلب الشرطة الإسرائيلية، تمّ اعتقال شتاركس من قبل البريطانيين. وعندما ولد ابنه الأوّل، كالمان، اصطحبت الأسرة الطفل إلى السجن لإجراء طقوس الختان.

لكنّ يوسلي اختفى من دون أن يترك أثراً. اعتقد البعض أنّه تمّ تهريبه إلى

خارج البلاد، أو إنّه مرض ومات. وأصبحت الشرطة أضحوكة. واندلعت اشتباكات عنيفة بين العلمانيين واليهود المتشدّدين. كما تمّت مهاجمة طلاّب في المعاهد اليهودية وضربهم في الشارع على أيدي المارّة. وسخر الشباب العلمانيون من الشباب الأرثوذكسيين وهم يصيحون «أين يوسلي؟».

بلغ غضب الجمهور الإسرائيلي درجة الغليان، وهزّت جدالات عاصفة جدران الكنيست.

عندها، قام بن غوريون باستدعاء إيسير.

عندما وافق إيسير هاريل على البحث عن يوسلي، لم يدرك أنّه قبِل المهمّة الأكثر صعوبة وتعقيداً في حياته المهنية كلّها. لم يكن معتاداً على مناقشة قضايا عمله مع زوجته ريفكا. لكنّه قال لها هذه المرّة: «إنّ سلطة الحكومة على المحكّ». كان لدى أفضل عملائه، أبراهام شالوم، رأي مختلف: «أراد إيسير أن يثبت أنّه يستطيع أن ينجح حيث فشلت الشرطة».

فرحت الشرطة هي أيضاً بنفض يديها من هذه المهمّة غير المرغوب فيها. سأل جوزيف نحمياس، رئيس الشرطة، إيسير: «هل تظنّ حقًّا أنّه من الممكن العثور على الولد؟». كما كان عاموس مانور، رئيس الشاباك وساعِد إيسير الأيمن، ضدّ المشروع بأكمله. ووافقه على ذلك الكثير من كبار ضبّاط الموساد والشاباك. فقد اعتقدوا أنّ هذه المهمّة كانت خارج اختصاصهم. فمن المفترض أن يعملوا من أجل أمن إسرائيل، وليس من واجبهم البحث عن ولد صغير في المدارس الحسيدية. وخلافاً لإيسير، لم يروا أنّ من واجب جهاز المخابرات المحافظة على سمعة الدولة اليهودية. لكن عندما اتّخذ إيسير قراره، لم يعترضوا عليه؛ فقد كانت سلطته مطلقة.

شكّل إيسير ومساعدوه فرقة عمل من حوالى أربعين عميلاً من أفضل محقّقي الشاباك. وكان بينهم أعضاء من الفريق العمليّاتي، وعملاء دينيون أو أشخاص متنكّرون على هذا النحو، بالإضافة إلى مدنيين تطوّعوا لمساعدتهم في هذه العملية. كان معظم المتطوّعين أعضاء في المجتمع الأرثوذكسي أدركوا الخطر

الناجم عن اختطاف يوسلي على الأمّة. إلاّ أنّ عمليّاتهم الأولى باءت بالفشل. فقد حاولوا اختراق معاقل المتشدّدين، لكنّ أمرهم كُشف على الفور، وتعرّضوا للسخرية والرفض. قال أحد عملاء إيسير: «شعرت وكأنّني هبطت على سطح المرّيخ ويتوجّب عليّ الاختلاط بحشد من الرجال الخضر الصغار من دون أن يلاحظني أحد».

درس إيسير الملفّ بصبر بالغ، وقرأ كلّ الوثائق تكراراً. لم يكن هناك أيّ أثر ليوسلي في إسرائيل، فتوصّل إيسير أخيراً إلى النتيجة التالية: لقد أُخرِج الطفل من البلاد.

أصبح خارج إسرائيل. لكن أين؟ لفت انتباهه خبر غريب. ففي أواسط مارس 1962، وصلت مجموعة كبيرة من اليهود الحسيديين إلى إسرائيل آتية من سويسرا. أتى عشرات الرجال، والنساء، والأطفال لمرافقة نعش حاخامهم المبجّل ودفنه في الأرض المقدّسة. بدأ إيسير يشكّ في أنّ الجنازة مجرّد غطاء سيُستخدم لإخراج يوسلي من البلاد في أثناء عودة المجموعة إلى سويسرا بعد بضعة أسابيع. لذا، وزّع إيسير رجاله في المطار، وأرسل مجموعة صغيرة من رجاله - يرأسها أبراهام شالوم - إلى زوريخ، لتتبّع الحسيديين لدى عودتهم. حتّى إنّ عملاء الموساد قصدوا مدرسة الأطفال الداخلية، وتسلّلوا إلى باحتها ليلاً لاستراق النظر من النوافذ ولتفحّص كلّ الأولاد هناك. يتذكّر شالوم قائلاً: «وصلنا إلى تلك المدرسة وسط الغابة، واسترقنا النظر من النوافذ. كنّا نعرف أنّه قد يكون متنكّراً، لكنّنا بحثنا عن ولد بالسنّ نفسها». بعد أسبوع من المغامرات الليلية، أُبلِغ إيسير أنّ يوسلي ليس بين الأطفال السويسريين بالتأكيد.

قرّر إيسير أن يتولّى قيادة العمليّة، فترك جميع المسائل العالقة بين أيدي مساعديه، ثمّ أقام في مقرّ مرتجل في باريس، وأرسل رجاله إلى جميع أنحاء العالم. أجروا تحقيقات في فرنسا، وإيطاليا، وسويسرا، وبلجيكا، وإنكلترا، وأميركا الجنوبية، والولايات المتّحدة، وشمال أفريقيا. استخدموا وسائل تمويه مختلفة، وحاولوا اختراق المعاهد والمجتمعات الأرثوذكسية لإعداد قائمة بالمراكز التي يمكن أن يكون الطفل مخبّأ فيها. فوصل يهودي أرثوذكسي شابّ من القدس

إلى المعهد الديني الشهير للحاخام سولوفايتشيك في سويسرا، متنكّراً كطالب أتى لدراسة التوراة لدى المعلّم الشهير. ووصلت امرأة ملتزمة ومتواضعة إلى لندن، حاملة رسائل توصية من حماة شالوم شتاركس التي تمكّنت من كسب ثقتها. وكانت مدعوّة إلى منزل أسرة شتاركس للمكوث لديهم كضيفة؛ من دون أن يعرفوا أنّ المرأة الطيّبة كانت يهوديت نيسياهو، أفضل عميلة لدى إيسير، والتي شاركت في اختطاف إيخمان.

لم تكن يهوديت عميلة الموساد الوحيدة التي تعمل في لندن في تلك الأيام. فقد كانت لندن مركزاً هامًّا للحسيديين المتعصّبين في طائفة ساتمار، (التي تحمل اسم القرية الرومانية ساتو ماري، وإليها يعود أصل الطائفة). أرسل إيسير فريقاً آخر من العملاء إلى الأحياء السكنية الحسيدية في لندن، هذا فضلاً عن فريق آخر سارع إلى إيرلندا. وخلال العمليّات التي جرت في إنكلترا، عثر رجال إيسير على زوجين شابّين ملتزمَين قاما فجأة باستئجار منزل معزول في إيرلندا، فاعتقد عملاء الموساد أنّ الزوجين سيستخدمان المنزل كمخبأ جديد ليوسلي، وأعدّوا خطّة دقيقة ومفصّلة لاختطاف الصبيّ. واستأجروا على عجل شققاً وسيّارات، وهرّبوا معدّات، وجهّزوا وثائق مزوّرة. تمّ التخطيط للعمليّة بأدقّ تفاصيلها، ثمّ تلاحقت الإخفاقات.

كان أوّل من عاد إلى بلاده محبطاً هو الفريق الإيرلندي. فقد تبيّن أنّ «الزوجين الملتزمَين» كانا بالفعل زوجين ملتزمَين قرّرا تمضية إجازتهما في إيرلندا وحسب. كما فشلت يهوديت نيسياهو أيضاً في الحصول على أيّ معلومات من أسرة شتاركس، كما عاد الشابّ الذي ذهب لدراسة التوراة في سويسرا مستنيراً، لكنّه خالي الوفاض. تدفّقت من جميع أنحاء العالم ردود سلبية إلى مقرّ إيسير. لقد اختفى يوسلي.

كان المصير الأسوأ بانتظار الفريق الذي حاول اختراق حسيديي ساتمار في لندن. فقد تمكّن بعض طلاّب المعهد الأذكياء في حيّ ستامفورد هيل من كشف أمر الضيوف على الفور، وواجهوهم وهم يهتفون: «ها هم الصهاينة! تعالوا، يوسلي هنا!». حتّى إنّهم اتّصلوا بشرطة لندن. وبذل مساعدو إيسير مجهوداً كبيراً لإخراج زملائهم من سجن صاحبة الجلالة.

فَقَدَ مساعدو إيسير المتفانون آمالهم واحداً تلو الآخر، وقالوا له: «إيسير، الأمر لن ينجح، أوقف البحث. نحن نبحث عن إبرة في كومة قشّ، لن نجد الولد».

لكنّه لم يستسلم، وتجاهل بعناد جميع الشكوك والشكاوى، وتابع البحث بلا هوادة؛ واثقاً من أنّه سيعثر عليه بالرغم من كلّ الصعاب.

في باريس، قام إيسير باستدعاء يعقوب كاروز، رئيس مركز الموساد. ولد كاروز في رومانيا، وفقد والديه في المحرقة. شارك في عمليّات تجسّس وقضايا أمنية منذ أن كان طالباً في الجامعة العبرية في القدس. أضفت عليه قامته الرشيقة، وجبينه، وقسماته الرقيقة، ونظّارته مظهر المفكّر. كان الرئيس السابق لقسم تيفيل (الكون) في الموساد، والمسؤول عن العلاقات السرّية مع أجهزة المخابرات الأجنبية. ساعد على إقامة «ميثاق المحيط» بين إسرائيل وإيران، وأثيوبيا، وتركيا (جميع الدول غير العربية في محيط الشرق الأوسط). كما أنشأ تعاوناً وثيقاً مع رؤساء المخابرات الفرنسية، والبريطانية، والألمانية. عقد تحالفاً مع الجنرال أوفكير، وزير الداخلية المغربي مرهوب الجانب، وقام بزيارة سرّية إلى الملك الحسن في المغرب. حتّى إنّه ساعد الإمبراطور الأثيوبي هيلا سيلاسي على سحق محاولة انقلاب من قبل أقرب مساعديه. وخلال مهمّة سرّية قام بها في الجزائر، أغرم بشابّة تدعى جولييت (يائيل)، وتزوّج منها. كان كاروز، بكلامه المعسول وتهذيبه الظاهر، جاسوساً محترفاً يرتدي بذلة ويضع ربطة عنق، ولم يتصرّف كعميل ميداني مطلقاً. مع ذلك، كان شخصاً اجتماعياً، يجيد الفرنسية والإنكليزية، الأمر الذي جعله رصيداً قيّماً بالنسبة إلى إيسير.

عمل إيسير على مدار الساعة، فاستأجر غرفة في أحد الفنادق، لكنّه أمضى معظم أيّامه ولياليه في شقّة حوّلها إلى مقرّه التنفيذي. اشترى له مساعدوه سريراً قابلاً للطيّ (أطلقوا عليه اسم «سرير يوسلي»)، كان يغفو عليه لبعض الوقت بين حين وآخر. دام ذلك لأشهر. كان يقضي معظم الوقت في قراءة التقارير، وكتابة البرقيّات، والتكلّم مع رجاله الذين تفرّقوا في أنحاء أوروبا كافّة. عند الفجر، كان يغادر مكتبه ويذهب إلى الفندق ليستحمّ ويستريح قليلاً قبل العودة إلى العمل. عند

عودته في الليلة الأولى إلى الفندق في ساعات الفجر الأولى، وجّه إليه الحارس ابتسامة مشرقة، وهو يفكر بالتأكيد أنّ هذا السيّد قصير القامة يستمتع بحياة الليل الباريسية إلى أقصى حدّ. وفي الليلة الثانية، سمح الحارس لنفسه بغمز السيّد بود. لكن، عندما توالت المغامرات الليلية للمرّة الثالثة، والرابعة، والخامسة لم يعد بإمكان الحارس الحفاظ على برودة أعصابه. وعندما عاد إيسير فجراً وعيناه حمراوان من قلّة النوم، وذقنه غير حليق، وملابسه مجعّدة، رفع الحارس قبّعته على نحو مسرحي، وانحنى له قائلاً: «احترامي، مسيو!».

في صباح أحد أيّام أبريل، وصل تقرير غريب إلى عملاء الموساد. كان قد تمّ إرساله من قبل شابّ يهودي أرثوذكسي يدعى مئير ذهب إلى أنتويرب في بلجيكا. تعرّف هناك على مجموعة من تجّار الماس الذين اتّبعوا الحاخام إتزيكيل. فعندما يرغبون في حلّ نزاعاتهم التجارية، لا يلجأون إلى محاكم الدولة، بل يطلبون وساطة الحاخام وحكمه، وذلك بشأن صفقات غالباً ما تساوي عدّة ملايين. كانت كلمته هي القانون. وحتّى في أوروبا الحديثة، ما زالت هذه المجموعة من التجّار تحترم عادات العصور القديمة وتقاليدها.

نجح مئير في اختراق دائرة أتباع الحاخام، وعلم أنّه خلال الحرب العالمية الثانية أدّوا دور منظّمة سرّية مناهضة للنازية، وأنقذوا الكثير من اليهود من الغيستابو. بعد الحرب، تابعت المجموعة استخدام الوسائل والخبرة نفسها التي اكتسبتها كمنظّمة سرّية للدخول في مشاريع تجارية في مختلف أنحاء العالم. وأخبر تجّار الماس مئير قصّة غريبة عن امرأة فرنسية شقراء وزرقاء العينين تنتمي إلى المذهب الكاثوليكي، كانت عضواً في تنظيمهم خلال الحرب، وساعدتهم على إنقاذ اليهود من قبضة هتلر. تأثّرت المرأة إلى حدّ كبير بشخصيّة الحاخام، فتحوّلت إلى الديانة اليهودية الأرثوذكسية، وأصبحت أرثوذكسية مخلصة، ورصيداً لا يقدّر بثمن بالنسبة إلى المجموعة. السنوات التي أمضتها في المنظّمة علّمتها الكثير. كانت لامعة، وجريئة، وتتقن إخفاء آثارها، وتجيد التنكّر، وتستخدم سحرها كسلاح. بالإضافة إلى ذلك، كان لديها حدس قوي في مجال الأعمال وذكاء طبيعي حادّ. سافرت حول العالم في مهمّات لمجموعة أنتويرب بجواز سفرها الفرنسي. قال يهود

أنتويرب لمئير عنها: «إنّها امرأة مبجّلة». كما قال له أيضاً إنّها زارت إسرائيل، وإنّ ابنها من زواجها الأوّل، كلود، تحوّل هو أيضاً إلى الديانة اليهودية، وبعد أن درس في المعاهد اليهودية في سويسرا وإيكس ليبان، أصبح الآن طالباً في المدرسة التلمودية في القدس. لكن، لا أحد يعرف مكان تلك المرأة الرائعة الآن، بمن في ذلك أعضاء مجموعة أنتويرب.

ألهبت القصّة خيال إيسير. في الظاهر، لم يكن التقرير يُشير إلى أيّ رابط بين المرأة الفرنسية ويوسلي. لكن، من وجهة نظر إيسير كانت تبدو امرأة ذات إمكانات هائلة، امرأة بألف وجه. وربّما كانت تشكّل هبة من السماء بالنسبة إلى الزعماء الأرثوذكسيين إن احتاجوا إلى شخص ما من أجل تنفيذ مهمّات سرّية تتعلّق بيوسلي.

قرّر إيسير أن يتبع حدسه ويتخلّى عن كلّ الخيوط الأخرى؛ للتركيز على تلك المرأة الغامضة. فأبرق إلى إسرائيل جميع التفاصيل التي يعرفها، وطلب من رجاله العثور على الابن والأمّ.

بعد بضعة أيّام، وصل الجواب. كان اسم الابن الآن أريل، وهو في إسرائيل بالفعل. ولكن، لا أحد يعرف أين أمّه. اسمها الأصليّ هو مادلين فيراي، لكنّها تدعى في إسرائيل روث بن ديفيد.

رسمت التقارير التي توالت إلى مقرّ إيسير صورة أكثر دقّة لمادلين فيراي. فقد درست الشابّة الجميلة التاريخ والجغرافيا في جامعة تولوز وفي جامعة السوربون في باريس. تزوّجت من حبيبها في الجامعة، هنري، وولد ابنهما بعد مدّة قصيرة؛ بعد اندلاع الحرب العالمية الثانية. انضمّت مادلين إلى مقاومة الماكي خلال الحرب، وأدّت أنشطتها السرّية إلى تواصلها مع اليهود الفرنسيين والبلجيكيين، ومنهم مجموعة أنتويرب. وعندما وضعت الحرب أوزارها، دخلت في مشاريع استيراد وتصدير مع بعضهم.

عام 1951، تطلّقت من هنري بعدما وقعت في حبّ حاخام شابّ في بلدة ألزاسية صغيرة. أراد الحاخام – وكان صهيونياً متحمّساً – الهجرة إلى إسرائيل،

وقرّر العاشقان الزواج هناك. بالتالي، لم يكن اعتناقها اليهودية ناتجاً عن حبّها للدين نفسـه، بل بدافع حبّها لأحد أتباعه. وهكذا، قامت روث بن ديفيد بتغطية شـعرها الأشـقر بوشـاح، واسـتبدلت ملابسـها الأنيقة بثوب بشع يشـبه ما ترتديه اليهوديات الأرثوذكس، ولحقت بخطيبها إلى الأراضي المقدّسـة. لكن في إسـرائيل، لم تسـر الأمـور كمـا تشـتهي. فقد تركها الحاخام، وبقيت بمفردهـا مكتئبة ومحبطة. دفعتها أزمتها الشـخصية على ما يبدو إلى التقرّب من الدوائر المتطرّفة في القدس، ومن زعيمها الحاخام ميتسيش، فنالت احتراماً كبيراً في الأوساط الدينية بعدما استخدمت جواز سـفرها الفرنسـي للعبور إلى القطاع الأردني من القدس والصلاة أمام حائط المبكى.

في مطلع الخمسـينيّات، عادت روث إلى فرنسـا وبدأت تسـافر مجدّداً على نطاق واسع. اكتشف عملاء الموساد أنّها أقامت في أحيان كثيرة في إيكس ليبان، أو في مؤسّسة دينية نسائية على مقربة من باريس. لكن لم يكن لديها عنوان دائم.

أبلغت سـلطات الهجرة رجال إيسـير أنّ روث زارت إسـرائيل في السـنوات الأخيـرة مرّتيـن. فـي المـرّة الثانية التي كانت في 21 يونيو 1960، غادرت إسـرائيل برفقة فتاة صغيرة مسجّلة في جواز سفرها على أنّها ابنتها. سافرت على متن طائرة تابعة لشركة أليتاليا، وكان مقصدها النهائي هو مدينة زيوريخ. لكن، من كانت تلك الفتاة الصغيرة؟ لم يكن لدى بن ديفيد ابنة. هنا، شعر إيسير أنّه يسير على الطريق الصحيح، وقال ليعقوب كاروز: «اعثر عليها!».

انطلق كاروز مع عميل آخر إلى إيكس ليبان، متسلّحَين بوصف دقيق للمرأة. لكن، عندما وصلا إلى البلدة الصغيرة، رأيا مشهداً مذهلاً: روث بن ديفيد، أو في هذه الحالة مادلين فيراي، مرتدية ملابس أنيقة، وواقفة عند جانب الطريق لإيقاف سيّارة! دُهش العميلان. لم يكن من المألوف رؤية امرأة فرنسية أنيقة ومرهفة تحاول إيقاف سـيّارة عشـوائية على طرقات فرنسـا. فالتفّ السـائق على الفور، وتوجّه نحو السيّدة. لكنّ سيّارة أخرى توقّفت أمامه وانطلقت مع المرأة الجميلة.

عـاد العميـلان مـن إيكس ليبـان خاليَي الوفاض. لكنّهما علما من مصدر آخر أنّ روث بـن ديفيـد علـى علاقـة وثيقـة مع جوزيف دومب، تاجـر ألماس ثري من

لندن. فقد شوهدت وهي جالسة مع دومب في السيّارة بمفردهما؛ وهذا أمر غير ملائم لرجل حسيدي. كان إيسير يعرف دومب، فهو عدوّ لدود لدولة إسرائيل. كان ينتمي إلى طائفة الساتمار الحسيدية، وهو أحد المقرّبين من حاخام الساتمار في نيويورك، ويعرف كبار زعماء الساتمار في مختلف الجاليات في أوروبا. قال أحد الخبراء لإيسير: «إن كان حاخام الساتمار في نيويورك هو البابا، فإنّ دومب هو رئيس أساقفته».

أدرك إيسير أنّ جميع الطرق تؤدّي إلى لندن. فهناك يعيش ولدا شتاركس العجوز. وهناك يقع مركز مجموعة ناشطة من طائفة الساتمار، يتزعّمها دومب. وهناك أيضاً شوهد دومب مع روث بن ديفيد التي يمكن أن تكون قد هرّبت يوسلي إلى خارج إسرائيل. لم يعد لدى إيسير أيّ شكوك في أنّ حسيديي الساتمار في إسرائيل وأوروبا قد خطّطوا لعمليّة خطف الولد. ولا بدّ أن دومب كان مسؤولاً عن العمليّة، فيما أدّت روث بن ديفيد دوراً رئيساً فيها؛ بسبب مواهبها، وتجربتها، وجواز سفرها الفرنسي. ربّما كانت تعرف مخبأ يوسلي.

وتأكّدت شكوكه عندما قام عميل في الشاباك باعتراض عدّة رسائل كتبتها روث بن ديفيد إلى ابنها، ووردت فيها بعض التلميحات الخفيّة إلى يوسلي شوشماخر.

كان إيسير بحاجة إلى مزيد من المعلومات، لذا قرّر اختراق حسيديي الساتمار. عثر رجاله في لندن على موهيل، وهو حاخام متخصّص في ختان الذكور اليهود حديثي الولادة. كان اسمه فريير، لكنّه لم يكن اسمه الحقيقي. كان الرجل ثرثاراً، ويتذوّق متع الحياة تحت عباءة الاستقامة، وأخيراً وليس آخراً، كان مقرّباً من دومب، ويدّعي أنّه يعرف مكان يوسلي.

أطلق إيسير عمليّة معقّدة تهدف إلى إحضار فريير إلى باريس. ذهب أحد رجاله بعد أن تنكّر في زيّ أمير مغربي إلى فريير سرًّا وقال له إنّه أغرم بفتاة يهودية، وإنّهما تزوّجا سرًّا، وحافظا على سرّية إيمانهما في المغرب. الآن، أنجبت زوجته صبيًّا، وهو يريد ختانه، لكنّه لم يستطع فعل ذلك في المغرب. فلو عرفت أسرته بالأمر لقتلته على الفور... كان هو وزوجته الآن في باريس، ويريد من الحاخام

فريير الذهاب معه لختان الطفل، وسيجزيه العطاء.

وافق فريير على الفور، ووصل بعد بضعة أيّام إلى باريس. حالما دخل شقّة «الأمير المغربي»، قبض عليه عملاء الموساد، واصطحبوه إلى غرفة خالية، حيث تمّ استجوابه لساعات على يد فيكتور كوهين، رئيس قسم التحقيق في الشاباك. لم يبدِ موهيل أيّ مقاومة من شدّة خوفه، وكان على استعداد للتكلّم. لكن عندما سئل عن يوسلي، رفع يديه قائلاً: «أنا آسف جدًّا، لكنّني لا أعرف شيئاً».

تبيّن بالفعل أنّ فريير لا يعرف شيئاً عن الطفل المخطوف، وأنّه كان يتبجّح للتأثير على أصدقائه وحسب. مرّة أخرى، وجد إيسير نفسه أمام طريق مسدود.

لكنّ المدهش أنّ فريقاً آخر من رجاله حالفه الحظّ. فبمساعدة جهاز المخابرات الفرنسي، نجح فريقه في اعتراض عدّة رسائل مرسَلة إلى مادلين فيراي، وفي إحداها وجدوا ما كانوا يبحثون عنه. فقد كانت ردًّا على إعلان تعرض فيه منزلها الريفي في أورليان للبيع. وأورليان مدينة جميلة في «حديقة فرنسا»، وادي لوار. فأرسلوا رسالة إلى صندوق البريد المحدّد في الإعلان، وعرضوا على فيراي أكثر ممّا تطلبه ثمناً لمنزلها. وادّعوا أنّهم رجال أعمال نمساويون يبحثون عن موقع يمضون فيه عطلاتهم. ردّت مادلين فيراي على رسالتهم وأعطتهم عنوان منزلها. بعد مدّة وجيزة، كتبوا لها أنّهم قاموا بزيارته وأنه يناسب احتياجاتهم، وحدّدوا موعداً لإتمام الصفقة في 21 يونيو 1962، في بهو فندق كبير في باريس.

قبل بضعة أيّام من الموعد، وصل رجال إيسير إلى باريس واحداً تلو الآخر، وانخرطوا في نشاط محموم. استأجروا السيّارات والمنازل الآمنة في باريس وضواحيها، وحدّدوا طرقات للهرب، وأعدّوا الوثائق والمعدّات، وأحضروا من إسرائيل خبراء في المراقبة والاستجواب.

قرّر إيسير أيضاً أنّ أفضل الوسائل لإجبار روث بن ديفيد على كشف أسرارها هي من خلال ابنها. كان أريل يدرس في معهد ديني في إسرائيل ويعرف على ما يبدو الكثير عن يوسلي، فقرّر إيسير اعتقاله بالتزامن مع اختطاف أمّه في فرنسا. كان أريل أرثوذكسياً، لكنّه أقلّ تعصّباً من والدته. فأقام إيسير نظام اتّصالات يمكّن عملاء الموساد من مزامنة استجواب روث مع استجواب ابنها في إسرائيل، حيث

يتمكّنون من استخدام إجابات الابن لطرح أسئلة على الأمّ.

بالفعل، في صبيحة 21 يونيو، دخلت امرأة رائعة الجمال، وطويلة القامة، وأنيقة المظهر بهو الفندق. كانت مادلين فيراي.

عرّفت الفرنسية الساحرة عن نفسها للنمساويَين اللذين كانا بانتظارها. كان أحدهما هو هير فوربر، فيما الآخر هير شميت. تكلّمت معهما بإنكليزية ممتازة، كما كانت تجيد الألمانية. ولم تشتبه إطلاقاً بهويّة الرجلين. توصّلوا إلى اتّفاق بشأن بيع المنزل، لكنّ محاميهما تأخّر. اتّصل به فوربر من إحدى حجرات الهاتف في الفندق. وعندما رجع، قال إنّ المحامي قد اعتذر منه كثيراً؛ فقد تأخّر في المنزل على حدّ قوله بسبب بضعة أمور مستعجلة، وسأله إن كانوا يستطيعون القدوم إلى منزله في بلدة شانتيي القريبة من المدينة، وإنه أعطاه العنوان والاتّجاهات المفصّلة قائلاً له إنه سيستقبلهم على الفور، وسيوقّعون جميع الأوراق مباشرة.

سأل فوربر: «هل نذهب؟».

وافقت مادلين، فاستقلّوا سيّارة النمساويَين وتوجّهوا إلى منزل المحامي. لكنّ سحر المرأة الفرنسية كاد أن يفشِل العمليّة بأكملها. إذ تجاوز فوربر، العميل الذي تولى القيادة، الإشارة الحمراء لشدّة انبهاره بمادلين. لكنّ صوت الصافرة الحادّ أعاده إلى الواقع. ثمّ اندفع نحوه ضابط شرطة بدين وغاضب وهو يصفر ويشير إلى الضوء الأحمر.

أوقف فوبر السيّارة، وراحت الهواجس المشؤومة تراوده. ماذا سيفعل؟ فهو في بلد غريب، ويحمل أوراقاً مزيفة، ويقود سيّارة مستأجرة مع امرأة على وشك أن تختفي. سيحصل على ضبط مرور، وسينظَّم إجراء ضدّه من قبل الشرطة... لكنّ مادلين فيراي، التي كانت سبب كلّ مشاكله، هي التي هبّت لنجدته. فقد أطلّت برأسها من النافذة، ووجّهت ابتسامة ساحرة لضابط الشرطة، وقالت له بلطف: «سيّدي الضابط، هذا الرجل سائح. إنّه في بلد غريب، ويسافر مع امرأة، ويحاول إمتاعها بقصصه... لا شكّ أنّك تتفهّم ذلك. سامحه أرجوك...». أُخذ ضابط الشرطة هو أيضاً بجمال السيّدة، وترك العميلَين المذعورَين يفرّان بفعلتهما حتّى من دون مذكّرة.

دخلت السيّارة قرية شانتيي الجميلة التي يعيش فيها «المحامي». عبروا البوّابة، وتوقّفوا عند المدخل الرئيس. ساعد رجلا الأعمال ضيفتهما بلياقة للترجّل من السيّارة، ثمّ قاداها إلى المنزل. فُتح الباب، ودخلت.

رافقاها إلى «مكتب المحامي».

قام يعقوب كاروز بتأدية دور المحامي، وقال لها بالفرنسية: «مدام، أنت لست هنا لمناقشة مسألة منزل في أورليان، بل من أجل مسألة أخرى».

«ماذا؟! ما الذي يجري؟».

«أريد التحدّث إليك بشأن الطفل يوسلي شوخماخر».

في تلك اللحظة، ظهر إلى جانبها رجلان آخران. وعندما التفتت، أدركت أنّ «رجلَي الأعمال» قد اختفيا من دون أثر، فانتابها خوف شديد.

همست بصوت أجشّ بالفرنسية: «لقد وقعت في فخّ!».

قال كاروز: «لقد وقعت بين أيدي المخابرات الإسرائيلية مدام».

في تلك اللحظة بالذات، اعتقل ضبّاط الشرطة أرييل بن ديفيد، ابن المرأة الفرنسية، في بلدة بئر يعقوب، في إسرائيل.

في شانتيي، التفت كاروز نحو روث بن ديفيد قائلاً: «مدام، أنت متورّطة في اختطاف شوخماخر. ونحن نريده!».

أجابت بحزم: «لا أعرف شيئاً عن ذلك، ولن أقول شيئاً». بعد الصدمة الأولى، استعادت تماسكها. أحضر كاروز زوجة أخيه، وهي ممرّضة متدرّبة؛ تحسّباً في حال وقوع أمر طارئ.

فهم الإسرائيليون أنّ روث كانت أملهم الأخير. لكنّهم افترضوا أيضاً أنّ هذه المرأة الحديدية لن تنهار بسهولة، وأنّ الأمر قد يستغرق بعض الوقت. تمّ تسليمها إلى يهوديث نيسياهو التي كانت قد وصلت من لندن. عاملتها نيسياهو معاملة جيّدة، ولبّت لها احتياجاتها كامرأة ملتزمة، وزوّدتها بكتب الصلاة وبالشموع من أجل يوم السبت، وطهت لها طعام كوشير. ولم يكن الرجال يدخلون الجناح الذي احتجزت فيه، فيما احتلّت الممرّضة الغرفة المجاورة.

بدأ الاستجواب. أمضت المرأة ساعات أمام العملاء، وبالأخصّ أمام يعقوب كاروز وفيكتـور كوهيـن اللذيـن تحدّثـا معهـا بالفرنسـية. ذُهلـت حيـن أدركت أنّ الإسـرائيليين يعرفـون كلّ شـيء عنهـا، إلاّ أنّهـا رفضت بعناد إعطـاء أيّ معلومات عـن يوسـلي. وظلّـت تكـرّر عبـارة «لن أقول شـيئاً». وكانت تنـادي فيكتور كوهين بكلمة «فليك»، وهي كلمة عامّية تعني بالفرنسـية «شـرطي». ونفت بشـكل حاسـم أيّ علاقـة لهـا بالاختطـاف. قال فيكتور كوهين لاحقاً: «هكذا، بدأت أتحدّث معها فـي مواضيـع شـتّى مـن أجـل تليينهـا. أردت أن أفهم كيف يمكـن أن تتحوّل امرأة مسـيحية إلـى يهوديـة متعصّبـة. فقد كان العالَمان مختلفَيـن. عندما تكلّمنا معها في البدايـة، أصـرّت علـى وجود امـرأة أخرى في الغرفة. لاحقاً، وافقت على الجلوس معي بمفردها، شرط أن يكون الباب مفتوحاً».

كُلّـف أحـد المحقّقيـن معهـا بمهمّة غيـر مرغوبة تقضي برمـي اتّهامات مهينة في وجهها لجعلها تفقد أعصابها.كان عملاء الموسـاد يأملون أن تسـتجيب بطريقة انفعاليـة، وتبـوح بأمـور لـم تقصد قولها؛ أمور يمكن اسـتخدامها في الاسـتجواب المتزامن الذي يتم مع ابنها في إسرائيل.

بالفعـل، بـدأ اسـتجواب أريـيـل بـن ديفيد يعطـي ثمـاره. كان المحقّق الرئيس في إسـرائيل هو أبراهام هادار. وهو رجل قويّ يعرف بلقب «باشـوش» (نوع من الطيـور). قـال المحقّـق للشـابّ إنّ أمّه قد استسـلمت: «اعترفت أمّك بكلّ شـيء. أكاذيبك لن تجدي نفعاً، قل الحقيقة!».

بعد قليل، انهار أرييل وقال إنّه عرف ما حلّ بيوسلي، وإنّه سيتحدّث «شرط أن نحصل أنا وأمّي على الحصانة».

قال له باشـوش: «لك ما طلبت». وعلى الفور، اصطحب أرييل إلى عاموس مانـور رئيس الشـاباك. عنـد دخولهمـا، صاح مانور قائلاً: «مهمـا كان ما وعدك به باشـوش، فأنـا موافـق. والآن، أيـن الولـد؟». كان أريـيـل منهـاراً. أقرّ أخيـراً أنّ أمّه هرّبـت يوسـلي إلـى خـارج إسـرائيل؛ متنكّراً كفتاة صغيرة. كانـت قد زوّرت جواز سـفرها – حيث تمّ تسـجيله باسـمه السـابق كلود – وغيّرت اسم ابنها إلى كلودين، كما غيّرت تاريخ الولادة؛ حيث صار مناسباً لسنّ يوسلي. وكان يعرف أنّ يوسلي

أُخذ إلى سويسرا.

أُرسل اعتراف أرييل إلى شانتيي، فواجه المحقّقون روث بن ديفيد بالوقائع الجديدة. قال لها فيكتور كوهين: «أرييل بين أيدينا، وهو يواجه عقوبة شديدة. لقد اعترف بكلّ شيء. ألا يهمّك ما سيحدث لابنك؟».

تمتمت قائلة: «لم يعد ابني بعد الآن». وظلّت على عنادها. لم يستطع المحقّقون سوى الإعجاب بالقوّة الهائلة التي تتمتّع بها تلك المرأة.

تدريجيًّا، أصبح الوضع شائكاً. فقد بدا الحلّ قريباً جدًّا، إلاّ أنّ المحقّقين شعروا أنّ كلّ شيء قد ينتهي بفشل ذريع. أخيراً، رأى إيسير أنّ الوقت قد حان ليتولّى الأمور بنفسه.

في الغرفة الخالية والمظلمة، تواجه إيسير هاريل وروث بن ديفيد أمام الطاولة، فيما وقف عملاء الموساد خلفهما، وأدّى كوهين وكاروز دور المترجمَين.

كان إيسير واثقاً أنّ هذه المرأة شديدة التصميم لن ترضخ لأيّ تهديدات. ورأى أنّ الطريقة الوحيدة للتوصل إلى نتيجة تكمن في إقناعها بالحجج الأخلاقية. صحيح أنّها ملتزمة، لكنّها ستصغي إلى المنطق. ففي النهاية، لم تكن يهودية متشدّدة طوال حياتها، ولم تتشرّب تطرّف الأجيال السابقة منذ ولادتها. كانت امرأة ذكية وداهية، وينبغي التعامل معها على هذا الأساس.

قال إيسير وهو يزن كلّ كلمة يتفوّه بها: «أنا أمثّل الحكومة الإسرائيلية، وقد أخبرنا ابنك بكلّ شيء. كما أنّنا نملك الكثير من المعلومات الأخرى عنك أيضاً. نعرف معظم أسرارك. ونحن آسفون لأنّنا جلبناك إلى هذا المكان بالقوّة. لقد تحوّلت إلى اليهودية، واليهودية تعني إسرائيل. ومن دون إسرائيل، لا بقاء لليهودية. لقد وجّه اختطاف يوسلي ضربة مروّعة للمجتمع الديني في إسرائيل؛ فقد أثار الغضب على الأرثوذكس. وقد تكونين سبباً في إراقة الدماء، وفي حرب أهلية محتملة. إن لم تعيدي الولد فقد ينتج عن ذلك حمّام دم. فكّري فقط بما قد يحدث لذلك الولد. قد يمرض، حتّى إنّه قد يموت. كيف ستواجهين أبويه عندئذ؟ سيطاردك ذلك لبقية حياتك؛ وكذلك جميع المتواطئين معك، ولن تبرأوا منه أبداً!

أنـت امـرأة وأمّ. إن اختلـف معـك أحد ما على طريقـة تربيتك لابنك وأخذه منك، فكيف سيكون شعورك؟ هل ستتمكّنين من النوم ليلاً؟

نحن لا نحارب الدين، بل إنّ هدفنا الوحيد هو العثور على يوسلي. وحالما يصبح في أيدينا، ستكونين حرّة، أنت وابنك، وستّحد إسرائيل مجدّداً».

رأى إيسـير أنّ الصـراع الـذي يـدور داخـل روث قـد بدأ يظهـر على وجهها. كانـت مشـاعر متناقضـة تتنازعهـا، وانتابها توتّر شـديد، وراحت تصارع نفسـها كما يفعل شخص قويّ حين يواجه معضلة صعبة.

وقف عملاء الموساد بلا حراك. هم أيضاً اعتقدوا أنّ لحظة الحقيقة قد حانت.

رفعت روث رأسها وسألته: «كيف لي أن أعرف أنّك تمثّل فعلاً دولة إسرائيل؟ كيف يمكن أن أثق بك؟».

على الفور، أخرج إيسـير جواز سـفره الدبلوماسـي، الصادر باسـمه الحقيقي، وسلّمه إليها.

صُعـق رجالـه، وبـدأوا يتسـاءلون: هـل جنّ جنونه؟ كيف يعطيها جواز سـفره الحقيقي، ويعلمها باسـمه؟! كانت تلك مخاطرة هائلة. غير أنّ إيسـير شـعر أنّه إن أثبت لها أنّه صادق ويثق بها، عندها فقط ستكون لديه فرصة للنجاح.

حدّقـت روث إلـى ختـم إسـرائيل الموجـود علـى جـواز السـفر مطـوّلاً. ثم عضّت شفتها حتّى سال الدم منها، وتمتمت قائلة: «لم أعد قادرة على الاحتمال، سأنهار...».

ثمّ فجأة، رفعت رأسها قائلة: «الولد موجود لدى أسرة غيرتنر، في 21 شارع بين، بروكلين، نيويورك. ويسمّونه يانكلي».

نهض إيسير واقفاً وقال: «حالما نعثر عليه، سنطلق سراحك».

ثمّ غادر الغرفة.

أُرسل سيل محموم من البرقيّات إلى القدس، ومن ثمّ إلى نيويورك وواشنطن. اتّصل إيسـير بإسـرائيل غور - آرييه، ضابط أمن البعثات الدبلوماسـية الإسـرائيلية فـي أميـركا الشـمالية. تحقّـق غور - آرييه الذي كان مقـرّه في نيويورك من العنوان

في بروكلين، ثمّ أبرق أنّ العنوان صحيح، وأنّ أسرة غيرتنر تعيش في حيّ تقطنه أغلبيّة من حسيديي الساتمار. فوصلت برقيّة من القدس إلى أبراهام هارمان، سفير إسرائيل في واشنطن، تطلب منه الاتّصال بالأف بي آي والطلب منهم العثور على الولد وتسليمه إلى إسرائيل.

اتّصل غور - آرييه بنظيره في الأف بي آي بنفسه وأعطاه جميع التفاصيل: «ما الذي يأكله، وما الذي يلبسه...»، فأجاب عميل الأف بي آي: «إن كنت تعرف الكثير عنه، فتعال واجلبه بنفسك». فأجاب غور - آرييه: «أعطني الإذن». لكنّ عميل الأف بي آي رفض منحه الإذن.

بدأت برقيّات مثيرة للقلق تتدفّق إلى مقرّ إيسير. إذ أبلغه غور - آرييه والسفير الإسرائيلي أنّ الأميركيين متردّدون، ويسألون عمّا إذا كان الإسرائيليون واثقين تماماً من أنّ الولد موجود في ذلك العنوان، وعمّا سيحدث إن داهموا المنزل ولم يجدوه. ولمّح الأف بي آي أنّ تردّدهم يرجع إلى انتخابات الكونغرس الوشيكة. فطائفة الساتمار تسيطر على ما يقرب من مئة ألف صوت، ولا ترغب الإدارة في المجازفة بخسارة تلك الأصوات.

في شانتيي، بدأ إيسير يفقد صبره. وفي منتصف الليل، رفع سمّاعة الهاتف وأمر قائلاً: «أريد التحدّث مع هارمان في واشنطن».

عندما تمّ الاتّصال، تكلّم إيسير بفظاظة وقال: «هارمان، معك إيسير هاريل، أريد منك الاتّصال بالمدّعي العامّ روبرت كينيدي على الفور، وإخباره باسمي أنّه يتوجّب على الأف بي آي إحضار الولد حالاً».

ذُهل هارمان وسأله: «إيسير، كيف تتكلّم هكذا؟!». ملمحاً إلى أنّ المخابرات الأميركية ربّما تراقب حديثهما.

أجاب إيسير: «هذا أفضل. أنا لا أتكلّم معك وحدك». كان يأمل أن يكون الأميركيون قد سمعوا المكالمة، وأن يدفعهم موقفه الثابت إلى التحرّك.

بقي هارمان متردّداً، وحاول تحذير إيسير من احتمال حدوث تعقيدات دبلوماسية.

فقال له إيسير بنبرة لاذعة: «لم أطلب منك رأيك. أخبرهم أنّهم إن لم يتصرّفوا

على الفور، فسيُعتبرون مسؤولين عمّا قد يحدث».

بعد بضع ساعات، استُدعي إيسير للإجابة على اتصال هاتفي. كان الاتّصال من نيويورك. وأبلغه المسؤولون القنصليون أنّ روبرت كينيدي اتّخذ إجراءات فورية. فقد توجّه فريق من عملاء مكتب التحقيقات برفقة ضابط الأمن الإسرائيلي إلى بروكلين. كان الولد هناك بالفعل، وتمّ اصطحابه إلى مكان آمن. كان ذلك الولد هو يوسلي بالفعل.

اتّصل صحفي شابّ يدعى إيلي ويزل (الحائز لاحقاً على جائزة نوبل) بغور - آرييه. «سمعت أنّك وجدت الولد». لكنّ غور - آرييه الذي كان قد أقسم على الحفاظ على سرّية القضيّة نفى نفياً قاطعاً. ولم يغفر له ويزل ذلك لسنوات.

كان الرابع من يوليو 1962 عطلة وطنية في إسرائيل. وفي ذلك اليوم، حطّت الطائرة التي كانت تقلّ يوسلي إلى بلده في مطار اللد. أشادت الصحافة بحماسة بكفاءة جهاز المخابرات. وسرعان ما أصبحت إسرائيل البلد الوحيد في العالم الذي تُعتبر فيه تلك المنظّمة السرّية محطّ حبّ الأمّة بأكملها وإعجابها. كتب محام إسرائيلي معروف يدعى شلومو كوهين زيدون رسالة شكر لبن غوريون لأنهم عثروا على الولد، فردّ عليه بن غوريون قائلاً: «يجب أن تشكر أجهزتنا السرّية، لا سيّما رئيسها الذي أمضى أيّاماً وليالي من دون أن يهدأ له بال محاولاً إنجاز تلك المهمة؛ حتّى عندما أوشك مساعدوه على الاستسلام، إلى أن عثر على الولد أخيراً وأخرجه من مخبئه. وحتّى إنّ هذا الأمر لم يكن سهلاً».

بينما كانت إسرائيل بأكملها تحتفل بإنقاذ يوسلي، كان إيسير في باريس يحضر حفلاً متواضعاً أقامه له رجاله. رفع أحد العملاء كأسه قائلاً: «بصحّة يوسلي الذي عاد إلى وطنه، والرجل ذي الإرادة الحديدية الذي عثر عليه، والدولة التي تجيد حماية مواطنيها». قدّم عميل آخر لإيسير دمية على شكل نمر صغير محشوّ كهديّة تذكّر بالعمليّة، وشحن زملاؤه إلى منزله في تلّ أبيب «سرير يوسلي» الذي أمضى عليه ليالي طويلة من الأرق.

بعد العثور على الصبيّ، اتّضحت الحقيقة كاملة.

بدأ كلّ شيء ببرقيّة.

في ربيع عام 1960، فيما كان يتمّ سرًّا نقل يوسلي من معهد ديني إلى آخر في إسرائيل، استلمت روث بن ديفيد برقيّة من صديقها الحاخام ميتسيش: «تعالي إلى القدس حالاً، لديّ عريس مناسب لك». عندما وصلت روث، وجدت أنّ «العريس» كان في الواقع مهمّة سرّية: تهريب يوسلي إلى خارج إسرائيل.

عـادت روث إلـى فرنسـا، وغيّـرت جواز سـفرها، واسـم ابنها مـن كلود إلى كلودين، وتاريخ ميلاده من عام 1945 إلى عام 1953. ثمّ غيّرت ملابسها واسمها، وأصبحـت مادليـن فيـراي مجـدداً. سـافرت إلى جنوى، واشـترت تذكرة على متن سفينة كانت ستبحر إلى إسرائيل، وكانت تقلّ ركّاباً ومهاجرين جدداً.

على رصيف جنوى، بدأت تلعب - كما لو أن الأمر صدفة - مع ابنة أسرة مهاجرة في الثامنة من عمرها. وعندما بدأ المهاجرون بالصعود على متن السـفينة وهم يكافحون مع حقائبهم وأمتعتهم، أمسـكت مادلين السـاحرة يد الفتاة الصغيرة واصطحبتها إلى متن السـفينة. تحقّق موظّفو الهجرة الإيطاليون من جواز سـفرها، ولاحظوا أنّها صعدت على متن السـفينة مع ابنتها الصغيرة. وفي إسـرائيل، كرّرت العمليّة نفسها، ولاحظ موظّفو الهجرة الإسرائيليون أنّها غادرت السفينة مع ابنتها.

بعد بضعة أيّام، استقلّت مادلين فيراي طائرة في مطار اللد مع «ابنتها كلودين» التي لم تكن سـوى يوسـلي شـوخماخر الذي ارتدى فسـتان فتاة أنيقة وانتعل حذاء جلدياً أصلياً.

أمضى يوسلي ما يقرب العامين في المدارس الداخلية المتشدّدة في سويسرا وفرنسـا. لكن، عندما اتسـعت بقعة البحث عن يوسـلي في إسـرائيل، ذهبت مادلين إلـى المدرسـة الداخليـة فـي مو التي كان الطفل مخبّـأ فيها في ذلك الوقت، تحت اسم «مناحيم»، ووفقاً لمعلومات تفيد بأنه يتيم من أبوين سويسريَين.

ألبسته ملابس فتاة مجدّداً، وطارت به إلى الولايات المتّحدة. وهناك، ساعدها رئيس طائفة الساتمار، الحاخام يوئيل تايتلباوم، الذي أمر حلاّباً يدعى غيرتنر بأخذ «يانكلي» إلى منزله على اعتبار أنّه أحد أقاربه من الأرجنتين، جاء في زيارة طويلة.

أدرك خبراء الموساد أنّ الشبكة السرّية الأرثوذكسية المتطرّفة المنتشرة في جميع أنحاء أميركا وأوروبا تشبه المنظّمات السرّية لأفضل أجهزة المخابرات في العالم. وأكثر ما أثار دهشتهم كان روث بن ديفيد. فقد التزمت بقواعد المؤامرة تماماً: إذ لم يكن لها عنوان دائم، وحملت كلّ أوراقها الهامّة في حقيبة يدها، وبدّلت هويّاتها بسهولة كما لو كانت تبدّل ملابسها. كانت المرأة الفرنسية الجميلة ماتا هاري[1] العالَم الأرثوذكسي.

لكن، بينما عمّ الفرح إسرائيل بعودة يوسلي إلى أبويه، شعرت روث بن ديفيد بالانكسار والهزيمة، وقالت لأصدقائها وهي تنتحب: «أنا مذنبة، لقد خنت قضيّتنا. لن أغفر لنفسي أبداً. كُلّفت بالحفاظ على كنز ثمين، لكنّني لم أستطع الحفاظ عليه».

لكنّ مادلين فيراي/ روث بن ديفيد أظهرت أنّها تمتلك كلّ الصفات المثيرة للإعجاب التي يجب أن تتمتّع بها عميلة سرّية، حيث إنّ إيسير هاريل قرّر أن يعرض عليها وظيفة في الموساد. لكنّ الأوان كان قد فات. فقد عادت روث إلى القدس واختفت في العالم الأرثوذكسي المتشدّد. بعد ثلاث سنوات، تزوّجت من الحاخام عمرام بلاو، الذي يبلغ من العمر اثنين وسبعين عاماً، وكان رئيساً لأكثر الطوائف تشدّداً، ناطوري كارتا (نيتوراي كارتا).

لم يلتقِ إيسير هاريل يوسلي شوخماخر إلاّ بعد تسع سنوات، عندما أقام أحد مؤلّفي هذا الكتاب حفلة تكريم لإيسير ودعا إليها يوسلي الذي كان ينتمي في ذلك الوقت إلى الفئة الأولى الخاصّة في فرقة دبّابات. صافح يوسلي إيسير وأعلن قائلاً: «أنا متأثّر للغاية. إيسير هاريل أهمّ شخص في حياتي. لولاه، لما كنت هنا بينكم اليوم».

---

(1) مارغريتا غيرترويدا زيل (1876-1917) عُرفت على المسرح باسم ماتا هاري، وكانت راقصة هولندية، أُعدمت في فرنسا رمياً بالرصاص بتهمة التجسّس لصالح ألمانيا خلال الحرب العالمية الأولى.

الفصل الثامن

بطل نازي في خدمة الموساد

في يوم حارّ وخانق من أيّام أغسطس 1963، دخل رجلان مكاتب شركة هندسية في مدريد، وطلبا مقابلة صاحب الشركة، وهو نمساوي يدعى أوتو سكورزيني. عرّفا عن نفسيهما بأنهما ضابطا مخابرات في حلف الشمال الأطلسي (الناتو)، وقالا له إنهما أتيا بناء على توصية زوجته المنفصلة عنه. كان لديهما عرض لا يمكنه أن يرفضه...

سرعان ما أدرك رجل الأعمال المحترم أن زائريه يعرفان عنه كلّ شيء. فخلال الحرب العالمية الثانية، كان الضابط النازي سكورزيني واحداً من أعظم الأبطال؛ إن لم يكن أعظمهم على الإطلاق، في ألمانيا النازية. كان هذا الرياضي الجذّاب وطويل القامة الذي يحمل على وجهه ندبة من أثر مبارزة بالسيف، قد أصبح ضابط كوماندوس متهوّراً ينفّذ عمليّات مذهلة. ففي 12 سبتمبر 1943، هبط مع كتيبة من المظليين الذين حملتهم طائرات شراعية، على قمّة غران ساسو، أعلى قمّة في جبال الأبنين الإيطالية، واقتحموا فندق كامبو إمبراطور الذي سُجن فيه الديكتاتور الفاشي السابق بينيتو موسوليني على يد حكومة إيطالية نازية جديدة. قام الضابط النازي سكورزيني بإنقاذ موسوليني وأخذه إلى هتلر الذي أمطر سكورزيني بالميداليّات والترقيات. وفي إحدى المعارك التي وقعت في أواخر عام 1944، تسلّل سكورزيني - الذي أصبح في ذلك الحين كولونيل سرب الحماية في الجيش النازي - عبر الخطوط الأمامية مع عدد من رجاله الذين يرتدون زيّ جنود أميركيين، وسبّب اضطراباً وارتباكاً في صفوف الحلفاء. أكسبته عمليّاته لقب الرجل الأخطر في أوروبا. وبعد الحرب اعتُبر غير مذنب في محاكمات داخاو، فانتقل

إلى إسبانيا التي تمتّع فيها بحماية الديكتاتور الفاشي فرانكو، وأسّس شركته هناك.

في ذلك اليوم من عام 1963، لم يضع زائراه الوقت في أحاديث تافهة، بل اعترف له أحدهما بألمانية ممتازة: «نحن لا ننتمي إلى حلف الناتو، بل إلى المخابرات الإسرائيلية». كان الرجلان هما رافي إيتان، ورئيس محطة الموساد في ألمانيا، أبراهام أهيتوف.

شحب وجه سكورزيني. فبالكاد قبل عام، أعدم الإسرائيليون أدولف إيخمان شنقاً. هل يلاحقونه الآن؟ كانت قد تمّت تبرئته خلال محاكمات الحرب، لكنّ البعض ادّعوا أنّه شارك في إحراق معابد اليهود خلال ليلة الكريستال (كريستالناخت)[1]، في نوفمبر 1938.

لكنّ الرجل قصير القامة الجالس أمامه بدّد مخاوفه حين قال له: «إنّنا بحاجة إلى مساعدتك. نعرف أنّك تملك علاقات جيّدة في مصر». ثمّ شرح للكولونيل النازي سبب احتياج الدولة اليهودية إلى مساعدته.

في 21 يوليو 1962، أي بعد أسبوعين فقط من عودة يوسلي إلى إسرائيل، أدهشت مصر العالم بإطلاقها أربعة صواريخ. اثنان منها من نوع **الظافر**، يبلغ مداهما 175 ميلاً، والاثنان الآخران من نوع **القاهر**، بمدى 350 ميلاً. تمّ استعراض الصواريخ الضخمة الملفوفة بالعلم المصري في شوارع القاهرة بفخر في ذكرى الثورة في 23 يوليو. وتباهى الرئيس جمال عبد الناصر أمام جمهور غفير بأنّ صواريخه قادرة على ضرب أيّ هدف «جنوب بيروت».

جنوب بيروت! سيطرت الدهشة والقلق على قادة إسرائيل. كانت صواريخ عبد الناصر قادرة بالفعل على ضرب أيّ هدف في إسرائيل، وقد شكّلت مفاجأة كاملة بالنسبة إلى الدولة اليهودية، حيث وُجّهت الملاحظات الغاضبة لإيسير هاريل

---

(1) هي عبارة عن مذبحة منظّمة ضدّ اليهود جرت في مختلف أنحاء ألمانيا النازية وأجزاء من النمسا في 9–10 نوفمبر 1938، ونُفّذت على أيدي قوّات ألمانية شبه عسكرية ومدنيين. شهدتها السلطات الألمانية من دون أن تتدخّل. خلّفت الاعتداءات شوارع مكسوّة بالزجاج المكسور من نوافذ المتاجر، والأبنية، والمعابد اليهودية.

في أروقة السلطة. فبينما كان عبد الناصر يصنع صواريخه الفتاكة، كان إيسير الصغير مشغولاً بمطاردة يوسلي. وفي حين كانت أخطار فظيعة تهدّد وجود الدولة، كان أفضل عملاء إيسير يتنقّلون من معهد ديني إلى آخر، متنكّرين في لباس يهود متشدّدين. حينها، استدعى بن غوريون بقلق إيسير هاريل الذي وعده بالحصول على كلّ المعلومات عن المشروع المصري بأسرع وقت ممكن. عاد إيسير إلى مقرّه، وأرسل أفضل رجاله في مهمّات، وشغّل جواسيسه ومخبريه في مصر. وفي 16 أغسطس، أي بعد أقلّ من شهر على إطلاق الصواريخ الأربعة، عاد إيسير إلى بن غوريون بتقرير مفصّل.

أبلغه إيسير أنّ بناء الصواريخ تمّ على أيدي علماء ألمان.

ففي عام 1959، قرّر عبد الناصر تأسيس ترسانة سرّية من الأسلحة غير التقليدية. وعيّن اللواء محمود خليل - وهو قائد سابق في المخابرات الجوّية - رئيساً لمكتب البرامج العسكرية الخاصّة، من أجل تطوير هذه الأسلحة الحديثة فائقة السرّية: طائرات مقاتلة، وقذائف، وصواريخ، فضلاً عن مواد كيميائية ومشعّة. وتمّ تخصيص ميزانيّة ضخمة للمكتب.

كانت مهمّة خليل تتمثّل في العثور على رجال مناسبين لتحويل هذه الأسلحة إلى حقيقة واقعية. وكان يعرف أين يجب أن يبحث.

بدأ رجاله بتجنيد مئات الخبراء والعلماء الألمان، وكان معظمهم مستخدَماً في معاهد البحوث الخاصّة بالصواريخ والطيران، وفي مختبرات ألمانيا النازية. وهكذا، توافد أكثر من ثلاثمئة ألماني إلى مصر سرًّا، تحت إغراء الرواتب العالية، والمكافآت، والامتيازات العديدة، وساعدوا على بناء ثلاث منشآت سرّية.

كان أوّلها مصنع 36 الذي قام فيه صانع الطائرات العبقري ويلي ميسرشميت بجمع طائرة مقاتلة مصرية. كان ميسر شميت هو مبتكر الطائرات المقاتلة المميتة التابعة لسلاح الجوّ النازي خلال الحرب العالمية الثانية. وقّع معه محمود خليل عقداً في 29 نوفمبر 1959.

في المصنع الثاني المعروف بالرمز 135، كان ثمّة مهندس يدعى فرديناند براندنر يقوم ببناء محرّكات نفّاثة لطائرة ميسرشميت. أمضى براندنر عدّة سنوات

في روسيا. وبعد عودته إلى ألمانيا، اتّصل به خليل بمساعدة د. إكارت، مدير شركة دايملر - بينز.

لكنّ أكثرها سرّية كان المصنع 333، المخفي في منطقة نائية في الصحراء. هناك، قام طفل هتلر المعجزة ببناء أسلحة عبد الناصر العجيبة، الصواريخ متوسّطة المدى.

استناداً إلى مصادر إيسير، تحوّل المشروع المصري إلى حالة التأهّب القصوى في ديسمبر 1960. في ذلك الشهر، قامت طائرة استطلاع أميركية من نوع يو - 2 بتصوير موقع بناء ضخم في ديمونة، في إسرائيل، بدا أنّه مفاعل نووي. وأعلنت الصحافة العالمية عن الاكتشاف بعناوين عريضة. ولم يصدّق أحد البيانات الإسرائيلية الملفقة التي أشارت إلى أنّ البناء كان مصنعاً للنسيج. فأطلقت مصر وعدّة دول عربية أخرى تهديدات غاضبة ضدّ إسرائيل. لكنّ التهديدات لم تكن كافية، وأملت مصر أن تتمكن من إبطال المشروع النووي الإسرائيلي السرّي عبر تطوير أسلحة غير تقليدية خاصّة بها.

كان رئيس العلماء الألمان العاملين في برنامج الصواريخ في مصر هو البروفيسور يوجين زانغر، مدير معهد البحوث حول الدفع النفّاث في شتوتغارت. بعد الحرب، أمضى زانغر بضع سنوات في فرنسا، وبنى هناك الصاروخ فيرونيك، وهو نسخة متوسّطة الجودة عن الصاروخ الألماني V-2. أتى إلى مصر مع مساعديه، البروفيسور بول غوركيه الخبير في الإلكترونيات والتوجيه، وفولفغانغ بيلتز، وهو مهندس سابق في منشأة بينيموندي التي طوّر فيها فيرنير فون براون اللامع صواريخ V-2 الألمانية النازية. وكان ثمّة خبير توجيه ومراقبة آخر يتعاون بشكل وثيق مع زملائه في مصر، وهو د. هانز كلاينفاختر الذي كان مختبره المخصّص لتطوير أنظمة توجيه الصواريخ يقع في مدينة لوراخ الألمانية الخلاّبة، على مقربة من الحدود السويسرية. ترأس قسم الكيمياء د. إيرمن داديو، وهو ضابط نازي سابق. أسّس الألمان والفرنسيون عدّة شركات وهمية - «إنترا»، «إنترا - هاندل»، «باتواغ»، و«ليندا» - قامت بشراء قطع ومواد من أجل مشروع الصواريخ. كان المدير الإداري لشركة «إنترا - هاندل» هو د. هاينز كروغ الذي كان يدير أيضاً معهد الدفع النفّاث في شتوتغارت. ورد كذلك اسم حسن كامل - وهو مليونير

مصـري يعيـش فـي سويسـرا - كواجهـة، وكأحد الرجال الذين يتـمّ التعامل معهم. وبمسـاعدته أسّـس المصريون شـركتين وهميّتين في سويسـرا، هما ميكو (الشـركة الميكانيكيـة) وأم تـي بـي (شـركة السـيّارات، والتوربينات، والمضخّـات)، وكانت مهمّتهما تتمثّل في الحصول على المواد الأساسيّة، والأجهزة الكهربائية، والأدوات الدقيقة. كما قامتا بتجنيد متخصّصين وخبراء. كان المديرون الثلاثة لتلك الشركات هم ميسرشميت، وبراندنر، وكامل.

عـام 1961، بـدأ زانغـر ومئـات المهندسـين والفنّيـن والموظّفيـن المصرييـن المحلّيين ببناء الصواريخ المصرية. لكن، في أواخر ذلك العام، اكتشفت الحكومة الألمانية العلاقة السرّية بين المشروع المصري ومعهد الدفع النفّاث في شتوتغارت. فأجبرت السلطات الألمانية زانغر على الاستقالة والعودة إلى ألمانيا، وإيقاف جميع أنشطته، فخلفه البروفيسور بيلتز رئيساً للمشروع المصري.

بحلول شهر يوليو 1962، أنتج المصنع 333 ثلاثين صاروخاً. تمّ إطلاق أربعة منها وسط ضجّة كبيرة أمام حشد مختار من الضيوف الحكوميين ومن الصحفيين، بينمـا تـمّ اسـتعراض عشـرين صاروخاً (بعضها مجرّد نمـاذج أولية)، ملفوفة بالعلم المصري، في شوارع القاهرة.

عندمـا قصـد إيسـير هاريـل بن غوريون في أغسـطس، قدّم له رسـالة موجّهة مـن بيلتـز إلـى كامـل؛ المديـر المصري لمصنع 333، وهي رسـالة نجح رافي إيتان ورجاله في نسـخها. كانت عبارة عن طلب مبلغ 3,700,000 فرنك سويسـري من أجل شـراء قطع للآلات وغيرها من المعدّات اللازمة لبناء خمسـمئة صاروخ من نوع 2 وأربعمئة من نوع 5.

أي تسـعمئة صاروخ! سـبّب تقرير إيسـير قلقاً عميقاً في مجتمع الدفاع. كان الخبراء الإسرائيليون واثقين أنّ المصريين لا ينوون تحميل رؤوس الصواريخ الحربية بمتفجّرات تقليدية. فمن غير الممكن أن ينفقوا ملايين الدولارات على بنائها لمجرّد تحميلهـا بنصـف طـن مـن الديناميت؛ إذ إن بإمكان المدفعيّة القيام بذلك بدقّة أكبر. كان واضحاً أنّ مصر تنوي تحميل الرؤوس الحربية قنابل ذرّية أو مادة أخرى محرمة

دولياً؛ كالغازات السامّة، أو الأنسجة الحيّة البكتيرية، أو النفايات المشعّة القاتلة.

استناداً إلى إيسير، كان العلماء الألمان يعملون على خطّة لتدمير إسرائيل. فقد كانوا يطوّرون أسلحة فتّاكة، وصواريخ ضخمة، ورؤوساً حربية مشعّة من شأنها «قتل كل كائن حي». وتسميم هواء إسرائيل لسنوات عديدة. حتّى إنّهم عملوا على إنتاج أشعّة الموت وغيرها.

أقرّ الجنرال تسفي تزور، رئيس هيئة الأركان في ذلك الوقت: «أخذنا الموضوع بجدّية زائدة. فقد كان علماؤنا مجرّد هواة، ولا يعرفون كيفيّة التعامل مع المعلومات». مع ذلك، اكتشف الإسرائيليون نقطة الضعف في المشروع المصري؛ إذ إن الألمان لم ينجحوا بعد في تطوير نظام التوجيه المناسب من أجل توجيه الصواريخ إلى أهدافها. وما لم يتمّ التغلّب على تلك العقبة، سيظلّ استخدام الصواريخ مستحيلاً.

لم يعد إيسير هاريل الرجل نفسه الذي عرفه شعبه وأعجب به. فمنذ اختطاف إيخمان، طرأ عليه تغيير عميق. فذاك الرجل الرزين الذي اشتهر بأعصابه الفولاذية أصبح يعتبر ألمانيا العدوّ الأبدي لإسرائيل والشعب اليهودي. وكان متيقناً من أنّ الحكومة الألمانية الحالية تدعم العلماء في مصر وتساعدهم سرًّا في جهودهم الرامية إلى تدمير إسرائيل. طلب الرامساد من بن غوريون أن ينبّه المستشار الألماني كونراد أديناور، ويطلب منه التحرّك فوراً لوضع حدّ لأنشطة العلماء. غير أنّ بن غوريون رفض ذلك. فمؤخّراً، أعطت ألمانيا إسرائيل قرضاً ضخماً يبلغ 500 مليون دولار لتطوير صحراء النقب. وقامت بين بن غوريون وأديناور علاقة شخصيّة مبنيّة على الثقة والاحترام المتبادل. كما زوّد أديناور ووزير الدفاع الألماني، فرانز جوزيف شتراوس، إسرائيل بكمّيات هائلة من الأسلحة الحديثة التي تساوي مئات الملايين من الدولارات: من دبّابات، ومدافع، ومروحيّات، وطائرات؛ وكلّ ذلك مجّاناً، في محاولة سرّية للتكفير عن الجرائم الألمانية التي ارتُكبت في حقّ الشعب اليهودي. كان بن غوريون يثق بالحكومة الألمانية الحالية، ولم يرغب في المخاطرة بعلاقات إسرائيل معها عبر إلقاء الاتّهامات ومطالبتها بالتدخّل في الأزمة المصرية.

وعوضاً عن ذلك، طلب من وزير الدفاع شيمون بيريز كتابة رسالة شخصيّة إلى شتراوس وطلب مساعدته بتكتّم.

لكنّ هذا لم يكن كافياً بالنسبة إلى إيسير الذي قرّر أن يطلق بنفسه حملة شاملة لتعطيل أنشطة الألمان في مصر.

في 11 سبتمبر 1962، عند الساعة العاشرة والنصف صباحاً، دخل غريب داكن البشرة، ذو ملامح شرق أوسطية، مكاتب شركة إنترا في شيلرشتراسي (شارع شيلر) في ميونيخ. اصطحبه الموظّف إلى مكتب مدير الشركة، د. هاينز كروغ، وسمعه يقول إنّه أُرسل من قبل العقيد نديم، وهو ضابط مصري يقيم علاقات وثيقة مع كروغ. بعد نصف ساعة، غادر المصري المبنى مع كروغ. رأت مضيفة تعمل على الخطوط الجوّية العربية المتّحدة الرجلين وهما يمرّان أمام مكتب تذاكر الطيران، وكانت آخر من رأى كروغ.

في صباح اليوم التالي، أبلغت السيّدة كروغ الشرطة أنّ زوجها مفقود. وبعد يومين، وجدت الشرطة سيّارة كروغ المرسيدس البيضاء متروكة على مشارف ميونيخ. كانت السيّارة مغطّاة بالوحل، وخزّان وقودها فارغ. ثمّ ورد اتّصال من مجهول أعلن للشرطة قائلاً: «د. كروغ مات». لكنّ بعض المعلومات التي وصلت إلى الشرطة من مصادر أخرى دفعتها إلى الاعتقاد أنّ كروغ قد خُطف على أيدي عملاء الموساد واقتيد إلى إسرائيل. اليوم، لم يعد ثمّة شكّ في أنّ كروغ قد لقي حتفه.

في 27 نوفمبر، رأت هانيلور فيندي، سكرتيرة بيلتز في مصنع 333، مغلّفاً سميكاً في البريد الصباحي. كان المرسِل محامياً معروفاً من هامبورغ. وعندما فتحت هانيلور المغلّف، هزّ انفجار هائل المكتب. أصيبت سكرتيرة بيلتز بجروح بليغة، وأُخذت إلى المستشفى حيث أمضت بضعة أشهر قبل أن تغادره مكفوفة، وصمّاء، ومصابة بتشوّه خطير.

في اليوم التالي، وصل طرد كبير كُتب عليه BOOKS (كتب) إلى مصنع 333. وعندما فتحه الموظّف المصري، انفجر الطرد مسفراً عن مقتل خمسة أشخاص. وتبيّن أنّ عنوان المرسِل، وهو ناشر من شتوتغارت، كان مزيّفاً.

توالت الطرود المتفجّرة في الأيّام التالية. أُرسل بعضها من ألمانيا، والبعض

الآخر من داخل مصر. بعضها انفجر مسبّباً سقوط ضحايا، فيما نُزع فتيل البعض الآخر على أيدي خبراء في الجيش المصري بعدما أبلغهم مسؤولون في 333 عن الطرود. لم يتمّ تحديد هويّة المرسِلين بشكل رسمي، لكنّ المصريين والصحفيين كانوا على يقين من أنّ القنابل أعدّت وأرسلت إلى القاهرة من قبل الموساد الإسرائيلي. بعد مدّة طويلة، ثبت أنّ عدداً من الطرود المتفجّرة أرسلها "جاسوس الشامبانيا". كان هذا الجاسوس عميلاً إسرائيلياً يدعى زئيف غور - آرييه، يعمل في مصر تحت اسم "فولفغانغ لوتز"؛ ألماني يملك مزرعة خيل بالقرب من القاهرة. تظاهر أنّه ضابط نازي سابق، واستقرّ في القاهرة مع زوجته الألمانية، وأقام علاقات وثيقة مع المجتمع المصري الراقي وقادته العسكريين.

سبّبت الطرود والرسائل المفخخة إزعاجاً شديداً للعلماء الألمان الذين شعروا أنّ حياتهم في خطر. وكان العديد منهم قد تلقّوا اتّصالات هاتفية مجهولة تنطوي على تهديد لهم ولأسرهم في حال واصلوا العمل على مشروع عبد الناصر. تمّ تطبيق إجراءات أمنية مشدّدة في "المصانع" الثلاثة في مصر، وفي الشركات الشقيقة في أوروبا. وعند زيارة أوروبا، كان العملاء يتنقّلون في مجموعات كبيرة، يرافقهم ضبّاط أمن ألمان. وعلى الأرجح، أنقذت هذه الطريقة البروفيسور بيلتز خلال رحلته إلى أوروبا في أواخر عام 1962. فقد تبعته مجموعة من الغرباء إلى ألمانيا وإيطاليا، لكنّها لم تحصل على فرصة الاقتراب منه.

أمضى إيسير خريف عام 1962 وشتاءه في أوروبا؛ موجّهاً عمليّات الموساد الهادفة إلى الحصول على معلومات أكثر دقّة وحداثة. نجح رافي إيتان في اختراق بعثة دبلوماسية تتولّى بريد العلماء الألمان. كانت تلك العمليّات هي المفضّلة لديه، وقد قال عن ذلك: "هذا أفضل بكثير من تجنيد العملاء. فعندما تجنّد عميلاً، يتحتّم عليك تدريبه، وإحاطته بغطاء مضمون، ووضعه في المكان المناسب، وإعطاؤه الوقت لإقامة الاتّصالات... لكنّ قراءة بريد عدوّك أفضل بكثير. فهكذا تحصل على نتائج مباشرة ومواد من الدرجة الأولى".

من أجل العمليّات غير التقليدية، احتاج إيتان إلى بعض الأجهزة الإلكترونية

المتطوّرة للغاية، لكنّه لم يعرف من أين يحصل عليها؛ إذ لم يكن من الممكن إيجاد المعدّات المستخدمة من قبل السي آي إيه وغيرها من وكالات المخابرات في المتاجر. لاحظ إيتان في أثناء قراءته صحيفته في مكتبه في باريس مقالة قصيرة عن اليهودي الشقيّ وسيّئ السمعة ماير لانسكي الذي كان زعيم مافيا في ميامي. فلاحت له فرصة. اتّصل بعامل الهاتف، وقال له: "اعثر لي على ماير لانسكي في ميامي!".

بعد ثلاث دقائق، كان لانسكي على الخطّ. قال إيتان: "شالوم، ماير. أنا إسرائيلي أعمل في باريس، وأنا بحاجة إلى مساعدتك من أجل الدولة الصهيونية».

أجاب لانسكي: «لا مشكلة في ذلك. خلال شهر سأكون في لوزان، في سويسرا، لنلتقِ هناك».

التقى إيتان لانسكي في لوزان، وأخبره بما يحتاج إليه، فأعطاه لانسكي عنوان رجل في شيكاغو وقال له: «سيعطيك ما تريده». بعد أسبوع، هبط إيتان في شيكاغو، وتوجّه إلى عنوان الرجل. يقول إيتان عن ذلك باختصار: «خدَمَتنا المعدّات الإلكترونية التي حصلنا عليها من ذلك الرجل في جميع عمليّاتنا ضدّ العلماء الألمان».

كشفت تلك العمليّات اسماً جديداً لإيسير هاريل هو د. أوتو يوكليك. ووفقاً للمصادر، كان يوكليك عالماً نمساوياً متخصّصاً في الإشعاع النووي. وقد زُعم أنّ د. يوكليك موظّف في برنامج مصري بالغ السرّية للحصول على أسلحة نووية في زمن قياسي. كان المصريون ينوون تأسيس شركة وهمية تدعى أوسترا من أجل يوكليك في النمسا، لتقوم بشراء مواد مشعّة لمشروع يوكليك وبشحنها إلى مصر. ستكون أوسترا منفصلة عن إنترا؛ لتجنّب خضوعها للتحقيق على يد السلطات الألمانية. وكان على يوكليك إجراء تجربتين نوويتين لمصر، وإنتاج عدّة قنابل ذرّية سيتمّ تركيبها في رؤوس الصواريخ الحربية.

أشار كلّ ذلك إلى أنّ يوكليك رجل شديد الخطورة، وربّما كان أخطر العلماء الألمان. لذا، صدر أمر عاجل إلى جميع مراكز الموساد في أوروبا: ابحثوا عن يوكليك!

لكنّ مفاجأة مذهلة كانت بانتظار إيسير. ففي 23 أكتوبر 1962، طرق غريب باب إحدى السفارات الإسرائيلية في أوروبا وطلب مقابلة ضابط الأمن: «أنا أوتو

يوكليك. وأنا جاهز لإعطائكم تقريراً كاملاً عن نشاطي في المجهود الحربي المصري».

بعد أسبوعين، وفي سرّية تامّة، هبط يوكليك في إسرائيل.

بعد أشهر عديدة، عندما انكشف انشقاق يوكليك للعلن، كتب المراسلون الأوروبيون أنّ يوكليك اتّصل بالإسرائيليين على الأرجح بسبب اختفاء مدير إنترا، هاينز كروغ. إذ كان يوكليك يقيم علاقة وثيقة مع كروغ الذي كان من القلّة الذين يعرفون عن دور يوكليك في «البرامج العسكرية الخاصّة» في مصر. وعندما اختفى كروغ، أصيب يوكليك بالذعر. ماذا لو كان كروغ قد اختُطف على أيدي الإسرائيليين؟ قد يتحدّث عندها ويكشف مهام يوكليك السرّية. وهكذا، أدرك يوكليك أنّ الموت المحقَّق هو المصير الذي ينتظره بعد ذلك. لذا، قرّر تجاوز الخطوط والاستسلام للإسرائيليين، وأمل أن يتمكّن بتلك الطريقة من إنقاذ حياته.

أمضى يوكليك أربعة أيّام في إسرائيل. مكث في عزلة تامّة في مركز للموساد خاضع لأعلى درجات الأمن. قرّر إيسير الاستفادة منه في مهمّتين رئيستين: كمصدر للمعلومات عن المشروع المصري، وكعميل مزدوج يعود إلى مصر ويعمل هناك لصالح الموساد.

قال يوكليك للإسرائيليين إنّ تجنيده تمّ على يد موظّف ألماني كبير في الخطوط الجوّية العربية المتّحدة، وإن ذاك الموظف قام بتعريفه على اللواء محمود خليل الذي يلقّبه العلماء الألمان «هير دكتور محمود». أسفر اجتماعه مع دكتور محمود عن مشروعين: إيبس وكليوباترا. ولم يُكشف سرّ هذين المشروعين سوى للبروفيسور بيلتز ود. كروغ.

كانت عمليّة إيبس تهدف إلى تزويد مصر بسلاح إشعاعي من شأنه أن ينشر إشعاعات نووية خطيرة. وتعهّد يوكليك بالحصول على كمّيات كبيرة من النظير المشعّ كوبالت – 60، وإجراء تجارب عليه في مصر. وفي حال نجاح التجارب، سيحاول يوكليك الحصول على المزيد من الكوبالت الذي سيوضع في رؤوس الصواريخ الحربية وسينشر إشعاعات قاتلة عند انفجارها.

أمّا الهدف من المشروع الثاني، كليوباترا، فكان إنتاج قنبلتين ذرّيتين. اقترح

يوكليك طريقة بارعة لتصنيع القنبلتين: شراء اليورانيوم المخصّب حتّى 20 بالمئة في الولايات المتّحدة أو في أوروبا، ومن ثمّ تخصيبه حتّى 90 بالمئة بواسطة أجهزة طرد مركزي متقدّمة ومطوّرة في ألمانيا وهولندا على أيدي العلماء د. فيلهيلم غروث، ود. ياكوب كيستيماكر، ود. غيرنوت تسيبي وذلك قبل بناء القنبلة باليورانيوم المخصّب.

طار يوكليك إلى الولايات المتّحدة، وحاول الحصول على اليورانيوم المخصّب من هناك. كما التقى عدّة علماء ألمان ودعاهم لبناء أجهزة طرد مركزي في مصر. وفي الوقت نفسه، اشترى بعض الكوبالت – 60 في أوروبا، وأرسله إلى طبيبة نسائية في القاهرة تدعى د. خليل؛ وهي شقيقة هير دكتور محمود...

عندما انتهى استخلاص المعلومات من يوكليك في إسرائيل، أرسلت شهادته إلى عدد من الخبراء للمراجعة والتقييم. ولسبب ما، لم تنل تقاريرهم الاهتمام المناسب. بخصوص مشروع كليوباترا، قال الخبراء إنّه ما من فرصة تقريباً لحصول يوكليك على يورانيوم مخصّب بنسبة 20 بالمئة. وإن فعل ذلك فستحتاج مصر إلى مئة جهاز طرد مركزي على الأقلّ لحصاد اليورانيوم اللازم من أجل قنبلة واحدة خلال سنتين أو ثلاث. وحتّى لو تمكّنوا من بناء قنبلة، فإن تلك القنبلة لن تنفجر لأنّ صيغ يوكليك لم تكن صحيحة. وتجاهل الخبراء مشروع إيبس والأسلحة المشعّة التي لا يتجاوز ضررها على حدّ زعمهم ضرر قنبلة عادية.

لم تهدّئ النبرة المطمئنة للتقارير من روع القادة، لا بل ازداد انزعاجهم لدى اطلاعهم على التقارير التي أفادت أنّ المصريين يطوّرون أسلحة كيميائية أيضاً. في 11 يناير 1963، ثبت أنّ مخاوفهم كانت مبرّرة، وذلك لأنّ المصريين استخدموا الغاز السامّ في حربهم في اليمن. عندها، اجتمعت وزيرة الخارجية الإسرائيلية غولدا مئير مع الرئيس جون أف. كينيدي، وتحدّثت معه حول خطر قيام المصريين بتسليح صواريخهم برؤوس حربية غير تقليدية، وطلبت منه التدخّل، لكنّ كينيدي لم يفعل.

كانت الرؤوس الحربية غير التقليدية خطرة بالفعل، لكنّ الأولويّة أعطيت لتعطيل عمليّة تطوير أنظمة توجيه الصواريخ.

في شتاء عام 1963، كان خبير التوجيه في مصنع 333، د. كلاينفاختر، يمضي

بضعة أسابيع في ألمانيا. وفي مساء 20 فبراير، غادر مختبره في لوراخ، وقاد سيّارته عبر زقاق ضيّق يؤدّي إلى منزله. كان الطريق مظلماً وخالياً ومكسوًّا بالثلوج. فجأة، ظهرت سيّارة في الطريق المقابل واعترضت طريقه، وأصدرت إطاراتها في أثناء ذلك صوتاً قوياً. نزل رجل من السيّارة وتوجّه نحو كلاينفاختر. كما لمح العالم رجلاً في السيّارة.

سأله الرجل: «»أين يعيش د. شينكر؟». ومن دون أن ينتظر جواباً، أخرج مسدّساً مجهّزاً بكاتم للصوت وأطلق النار. حطّمت الرصاصة الزجاج الأمامي واستقرّت في الوشاح الصوفي للعالم. فتح كلاينفاختر علبة القفّازات لإخراج مسدّسه، لكنّ مهاجمه ركض نحو سيّارة ثانية اندفعت بعيدة عن الأنظار.

وجدت الشرطة السيّارة الأولى متروكة على بعد مئة ياردة من مسرح الحادثة. فقد فرّ الرجال الثلاثة في سيّارة أخرى، وتركوا خلفهم جواز سفر باسم علي سمير؛ أحد رؤساء جهاز المخابرات المصري. لكن تبيّن أنّها كانت محاولة للتضليل. ففي اليوم الذي وقع فيه الهجوم، كان سمير في القاهرة وتمّ تصويره مع صحفي ألماني.

لم يتمّ العثور على الرجال الذين هاجموا كلاينفاختر مطلقاً، إلاّ أنّ الصحافة أجمعت على أنّ محاولة الاغتيال قد نُفّذت على أيدي الإسرائيليين، وباءت بالفشل.

بعد بضعة أسابيع، حاول الموساد مرّة أخرى، وهذه المرّة عن طريق ملاحقة د. باول غوركي الألماني المولد في سويسرا.

كان غوركي، على غرار كلاينفاختر، يعمل على جهاز توجيه للصواريخ المصرية في مختبره في مصنع 333. كان يُعتبر رجلاً مهمًّا جدًّا بالنسبة إلى المصريين، وكذلك الأمر بالنسبة إلى الموساد. عاشت ابنته هايدي في فرايبورغ، وهي مدينة ألمانية تقع على مقربة من الحدود السويسرية. بعد مدّة قصيرة من محاولة اغتيال كلاينفاختر، اتّصل د. يوكليك بهايدي وأخبرها أنّه التقى والدها في مصر، حيث كان يعمل على تطوير أسلحة رهيبة تهدف إلى تدمير إسرائيل. ولمّح يوكليك إلى أنّه في حال لم يوقف غوركي أنشطته، فإنّه يعرّض نفسه للمخاطر. أمّا إن قرّر مغادرة مصر، فلن يناله أيّ أذى.

ختم يوكليك: «إن كنت تحبّين والدك، فتعالي يوم السبت في 2 مارس عند الساعة الرابعة عصراً إلى فندق الملوك الثلاثة في بازل، وسأعرّفك على أحد أصدقائي».

خافت هايدي واتّصلت على الفور برجل يدعى هـ. مان، وهو ضابط نازي سابق كلّفه المصريون بحماية العلماء. أبلغ مان شرطة فرايبورغ، التي أبلغت بدورها السلطات السويسرية. وهكذا، عندما دخل يوكليك وصديقه فندق الملوك الثلاثة، كانت عدّة سيّارات شرطة بانتظارهما خلف المبنى، بينما توزّع عدد من المحقّقين في بهو الفندق، وتمّ تركيب عدّة أجهزة تسجيل على مقربة من الطاولة التي جلست عليها هايدي غوركي.

وقع يوكليك وصديقه، وهو عميل الموساد جوزيف بن – غال، في المصيدة على الفور. فهما لم يشتبها بأيّ شيء، وتحدّثا مع هايدي غوركي لمدّة ساعة حرصا خلالها على عدم توجيه تهديدات مباشرة، بل اكتفيا بالتلميح إلى الخطر الذي يهدّد والدها إن واصل بناء أسلحته الرهيبة. ثمّ عرضا على هايدي تذكرة سفر إلى القاهرة لكي تقوم بإقناع والدها بالعودة إلى ألمانيا؛ حيث يكون هو وأسرته بأمان.

بعد انتهاء الاجتماع، غادر الرجلان الفندق واستقلاّ قطار الساعة السادسة المتجه إلى زوريخ، وهناك مضى كلّ في سبيله. لكن، بينما كان يوكليك ينتظر قطاراً آخر في المحطّة، ألقي القبض عليه من قبل رجال شرطة يرتدون ملابس مدنية. أمّا بن – غال فقُبض عليه بالقرب من القنصلية الإسرائيلية.

في ذلك المساء، طلبت الشرطة الألمانية من سويسرا تسليم الرجلين المشتبه بهما بتهديد هايدي غوركي وبالمشاركة أيضاً في الاعتداء على د. كلاينفاختر.

أجرى إيسير اتّصالاته من مقرّه في أوروبا، وحاول إقناع السويسريين بإطلاق سراح بن – غال ويوكليك؛ لكنّهم رفضوا ذلك بسبب طلب التسليم الألماني. عندها، طار إيسير عائداً إلى إسرائيل، والتقى وزيرة الخارجية غولدا مئير. كانا قد أصبحا مقرّبَين في الفترة الأخيرة، ويتشاركان العداء والشكوك نفسها حيال ألمانيا. اقترحت غولدا أن تتوجّه إسرائيل إلى المستشار أديناور وتطلب منه أن تسحب ألمانيا الغربية طلب التسليم.

ذهب إيسير على الفور إلى طبريا التي كان رئيس الوزراء بن غوريون يمضي عطلته فيها، وطلب من بن غوريون إرسال مبعوث خاصّ إلى بون، عاصمة ألمانيا الغربية ليقدّم لأديناور إثباتاً على الأنشطة الفظيعة التي يقوم بها العلماء الألمان في مصر، ويطلب سحب طلب التسليم.

غير أن بن غوريون رفض ذلك.

لم يستسلم إيسير بل قال له: «عليك أن تقرّر ماذا ستفعل إن ذاع خبر الاعتقال. فعندها ستتحوّل القضية بأكملها إلى فضيحة».

سأله بن غوريون: «ماذا تعني بفضيحة؟».

«عندما يُذاع خبر اعتقال بن - غال، ستخرج قضيّة العلماء الألمان في مصر بأكملها إلى العلن. سيتوجب على إسرائيل أن تشرح سبب تصرّف بن - غال. كما سيتوجب علينا أيضاً أن نعلن أنّ مصر كانت تشتري معدّات لصواريخها وغيرها من المشاريع العسكرية من ألمانيا».

فكّر بن غوريون للحظة، ثمّ قال أخيراً: «فليكن».

كانت تلك بداية الخلاف بين الرجلين.

مساء الخميس، 15 مارس 1963، أعلنت يونايتد برس إنترناشيونال خبر اعتقال يوكليك وبن - غال «للاشتباه في أنّهما قاما بتهديد ابنة عالم ألماني يعمل في مصر». دعا إيسير هاريل إلى اجتماع سرّي مع رؤساء تحرير الصحف اليومية، ووصف لهم خلفيّة اعتقال بن - غال. وأكّد بصورة خاصّة على الجزء الذي لعبه يوكليك في القضيّة، وعلى نوع العمل الذي كان يقوم به للمشروع المصري؛ فضلاً عن حقيقة انتقاله إلى الصفوف الإسرائيلية طوعاً، ومحاولته إصلاح الضرر.

خلال الأيّام القليلة التالية، قدّم مساعدو إيسير معلومات سرية لثلاثة صحفيين إسرائيليين: نافتالي لافي من هآريتس، وشموئيل سيغيف من معاريف، ويشعياهو بن - بورات من يديعوت أحرونوت. تمّ إعطاؤهم جميع الحقائق، وعناوين إنترا، وباتواغ، ومعهد شتوتغارت. بعد ذلك، غادر الرجال الثلاثة إلى أوروبا لجمع معلومات عن العلماء الألمان وإرسالها إلى الصحف التي يعملون فيها في إسرائيل.

فقد اعتقد إيسير أنّ أخبار مشروع العلماء المصريين ستكون أكثر مصداقية إن أتت من أوروبا. تمّ إرسال رجال آخرين من الموساد إلى الخارج لإعطاء معلومات لصحفيين موالين لإسرائيل.

لم يدرك إيسير هاريل أنّ المسألة الألمانية كانت واحدة من أكثر المواضيع حساسية في إسرائيل. فقد ولّد هجومه الجامح على ألمانيا انهياراً لن يتمكّن من إيقافه، وجرّ طوفاناً من الاتّهامات ضدّ العلماء، ممّا أثار ذعراً حقيقياً في إسرائيل.

في 17 مارس، كانت الصحافة الإسرائيلية والأجنبية تتخبّط في بحر من العناوين المثيرة: علماء ألمان، معظمهم نازيون سابقون، ينتجون أسلحة فتّاكة في مصر. يعدّون أسلحة بيولوجية وكيميائية ونووية وإشعاعية، ويطوّرون غازات سامّة وجراثيم فتّاكة وأشعّة مميتة ورؤوساً حربية مزوّدة بقنابل ذرّية أو نفايات مشعّة من شأنها أن تنشر أشعّة قاتلة. تسابقت الصحف على نشر تقارير بدت مسروقة من كاريكاتور فلاش غوردن: الأشعة المميتة تنطلق وتحرق كلّ شيء في طريقها... هواء إسرائيل سيسمَّم لمدّة تسعين عاماً على الأقلّ... الجراثيم ستنشر أوبئة مرعبة، وهلمّ جرًّا. كما اتّهمت الحملة أيضاً حكومة جمهورية ألمانيا الاتّحادية بالامتناع عن وضع حدّ للأنشطة الشيطانية لرعاياها العاملين في مصر، وبأنها تسير على خطى هتلر. وقام المراسلون الذين ذهبوا إلى أوروبا بصبّ مزيد من الزيت على النار عبر اكتشاف تفاصيل جديدة كلّ يوم عن مؤامرة العلماء الشيطانية.

انتهت محاكمة بن - غال ويوكليك في بازل بإصدار أحكام مخفّفة على الرجلين؛ سجن لمدّة شهرين مع انقضاء المدّة. لكن، كانت لها نتيجة ثانوية ترتّبت عليها آثار هائلة.

فخلال المحاكمة، لاحظ القاضي فجأة أنّ أحد الحاضرين يحمل مسدّساً.

سأله ساخطاً: «كيف تجرؤ على حمل سلاح في محكمتي؟».

أجاب الرجل: «أنا أملك رخصة لحمل السلاح في جميع الأوقات. فأنا ضابط الأمن المكلّف بحماية العلماء الألمان في مصر».

عرّف عن نفسه على أنّه هـ. مان؛ الرجل الذي اتّصلت به هايدي غوركي بعد

تلقّيها مكالمة يوكليك، وهو الذي أبلغ الشرطة الألمانية في الواقع.

غادر مخبر موساد سرّي قاعة المحكمة على الفور، وأبلغ رؤساءه بما حصل. وعندما سمع عميل الموساد المخضرم رافي ميدان بما جاء في التقرير، قفز واستقل أوّل قطار إلى فيينا واتّجه مسرعاً إلى منزل القناص النازي الشهير سيمون فيزنتال. فوافق فيزنتال على الفور على مساعدة الموساد.

سأله ميدان: «هل تعرف شيئاً عن ألماني يدعى هـ. مان؟».

انصرف فيزنتال للعمل على الفور في محفوظاته الوافرة. وبعد بضع ساعات، عاد إلى ميدان مع ملفّ في يديه وقال: «كان ضابطاً نازياً خلال الحرب. خدم في وحدة كوماندوس تحت قيادة الكولونيل أوتو سكورزيني».

أخذ ميدان المعلومات إلى رافي إيتان، الحاضر دائماً، وإلى أبراهام أهيتوف.

كان أهيتوف رجلاً أصلع لوّحت الشمس بشرته، ذا شارب، ويضع نظّارة. ولد في ألمانيا باسم أبراهام غوتفرايد، وهاجر مع والديه الملتزمَين إلى إسرائيل في سنّ الخامسة. في سنّ السادسة عشرة، كان عضواً في الهاغاناه، وفي سنّ الثامنة عشرة، أصبح أحد مؤسّسي الشاباك. أظهر ذكاء فائقاً، وأنهى دراساته خلال الخدمة، وتخرّج من كلّية الحقوق بامتياز. في عام 1955، قبض على أهمّ جاسوس مصري في إسرائيل، رفعت الجمل، الذي كان يعمل تحت هويّة إسرائيلية باسم جاك بيتون. ثمّ قام أهيتوف بتحويل الجمل إلى أحد أفضل عملاء الموساد المزدوجين، وقام بتزويد المصريين بمعلومات تمّ التلاعب بها بمهارة لأكثر من اثني عشر عاماً. عام 1967، عشيّة حرب الأيّام الستّة، أبلغ الجمل المصريين أنّ إسرائيل ستشنّ هجوماً برّياً قبل إرسال طائراتها إلى المعركة، فنجم عن ذلك تهاون القوّات الجوّية المصرية، ممّا سهّل تدميرها على الأرض بواسطة الطائرات الإسرائيلية. في المستقبل، سيصبح أهيتوف واحداً من أفضل مديري الشاباك، وسيتمّ تقدير الجهود التي بذلها لدمج عرب إسرائيل في التيّار الرئيس للمجتمع الإسرائيلي.

في ذلك المساء من مايو 1936، أصغى أهيتوف إلى تقرير ميدان حول مان وسكورزيني، ثمّ التفت إلى إيتان: «لماذا لا نحاول تجنيد سكورزيني؟».

بدت الفكرة غريبة في البداية، لكنّها تمتاز بمنطق خاص: إن انقلب سكورزيني

على مان، فلديه فرصة في الحصول على معلومات سرّية للغاية من مرؤوسه السابق. لكنّ السؤال المطروح الآن هو كيفيّة الاتّصال بسكورزيني. تبيّن بعد تحقيق سريع أنّ زوجة سكورزيني المنفصلة عنه ظلّت مقرّبة منه جدًّا. وكانت تدير الآن شركة متخصّصة في تجارة المعادن. وجد عملاء الموساد رجل أعمال إسرائيلياً يدعى شلومو زابلودوفيتش، يعمل في المجال نفسه، فاتّصلوا به. أجابهم أنّه يعرف السيّدة سكورزيني بالفعل، وعرّفهم عليها، فأخبرتهم كلّ ما يحتاجون إلى معرفته.

وهكذا، ظهر إيتان وأهيتوف في مكتب سكورزيني في مدريد، وطلبا من بطل الرايخ الثالث السابق أن يصبح عميلهم، وأن يزوّد الموساد بمعلومات عن أنشطة العلماء الألمان في مصر. فبالإضافة إلى هـ. مان، يعرف سكورزيني عدداً من قادة الجالية الألمانية في مصر، والكثيرون منهم كانوا من زملائه السابقين.

سألهم سكورزيني: «كيف أثق بكم؟ كيف أثق أنّكم لن تلاحقوني في المستقبل؟». فقد خشي أن ينتقم منه الإسرائيليون كما فعلوا مع إيخمان، وأن يلقى المصير نفسه.

وجد رافي إيتان الحلّ على الفور، وقال له: «نحن مخوّلون بالتعهّد لك بضمان تحريرك من الخوف». وتناول ورقة وكتب رسالة لسكورزيني باسم دولة إسرائيل تضمن له «التحرير من الخوف» وأنّه لن يتعرّض لأيّ نوع من الملاحقة أو العنف.

قرأ سكورزيني الوثيقة ثمّ غرق في الصمت. ووقف وراح يذرع الغرفة ذهاباً وإياباً، غارقاً في التفكير.

أخيراً، التفت إلى الإسرائيليين وقال: «أنا موافق».

في الأشهر التالية، زوّد سكورزيني عملاء الموساد بمعلومات لا تقدّر بثمن حول أنشطة العلماء الألمان في مصر. وبمساعدة هـ. مان وزملائه السابقين الآخرين، حصل على لوائح مفصّلة بأسماء العلماء الألمان وعناوينهم، وعلى تقارير حول تقدّم مشاريعهم وخططهم ومخطّطات الصواريخ، وعلى مراسلات حول فشل تجميع نظام توجيه لها.

لكنّ إيسير لم يعد هناك لقراءة تقارير سكورزيني.

فـي تلـك الأثناء، أفلتت وسـائل الإعلام الإسـرائيلية من عقالهـا. فقد أعلنت العناويـن، والافتتاحيّـات، والرسـوم الكرتونيـة، وحتّى القصائـد الصارخة أنّ ألمانيا عـام 1963 هـي نفسـها ألمانيـا عـام 1933؛ وألمانيـا نفسـها التـي ذبحـت 6 ملايين يهـودي تسـاعد مصـر الآن علـى التحضير لمحرقـة جديدة. وفي الكنيسـت، صاح زعيـم المعارضـة مناحيـم بغيـن فـي وجه بن غوريـون بنبرة غاضبـة وملتهبة: «أنت تبيع بنادق اليوزي إلى الألمان، وهم يرسلون الجراثيم إلى أعدائنا». واتّهمت غولدا مئير – حليفة إيسـير – في أحد خطاباتها الألمان في مصر بأنهم ينتجون أسـلحة «تهدف إلى تدمير كلّ كائن حيّ».

كانت تلك الاتّهامات مبالغاً فيها، لا بل بعيدة كلّ البعد عن الواقع. سيخبرنا لاحقاً عاموس مانور، رئيس الشاباك وصديق مقرّب من إيسير: «خلال تلك الفترة، عندما قاد إيسير الحملة ضدّ العلماء الألمان، لم يكن متوازناً. وما كان يمرّ به أعمق بكثير من الهوس، وكان يستحيل إجراء حديث طبيعي معه حول هذا الموضوع».

على الفور، لاحظ نائب وزير الدفاع شيمون بيريز، الذي عاد إلى إسرائيل في 24 مـارس بعـد رحلـة قـام بها إلـى أفريقيا، الخطر الهائل الذي يمكن أن ينجم عن الحملة التي يشـنّها إيسـير هاريل. كما أدرك أنّ القصص التي تروى عن الأسـلحة «التي تقتل كلّ كائن حيّ» كانت سـخيفة بكلّ بسـاطة. فقد قدّم له فرع المخابرات فـي الجيـش الإسـرائيلي، أمان، تقريراً مختلفاً تمامـاً. فقد قال له رئيس المخابرات العسكرية، الجنرال مئير عميت: «جمعنا كلّ ما نستطيع جمعه، وتكوّنت لدينا صورة ببـطء: لقـد تـمّ تضخيـم هـذه القصّة إلى حدٍّ كبير... يقـول رجالنا إنّ هذا الأمر لا يمكن أن يكون صحيحاً، ولا يمكن أن يكون خطيراً».

لم يجد رجال عميت أيّ إشـارة إلى أنّ العلماء الألمان يعملون على تطوير أسـلحة كيميائيـة أو جرثوميـة. بـل يبـدو أنّ القصـص حـول تلك الأسـلحة الفتّاكة مأخـوذة مـن كتـب الخيـال العلمي. فقد كانـت كمّيات الكوبالت التـي جُلبت إلى مصر لا تذكر. كما ثبت أنّ د. أوتو يوكليك – الذي كان لشـهادته دور رئيس في القضيّة بأكملها – لم يكن أكثر من انتهازي غير جدير بالثقة.

وصل تقرير أمان إلى مكتب بن غوريون في 24 مارس، فاستدعى إيسير هاريل

على الفور، واستجوبه حول مصادره. طلب أجوبة كاملة ودقيقة. فاعترف هاريل أنّه أرسل صحفيين إلى أوروبا بعد أن أعطاهم معلومات مفصّلة. كما أقرّ أنّه لا يملك أيّ معلومات حول الغازات السامّة، أو الأشعّة، أو قنابل الكوبالت.

في اليوم التالي، اجتمع بن غوريون مع شيمون بيريز الذي جاء مع رئيس هيئة الأركان العامّة والجنرال عميت. قدّم رئيس أمان تقريراً مفصّلاً رسم للحاضرين صورة واضحة: العلماء الذين يعملون في مصر ليسوا بارعين، وهم يقومون ببناء صواريخ قديمة. كانت أنشطتهم خطيرة بالفعل، لكنّ الذعر الذي انتشر في الأوساط الحاكمة في إسرائيل – بما في ذلك وزارة الدفاع والجيش الإسرائيلي – كان مبالغاً فيه للغاية.

استدعى بن غوريون إيسير مجدّداً، وتبادلا حديثاً متوتّراً، وأعرب بن غوريون عن شكوكه حيال دقّة تقارير إيسير وتقييماته. وهكذا، تبدّدت الثقة التامّة التي اتّسمت بها العلاقات بين الرجلين ليحلّ مكانها جدال غاضب تطرّق إلى جوانب أخرى في العلاقات الألمانية الإسرائيلية. عاد إيسير إلى مكتبه غاضباً، وأرسل رسالة استقالة إلى بن غوريون.

حاول بن غوريون ثنيه عن الاستقالة، لكنّ إيسير كان مصرًّا وقال: «أنا أستقيل، وهذا قرار نهائي».

كانت تلك نهاية حقبة من تاريخ الموساد.

بعد ذلك، طلب بن غوريون من إيسير البقاء حتّى يتمّ العثور على بديل له. لكنّ إيسير رفض قائلاً لأمين سرّ بن غوريون: «قل لبن غوريون أن يرسل شخصاً ما على الفور لأخذ المفاتيح». وهكذا اضطرّ رئيس الوزراء إلى البحث عن بديل للرامساد الأسطوري على الفور، وقال لأمين سرّه: «أحضر لي عاموس مانور حالاً»، فهُرع أمين السّر إلى الهاتف.

لكن، تعذّر الوصول إلى رئيس الشاباك، فقد كان في طريقه إلى كيبوتس ماغان، في وادي الأردن لزيارة أقاربه، ولم تكن الهواتف المحمولة قد اخترعت بعد.

قال بن غوريون بنفاد صبر: «إذاً، أحضر لي مئير». كان الجنرال مئير عميت

في جولة تفقّدية في النقب، لكن تمّ الاتّصال به عبر اللاسلكي، واستدعي إلى تل أبيب. وعند وصوله، علم أنّه جرى تعيينه مديراً للموساد بالوكالة حتّى يتمّ تعيين رئيس جديد. بعد بضعة أسابيع، أصبح تعيين عميت نهائيًا.

* * *

بعد رسالة بيريز السرّية إلى فرانز جوزيف شتراس، كلّفت ألمانيا خبيراً محترماً، البروفيسور بويم، بإيجاد وسائل مناسبة من أجل إعادة العلماء من مصر. ونجحت ألمانيا بالفعل في إغراء الكثير من العلماء عبر منحهم فرص عمل في معاهد أبحاث على أراضيها. أمّا الباقون فغادروا مصر تدريجيًا. لم ينهوا بناء الصواريخ، وفشلت نظم الملاحة التي عملوا عليها، ولم يتمّ ملء الرؤوس الحربية بالمواد المشعّة، وحتّى إن طائرة ميسرشميت لم تقلع مطلقاً.

سافر أحد مؤلّفي هذا الكتاب إلى هانتسفيل، في ولاية ألاباما، والتقى هناك شاباً أزرق العينين ينتمي إلى الناسا، د. فيرنير فون براون. اطّلع فون براون على لائحة بأسماء العلماء الألمان في مصر، وعلى مشاريعهم المزعومة، واستنتج أنّه ثمّة فرص ضئيلة جدًّا في أن يكون أولئك العلماء من الدرجة الثانية قد تمكّنوا من بناء صواريخ فعّالة.

باءت المساعي المصرية التي قادها هير دكتور محمود بالفشل الذريع.

أدّت قضيّة العلماء الألمان إلى سقوط إيسير هاريل وصعود مئير عميت. شعر هاريل ببغض شديد تجاه خلَفه، وحاربه بشدّة خلال السنوات التي أمضاها كرامساد. قوّضت قضيّة العلماء الألمان أيضاً سلطة بن غوريون السياسية، فاستقال من منصبه بعد بضعة أشهر.

في القاهرة، كشفت المخابرات المصرية القناع عن فولفغانغ لوتز، «جاسوس الشامبانيا» واعتقلته عام 1965. إلاّ أنها فشلت في كشف غطائه الألماني. وهكذا، لم يحكم عليه سوى بالسجن، وأطلق سراحه بعد عامين ونصف.

سجّلت نهاية القضيّة أيضاً نهاية تعاون الموساد مع أوتو سكورزيني الذي لم تكن الدولة اليهودية تتوقع تجسّسه لحسابها.

الفصل التاسع

عميلنا في دمشق

حبيبتي ناديا، أسرتي الحبيبة،

أكتب إليكم هذه الكلمات الأخيرة، على أمل أن تبقوا متّحدين إلى الأبد. أطلب من زوجتي أن تغفر لي، وأن تعتني بنفسها، وتوفر تعليماً جيّداً لأولادنا... حبيبتي ناديا، قد تتزوّجين مجدّداً ليكون لأولادنا أب. أنت حرة تماماً من هذه الناحية. أطلب منك ألاّ تحزني على ما مضى، بل أن تنظري إلى المستقبل. أبعث إليك قبلاتي الأخيرة.

أرجو أن تصلّوا لراحة نفسي.

المخلص، إيلي

وصلت هذه الرسالة إلى مكتب الرامساد الجديد، مئير عميت، في مايو 1965. كان إيلي كوهين، وهو أحد أكثر الجواسيس جرأة، قد كتبها بيد مرتجفة، في الدقائق الأخيرة التي سبقت إعدامه في دمشق.

بدأت حياة إيلي كوهين السرّية قبل أكثر من عشرين عاماً. كان الشابّ الوسيم يهودياً مصرياً، وفي الثلاثين من عمره، متوسّط القامة، وذا شارب أسود وابتسامة فاتنة. فيما كان عائداً إلى منزله عصر أحد الأيام في أواسط يوليو 1954 التقى في أحد شوارع القاهرة صديقاً قديماً يعمل ضابط شرطة. أسرّ له الضابط: «سنعتقل الليلة بعض الإرهابيين الإسرائيليين، أحدهم يدعى شموئيل عزرا». حينها، اصطنع إيلي الرهبة والإعجاب. لكن، حالما افترق عن صديقه، أسرع إلى شقّته المستأجرة،

وتخلّص من مسدّسه، ومتفجّراته، والوثائق التي يحتفظ بها هناك. كان إيلي متورّطاً في أنشطة سرّية. فقد خطّط لتهريب أسر يهودية أرادت الهجرة إلى إسرائيل وأعدّ لها وثائق مزوّرة. كما كان عضواً في حركة سرّية يهودية مسؤولة عن عمليّة طموحة تعرف باسم قضيّة لافون.

في مطلع عام 1954، علم قادة إسرائيل أنّ الحكومة البريطانية قرّرت الانسحاب من مصر تماماً. كانت مصر أقوى الدول العربية وعدوّ إسرائيل اللدود. وما دام الجيش البريطاني موجوداً في مصر، ويحتفظ بعشرات القواعد والمطارات العسكرية على طول قناة السويس، تستطيع إسرائيل الاعتماد على النفوذ المهدّئ الذي يمارسه على المجلس العسكري الحاكم في البلاد. لكن، مع قرار الانسحاب من مصر، سيتبخّر ذلك النفوذ دفعة واحدة. أضف إلى ذلك أنّ القواعد العسكرية الحديثة، والمطارات، والمخازن الضخمة التي تحتوي على المعدّات والمواد الحربية ستقع في أيدي الجيش المصري. وعندها ستصبح إسرائيل - التي لم يتجاوز عمرها ستّ سنوات - هدفاً ممكناً لهجوم من قبل جيش مصري أكبر عدداً وأفضل تجهيزاً، يرغب في الانتقام بعد هزيمته النكراء في حرب 1948.

هل يمكن إلغاء القرار البريطاني؟ لم يعد بن غوريون على رأس إسرائيل، بل انسحب إلى كيبوتس سديه بوكر، وحلّ مكانه زعيم معتدل لكنّه ضعيف، يدعى موشيه شاريت. شكّك وزير الدفاع بنحاس لافون علناً في سلطة شاريت. ومن دون علم هذا الأخير أو إبلاغ الموساد، وضع لافون والكولونيل بنيامين غيبلي، رئيس المخابرات العسكرية (أمان) خطّة خطيرة ومتهوّرة. فقد وجدا بنداً في الاتّفاق البريطاني المصري يسمح لبريطانيا العظمى بالعودة إلى قواعدها السابقة في حال حدوث أزمة خطيرة، واستنتجا بسذاجة أنّه في حال حدوث عدد من التفجيرات الإرهابية في مصر، ستظن بريطانيا أنّ زعماء مصر غير قادرين على الحفاظ على القانون والنظام. وهكذا، سيلغي البريطانيون قرارهم بالانسحاب من البلاد. لذا، قرّر لافون وغيبلي تنفيذ عدد من التفجيرات في القاهرة والإسكندرية، واستهداف المكتبتين الأميركية والبريطانية، فضلاً عن مراكز ثقافية، ودور سينما، ومكاتب بريد، وغيرها من المباني العامّة. وقام عملاء أمان السرّيون في مصر بتجنيد بعض اليهود

المحلّيين الشباب، من الصهاينة المتحمّسين الذين كانوا على استعداد للتضحية بحياتهم في سبيل إسرائيل. وبذلك، خرق جهاز أمان قاعدة أساسية من قواعد أجهزة المخابرات الإسرائيلية التي تنصّ على عدم استخدام اليهود المحلّيين أبداً في أعمال عدائية، لأنّ هذا الأمر قد يكلّفهم حياتهم ويعرّض الجالية اليهودية بأكملها لخطر محدق. أضف إلى ذلك أنّ الشباب والشابّات لا يملكون أيّ تدريب أوّلي للقيام بمثل تلك العمليّات.

كانت القنابل بدائية، وتمّ صنعها باستخدام علب النظّارات التي وضعت فيها مادّة كيميائية، ثمّ تمّ سكب مادّة أخرى في أنبوب أُدخل في العلبة. كانت المادّة المؤذية بدرجة عالية ستحرق الأنبوب إلى أن تصل إلى المادة الأخرى داخل العلبة مؤدّية إلى انفجار صغير. واستُخدم الأنبوب كأداة توقيت، للسماح للشخص الذي سيضع القنبلة بالهرب قبل حدوث الانفجار.

كانت الخطّة فاشلة منذ البداية. وفي 23 يوليو، وبعد عمليّتين بسيطتين، انفجرت إحدى القنابل في جيب فيليب ناتانسن، وهو عضو في الشبكة الصهيونية، عند مدخل سينما ريو في الإسكندرية. ألقي القبض عليه من قبل الشرطة، وفي الأيّام التالية، ألقي القبض على جميع أعضاء الشبكة.

اعتقل إيلي كوهين أيضاً. ولكن، عند تفتيش شقّته لم يتمّ العثور على أيّ أدلّة تدينه، فأطلق سراحه، غير أن الشرطة المصرية فتحت ملفًّا باسمه. كان الملف يتضمّن ثلاث صور، فضلاً عن سجلّ إيلي شؤول كوهين الذي ولد عام 1924 في الإسكندرية، للزوجين شؤول وصوفي كوهين اللذين هاجرا إلى جهة غير معروفة في عام 1949 مع شقيقتي إيلي وإخوته الخمسة. كان المشتبه به خرّيج الكلّية الفرنسية، وطالباً في جامعة فاروق في القاهرة.

لم يعرف المصريون أنّ أسرة إيلي قد هاجرت إلى إسرائيل واستقرّت في بات يام؛ إحدى ضواحي تل أبيب.

على الرغم من الاعتقالات، قرّر إيلي كوهين البقاء في مصر وعدم الهرب. وخوفاً من تعرّض أصدقائه لما هو أسوأ، جمع كلّ صغيرة وكبيرة عن حبسهم، وعمّا تعرّضوا له في سجون مصر من ضرب وتعذيب.

في أكتوبر، أعلن المصريون على الملأ القبض على «الجواسيس الإسرائيليين»، وفي 7 ديسمبر، افتتحت محاكمتهم في القاهرة. أقدم العميل السرّي الإسرائيلي ماكس بينيت - الذي اعتقل مع المجموعة - على الانتحار عبر جرح معصميه بمسمار صدئ أخرجه من باب زنزانته. في المحاكمة، طلب الادّعاء تنفيذ عقوبة الإعدام بحقّ بعض المعتقلين. لكنّ مناشدات الرحمة توالت من قبل السفير البابوي، ووزير الخارجية الفرنسي، وسفيرَي الولايات المتّحدة وبريطانيا العظمى، وأعضاء مجلس العموم البريطاني ريتشارد كروسمان وموريس أورباخ، ورئيس حاخامات مصر... لكن كلّ ذلك كان من دون جدوى. ففي 17 يناير 1955، أعلنت المحكمة العسكرية الأحكام الصادرة: براءة اثنين من المتّهمين، والحكم على اثنين بالسجن لمدّة سبع سنوات مع الأشغال الشاقّة، وعلى اثنين بالسجن لمدّة خمسة عشر عاماً، وعلى اثنين آخرين بالسجن مدى الحياة. أمّا زعيما الشبكة، د. موشيه مرزوق والمهندس شموئيل عزرا، فحكم عليهما بالإعدام شنقاً، وتمّ تنفيذ الحكم بعد أربعة أيّام في باحة سجن القاهرة. في إسرائيل، هزّت الفضيحة الهائلة الحكومة. من الذي أصدر ذاك الأمر الغبي والإجرامي لتنفيذ تلك العمليّة؟ فشلت عدّة مجالس تحقيق في التوصّل إلى إجابة واضحة. ووجّه لافون وغيبلي أصابع الاتّهام إلى بعضهما، فأُجبر وزير الدفاع على الاستقالة، وحلّ مكانه بن غوريون الذي عاد من عزلته. أمّا الكولونيل غيبلي، فلم تتمّ ترقيته مطلقاً، وبعد مدّة قصيرة اضطرّ إلى ترك الجيش.

في مصر، خسر إيلي كوهين بعضاً من أفضل أصدقائه. ومع أنّه بقي مشتبهاً به في نظر السلطات، إلاّ أنّه ظلّ في القاهرة وتابع ممارسة أنشطته السرّية، ولم يهاجر إلى إسرائيل إلاّ عام 1957، بعد حرب السويس.

كان في بات يام شارع ظليل يحمل اسم شارع شهداء القاهرة. كان إيلي يعبر ذلك الشارع كلّ يوم عندما يذهب لزيارة أسرته. لم تكن خطواته الأولى في إسرائيل سهلة. فقد بحث عن عمل لبضعة أسابيع، ووجد وظيفة بفضل طلاقته في عدّة لغات (العربية، والفرنسية، والإنكليزية، وحتّى العبرية): ترجمة المجلاّت

الأسبوعية والشهرية لجهاز أمان. كان مكتبه في أحد شوارع تل أبيب مموّهاً كوكالة تجارية. وتقاضى راتباً متواضعاً: 170 شيكلاً (95$) شهريًا. غير أنّه أقيل بعد مرور بضعة أشهر، فعثر له أحد أصدقائه - وكان يهودياً مصرياً هو أيضاً - على وظيفة جديدة: محاسب في سلسلة متاجر هاماشبير. كان عمله مملاً، لكنّ الراتب أعلى. في ذلك الوقت، عرّفه شقيقه على ممرّضة شابّة جميلة وذكية من أصل عراقي. وبعد شهر من ذلك، تزوّج إيلي من ناديا التي كانت شقيقة مفكّر صاعد يدعى سامي ميخائيل. في صباح أحد الأيّام، دخل رجل مكتب إيلي وقال: «اسمي زلمان. أنا ضابط مخابرات، وأريد أن أعرض عليك وظيفة».

«ما نوع الوظيفة؟».

«إنّها مثيرة للاهتمام جدًّا في الواقع. ستسافر إلى أوروبا كثيراً. وقد تسافر إلى دول عربية أخرى كعميل لنا».

رفض إيلي العرض قائلاً: «لقد تزوّجت للتوّ. وأنا لا أريد السفر إلى أوروبا أو إلى أيّ مكان آخر».

كانت تلك نهاية الحديث وليست نهاية القضيّة. فقد اضطرّت ناديا إلى ترك وظيفتها عندما أصبحت حاملاً. ورغبت شركة هاماشبير في إعادة الهيكلة، فسرّحت عدداً من موظّفيها، وكان إيلي من بينهم، ولم يستطع إيجاد وظيفة أخرى. عندها، وكما لو كان الأمر صدفة، طرق زائر غير متوقّع باب شقّته.

كان زلمان مجدّداً.

سأل إيلي: «لماذا ترفض العمل لدينا؟ سندفع لك 350 شيكلاً (195$) في الشهر. وستتدرّب لمدّة ستّة أشهر. بعد ذلك، إن رغبت فبإمكانك البقاء، وإلاّ فأنت حرّ في الذهاب».

هذه المرّة، لم يرفض إيلي، وأصبح عميلاً سرّياً.

يروي بعض مخضرمي جهاز أمان رواية مختلفة. إذ يؤكّدون أنّ إيلي لم يحصل على وظيفة لدى أمان عندما وصل إلى إسرائيل لأنّ الاختبارات النفسية التي خضع لها أظهرت أنّه مفرط الثقة بنفسه. كان موهوباً، وشجاعاً، ويمتاز بذاكرة قوية، لكنّه يميل إلى المبالغة في تقدير نفسه والمجازفة على نحو غير ضروري.

وهذه الصفات مجتمعة جعلت منه شخصاً غير مؤهّل بالنسبة إلى أمان.

لكن، في أوائل الستينيّات، تغيّرت الأمور. فقد بدأت الوحدة 131 في جهاز أمان، وهي وحدة العمليّات الخاصّة لفرع المخابرات العسكرية، بالبحث على وجه السرعة عن عميل ذي كفاءة عالية للعمل في دمشق. ففي السنوات الأخيرة، أصبحت سوريا الدولة العربية الأكثر عدوانية، والعدوّ اللدود لإسرائيل، ولم تفوّت فرصة لمهاجمتها. وواجهت إسرائيل في معارك دامية في هضبة الجولان وعلى شواطئ بحيرة الجليل، وأرسلت فرقاً من المقاتلين عبر الحدود الإسرائيلية. وهي تخطّط الآن لتنفيذ مشروع هندسي كبير يهدف إلى تحويل مياه روافد نهر الأردن وحرمان إسرائيل من الماء. في أواخر الخمسينيّات، أطلقت إسرائيل مشروع أنابيب وأقنية ضخمة لنقل جزء من مياه الأردن إلى منطقة النقب القاحلة. أُخذت المياه من ذلك الجزء من النهر الذي يمرّ عبر الأراضي الإسرائيلية، فأثار مشروع المياه سلسلة من مؤتمرات القمّة العربية، وقرّرت الدول العربية رسميًّا تحويل مياه روافد نهر الأردن للقضاء على المشروع الإسرائيلي. وأوكلت المهمّة بحدّ ذاتها إلى سوريا.

لا يمكن لإسرائيل البقاء من دون مياه نهر الأردن. ولا يمكن أن تسمح لسوريا بتنفيذ المشروع، فبدأت تخطّط للردّ. كانت بحاجة إلى عميل في دمشق؛ إلى شخص موثوق، وواثق من نفسه، وجريء. وهكذا، إنّ الصفات نفسها التي دفعت أمان إلى رفض إيلي في الماضي هي التي جعلت منه الآن الشخص المطلوب للوحدة 131. (بعد خمسين عاماً، تبيّن أنّ أمان حاولت تجنيد شخص آخر لتلك المهمّة، وهو سامي ميخائيل، شقيق ناديا كوهين! لكنّ ميخائيل رفض، وبقي في إسرائيل، وأصبح أحد أعظم شعرائها).

خاض كوهين تدريباً طويلاً وشاقًّا. كان يغادر منزله كلّ صباح، متذرّعاً بأمر ما، ويتوجّه إلى مركز التدريب في جهاز أمان. كان لديه مدرّب واحد فقط على مدى عدّة أسابيع، يدعى إسحاق. في البداية، تعلّم كيف يقوّي ذاكرته. فكان إسحاق يلقي عدّة أشياء على الطاولة؛ كقلم، ومجموعة مفاتيح، وسيجارة، وممحاة، وبضعة دبابيس، فينظر إليها إيلي لثانية أو اثنتين ثمّ يغمض عينيه ويحاول وصف ما رآه. تعلّم أيضاً التعرّف على نوع الدبّابات، والطائرات، والمدافع ومصدرها. كان

إسحاق يقول له: «لنذهب في نزهة». فيخرج الرجلان للتنزّه في شوارع تل أبيب المزدحمة. ثمّ يهمس له إسحاق: «هل ترى كشك الجرائد هناك. اذهب الآن إلى هناك وتظاهر أنّك تنظر إلى الصحف، لكن حاول في الوقت نفسه أن تعرف إن كان ثمّة من يتبعك». وعندما يرجعان إلى المركز، كان إسحاق يصغي إلى تقرير إيلي، ثمّ يرمي مجموعة من الصور على الطاولة. «كنت محقًّا بشأن هذا. كان يتبعك بالفعل. لكن، ماذا عن ذاك الرجل الواقف قرب الشجرة؟ هو أيضاً كان يتبعك كظلّك».

في صباح أحد الأيّام، عرّفه زلمان على مدرّب آخر يدعى يهودا، علّمه المدرّب الثاني كيفيّة استخدام جهاز إرسال صغير ومتطوّر، ثمّ أرسل إيلي لخوض اختبارات بدنية ونفسية. بعد انتهاء تلك الاختبارات، عرّفه زلمان على امرأة شابّة تدعى مارسيل كوزين.

قال له: «حان وقت الاختبار الحاسم. ستعطيك مارسيل جواز سفر فرنسيًّا باسم يهودي مصري هاجر إلى أفريقيا وأتى الآن إلى إسرائيل كسائح. بواسطة هذا الجواز ستذهب إلى القدس وستمكث هناك عشرة أيّام. ستعطيك مارسيل تفاصيل كاملة عن غطائك؛ ماضيك في مصر، وأسرتك، وعملك في أفريقيا. في القدس، لن تتكلّم سوى الفرنسية والعربية. عليك أن تقابل الناس، وتكوّن صداقات، وتقيم علاقات جديدة من دون أن تكشف عن هويّتك الحقيقية. عليك أن تتأكّد أيضاً أنّك لست ملاحقاً».

أمضى إيلي عشرة أيّام في القدس. وعند عودته، حصل على إجازة لبضعة أيّام. كانت ناديا قد أنجبت طفلة للتوّ، وأسمتها صوفي. بعد رأس السنة اليهودية، عرّفه زلمان على رجلين آخرَين لم يعرّفا عن نفسيهما. قال أحدهما مبتسماً: «لقد اجتزت اختبار القدس يا إيلي، وحان الوقت للانتقال إلى مسائل أكثر جدّية».

في غرفة خالية في مقرّ أمان، التقى إيلي شيخاً مسلماً علّمه بصبر القرآن والصلاة على الطريقة الإسلامية. حاول إيلي التركيز، لكنّه ظلّ يخطئ. فقال له مدرّبوه: «لا تقلق. إن طرح عليك أحد ما أيّ أسئلة، قل له إنّك لست مسلماً

متديّناً، وإنّك لا تملك سوى بعض الذكريات الدينية التي ترجع إلى أيّام المدرسة».

أعطي إيلي لمحة عن مهمّته: سيتمّ إرساله إلى بلد محايد في الخارج، وبعد خوض تدريب إضافي، سينتقل إلى دولة عربية.

سأل: «أيّ دولة؟».

«ستعرف في الوقت المناسب».

ثمّ تابع زلمان: «ستتظاهر أنّك عربي، وستقيم علاقات محلّية، وتؤسّس شبكة تجسّس إسرائيلية».

وافق إيلي من دون تردّد. وكان واثقاً أنّه يستطيع تنفيذ المهمّة.

قال له مدرّبوه: «ستحصل على أوراق مواطن سوري أو عراقي».

«لماذا؟ أنا لا أعرف شيئاً عن العراق. أعطوني أوراقاً مصرية».

قال زلمان: «هذا مستحيل. فالمصريون يملكون سجلاّت محدّثة للسكّان ولجميع الجوازات التي أصدروها. لذا، سيكون في الأمر مخاطرة كبيرة. أمّا العراق وسوريا فلا تملكان سجلاّت كتلك، ولا يمكنهما تتبّعك».

بعد يومين، كشف زلمان وزملاؤه لإيلي عن هويّته الجديدة. «اسمك كمال، واسم والدك أمين ثابت. بالتالي إنّ اسمك الكامل هو كمال أمين ثابت».

ألّف الضبّاط المكلّفون بقضيّة إيلي قصة مفصّلة لعميلهم الجديد. «أنت ابن أبوين سوريَين. اسم أمّك سعيدة إبراهيم. كانت لديك أخت. ولدتَ في بيروت، في لبنان. وعندما كنت في الثالثة، غادرت أسرتك لبنان وانتقلت إلى مصر؛ إلى الإسكندرية. لا تنسَ، أسرتك سورية. بعد عام، توفّيت أختك. كان والدك تاجر أقمشة. عام 1946، هاجر عمّك إلى الأرجنتين. وبعد مدّة قصيرة، كتب إلى والدك ودعا عائلتك للانضمام إليه في بوينس آيريس. عام 1947، وصلتم جميعاً إلى الأرجنتين، فأسّس والدك وعمّك شركة مع شخص ثالث، وفتحا متجراً للأقمشة، إلاّ أنّ الشركة أفلست. توفّي والدك عام 1956، وبعد ستّة أشهر، توفّيت أمّك أيضاً. بعد ذلك، عشت مع عمّك وعملت في وكالة للسفر، ثم دخلت مجال الأعمال وحقّقت نجاحاً كبيراً».

كان إيلي بحاجة الآن إلى قصّة مزيّفة من أجل أسرته أيضاً. فقال لناديا

عندما عاد إلى المنزل: «حصلت على وظيفة في شركة تعمل مع وزارتَي الدفاع والخارجية. فهم بحاجة إلى شخص يسافر إلى أوروبا لشراء الأدوات، والمعدّات، والمواد اللازمة من أجل تاعسTa'as (الصناعة العسكرية في إسرائيل) ولإيجاد أسواق لمنتجاتها. سأعود إلى المنزل كثيراً، في إجازات طويلة. أعرف أنّ الفراق سيكون صعباً على كلينا، لكنّك ستحصلين على راتبي كاملاً هنا، وفي غضون بضع سنوات سنشتري أثاثاً من أوروبا وسنقوم بترتيب الشقّة".

في مطلع فبراير 1961، وصل إيلي إلى مطار اللد بسيّارة لا تحمل رقماً. سلّمه شابّ عرّف عن نفسه أنّه جدعون جواز سفر إسرائيليًّا باسمه الحقيقي، فضلاً عن 500 دولار، وتذكرة طائرة إلى زوريخ.

لدى وصول إيلي إلى زوريخ، كان في استقباله رجل أشيب، أخذ منه جواز سفره، وأعطاه جوازاً صادراً من دولة أوروبية، باسم آخر. كان جواز السفر يحمل تأشيرة دخول إلى تشيلي وتأشيرة عبور إلى الأرجنتين. قال الرجل وهو يدسّ في يد إيلي تذكرة سفر إلى سانتياغو، مع توقّف في بوينس آيريس: "في بوينس آيريس، سيمدّد رجالنا تأشيرتك. ستصل إلى بوينس آيريس غداً. وفي اليوم التالي، عند الساعة الحادية عشرة صباحاً، عليك أن تذهب إلى مقهى كورينتس. سيلتقيك رجالنا هناك".

وصل إيلي إلى عاصمة الأرجنتين وحجز في أحد الفنادق. وفي الصباح التالي، عند الساعة الحادية عشر تماماً، أتى رجل مسنّ إلى طاولته في مقهى كورينتس، وعرّف عن نفسه على أنّه أبراهام. تلقّى كوهين تعليمات بالإقامة في شقّة مفروشة تمّ استئجارها من أجله. سيتّصل به أستاذ من المنطقة وسيعلّمه اللغة الإسبانية. قال له أبراهام: "لن تكون لديك أيّ مشاغل أخرى، وأنا سأتكفّل بنفقاتك".

بعد ثلاثة أشهر، أصبح إيلي مستعدًّا للمرحلة التالية. فقد أصبح يتحدّث الإسبانية بشكل مقبول، ويعرف بوينس آيريس جيّداً، ويلبس ويتصرّف مثل آلاف المهاجرين العرب الذين يعيشون في العاصمة الأرجنتينية. ودرّبه معلّم آخر على تحدّث العربية بلكنة سورية.

التقاه أبراهام في مقهى، وسلّمه جواز سفر سورياً باسم كمال أمين تابت. قال

أبراهام: "عليك تغيير عنوانك بحلول نهاية الأسبوع. افتح حساباً مصرفياً باسمك الجديد، وابدأ بزيارة المطاعم العربية، ودور السينما التي تعرض أفلاماً عربية، والنوادي الثقافية والسياسية العربية. حاول تكوين أكبر عدد ممكن من الصداقات والعلاقات مع زعماء الجالية العربية. أنت تاجر ثري، ورجل أعمال لامع. تعمل في مجال الاستيراد والتصدير، إلاّ أنّك تعمل أيضاً في مجال النقل والاستثمارات. قدّم مساهمات سخيّة للجمعيّات الخيرية لدى الجالية العربية. حظًّا سعيداً!".

كان حظّ الجاسوس الإسرائيلي سعيداً بالفعل. فخلال بضعة أشهر، اخترق كوهين بنجاح قلب الجالية العربية السورية في بوينس آيريس. سِحر شخصيّته، وثقته بنفسه، وتفكيره السليم، وثروته كلّها جذبت عدداً لا بأس به من أهمّ الشخصيّات العربية في الأرجنتين. وسرعان ما أصبح شخصيّة معروفة في الأوساط العربية. كانت انطلاقته في النادي الإسلامي في إحدى الأمسيات، عندما التقى رجلاً موقّراً، أنيق الملبس، أصلع الرأس، يزيّن وجهه شارب كثّ. عرّف عن نفسه أنّه عبد اللطيف حسن، رئيس تحرير مجلّة الوطن العربي التي تنشر في الأرجنتين. أعجب حسن بشدّة بشخصيّة "المهاجر السوري" الجادّة، وأصبحا صديقين مقرّبَين.

تلت المناسبات الثقافية في النوادي اجتماعات أكثر حميمية بصحبة قادة الجالية العربية. أصبح اسم إيلي مدرجاً على لائحة ضيوف السفارة السورية، وصار يدعى إلى حفلات فاخرة. وفي حفل رسمي في السفارة، قاد حسن صديقه ثابت إلى ضابط مهيب المظهر، يرتدي زيّ لواء سوري. قال حسن للواء: "اسمح لي أن أعرّفك على مواطن سوري حقيقي ومخلص". ثمّ التفت إلى إيلي مضيفاً: "أقدّم لك اللواء أمين الحافظ، الملحق العسكري في السفارة".

حينها أتمّ إيلي المرحلة النهائية في تعزيز علاقاته، وحان وقت مهمّة التجسّس الحقيقية. أعطي التعليمات في لقاء قصير وسرّي مع أبراهام في يوليو 1961. في اليوم التالي، قصد مكتب حسن وقال له: "لقد سئمت وتعبت من العيش في الأرجنتين". وأخبره أنه يحبّ سوريا أكثر من أيّ شيء آخر، ويرغب في العودة إليها، وسأله إن كان يستطيع مساعدته عبر إعطائه بعض رسائل التوصية؟ عندها،

قام رئيس التحرير على الفور بكتابة أربع رسـائل: واحدة لصهره في الإسـكندرية، واثنتيـن لصديقيـن لـه في بيروت (أحدهما مصرفي واسـع النفوذ)، الرابعة لابنه في دمشـق. قـام إيلـي أيضـاً بزيـارة أصدقاء عرب آخريـن، وعاد بحقيبة مليئة برسـائل توصية مفعمة بالحماسة، كتبها قادة جالية بوينس آيريس.

في أواخر شهر يوليو 1961، سافر كمال أمين تابت إلى زوريخ، ثمّ انتقل إلى طائـرة أخـرى متوجّهـة إلى ميونيـخ. وفي مطار العاصمة البافارية، اقترب منه عميل إسـرائيلي. كان اسـمه زلينغر. سـلّم إيلي جواز سـفر إسـرائيلياً وتذكرة سفر إلى تل أبيب. في أوائل أغسـطس، عاد إيلي إلى بيته وقال لناديا: "سـأمضي بضعة أشـهر في المنزل".

مرّت الأشهر التالية في التدريب المكثّف. كان غطاء إيلي مثالياً، وقد انسجم تمامـاً مـع شـخصيّته الجديـدة. عاد مدرّبـه يهودا الذي درّبه على أجهزة الإرسـال، وعلّمه كيفيّة الكتابة بالشيفرة. بعد بضعة أسابيع، أصبح قادراً على استلام وإرسال ما بين 12 إلى 16 كلمة في الدقيقة. كان ملزماً بقراءة كتب عن سـوريا، وجيشـها، وأسـلحتها، واسـتراتيجيتها. وبعد اللقاءات العديدة مع أخصّائيين أعطوه معلومات في ذاك المجال، أصبح هو نفسه خبيراً في السياسة الداخلية السورية.

فـي ديسـمبر 1961، طـار إيلي مجدّداً إلى زوريـخ، لكنّ وجهته النهائية كانت دمشق؛ عرين الأسد.

كان التوتّر على الحدود السورية الإسرائيلية يتصاعد مع الضعف الذي يسود النظام السـوري. فمنذ عام 1948، عصفت سلسـلة طويلة من الانقلابات العسـكرية بالبلاد. كان من النادر جدًّا أن يموت رئيس سوري بطريقة طبيعية، بل أصبح معظم الرؤسـاء يموتـون علـى حبـل المشـنقة، أو أمام فرقة إعـدام، أو يتعرّضون للاغتيال علـى يـد قاتـل بـارع. كانت البلاد غير مسـتقرّة، وفي حالة اضطراب مسـتمرّ. وفي أغلب الأحيان، قام الزعماء السـوريون السـاعون إلى إلهاء الشـعب عن المشـاكل الداخليـة، بافتعـال حـوادث متعمّدة على الحدود. أصبحت عمليّات الإعدام العلنية مشـهداً مألوفاً في سـاحات دمشـق. حيث يقوم الجلاّدون بإعدام أشـخاص متّهمين

بكونهم متآمرين، أو جواسيس، أو أعداء للدولة، أو أنصاراً للنظام السابق، واحداً تلو الآخر. وقبل وقت قصير من وصول إيلي، حدث انقلاب جديد في 28 سبتمبر 1961 أطاح بالوحدة السورية المصرية التي لم تدم طويلاً، والتي أطلق عليها اسم الجمهورية العربية المتّحدة.

قبل انطلاق إيلي في مهمّته، التقى زلمان الذي أعطاه تعليمات مفصّلة: "ستحصل على جهاز إرسال خاصّ بك من زلينغر، عميلنا في ميونخ. بعد وصولك إلى دمشق، سيتّصل بك موظّف في هيئة الإذاعة السورية. هو أيضاً "مهاجر" مثلك، استقرّ في سوريا منذ وقت غير بعيد، وهو لا يعرف هويّتك الحقيقية. لا تحاول إيجاده! سيجد اللحظة المناسبة للاتّصال بك".

في ميونيخ، أعطاه زلينغر حزمة رائعة من معدّات التجسّس؛ من أوراق كتب عليها مفتاح رمز الإرسال بالحبر السرّي، وكتب تستعمل كرموز إرسال، وآلة كاتبة خاصّة، وراديو ترانزيستور أدخل فيه جهاز إرسال، وآلة حلاقة كهربائية يؤدّي سلكها دور هوائي لجهاز الإرسال، وأصابع ديناميت مخبّأة في صابون ياردلي وفي أصابع سيجار، وبعض أقراص السيانيد للانتحار تحسّباً...

تساءل إيلي عن كيفية تمكنه من إدخال كلّ هذه المعدّات إلى سوريا، لا سيّما وأنّ إجراءات المراقبة لدى الجمارك والهجرة هناك مشدّدة جدًّا وفي غاية الدقّة.

كان لدى زلينغر الجواب الشافي: «ستشتري تذكرة على سفينة أستوريا التي تبحر من جنوى إلى بيروت في مطلع يناير. سيتّصل بك شخص على متن القارب، وسيساعدك على اجتياز حواجز المراقبة على الحدود في سوريا».

سافر على متن أستوريا. وفي صباح أحد الأيّام، بينما كان جالساً بالقرب من مجموعة من الركّاب المصريين، اقترب منه رجل وهمس له: «اتبعني». فنهض إيلي وابتعد عن المجموعة. قال له الرجل: «اسمي مجيد شيخ الأرض، ولديّ سيّارة». كانت تلك إشارة إلى أنّه سيقلّ إيلي إلى دمشق.

كان شيخ الأرض رجلاً قصير القامة، وكان مقاولاً دولياً ورجل أعمال معروفاً - وغامضاً - في دمشق. تزوّج من يهودية مصرية، إلاّ أنّه اختار مع ذلك تمضية سنوات الحرب العالمية الثانية في ألمانيا النازية. جعلته شخصيّته المتقلّبة والجشعة

يبدو شريكاً غير مرغوب فيه؛ الأمر الذي لفت انتباه أجهزة المخابرات الإسرائيلية، وسرعان ما جعلوا منه عميلاً لديهم؛ مع أنّه لم يدرك ذلك. فقد اعتقد أنّه يعمل لصالح اليمينيين المتطرّفين السوريين الذين يعملون سرًّا. صدّق أسطورة كمال أمين ثابت، وسيقدّم في السنوات القادمة عوناً كبيراً للجاسوس الإسرائيلي.

تمثّلت مهمّته الأولى في ضمان مرور أمتعة ثابت بأمان عبر الحدود السورية.

في 10 يناير 1962، توقّفت سيّارة شيخ الأرض الآتية من بيروت عند الحدود السورية. كان الصندوق يحتوي على حقائب إيلي كوهين المليئة بمعدّات الإرسال وغيرها من المواد التي يُمنع دخولها. فيما جلس إيلي على المقعد المجاور للسائق، بجوار شيخ الأرض.

قال شيخ الأرض لإيلي عند اقترابهما من الحدود: «سنلتقي صديقي أبو خلدون. صدف أنّه واقع في ورطة مالية، و500 دولار ستحسّن وضعه بالتأكيد».

هكذا، انتقل مبلغ 500 دولار بسرعة من محفظة العميل الإسرائيلي إلى جيب أبو خلدون، مفتّش الجمارك السوري. فتمّ رفع الحاجز، وشقّت السيّارة طريقها متجهة نحو العاصمة. وهكذا أصبح إيلي كوهين في سوريا.

في شوارع دمشق الصاخبة، بمساجدها المزدحمة وأسواقها النابضة بالألوان، لم يكن من الصعب الذوبان في الحشد. لكنّ إيلي أراد العكس تماماً. أراد أن يلاحظه الناس، وبسرعة. فاستأجر دارة فخمة في الحيّ الراقي أبو رمانة، بالقرب من مقرّ للجيش السوري. من شرفة الدارة، كان إيلي قادراً على رؤية مدخل دار الضيافة الرسمي للحكومة السورية. كان منزله يقع بين السفارات الأجنبية، ومنازل رجال الأعمال الأثرياء، والمقرّات الرسمية لقادة الأمّة. أخفى إيلي على الفور معدّاته السرّية في مخابئ مختلفة في المنزل. وتجنّباً لخطر دخول المخبرين والخونة منزله، قرّر عدم توظيف خدم والعيش بمفرده.

حالفه الحظّ مجدّداً، فقد وصل إلى دمشق في الوقت المناسب. رأى الرئيس عبد الناصر في انهيار الجمهورية العربية المتّحدة إهانة شخصيّة له وإذلالاً لمصر. وكان هاجس القادة السوريين، السياسيين والعسكريين، يتمحور حول احتمال حدوث انقلاب بإلهام مصري، أمّا التجسّس الإسرائيلي فلم يكن مطروحاً على

جدول أعمالهم. من جهة ثانية، كانوا بحاجة ماسّة إلى حلفاء، ومؤيّدين، ومصادر تمويل جديدة، سواء أكانت في سوريا أو بين المهاجرين السوريين في الخارج. وهكذا، اعتُبر كمال أمين تابت، المليونير القومي الوفيّ، المسلّح برسائل توصية ممتازة، الرجل المناسب في الوقت المناسب.

أسّس كوهين علاقاته بسرعة وفاعليّة. وفتحت أمامه رسائل التوصية أبواب المجتمع الراقي، والمصارف، والأوساط التجارية التي ألهمت انقلاب 28 سبتمبر. عرّفه أصدقاؤه الجدد على كبار المسؤولين الحكوميين، وكبار ضبّاط الجيش، وقادة الحزب الحاكم. وتقرّب اثنان من رجال الأعمال الأثرياء من المليونير الشابّ والوسيم، على أمل تزويجه إحدى بناتهما. وفي عرض سخيّ، قدّم تابت مبلغاً كبيراً من المال من أجل بناء مطبخ شعبي لفقراء دمشق. مهّدت شعبيّته الجديدة الطريق لوصوله إلى الأوساط الحاكمة. إلاّ أنّه امتنع عن الانخراط في صفوف حكّام سوريا الجدد، لأنّ حدسه أنبأه أنّ هذا الوضع مؤقّت. فما زالت هزّاتٌ ارتدادية داخلية كبرى تنتظر سوريا بعد انفصالها عن مصر.

بعد شهر من وصول إيلي إلى دمشق، أتى جورج سالم سيف لزيارته، وهو مضيف برنامج إذاعي معروف. كان جورج سالم سيف هو الرجل الذي ذكره زلمان عندما أعطى إيلي التعليمات الأخيرة في إسرائيل. كان سيف قد «عاد» إلى سوريا قبل مدّة قصيرة من وصول تابت إليها. ونظراً لمنصبه، كان باستطاعته تزويد إيلي بمعلومات داخلية عن الوضع السياسي والعسكري. أطلع سيف إيلي أيضاً على المبادئ التوجيهية السرّية من قبل وزارة الإعلام؛ مبيّناً ما يستطيع بثّه وما يتوجب عليه إخفاؤه عن جمهوره. وفي الحفلات التي أقيمت في منزل سيف، التقى إيلي عدداً من كبار المسؤولين والسياسيين المعروفين.

لم تكن لدى سيف – شأنه شأن شيخ الأرض – أيّ فكرة عن هويّة إيلي كوهين الحقيقية. وهو أيضاً اعتقد أنّ تابت قومي متعصب يملك أجندة سياسية خاصّة به.

أدرك إيلي كوهين أنّه أصبح الجاسوس الأكثر وحدة في العالم. فهو لا يملك صديقاً واحداً يبوح له بمكنونات صدره، ولا يعرف ما إذا كان ثمّة شبكة إسرائيلية

أخـرى تعمـل معـه في دمشـق. كان بحاجة إلى أعصـاب فولاذية لاحتمال الإجهاد الناجم عن عزلته الرهيبة، وتأدية دور خطير أربعاً وعشرين ساعة في اليوم. حتى إنه أدرك أنّه خلال زياراته النادرة إلى وطنه، لم يكن قادراً على البوح بسـرّه لزوجته، بل يجب عليه تضليلها هي أيضاً.

بدأ يرسل الرسائل إلى إسرائيل يوميًّا، عند الساعة الثامنة صباحاً، وأحياناً في المسـاء أيضاً. وكان بثّه يتمّ تحت غطاء مضمون. فقد كان جهاز إرسـاله موجوداً في الدارة؛ أي بالقرب من مقرّ قيادة الجيش الذي شـكل مصدر إرسـال متواصل. ولم يكن باستطاعة أحد التمييز بين البثّ الصادر من إيلي والرسائل التي لا حصر لها المنبعثة من مركز اتّصالات الجيش.

بعد سـتّة أشـهر أمضاها في سـوريا، أصبح كمال أمين تابت شـخصيّة معروفة فـي مجتمـع دمشـق الراقـي. عندهـا قرّر السـفر «من أجـل أعمال تجارية». فسـافر أوّلاً إلى الأرجنتين، والتقى هناك عدداً من أصدقائه العرب، ثمّ سافر إلى أوروبا، وبدّل الطائرات والهويّات، وهبط في ليلة صيف حارّة في مطار اللد. وصل «البائع المتجـوّل» محمَّـلاً بالهدايـا إلـى شـقّته المتواضعة في بات يام، وهنـاك كانت ناديا وصوفي بانتظاره.

فـي أواخـر الخريف، سـافر إيلي كوهين إلى أوروبـا. وبعد بضعة أيّام، وصل كمـال أميـن تابـت إلـى دمشـق. خلال إقامته في إسـرائيل، زوّده رؤسـاؤه في أمان بكاميـرا مصغّـرة ليتمكّـن من تصوير الوقائع والوثائق. كان عليه إخفاء الميكروفيلم فـي صناديـق باهظـة الثمن تحتوي على صناديق لعبة نرد. كانت الصناديق مصنوعة من الخشـب المصقول المزيّن بفسيفسـاء من الصدف والعاج. وكان بالإمكان نزع زينـة الفسيفسـاء عـن الخشـب المصقـول، ومن ثمّ إعادتها بعد وضـع الميكروفيلـم فـي الفجـوة. عندهـا يقـوم تابـت بإرسـال صناديق لعبـة النرد إلى «أصدقـاء له في الأرجنتين»، يرسلونها بدورهم إلى إسرائيل مع الحقيبة الدبلوماسية.

من أوّل الوثائق التي أرسلها إيلي إلى إسرائيل تقارير عن تزايد الاضطرابات داخل الجيش والقوّة الصاعدة لحزب البعث الاشتراكي. شعر إيلي أنّ تغييراً عميقاً يلوح في أفق سوريا، فتبع حدسه. أسّس علاقات وثيقة مع قادة حزب البعث، وتبرّع

بمبالغ طائلة من المال للحزب.

لقد فعل الشيء الصحيح. ففي 8 مارس 1963، حدث انقلاب جديد في دمشق، فخلع الجيش الحكومة، واستولى حزب البعث على السلطة في سوريا، وتمّ تعيين اللواء حافظ، صديق إيلي في بوينس آيريس، وزيراً للدفاع في حكومة صلاح البيطار. وفي يوليو، حدث انقلاب جديد، وهذه المرّة داخل النظام. فأصبح حافظ رئيس المجلس الثوري ورئيس الدولة. وتمّ تعيين أفضل أصدقاء ثابت في المناصب الرئيسة في الحكومة والقيادة العسكرية. وهكذا، أصبح الجاسوس الإسرائيلي عضواً في الدائرة الداخلية للسلطة.

أقيم حفل صاخب في دمشق، وتوافدت سيّارات الوزراء والألوية الفاخرة إلى الدارة الكبيرة واحدة تلو الأخرى. دخل صفّ طويل من الضيوف الذين يرتدون الملابس الرسمية الأنيقة المنزل، وراح المضيف يرحّب بضيوفه بحرارة. كانت لائحة الضيوف تضم عدّة وزراء، بمن فيهم وزير الدفاع ووزير الإصلاح الزراعي، وعدد كبير من الألوية والعمداء، وكبار قادة حزب البعث، ورجال أعمال، وأثرياء. كان الكثيرون منهم يحيطون بالعقيد سالم حاطوم، الضابط الذي قاد دبّاباته إلى دمشق ليلة الانقلاب وسلّم اللواء حافظ الرئاسة. وصل الرئيس حافظ نفسه لاحقاً وصافح المضيف بحرارة؛ إنه صديقه كمال أمين ثابت. رافقته السيّدة حافظ، مرتدية معطفاً من فرو المِنْك أهداها إيّاه ثابت كعربون إعجاب من المغتربين السوريين للرئيس وزوجته. لم تكن الوحيدة التي تلقّت هدايا باهظة الثمن. فقد كانت مجموعة من النساء يضعن مجوهرات، وجاء بعض كبار المسؤولين بسيّارات من إهداء ثابت. كما أودع تجّار سياسيون مهمّون أمواله في حساباتهم.

في الصالة، ناقشت مجموعة من المسؤولين وضبّاط الجيش العائدين من الحدود الإسرائيلية الوضعَ العسكري. وانضمّ إليهم مقاولون ومهندسون يعملون على المشروع الطموح الرامي إلى تحويل روافد نهر الأردن. في الصالة الفسيحة، وقف مديرو إذاعة دمشق التي ترعاها الحكومة ورؤساء وزارة الإعلام معاً. كان ثابت واحداً منهم الآن، فقد طلبت منه الحكومة بثّ بعض البرامج الإذاعية

للمغتربين. وكان لتابت برنامج إذاعي آخر يحلّل فيه القضايا السياسية والاقتصادية.

تلك الحفلة، شأنها شأن الكثير غيرها، كلّفت تابت ثروة، لكنّه لم يبالِ. فقد وصل إلى قمّة النجاح، وبدا وكأنّه ما من باب سيصمد أمامه. كوّن صداقات وطيدة في مقرّ قيادة الجيش، وشارك بانتظام في اجتماعات صناعة السياسة في حزب البعث.

واصل إيلي إرسال التقارير ذات الطابع العسكري التي تتضمن أسماء كبار الضبّاط ووظائفهم، والأوامر العسكرية بالغة السرّية، وغيرها من المعلومات إلى إسرائيل. كما صوّر وأرسل خرائط عسكرية، معظمها مخطّطات تفصيلية للتحصينات على طول الحدود الإسرائيلية، إلى جهاز أمان، بالإضافة إلى إرساله تقارير عن أسلحة جديدة أدخلت إلى الجيش السوري. ووصف قدرة السوريين على استيعاب الأسلحة الجديدة. بعد أشهر من افتضاح أمره، أقرّ لواء سوري بمرارة: «ما من سرّ عسكري ظلّ محجوباً عن إيلي كوهين...».

كان إيلي يرسل التقارير إلى إسرائيل كلّ صباح، ولم يخشَ افتضاح أمره، بفضل المظلّة الواقية التي يوفّرها له بثّ الجيش السوري من المقرّ المجاور. لكن في أحد الأيّام، أتى صديق له - الملازم زاهر الدين - في زيارة مفاجئة. نجح إيلي في إخفاء جهاز الإرسال، لكنّ مجموعة أوراق تحمل الشيفرة السرّية، على شكل شبكات مملوءة بالأحرف، بقيت على الطاولة.

سأله زاهر: «ما هذا؟».

أجاب إيلي: «آه، مجرّد كلمات متقاطعة».

بالإضافة إلى التقارير المرسَلة، وصناديق النرد التي أهداها إلى «أصدقاء أرجنتينيين»، طوّر إيلي طريقة اتّصال ثالثة مع إسرائيل: راديو دمشق. فابتكر شيفرة من الكلمات والجمل مع رؤسائه في تل أبيب، وأدرجها في برامجه الإذاعية، حيث يتمّ تفكيكها كما ينبغي من قبل جهاز أمان.

اتّخذ الآن خطوة أخرى في جهوده الرامية إلى الحصول على معلومات بالغة السرّية. فقد سرت شائعة في الأوساط الحاكمة في دمشق أنّ «تابت» يقيم

حفـلات جنـس غيـر مشـروع في دارتـه. ولـم يكن يدعو إلى تلك الحفلات سـوى أصدقائـه المقرّبيـن؛ حيـث يلتقي الضيوف عدداً كبيراً من النسـاء الجميلات. كانت بعضهنّ مومسات، أما الأخريات فمن بنات الأسر المرموقة. وقيل إنّ ضيوف تابت كانوا يستمتعون في تلك الحفلات، لكنّ مضيفهم كان الوحيد الذي لا يفقد برودة أعصابه.

قـام تابـت أيضـاً بتزويد أصدقائه ذوي المناصب العالية بسـكرتيرات مثيرات، وسخيات. أحد أولئك الأصدقاء كان العقيد سالم حاطوم الذي نقلت عشيقته إلى تابت كلّ كلمة كانت تسمعها من العقيد.

أظهر تابت حماسة وطنية متطرفة عندما كان يتحدّث عن إسرائيل التي وصفها بقولـه إنهـا «أشـنع عـدوّ للقوميّة العربيّة». وحثّ قادة سـوريا علـى تكثيف دعايتهم المعاديـة لإسـرائيل وفتـح «جبهـة ثانيـة» ضدّهـا؛ إلى جانـب مصر. حتّـى إنّه اتّهم أصدقاءه بعدم بذل جهود كافية ضدّ المعتدي الإسـرائيلي، وبذلك حقّق هدفه. إذ صمّـم أصدقـاؤه فـي الأجهزة العسـكرية على إثبات خطئه، وأظهـروا له أنّهم كانوا جاهزين للمعركة مع العدوّ، فاصطحبوه في ثلاث مناسبات في زيارات إلى المواقع السورية على طول الحدود مع إسرائيل. وسمحوا له برؤية التحصينات والمخابئ، والأسـلحة المركّـزة فـي المنطقـة، كمـا وصفـوا له خططهـم الدفاعيـة والهجومية. اصطحبـه المـلازم زاهـر الدين إلى مركز عسـكري حصين فـي حماه، الذي خُزّنت فيه كمّيات كبيرة من الأسلحة الجديدة. وفي الزيارة الرابعة إلى الحدود الإسرائيلية، كان تابـت المدنـي الوحيـد بين مجموعـة من كبار الضبّاط السـوريين والمصريين. وترأس المجموعة القائد العسكري الأكثر هيبة، اللواء المصري علي عامر، رئيس القيـادة العربيـة المتّحـدة، التـي كانـت تقـود - علـى الأقلّ على الـورق - القوّات المشتركة لمصر، وسوريا، والعراق.

بعـد زيـارة عامـر مباشـرة، كلّف قـادة البعث كمـال تابت بمهمّـة حيوية. فتمّ إرسـاله فـي مهمّـة مصالحـة إلـى قائـد حـزب البعث المسـنّ صلاح البيطـار الذي خلعـه اللـواء حافـظ، وكان منـذ ذلـك الحين يتلقّـى علاجاً في أريحا. سـافر تابت إلى الأردن، وأمضى بضعة أيّام مع رئيس الوزراء السابق. وعندما عاد إلى دمشق،

رافق الرئيس «حافظ» المريض إلى المطار، وكان في طريقه لتلقّي العلاج الطبّي في باريس. وعندما عاد حافظ بعد بضعة أيّام، وقف ثابت مجدّداً في صفّ المستقبلين المنتظرين على المدرج، وقد تمّت مهمّته بنجاح.

عام 1963، شهدت إسرائيل تغييراً هاماً. فقد تولّى الرامساد الجديد، مئير عميت، الذي حلّ محلّ إيسير الصغير، جهازَي أمان والموساد لبضعة أشهر. فقرّر عميت إلغاء وحدة 131 وتحويل رجالها وعمليّاتها كافّة إلى الموساد. فتمّ إبلاغ إيلي كوهين في صباح أحد الأيّام أنّ رئيسه قد تغيّر، وأنّه أصبح الآن عميلاً للموساد.

في ذلك العام، أنجبت ناديا ابنة ثانية أسمتها إيريس. لكن في نوفمبر 1964، خلال زيارته الثانية إلى إسرائيل في ذلك العام، رأى إيلي حلمه السرّي يتحقّق. فقد أنجبت ناديا طفلاً ثالثاً، صبيًّا! سمّاه شؤول.

قال أفراد أسرته لاحقاً: «خلال تلك الزيارة، لاحظنا أنّ إيلي قد تغيّر. فقد كان منعزلاً، وعصبياً، وكئيباً، كما فقد أعصابه عدّة مرّات. لم يكن يرغب في الخروج، ولا في رؤية الأصدقاء. قال لنا: سأترك عملي قريباً. في العام القادم سأعود إلى إسرائيل. لا أريد الابتعاد عن عائلتي بعد الآن».

في نهاية شهر نوفمبر، ودّع إيلي زوجته وأطفاله الثلاثة وسافر مجدّداً. ولم تعرف ناديا أنه سيكون الوداع الأخير.

في 13 نوفمبر 1964، يوم الأربعاء، أطلقت المواقع السورية عند الحدود الإسرائيلية، على مقربة من تل دان، النار على جرّارات إسرائيلية كانت تعمل في المنطقة منزوعة السلاح. كان ردّ الفعل الإسرائيلي هائلاً. إذ ردّت الدبّابات والمدافع بإطلاق نار كثيف، وبعد دقائق، انضمّت طائرات ميراج وفوتور إلى المعركة، وقصفت الطائرات المواقع السورية، ثمّ انخفضت نحو موقع تحويل مياه نهر الأردن وقصفت الأقنية التي حفرها السوريون. تمّ تدمير معدّات ميكانيكية ثقيلة، وجرّافات، وذلك بشكل منهجي. ولم يتدخّل سلاح الجوّ السوري، لأنّه لم يكن قد أتقن بعد استخدام مقاتلات ميغ السوفياتية التي حصل عليها حديثاً.

أجمعت الصحافة العالمية تقريباً على شرعيّة الردّ الإسرائيلي على العدوان السوري. بعد أشهر، قال ضبّاط سوريون إنّ أحد مهندسي الاعتداء الإسرائيلي هو إيلي كوهين الذي كان في إسرائيل خلال المعركة. بفضل كوهين، كان الإسرائيليون على معرفة تامّة بسوء حالة سلاح الجوّ السوري وعجزه عن دخول المعركة في تلك المرحلة. كما كانت لدى الإسرائيليين أيضاً معرفة مفصّلة بالتحصينات السورية وأعمال تحويل المياه، وعرفوا بالضبط أنواع الأسلحة المتمركزة في كلّ قاعدة ومخبأ وكمياتها.

إلاّ أنّ إيلي كوهين عرف ما هو أكثر من ذلك بكثير. فقد نجح في مصادقة رجل أعمال عربي تمّ التعاقد معه لوضع مخططات القنوات الأولى للمشروع السوري ولحفرها. وبفضل تلك الصداقة، عرف الإسرائيليون قبل أشهر المواقع التي ستجري فيها الحفريات، وكم سيكون عمق القنوات واتساعها، فضلاً عن المعدّات التي ستستخدم، وغيرها من التفاصيل الفنّية الأخرى. كما كشف المقاول لصديقه ثابت عن قدرة الأقنية على تحمّل القصف الجوّي وعن الامتداد الكامل للتدابير الأمنية. كان اسم صديق كوهين بن لادن، والد أسامة الصغير. وبفضل المعلومات المفصّلة التي اطّلع عليها الجاسوس الإسرائيلي، هاجمت إسرائيل المشروع عدّة مرّات، إلى أن قرّرت الدول العربية العدول عن تنفيذه نهائيًّا عام 1965.

في أواسط يناير 1965، أي بعد بضعة أسابيع من مغادرة إيلي لإسرائيل، وصلت بطاقة بريدية جميلة إلى الصندوق البريدي الخاص بناديا كوهين. كتب فيها إيلي بالفرنسية: «عزيزتي ناديا، أكتب لك بضعة أسطر لأتمنّى لك عاماً سعيداً آمل أن يجلب السعادة لجميع أفراد الأسرة. قبلاتي إلى أحبّائي فيفي (صوفي)، إيريس، وشاكي (شؤول)، وإليك، من أعماق قلبي، إيلي».

عندما استلمت ناديا تلك البطاقة، كان إيلي ممدّداً - بعد تعرّضه للضرب والتعذيب - على أرض سجن دمشق.

كانت المخابرات السورية في حالة تأهّب قصوى منذ عدّة أشهر. وكان رئيس

شعبة فلسطين للمخابرات هو من دقّ ناقوس الخطر. فقد لاحظ أنّه منذ صيف 1964، كلّ قرار تتّخذه الحكومة السورية في المساء - أو حتّى في أثناء الليل - يتمّ بثّه في اليوم التالي في البرامج الناطقة باللغة العربية في إذاعة كول إسرائيل التي ترعاها الحكومة الإسرائيلية. علاوة على ذلك، أذاعت إسرائيل بعض القرارات بالغة السرّية التي اتّخذت خلف أبواب مغلقة. كان رئيس الشعبة قد اندهش من دقّة القصف الإسرائيلي خلال حادثة 13 نوفمبر. واستناداً إلى استنتاجه المنطقي، كان الإسرائيليون على معرفة دقيقة بانتشار الجيش السوري في الخطوط الأمامية، ويعرفون بالضبط كيف وأين يضربون. لذا، أصبح واثقاً أنّ إسرائيل تملك جاسوساً على أعلى المستويات في الحكومة السورية. وكانت معلومات الجاسوس تُبثّ عبر إذاعة كول إسرائيل في غضون ساعات؛ ممّا يعني أنّه كان يرسل تقاريره لاسلكياً. لكن، أين كان جهاز الإرسال؟

في خريف عام 1964، بذل رئيس الشعبة وزملاؤه جهوداً حثيثة لتحديد موقع جهاز الإرسال السرّي بواسطة معدّات سوفياتية الصنع، لكنّهم فشلوا.

لكن في يناير 1965، حالفهم الحظّ.

فقد أفرغت سفينة سوفياتية في مرفأ اللاذقية عدّة حاويات مليئة بمعدّات اتّصال جديدة. جُلبت تلك المعدّات لتستخدم عوضاً عن أجهزة الجيش السوري التي عفا عليها الزمن. وتمّ تحديث المعدّات في 7 يناير 1965. ومن أجل تركيب الأجهزة الجديدة والتحقّق منها، تمّ تعليق اتّصالات الجيش كافّة لأربع وعشرين ساعة.

وعندما خيّم السكون على الاتّصالات العسكرية في جميع أنحاء البلاد، اكتشف ضابط في أثناء الخدمة بواسطة جهاز استقبال للجيش بثّاً واحداً خافتاً. كان ذلك هو بثّ الجاسوس، فرفع الضابط سمّاعة الهاتف.

تأهّبت فرق المخابرات المجهّزة بالمعدّات السوفياتية لتحديد المواقع من أجل تحديد مصدر الإرسال. لكن، لسوء الحظّ، توقّف الإرسال قبل أن يتوصّلوا إلى تحديد مكانه. بيد أنّ الحسابات المحمومة التي أجراها الفنّيون أشارت إلى اتّجاه واحد: منزل كمال أمين تابت.

قال ضابط كبير في المخابرات: «هذا خطأ». إذ لم يكن وارداً أن يكون تابت الذي أراد قادة حزب البعث تعيينه وزيراً في الحكومة المقبلة جاسوساً. كان فوق الشبهات.

لكن، تمّت معاودة البثّ مساءً، فأرسلت المخابرات سيّاراتها مجدّداً، وحصلت على النتيجة نفسها.

عند الساعة الثامنة صباحاً، تحديداً في يوم مشمس من أيّام يناير، اقتحم أربعة ضبّاط مخابرات المنزل الفخم الواقع في حيّ أبو رمانة. حطّموا باب المدخل، وخلعوه من مفصلاته، ثمّ توجّهوا إلى غرفة النوم، والمسدّسات في أيديهم. كان الجاسوس هناك، لكنّه لم يكن نائماً. تمّ القبض عليه بالجرم المشهود، في أثناء قيامه بإرسال المعلومات. قفز واقفاً، وواجه الضبّاط من دون أن يحاول الهرب، أو يقاوم معتقليه. هذه المرّة، لم يحالفه الحظّ. قال الضابط الآمر بصوت كالرعد: «كمال أمين تابت، أنت قيد الاعتقال!».

انتشر الخبر في جميع أنحاء دمشق كانتشار النار في الهشيم. غريب، عبثي، مستحيل، هراء! لم تكن ثمّة كلمات تعبّر عن مشاعر الصدمة وعدم التصديق التي سيطرت على زعماء سوريا عندما سمعوا الخبر. هل يعقل أن يكون أحد قادة الحزب الحاكم، أحد أصدقاء الرئيس شخصيًّا، ذاك المليونير الاشتراكي، جاسوساً؟!

لكنّ الأدلّة كانت دامغة؛ جهاز الإرسال الذي اعتاد تابت إخفاءه خلف مصراعَي النافذة، وجهاز الإرسال الاحتياطي الصغير المخبّأ في شمعدان كبير في الصالة، والميكروفيلم، السجائر المحشوّة بالديناميت، والصفحات المشفّرة... كان الرجل خائناً بالفعل.

أمر رؤساء النظام المذعورون بإجراء تحقيق شامل. ما الذي عرفه تابت بالضبط؟ وهل يستطيع تجريمهم؟ أتى الرئيس حافظ بنفسه لاستجوابه في زنزانته. قال حافظ لاحقاً: «خلال الاستجواب، عندما نظرت إلى عينَي تابت، راودني شكّ رهيب. شعرت أنّ الرجل الموجود أمامي لم يكن عربياً على الإطلاق. سألته بحذر جديد بضعة أسئلة عن الإسلام، وعن القرآن. طلبت منه أن يتلو سورة الفاتحة، لكنّه بالكاد استطاع تلاوة بعض الآيات. حاول الدفاع عن نفسه قائلاً إنّه ترك سوريا

عندما كان صغيراً جدًّا، وإنّ ذاكرته تخونه. لكنّني عرفت الحقيقة في تلك اللحظة: كان يهودياً».

تولى المحققون الأشداء القيام بما تبقى. فبينما كان تابت لا يزال ممدّداً في زنزانته المظلمة، فاقداً الوعي، ووجهه وجسده مغطّيان بالجروح المقزّزة، وأظفاره مقتلعة، نُقل اعترافه إلى اللواء حافظ. لم يكن الرجل يدعى كمال تابت، بل إيلي كوهين، وهو يهودي إسرائيلي.

في 24 يناير 1965، أعلنت دمشق رسميًّا «إلقاء القبض على جاسوس إسرائيلي هامّ». صاح ضابط كبير بغضب عارم في مؤتمر صحفي: «إسرائيل هي الشيطان، وكوهين هو عميل الشيطان!».

عمّ الذعر دمشق. هل كان كوهين ذئباً وحيداً أم رئيس شبكة تجسّس؟ تمّ اعتقال تسعة وستّين شخصاً الواحد تلو الآخر، سبعة وعشرون منهم كنّ نساء. كان من بين المشتبه بهم مجيد شيخ الأرض، وجورج سالم سيف، والملازم زاهر الدين، ومسؤولون كبار في وزارة الإعلام، ومومسات، ونساء أخريات لم يتمّ الكشف عن هويّة أيّ منهن. تمّ استجواب 400 شخص آخر كانوا على اتّصال بتابت. كشف التحقيق عن بعض المشاكل الخطيرة؛ فقد كان الكثيرون من قادة سوريا السياسيين، والعسكريين، ورجال الأعمال من بين أصدقاء كوهين المقرّبين، ولم يكن باستطاعة المحقّقين الاقتراب منهم. ولم يكن من الممكن ذكر أسمائهم؛ لأنّ أيّ إشارة علنية إليهم قد تولّد انطباعاً بأنهم كانوا متواطئين مع تابت. وجد السوريون أيضاً أنّ «تابت» بذل كلّ الجهود الممكنة للحؤول دون حدوث أي تواصل بين مختلف مخبريه، وبالتالي كان من الصعب جدًّا تحديد مدى امتداد شبكة التجسّس.

في إسرائيل، فرضت الرقابة العسكرية تعتيماً كاملاً على اعتقال كوهين. وظلّ الإسرائيليون يأملون أن يتمكنوا من إنقاذه، وكانوا مصمّمين على منع وصول خبر اعتقاله إلى وسائل الإعلام المحلّية. لكن، ثمّة أشخاص لديهم الحقّ في المعرفة. في مساء أحد الأيام، زار رجل غريب إخوة إيلي. قال الرجل: «لقد تمّ اعتقال أخيكم في دمشق، واتّهامه بالتجسّس لصالح إسرائيل». ذُهل الإخوة، وهُرع أحدهم،

موريس، إلى منزل أمّه في بات يام وقال لها: «أمّي عليك أن تكوني قوية. لقد تمّ اعتقال إيلي في سوريا».

صُعقت المرأة المسنّة، ثمّ قالت أخيراً: «في سوريا؟! كيف؟ هل عبر الحدود عن طريق الخطأ؟». وعندما شرح لها موريس ما كان إيلي يفعله في دمشق، انهارت المرأة المسكينة.

وقفت ناديا بين أطفالها الثلاثة مذهولة. فرغم أنّها اشتبهت دائماً أنّ زوجها لم يكشف لها كلّ شيء، إلاّ أنّها لم تخمّن ماهيّة عمله الحقيقي مطلقاً. حاول زملاء إيلي أن يهدّئوا من روعها، وقال لها أحدهم: «ستسافرين إلى باريس على الفور، وسنوكّل له أفضل المحامين وسنبذل كلّ ما في وسعنا لإنقاذه». وتولّى مئير عميت شخصيًّا قيادة الجهود الساعية إلى إنقاذ كوهين.

في 31 يناير، ذهب أحد أعظم محامي فرنسا، جاك ميرسيه، إلى دمشق. رسميًّا، كان موكّلاً من قبل أسرة كوهين، إلاّ أنّ دولة إسرائيل هي التي كانت تغطي نفقاته وأتعابه في الواقع. ذهب إلى سوريا في مهمّة مستحيلة. قال لاحقاً: «منذ يومي الأوّل في دمشق، عرفت أنّ مصير إيلي كوهين قد حُدّد. سيتمّ إعدامه. وكلّ ما كان بوسعي فعله هو محاولة كسب الوقت والتوصّل إلى اتّفاق يمكن أن ينقذ حياته».

في البداية، حاول ميرسيه منع إجراء محاكمة. فالتقى قادة النظام، وطلب منهم أن يسمحوا له برؤية كوهين لكي يوقّع على تعيين ميرسيه محامياً له.

إلاّ أنّ طلبه واجه رفضاً قاطعاً.

مع ذلك، سرعان ما اكتشف ميرسيه أنّ لديه بعض الحلفاء في بعض الأوساط الحاكمة، الذين يتعاملون باحترام مع الرأي العامّ العالمي، والذين كانوا يرغبون في محاكمة عادلة تحفظ حقوق المتّهم. وكان يدعمهم – لسبب مختلف تماماً – «صقور» المؤسّسة العسكرية، وهم من ألدّ أعداء حافظ الذين أرادوا كشف العلاقة الوثيقة التي ربطت الرئيس بتابت في محاكمة علنية. فقد رأوا أنّ مثل هذه المحاكمة ستكشف فساد النظام وتقوّض سلطته.

لكنّ هذا النهج واجه معارضة شديدة من قبل مجموعة أخرى، كان جميع

أفرادها قد أقاموا علاقات وثيقة مع تابت، وأدركوا أنّ المحاكمة العلنية سترسلهم هم أيضاً إلى حبل المشنقة. كان لدى تلك المجموعة هدف واحد: منع المحاكمة العلنية بأيّ ثمن، والقضاء على كوهين في أقرب وقت ممكن.

في النهاية، جرت المحاكمة أمام محكمة عسكرية خاصّة، وخلف أبواب مغلقة، وفي قاعة خالية. ولم يسمح ببثّها في التلفزيون الرسمي؛ باستثناء بعض الأجزاء المختارة بعناية. لم تتضمّن المحاكمة محامي ادّعاء أو محامي دفاع. وعندما طلب كوهين من المحكمة محامي دفاع، انفجر فيه القاضي الذي ترأس الجلسة قائلاً: «أنت لست بحاجة إلى دفاع. كلّ الصحافة الفاسدة تقف إلى جانبك، وكلّ أعداء الثورة يدافعون عنك». تولى شخص واحد مهمة الاستجواب والتحقيق والادعاء العام وإصدار الحكم؛ لكنّ أسوأ ما في الأمر أنّه كان العميد صلاح دالي، أحد أفضل أصدقاء تابت سابقاً. وكان من بين القضاة أيضاً صديق مقرّب آخر، لا بل صديق حميم، وهو العقيد سالم حاطوم. ولدحض أيّ شائعات عن علاقته بكوهين سأله: «هل تعرف سالم حاطوم؟». مثل ممثّل يتبع نصّاً مفصّلاً، التفت المتّهم إلى القاعة الخالية، ثمّ نظر إلى عيني حاطوم وأجاب: «كلاّ، أنا لا أراه في هذه القاعة».

عُرض ذلك الجزء على التلفاز. قال ميرسيه: «ضحكت كلّ دمشق على تلك المشاهد. لم تكن محاكمة، بل كان سيركاً تراجيكوميدياً».

أظهرت كاميرات التلفزيون المتّهمين الآخرين في قضيّة إيلي كوهين: شيخ الأرض، وسيف، وعدد من المومسات. لكن، من كانت أولئك النساء الأخريات؟ هل من زوجات ضبّاط كبار أم «سكرتيرات» أم صديقات تابت وقادة حزب البعث؟ وما هي الأسرار التي نقلها كوهين إلى المسؤولين الإسرائيليين؟ لقد اتُّهم بالتجسّس، لكنْ في أثناء المحاكمة، لم ترد كلمة واحدة عمّا فعله وعن محتويات الرسائل التي بعثها. الشيء الوحيد الذي لم تستطع الكاميرات إخفاءه، هو الارتعاش العصبي لعضلة في خدّ كوهين الأيسر، والاهتزاز المتكرّر لرأسه. كان ذلك ناتجاً عن التعذيب بالأقطاب الكهربائية التي ثُبّتت على جسده ورأسه.

تابعت إسرائيل المحاكمة بصمت. كانت أسرة إيلي تجتمع كلّ مساء أمام

تلفاز أعارهم إيّاه الموساد. وكان الأطفال، وناديا، والإخوة يبكون بصمت لدى رؤيتهم وجه إيلي على الشاشة. أمّا أمّه، فكانت تندفع وتقبّل الشاشة، وتضغط نجمة داوود الصغيرة المعلّقة حول عنقها على وجه إيلي. أما صوفي فكانت تقول: «هذا بابا! إنّه بطل!». فتنتحب ناديا بصمت.

في دمشق، كان ميرسيه يستيقظ في منتصف الليل وهو يتصبّب عرقاً بارداً، وتلاحقه الكوابيس الفظيعة. كان عجزه يسبّب له اكتئاباً عميقاً. في 31 مارس، أعلنت المحكمة العسكرية حكمها: حكمت المحكمة على إيلي كوهين، ومجيد شيخ الأرض، والملازم زاهر الدين بالإعدام.

قام ميرسيه بمحاولة جديدة، فزار دمشق في أبريل ومايو من عام 1965 ثلاث مرّات، وقدّم عروضاً هامّة من إسرائيل. كان الأوّل عبارة عن صفقة: إسرائيل مستعدّة لتقديم أدوية ومعدّات زراعية ثقيلة تقدّر قيمتها بملايين الدولارات إلى سوريا مقابل حياة كوهين. لكنّ السوريين رفضوا العرض. ثمّ قدّمت إسرائيل عرضاً آخر: إعادة أحد عشر جاسوساً سورياً تمّ القبض عليهم وسجنهم في إسرائيل إلى سوريا. فرفض السوريون ذلك العرض أيضاً، لكنّهم لمّحوا إلى أنّ العفو الرئاسي لم يكن مستحيلاً.

في 1 مايو، تمّ تخفيف عقوبة شيخ الأرض إلى السجن مدى الحياة. وفي 8 مايو، نُشر الحكم على إيلي كوهين رسميًّا، فبذل جهاز الموساد مجهوداً أخيراً. في باريس، تقدّمت ناديا كوهين بطلب عفو لدى السفارة السورية. وأتت طلبات أخرى من جميع أنحاء العالم، وقّعت عليها شخصيّات معروفة مثل البابا بولس السادس، والفيلسوف البريطاني بيرتراند راسل، ورجال دولة مثل إدغار فور وأنطوان بيناي من فرنسا، والملكة الأمّ إليزابيث والسياسي كميل هيوزمانز من بلجيكا، والكندي جون ديفنبايكر، هذا فضلاً عن كاردينالات ووزراء إيطاليين، واثنين وعشرين عضواً في البرلمان البريطاني، ورابطة حقوق الإنسان، والصليب الأحمر الدولي... لو سمع عنها إيلي كوهين، لتذكر النداءات المماثلة التي حاولت عبثاً إنقاذ حياة أصدقائه في القاهرة قبل أحد عشر عاماً.

في 18 مايو، في منتصف الليل، تمّ إيقاظ إيلي كوهين من قبل سجّانيه. ألبسوه رداء أبيض، واصطحبوه إلى سوق دمشق. سمحوا له بكتابة رسالة إلى أسرته وتبادل

بضع كلمات مع حاخام دمشق، نسيم أندبو. بعد ذلك، علّق جنود سوريون على صدره لافتة ضخمة كُتب عليها الحكم الذي صدر بحقّه بأحرف عربية كبيرة، وركّزت كاميرات التلفاز والصحف على الرجل الوحيد الذي صعد على السلّم إلى حبل المشنقة بين صفّين من الجنود المسلّحين.

كان الجلاّد ينتظر، فثبّت الحبل بسرعة حول عنق إيلي وجعل الرجل المدان يقف على كرسيّ منخفض.

واجه إيلي الحشد صامتاً ومستسلماً، ولكنّه غير مهزوم، فيما حبس المتفرّجون أنفاسهم. سمعوا بوضوح الصوت الصادر عن سحب الكرسي من تحت قدميه، قبل أن يهتف الرجال والنساء فرحاً وهم يشاهدون احتضار الجاسوس الإسرائيلي.

مرّت حشود كبيرة من الدمشقيين الذين استيقظوا بطريقة غامضة في الساعات الأولى من الفجر، أمام حبل المشنقة خلال الساعات الستّ التالية لمشاهدة الجثّة. وفي إسرائيل، نُزع حجاب الصمت في لحظة واحدة. ففي غضون ساعات قليلة، تحوّل إيلي كوهين إلى بطل قومي، وشارك مئات الآلاف عائلته حزنها. أطلق اسمه على مدارس، وشوارع، وحدائق عامة. ووصفت إنجازاته في مقالات وكتب. أمّا ناديا، فلم تتزوّج مرّة أخرى.

حتّى هذا اليوم، بعد ستّة وأربعين عاماً على إعدام إيلي كوهين، ترفض سوريا إعادة رفاته ليدفن في إسرائيل. يُعتبر إيلي كوهين واحداً من أبطال الموساد؛ إلاّ أنّ كثيرين يوجّهون إصبع الاتهام إلى الموساد. إذ تدّعي أسرة كوهين وعدد من الكتّاب أنّ الموساد استخدم إيلي على نحو شديد التهوّر عندما جعله يرسل تقارير يومية، وفي بعض الأحيان، مرّتين في اليوم. حتّى إنّ الموساد أمر إيلي أن يحيل إليه بانتظام مناقشات البرلمان السوري؛ على الرغم من عدم أهمّيتها تقريباً. كانت تلك مهمّة غير مجدية عرّضت إيلي إلى مخاطر لا داعي لها.

كان إيلي كوهين جاسوساً عظيماً بالنسبة لدولة إسرائيل، وواجه – برأي الإسرائيليين – نهاية الجواسيس العظماء.

إنّ ثقتهم المفرطة بأنفسهم، والمطالب المبالغ فيها من رؤسائهم قادتهم إلى حتفهم.

الفصل العاشر

«أريد طائرة ميغ - 21!»

كان مئير عميت الذي خلف إيسير هاريل رجلاً من نوع خاصّ. فقد كان حازماً وحادّ الطباع ونكداً في بعض الأحيان، إلاّ أنّه في الوقت نفسه فاتن وجنديّ حقيقي ولديه الكثير من الأصدقاء. قال لنا موشيه دايان في إحدى المرات: «كان صديقي الوحيد».

تمثّل قصّة حياة مئير عميت رمز التغيير في قيادة الموساد. فقد ولد إيسير هاريل في روسيا، وانتمى إلى جيل الرواد. أمّا مئير عميت، المولود في إسرائيل، (صبرا[1])، فكان الأوّل من سلسلة طويلة من جنرالات إسرائيل. قاتل في الحروب الإسرائيلية، وانضمّ إلى الموساد بعد سنوات عديدة من ارتداء الزيّ العسكري. كان جيل إيسير غير متطفّل، وتكتنفه ظلال التكتّم والمؤامرات. أمّا مئير عميت، فكان رجلاً عسكرياً، يملك الكثير من الأصدقاء والزملاء الذين يعرفون ما الذي يفعله. لم تكن الحياة السرّية مناسبة له. وفي حين امتاز إيسير الصغير بالكاريزما والغموض، تميّزت سلطة عميت وخلفائه بالصراحة والقسوة؛ وهما الصفتان اللتان أضفتهما عليهم رتبتهم وزيّهم.

ولد مئير في طبريا، ونشأ في القدس، وأصبح عضواً في كيبوتس ألونيم، حيث أمضى معظم حياته في الزيّ العسكري. التحق بالهاغاناه منذ سنّ السادسة عشرة، وأصبح قائد كتيبة عند إنشاء الجيش الإسرائيلي. أصيب في حرب 1948،

---

(1) يطلق هذا الاسم على الطفل المولود في إسرائيل لأنّهم يرونه كالصبّار؛ مولود بين الأشواك، أي في الحروب.

وكانـت حياتـه المهنيـة العسـكرية لامعة في ما بعد. تـدرّج من كونه قائد نخبة لواء غولاني، إلى رئيس العمليّات في حملة سيناء، ومن ثمّ رئيس القيادة الجنوبية، ثم القيادة الوسطى، وكان من الواضح أنّه في طريقه ليصبح رئيس هيئة الأركان. لكنّ قفزة مشؤومة بالمظلّة أقعدته في المستشفى لمدّة عام. وتعافى جزئيًا بعد أن أمضى فترة نقاهة طويلة ودرس في جامعة كولومبيا، فتمّ تعيينه رئيساً لجهاز أمان. وهناك وجده بن غوريون عصر ذلك اليوم الحافل بالأحداث في أبريل 1963؛ عندما كان بحاجة إلى بديل لإيسير الصغير.

كانـت خطـوات مئيـر الأولى في أروقة الموسـاد متعثّرة. فقد اسـتاء الكثيرون من زملاء إيسير هاريل القدامى، مثل يعقوب كاروز، من سلوكه الفظّ وثقته بنفسه، فاسـتقال بعضهـم علـى الفور، فيما أخذ البعض الآخـر وقتهم. تحت قيادة عميت، تمّ تغيير الحرس. لكنّ الاضطراب الداخلي الذي واجهه الرامساد الجديد لم يكن شيئاً مقارنة بالحرب التي شنّها عليه إيسير الصغير.

في أواخر ربيع 1963، استقال بن غوريون من منصبه، فخلفه مساعده المقرّب ليفـي إشـكول، وصـار رئيسـاً للـوزراء ووزيـر دفاع. أطلق إشـكول عـدّة مبادرات أثارت غضب سـلفه. كانت إحداها تعيين إيسـير الصغير مستشـاراً له في المسـائل الاسـتخبارية. كان إيسـير يشـعر بالمرارة والخيبة بعد رحيله من الموسـاد. وعندما سمع أنّ مئير عميت قدّم للمغاربة معروفاً غير عادي، تحوّل على الفور إلى وحش كاسر.

أقـام الموسـاد، تحـت قيـادة مئيـر عميـت، علاقات وثيقـة جدًا مـع المملكة المغربية.

بدأ التقارب مع المغرب في عهد إيسير. كان يعقوب كاروز ورافي إيتان هما الشخصين الأولين اللذين أجريا اتّصالاً مع المغربيين. ففي شتاء 1963، قال إيسير لإيتـان بسـرّية تامّـة: «إنّ ملـك المغـرب الحسـن الثاني لديه مخاوف مـن أن يتآمر الرئيس المصري عبد الناصر عليه لاغتياله بسـبب سياسـته الموالية للغرب. ويريد الحسن من الموساد أن يُعنى بسلامته الشخصيّة».

بـدت القصّـة مريبـة. هـل يعقـل أن يلجـأ ملك عربـي إلى جهـاز المخابرات الإسـرائيلية طلباً للمسـاعدة؟ قرّر الرجل العمليّ رافي إيتان السـفر مع عميل آخر يدعـى ديفيـد شـمرون علـى الفـور إلـى الرباط، العاصمـة المغربية، بجوازي سـفر مزورين. وتمّ إدخالهما عبر باب سرّي إلى قصر الملك. كان في استقبالهما الجنرال الشـهير أوفقيـر، وزيـر الداخليـة في حكومة الملك، الذي كان اسـمه كافياً ليسـبّب الرعب. فقد كان معروفاً بوحشـيّته، وباسـتخدام التعذيب ضدّ أعداء الملك، وكان مسـؤولاً عـن الاختفـاء الغامـض للكثير من خصوم النظـام. وعلى الرغم من ذلك، كان من أهمّ مستشـاري الملك في المسـائل الاسـتخبارية، وأيّ اتّفاق بين إسـرائيل والمغرب يحتاج إلى موافقته. جاء لاستقبال إيتان مع نائبه العقيد الدليمي.

هنـاك، توصّـل إيتان وأوفقير إلى اتّفاق: سـيقيم الموسـاد وجهـاز المخابرات المغربـي علاقـات وثيقـة ومكاتـب دائمـة فـي البلديـن، وسـيدرّب الموسـاد جهاز المخابرات المغربي، وبالمقابل، ستمنح المغرب عملاء الموساد غطاء مضموناً في جميع أنحاء العالم. بالإضافة إلى ذلك، سيتمّ إنشاء هيئة خاصّة لجمع المعلومات الاسـتخبارية المشـتركة، وسـيدرّب الموساد وحدة خاصّة مكلّفة بالحفاظ على أمن الملك. واختتم الاتّفاق بزيارة للملك. عندها، انحنى إيتان وقبّل يد الملك، وهكذا حصل الموساد على أوّل حليف له في العالم العربي.

بعد أسبوعين، وصل أوفقير إلى إسرائيل. أمضى الجنرال المعتاد على القصور الفخمـة والفنـادق الفاخـرة زيارتـه الطويلة في شـقّة إيتان المؤلّفـة من ثلاث غرف صغيـرة، فـي حـيّ متواضـع فـي تـل أبيـب. وتمكّن إيتان مـن إقناع فيليـب، طاهي الموسـاد الأسـطوري، بإعداد الطعام لضيفه المغربي. رحل أوفقير ثمّ عاد مجدّداً، واسـتمرّت العلاقـات بيـن الجهازين بالتحسّـن. وعـام 1965، طلب أوفقير من مئير عميت خدمة خاصّة.

كان قائـد المعارضـة الأساسـية وأخطـر أعداء الملك مغربيًّا يدعى مهدي بن بركة. وبعدما اتُّهم بالتآمر على الملك تمّ نفيه، إلاّ أنّه استمرّ في إدارة أنشطته من منفـاه. حكـم عليـه بالإعـدام غيابياً، فأدرك أنّ حياتـه باتت في خطر، وأصبح يعمل بحيطة شديدة؛ لذا فشل رجال أوفقير في العثور عليه. فهل بإمكان الموساد تقديم

المساعدة؟

قدّم رجال عميت المساعدة بالفعل. فبفضل ذريعة ذكية، تمكّن رجال عميت من الاتصال ببن بركة في سويسرا ومن إقناعه بالمجيء إلى باريس لعقد اجتماع هامّ. وعند باب مطعم براسري ليب الشهير، على الضفّة اليسرى لنهر السين، ألقي القبض عليه من قبل اثنين من ضبّاط الشرطة الفرنسية اللذين تبيّن لاحقاً أنّهما كانا يتقاضيان راتباً من أوفقير. تمّ تسليم بن بركة إلى أوفقير ثمّ اختفى، لكنّ شاهداً أكّد أنّه رأى أوفقير وهو يطعنه حتّى الموت. أبلغ مئير عميت نفسه رئيسَ الوزراء إشكول: «لقد مات الرجل».

في فرنسا، سبّب اختفاء بن بركة فضيحة سياسية غير مسبوقة. وثار الرئيس ديغول غضباً، وعندما سمع عن دور إسرائيل في عمليّة الاختطاف، نالها نصيب من غضبه أيضاً. ذهل إيسير هاريل؛ كيف يمكن للموساد أن يشارك في قضيّة كهذه؟ وكيف استطاع عميت أن يشارك في عمليّة إجرامية ولا أخلاقية كهذه، ويجازف بفقدان التحالف الوثيق بين إسرائيل وفرنسا؟ لذا، طلب إيسير من إشكول أن يقيل عميت على الفور. تردّد إشكول، لكنّه عيّن بعد ذلك مجلسَي تحقيق لم يجدا أيّ أساس لاتّخاذ أيّ إجراء ضدّ عميت. ففي النهاية، لم يقم عميت سوى بجذب بن بركة إلى باريس، إلاّ أنّه لم يشارك في اختطافه أو في اغتياله. عندها، استقال إيسير من منصبه، وطلب الاستقالة الفورية لكلّ من إشكول وعميت، وحاول إطلاق حملة في الصحافة، لكنّ الرقابة العسكرية منعت بصرامة أيّ ذكر لهذه القضيّة.

واصل إيسير حربه العنيدة وهجومه على عميت، لكنّ الرامساد كان قد بدأ عمليّة أخرى بالغة الأهمّية للدفاع الإسرائيلي: تشكيل حلف سرّي مع الأكراد في العراق.

كتب عميت في مذكّراته: «في أواخر عام 1965، بدأ حلمنا يتحقّق، فقد حدث أمر لا يصدّق. استقرّ وفد إسرائيلي رسمي في مخيّم الملاّ مصطفى بارزاني (زعيم المتمرّدين الأكراد في شمال العراق)».

اعتُبر وصول ضبّاط الموساد إلى كردستان انتصاراً هائلاً للمخابرات الإسرائيلية. فللمرة الأولى، يتمّ إنشاء اتّصال مع أحد المكوّنات الثلاثة للأمّة

العراقيـة، وهـم الأكـراد، الذين كانوا يشـنّون حرباً ضروسـاً ومتواصلة ضدّ حكومة بغداد (كان المسـلمون الشـيعة والسـنّة هم المكونين الآخرين). سـيطر المتمرّدون بقيـادة بارزانـي علـى مسـاحة واسـعة داخـل العـراق. وإن نجـح الموسـاد بتحويل المتمرّدين الأكراد إلى قوّة عسكرية قويّة، فسيصبح لزاماً على القادة العراقيين تركيز جهودهم على مشاكلهم الداخلية، وستتضاءل قدرتهم على قتال إسرائيل. هكذا، قد يصبح التحالف مع الأكراد نعمة حقيقية بالنسبة إلى إسرائيل.

أمضى عميلا الموساد الأوّلان ثلاثة أشهر في كردستان. رحّب بهما بارزاني في دائرته الداخلية، واصطحبهما معه أينما ذهب؛ كاشفاً لهما كلّ أسراره. شكّل ذلك اللقاء الأوّل أساس تعاون وثيق سيدوم لسنوات عديدة. قام خلالها بارزاني والقادة العسـكريون الأكراد بزيارة إسـرائيل، وذهب مئير عميت ومسـاعدوه إلى كردستان. كما زوّدت إسرائيل الأكراد بالسلاح، ودافعت عن مصالحهم في المحافل الدولية.

كان بني زئيفي العميل الإسرائيلي الكبير الذي كان أوّل من زار كردستان قد تـرك زوجتـه، جليلـة، حاملاً في لنـدن. ولد ابن بني، ناداب، بينما كان والده يرافق بارزاني في جبال كردسـتان الوعرة. فوصلت برقيّة مشـفّرة إلى زئيفي، موقّعة باسـم «ريمون»، وهو الاسم السرّي لمئير عميت، ونصّها كما يلي: «الأمّ والطفل بصحّة ممتازة. مازال توف[1]!».

عندما سمع بارزاني بولادة الطفل، تناول أربعة أحجار وحدّد بها قطعة أرض، ثمّ قال لزئيفي: «هذه هديّتي لابنك. عندما يكبر، يمكنه المجيء إلى بلادنا والمطالبة بقطعة أرضه».

وبينما كانت العلاقات مع الأكراد تتحسّن، بدأ مئير عميت يخطّط لعمليّة كبيرة أخرى للموساد، اسمها «ياهالوم» (أي الماس)، وربّما كانت أكثر عمليّة يفتخر بها.

في العام الذي سبق وفاة عميت، التقينا عدّة مرّات في منزله في رامات غان. أخبرنـي قائـلاً: «بـدأت القصّة في أحد اجتماعاتي مـع الجنرال عيزر وايزمان الذي كان في ذلك الوقت قائد القوّات الجوّية. في أحد تلك الاجتماعات، سألت عيزر

(1) عبارة عبرية معناها: تهانينا.

عمّا يمكنني فعله من أجله بصفتي رامساد. فأجابني على الفور: مئير، أريد طائرة من طراز ميغ – 21.

قلت له: هل جننت؟! لا توجد طائرة من هذا النوع في العالم الغربي. كانت طائرة ميغ – 21 هي المقاتلة السوفياتية الأكثر تطوّراً في ذلك الوقت، وقد زوّد الروس الدول العربية بعدد كبير من تلك الطائرات.

لكنّ عيزر أصرّ على موقفه: نحن بحاجة إلى ميغ – 21، ويجب ألاّ تدّخر أيّ جهد للحصول على واحدة.

عندها، قرّر عميت أن يعهد بالعمليّة إلى رحافيا فاردي، وهو ضابط عمليّات مخضرم حاول في الماضي الحصول على ميغ – 21 من مصر أو سوريا. قال فاردي بعد سنوات: «عملنا لأشهر عديدة على هذه العمليّة، وكانت مشكلتنا الرئيسة تكمن في كيفيّة تحويل الفكرة إلى واقع».

أرسل فاردي عملاء لجسّ النبض في مختلف أنحاء العالم العربي. وبعد أسابيع طويلة، أتاه تقرير من يعقوب نمرودي الملحق العسكري الإسرائيلي في إيران. كتب نمرودي عن يهودي عراقي يدعى يوسف شيميش ادّعى أنّه يعرف طيّاراً يمكنه إحضار طائرة ميغ – 21 إلى إسرائيل. كان شيميش رجلاً أعزب، وذكياً، وزير نساء رفيع الذوق، يمتاز بقدرة خارقة على إقامة علاقات مع الناس وجعلهم يثقون به. يقول نمرودي: «كان عميلاً سلساً وقادراً على الإقناع. جنّد الطيّار على نحو مهني جدًّا. عمل عليه لمدّة عام كامل. وحده يستطيع فعل ذلك، ولا أحد غيره». قرّر نمرودي اختبار شيميش، فأرسله لتأدية بضع عمليّات تجسّس ثانوية. فاجتاز شيميش الاختبار بسهولة، وحصل على معلومات ممتازة. عندها، أعطاه نمرودي الضوء الأخضر لإطلاق العمليّة.

في بغداد، كانت لدى شيميش عشيقة نصرانية. وكانت شقيقتها، كميلة، متزوّجة من طيّار في سلاح الجوّ العراقي يدعى منير ردفة؛ نصراني أيضاً. علم شيميش أنّ ردفة محبط ويشعر بالمرارة. فرغم أنّه طيّار ممتاز يقود بمهارة طائرة ميغ – 21، إلاّ أنّه لم يحصل على ترقية. بالإضافة إلى ذلك، أُمر بقيادة طائرة من طراز ميغ – 17 عفا عليها الزمن لتأدية مهمّة مثيرة للاشمئزاز تتمثّل في قصف

القرى الكردية، فرأى في ذلك إهانة له، وتخريباً لا جدوى منه. اشتكى لرؤسائه، فأوضحوا له أنّه نظراً إلى كونه نصرانياً، لن تتمّ ترقيته أبداً، ولن يصبح قائد سرب. كان ردفة طموحاً جدًّا، فاستنتج أنّه لا معنى لحياته في العراق بعد الآن.

لمدّة عام تقريباً، أجرى شيميش اجتماعات طويلة مع الطيّار الشابّ، وأقنعه أخيراً بالقيام برحلة قصيرة إلى أثينا. استخدم شيميش كلّ ما يملكه من فصاحة ووسائل إقناع، وشرح للسلطات العراقية أنّ كميلة – زوجة ردفة – تعاني من مرض خطير، وأنّ الطريقة الوحيدة لإنقاذ حياتها هي بعرضها على أطبّاء غربيين. قال إنّ عليها السفر إلى اليونان على الفور، وطلب نيابة عنها السماح لزوجها بمرافقتها، لأنّه كان الفرد الوحيد في الأسرة الذي يُجيد التحدث بالإنكليزية.

استسلمت السلطات، وسمحت لمنير ردفة بالسفر مع زوجته إلى أثينا. هناك التقيا طياراً آخر هو العقيد زئيف ليرون (لندني)، الضابط في سلاح الجوّ الإسرائيلي. كان ليرون الذي ولد في بولندا ونجا من المحرقة رئيسَ فرع الاستخبارات في القوّات الجوّية، وقد طلب منه جهاز الموساد تقديم المساعدة في قضيّة ردفة. أجرى الرجلان عدّة مناقشات وجهاً لوجه، وادّعى ليرون أنّه طيّار بولندي يعمل لصالح منظّمة مناهضة للشيوعية. وأخبره منير عن أسرته، وحياته في العراق، وخيبة أمله العميقة بسبب رؤسائه الذين أرسلوه لقصف القرى الكردية. كان جميع الرجال الأكراد القادرين قد ذهبوا للمشاركة في القتال، ولم يبقَ في القرى سوى النساء، والأطفال، والعجائز. هل أولئك هم الناس الذين أرسل لقتلهم؟! بالنسبة إليه كانت تلك هي القشّة التي قصمت ظهر البعير ودفعته إلى اتّخاذ القرار النهائي: سيغادر العراق نهائيًّا.

بحسب أوامر الموساد، قام ليرون بدعوة منير للانضمام إليه على جزيرة يونانية صغيرة. أطلق الموساد على ردفة اسماً مشفّراً هو «ياهالوم» (الماس). وفي جوّ الجزيرة الهادئ والمسالم، واصل الرجلان أحاديثهما وأصبحا صديقين حميمَين. وفي إحدى الأمسيات، سأل ليرون ردفة عمّا سيحدث لو غادر العراق بطائرته.

قال ردفة: «سيقتلونني. أضف إلى ذلك أنّه ما من دولة ستوافق على منحي اللجوء».

قال ليرون: «ثمّة دولة واحدة ستستقبلك بأذرع مفتوحة». وكشف الحقيقة لصديقه المذهول:

«أنا طيّار إسرائيلي، ولست بولندياً».

حلّ صمت طويل.

قال ليرون: «لنتحدّث عن ذلك غداً». وافترقا تلك الليلة. في الصباح التالي، قال ردفة إنّه قرّر قبول العرض. فبدأ الرجلان بمناقشة شروط انشقاق ردفة والمبلغ الذي سيحصل عليه.

كان ردفة متواضعاً جدًّا. قال ليرون لاحقاً: «طلب منّي مئير عميت أن أقدّم لردفة مبلغاً من المال، وأن أضاعفه إذا لزم الأمر. لكنّ ردفة قبل عرضي الأوّل فوراً. فاتّفقنا على أن تنضمّ إليه أسرته في إسرائيل».

سافرا من الجزيرة اليونانية إلى روما. ووصل شيميش وعشيقته من بغداد. وبعد بضعة أيّام، انضمّ إليهما يهودا بورات - وهو ضابط أبحاث في استخبارات القوّات الجوّية - وبدأت عملية استخلاص المعلومات من ردفة.

يتذكّر بورات قائلاً: «كان مهذّباً، ومراعياً جدًّا للآخرين. يمكن وصفه باختصار أنّه رجل شريف. كان شجاعاً، وغير ثرثار، ولا يملك أيًّا من الموانع التي قد تتوقّعها لدى رجل في مثل وضعه».

في روما، ناقش ليرون وردفة وسائل الاتّصال، فاتّفقا على أن تكون إشارة الانطلاق بالنسبة إليه هي سماعه الأغنية العربية الشائعة «مرحبتين مرحبتين»على راديو كول إسرائيل باللغة العربية. لكنّه لم يدرك أنّه حين كان يجتمع بمشغّليه في مختلف مقاهي روما كان تحت مراقبة رؤساء الموساد.

قال لنا مئير عميت: «قرّرت إلقاء نظرة شخصيّة على الطيّار قبل أن تبلغ العمليّة مرحلتها النهائية. فسافرت إلى روما، وقصدت المقهى الذي كان من المفترض أن يلتقي فيه الطيّار العراقي ورجالي. جلست إلى طاولة مجاورة وانتظرت، ثمّ دخل بضعة رجال. أعطانا الشابّ انطباعاً جيّداً، فأشرت لضابطنا الجالس معه أنّ كلّ شيء على ما يرام، ورحلت».

خلال اجتماعنا مع عميت، أصرّ على أن يقرأ لنا مقطعاً من كتابه HeadOn

الـذي وصـف فيـه المجموعـة التـي دخلـت مقهـى رومـا: "كان العشـيق اليهودي (شيميش) ينتعل شبشباً بسبب تعرّضه لجرح في قدمه. وكانت عشيقته سيّدة بدينة وقبيحة تقريباً (لا أفهم ما الذي أعجبه فيها). أمّا الماس (اسم منير الشيفري) فكان رجلاً قصير القامة، وقويّ البنية، وعريض المنكبين، وذا وجه جادّ. لم يعرفوا أنّهم كانوا تحت الاختبار".

لـم يعـطِ عميـت رحافيـا فاردي الأمر بالمضيّ قُدمـاً في المرحلة التالية – ألا وهي تزويد الطيّار العراقي بالمعلومات في إسرائيل – إلاّ بعد أن اقتنع أنّه يستطيع الوثـوق بـه. عـاد ليـرون وردفـة إلى أثينا لركوب طائرة إلى تـل أبيب. غير أن عقبة واجهتهما في مطار أثينا وكادت أن تتسبّب بإفسـاد العمليّة. فقد اسـتقلّ ردفة عن طريـق الخطـأ طائـرة متوجّهة إلى القاهرة عوضاً عن تل أبيب. ولم يدرك ليرون أنّ ردفة قد اختفى إلاّ عندما استقلّ طائرة العال.

قال ليرون لاحقاً: "كنت يائساً، فقد شعرت أنّ كلّ شيء قد ضاع. لكن، بعد بضـع دقائـق، ظهـر منير بجانبي. تبيّن أنّ مضيفات طائرة القاهرة قمن بعدّ الركّاب، ووجدن راكباً إضافياً. وعندما دقّقن في التذاكر، أرسلن منير إلى طائرة تل أبيب".

أمضـى ردفـة أربعـاً وعشـرين سـاعة فقـط فـي إسـرائيل؛ حيـث تـمّ تزويـده بالتعليمات، حتّى إنّه تدرّب على خطّ الطيران إلى إسرائيل. وفي مجمّع للموساد، تمّ تعليمه شـيفرة سـرّية، ثمّ اصطحبه أصدقاؤه الجدد في نزهة في شـارع اللمبي؛ أحد شـرايين تل أبيب الرئيسـة. وفي المسـاء، اسـتضافاه في مطعم جميل في يافا، "ليشعر بأنه في وطنه".

عاد ردفة إلى أثينا، ثمّ استقلّ طائرة أخرى وحطّ في بغداد؛ استعداداً للمرحلة الأخيرة.

لكن... يروي عميت: "في تلك اللحظة، أوشـكت أن أصاب بنوبة قلبية من جرّاء الصدمة. فقد قرّر الطيّار العراقي، قبل بضعة أيّام من انشقاقه، بيع أثاث منزله. حـاوِل أن تتخيّـل النتائـج المترتّبـة على قيـام طيّار مقاتل بعرض أثـاث منزله للبيع فجأة.شعرت بخوف شديد من اكتشاف المخابرات العراقية أمر بيع الأثاث وقيامهم باستجواب ردفة وإلقاء القبض عليه؛ الأمر الذي سيؤدّي إلى انهيار العمليّة بأكملها.

لكن، حمداً لله، لم يبلغ الخبر مسامع المخابرات، ولم يؤدِّ هذا الخطأ الأحمق إلى اعتقال ذلك الطيّار البخيل...".

ظهرت بعد ذلك مشكلة أخرى، ألا وهي كيفيّة إخراج عائلة الطيّار من العراق، أوّلاً إلى إنكلترا، ولاحقاً إلى الولايات المتّحدة. فقد كان لديه عدد من الشقيقات والأصهر الذين يتحتّم إخراجهم من العراق قبل سفره. تمّ الاتّفاق على أن تسافر أسرته المباشرة إلى إسرائيل. في الواقع، لم تكن زوجة ردفة تعرف شيئاً عن العمليّة، كما خشي إخبارها بالحقيقة. لم يقل لها سوى إنّهم ذاهبون إلى أوروبا لمدّة طويلة. فسافرت مع ولديها إلى أمستردام. ثمّ اصطحبهم رجال الموساد الذين كانوا في استقبالهم هناك إلى باريس، وهناك التقوا ليرون. لم تكن لديها أيّ فكرة بعد عن هويّة أولئك الناس.

يتذكّر ليرون قائلاً: «أقاموا في شقّة صغيرة تحتوي على سرير مزدوج واحد. جلسنا على ذاك السرير، وهناك، أخبرتها عشية السفر إلى إسرائيل أنّني ضابط إسرائيلي، وأنّ زوجها سيهبط في إسرائيل في اليوم التالي، وأنّنا ذاهبون إلى هناك نحن أيضاً».

كان ردّ فعلها دراميًّا. أخبر ليرون رؤساءه: «أخذت تبكي وتصيح طوال الليل. قالت إنّ زوجها خائن، وإنّ ما سيقوم به خيانة للعراق. وأكّدت أنّ إخوتها سيقتلونه إن عرفوا بما سيفعله.

أرادت الذهاب إلى السفارة العراقية فوراً لإخبارهم بما ينوي زوجها فعله، ولم تكفّ عن الصراخ والبكاء طوال الليل. حاولت أن أهدّئ من روعها، وأخبرتها أنّ عليها المجيء معي إلى إسرائيل إن أرادت رؤيته، فأدركت أنّها لا تملك خياراً آخر. وهكذا، استقلّت الطائرة إلى إسرائيل بعينين متورّمتين ومع طفل مريض».

في 17 يوليو 1966، تلقّت مراكز الموساد في أوروبا رسالة مشفّرة من منير يقول فيها إنّ موعد رحلته يقترب. وفي 14 أغسطس أقلع، لكنّ عطلاً في نظام الطائرة الكهربائي أجبره على الالتفاف والهبوط في قاعدة الرشيد الجوّية. قال عميت: «اكتشف لاحقاً أنّه لم يكن عطلاً خطيراً. فقد امتلأت قمرة القيادة بالدخان فجأة بسبب صمام محترق، ولو أنّه تابع رحلته لوصل من دون أيّ مشكلة. إلاّ أنّه

لم يرغب في المجازفة، وعاد إلى القاعدة، ويومها ازداد الشيب في شعري...».

بعد يومين، أقلع منير ردفة مجدداً، والتزم بالمسار المخطّط له، وظهرت على شاشات الرادار الإسرائيلية نقطة تشير إلى اقتراب طائرة غريبة من المجال الجوّي الإسرائيلي. لم يكن قائد سلاح الجوّ الجديد، الجنرال موردخاي (موتي) هود، قد أخبر أحداً عن المهمة؛ باستثناء بضعة طيّارين، وكان عليهم مرافقة الطيّار العراقي إلى قاعدتهم. أعطى هود باقي الوحدات، والطيّارين، والأسراب والقواعد المنتمية إلى سـلاح الجوّ أمراً واضحاً: «اليوم، لا تفعلوا شـيئاً، لا شـيء على الإطلاق، من دون أمر شـفهي منّي. وأنتم تعرفون صوتي». إذ لم يرغب هود في أن يقوم طيّار مفرط الحماسة بإسقاط «طائرة العدوّ» التي ستخترق المجال الجوّي الإسرائيلي.

دخلت طائرة ميغ – 21 الأجواء الإسرائيلية. وتمّ اختيار ران بيكير، أحد أبرز ضبّاط سـلاح الجوّ لمرافقة ردفة. أشـار ران لبرج المراقبة التابع للقوّات الجوّية: «ضيفنـا يبطـئ مـن سـرعته ويشـير إليّ بإبهامه أنّـه يريد الهبوط. كمـا أمال جناحَي الطائرة، وهي إشـارة دولية تفيد أنّه آت بسـلام». وعند السـاعة الثامنة صباحاً، أي بعد خمس وستّين دقيقة من إقلاع ردفة من بغداد، هبط في قاعدة هاتزور الجوّية في إسرائيل. بعد عام من إطلاق العمليّة، وقبل عشرة أشهر من حرب الأيّام الستّة عـام 1967، حصـل سـلاح الجـوّ علـى طائرة ميـغ – 21 المنشـودة. وهبطت معها مقاتلتا ميراج اللتان رافقتاها من الحدود. لقد حقّق مئير عميت ورجاله المستحيل. فطائرة ميغ – 21 التي كانت تُعتبر حتّى ذلك الوقت جوهرة تاج الترسانة السوفياتية والخطر الأكبر الذي يُهدّد القوّات الجوّية الغربية أصبحت الآن بين أياد إسرائيلية.

بعدمـا هبـط منيـر، تـمّ اصطحابه إلى منزل قائد قاعـدة هاتزور، وكان لا يزال مربـكاً ومذهـولاً. وأقـام له عـدد من كبار الضبّاط حفلة؛ متجاهلين مشـاعر الرجل على نحو غير مبرّر.

يـروي مئيـر عميـت: «فوجئ منير بالحفلة، وشـعر في البداية كما لو أنّه دخل زفاف رجل غريب. فجلس في إحدى الزوايا والتزم الصمت».

بعـد اسـتراحة قصيـرة، وعندمـا تأكّد أنّ زوجته وطفليه كانـوا على متن طائرة العال في طريقهم إلى إسرائيل، تمّ اصطحابه إلى مؤتمر صحفي. تحدّث في بيانه

عـن الاضطهـاد الـذي يعانـي منـه النصارى في العراق، وعن قصـف الأكراد، وعن الأسباب التي دفعته إلى الانشقاق.

وبعد المؤتمر الصحفي، تمّ اصطحابه إلى هيرتسليا – وهي مدينة ساحلية تقع شمال تل أبيب – للالتحاق بأسرته. كتب مئير عميت: «بذلنا ما في وسعنا لتهدئته، وتشـجيعه، وإطرائـه علـى العمليّـة التـي نفّذها. ووعدته أن أبذل كلّ ما في وسـعي لمساعدته وأسرته على تجاوز هذه المحنة. لكنّني خشيت من المرحلة التالية، لأنّنا علمنا أنّ عائلة منير كانت مشكلة كبيرة».

بعد بضعة أيّام من هبوط منير بالطائرة في هاتزور، وصل شقيق زوجته، وهو ضابط في الجيش العراقي، إلى إسرائيل. كان برفقة شيميش وعشيقته، كميلة. كان الضابط يستشيط غضباً. فقد قيل له إنّ عليه إجراء زيارة طارئة لأخته المريضة جدًّا، والموجودة في أوروبا. ولكن تمّ اصطحابه عوضاً عن ذلك إلى إسـرائيل. وعندما التقـى «منيـر»، لكمـه علـى وجهه ونعته بالخائن، ثمّ انقضّ عليه وحاول أن يضربه، واتّهـم أختـه – زوجـة منيـر – أنّها كانت على علم بمخطّطات زوجها؛ الأمر الذي يجعلهـا متآمـرة معـه في جريمة شـنعاء. نفت كميلـة تلك الاتّهامات، لكن من دون جدوى. وبعد بضعة أيّام، رحل أخوها من إسرائيل.

كان أوّل من قاد طائرة ميغ هو داني شابيرا، طيّار سلاح الجوّ الشهير، وأفضل طيّار في إسرائيل. فقد استدعاه موتي هود في اليوم التالي لهبوط الطائرة وقال له: «سـتكون أوّل طيّار غربي يقود طائرة ميغ – 21. ابدأ بدراسـة هذه الطائرة، وقدها قدر ما تستطيع، وتعلّم نقاط قوّتها وضعفها».

التقـى شـابيرا ردفـة. قـال دانـي شـابيرا: «التقينا في هيرتسـليا بعـد بضعة أيّام مـن وصولـه. عندمـا عرّفونـا على بعضنا تنبّه على الفور. لاحقاً، التقينا في هاتزور، بالقـرب مـن الطائـرة. أراني مفاتيح التبديل، وقرأنا التسـميات التي كانت بالروسـية والعربية، ثمّ أخبرته بعد ساعة أنّني سأقود الطائرة، فشعر بالاستغراب وقال: لكنّك لم تكمل دورة واحدة! فشرحت له أنّني طيّار اختبار. بدا قلقاً جدًّا وطلب الوقوف بجانب الطائرة عندما أُقلع، فوعدته بذلك».

أتى كبار ضبّاط سلاح الجوّ جميعاً إلى هاتزور لمشاهدة أوّل رحلة. حضر عيزر وايزمان أيضاً، وكان حتّى وقت قريب قائد سلاح الجوّ. يذكر شابيرا: «أتى إليّ عيزر، وربت على كتفي وقال: داني، لا تقم بأيّ مناورات، وأرجع الطائرة، مفهوم؟ كان ردفة حاضراً أيضاً. أقلعت، وفعلت ما فعلت، وبعدما هبطت، أتى ردفة إليّ وعانقني. كانت عيناه دامعتين. وقال لي: بوجود طيّارين مثلك، لن يهزمكم العرب أبداً».

بعد بضع رحلات اختبار، أدرك خبراء سلاح الجوّ لماذا يقدّر الغرب طائرة ميغ – 21 إلى هذا الحدّ. فهي تطير على ارتفاع عال جدًّا، كما أنّها سريعة جدًّا. ويُعتبر وزنها أقلّ بطنّ واحد من طائرة ميراج 3 الفرنسية والإسرائيلية.

تصدّرت عمليّة ميغ – 21 عناوين الصحف العالميّة. دُهش الأميركيون، وبعد فترة وجيزة، أرسلوا وفداً من الفنّيين، وطلبوا دراسة الطائرة وقيادتها. لكنّ إسرائيل رفضت السماح لهم بالاقتراب من الطائرة قبل أن يطلعوها على ملفّاتهم المتعلّقة بالصاروخ السوفياتي الجديد المضادّ للطائرات، سام – 2. فوافق الأميركيون أخيراً، وأتى طيّارون أميركيون إلى إسرائيل، وفحصوا طائرة ميغ – 21، وطاروا بها.

تعلّم أسرار طائرة ميغ – 21 عاد بفائدة عظيمة على سلاح الجوّ الإسرائيلي، كما أدّى دوراً أساسياً في الإعداد للمواجهات مع طائرات ميغ التي وقعت أخيراً بعد عشرة أشهر، في حرب الأيّام الستّة في يونيو 1967. قال عميت بفخر: «كان لتلك الطائرة دور كبير في انتصار سلاح الجوّ الإسرائيلي على القوّات الجوّية العربية؛ وخصوصاً في تدمير سلاح الجوّ المصري في غضون بضع ساعات».

حقّق الموساد وسلاح الجوّ الإسرائيلي انتصاراً هائلاً، لكنّ منير ردفة وأفراد أسرته دفعوا ثمناً باهظاً. قال أحد كبار ضبّاط الموساد: «عاش منير بعد وصوله إلى إسرائيل حياة شاقّة، وبائسة، وحزينة. فقيام العميل ببناء حياة جديدة [خارج بلاده] يكاد يكون مهمّة مستحيلة. شعر منير بالإحباط، لكنّ أسرته تعذّبت أيضاً. فقد شُتّتت عائلة كاملة».

حاول منير لمدة ثلاث سنوات أن يجعل من إسرائيل وطناً له، حتّى إنّه قاد طائرات داكوتا التابعة لشركات النفط الإسرائيلية من سيناء وإليها. عاشت أسرته

في تل أبيب، ومُنح أفرادها غطاءً كلاجئين إيرانيين. لكنّ زوجة منير التي كانت كاثوليكية متديّنة لم تتمكّن من تكوين صداقات، وشعرت بالعزلة، وعجزت عن التكيّف مع الحياة في إسرائيل. أخيراً، قرّروا الرحيل والانتقال إلى دولة غربية والعيش هناك تحت هويّات مزيّفة. لكن، حتّى هناك، بعيداً عن الوطن والأقارب، كانوا محاطين برجال أمن محلّيين، وشعروا بالوحدة، كما خافوا من طول ذراع المخابرات العراقية.

في أغسطس 1988، أي بعد اثنين وعشرين عاماً من الانشقاق، توفّي منير ردفة في منزله من جرّاء نوبة قلبية مفاجئة، فاتّصلت زوجته بمئير عميت (الذي كان قد ترك الموساد منذ مدّة طويلة) باكية وأخبرته أنّه في وقت سابق من صباح ذلك اليوم، نزل زوجها من الطابق الثاني لمنزلهم، وبينما كان واقفاً بجوار ابنهما، انهار فجأة في المدخل وتوفّي على الفور.

أقام الموساد حفل تأبين لمنير ردفة. ولم يتمكّن الضبّاط المخضرمون من حبس دموعهم. قال ليرون: «كان مشهداً سريالياً. فمن غير المألوف أن ترى ضبّاط الموساد حزينين على طيّار عراقي...».

بعد نجاح عمليّة الماس والانتصار الذي أعقبها في حرب الأيّام الستّة، رأى مئير عميت فرصة لإطلاق عمليّة جديدة، فاقترح على رؤسائه المطالبة بالإفراج عن سجناء قضيّة لافون، في إطار تبادل لأسرى الحرب. كان الأسرى الشباب يتعفّنون في السجن منذ ثلاثة عشر عاماً؛ في ظلّ غياب أيّ فرصة للعفو أو الإفراج المبكر. وشعر عميت أنّ إسرائيل نسيت أمرهم. والآن، بعد انتهاء حرب الأيّام الستّة، دخلت إسرائيل في مفاوضات مع مصر. كانت إسرائيل قد أسرت 4,338 جندياً مصرياً و830 مدنيًّا، في حين لم تأسر مصر سوى 11 إسرائيلياً فقط. ومع ذلك، رفض المصريون إدخال أسرى قضيّة لافون في الصفقة.

لم يستسلم مئير عميت، وقال وزير الدفاع موشيه دايان لصديقه: «انسَ الأمر، مئير. فالمصريون لن يفرجوا عنهم أبداً». وافق رئيس الوزراء إشكول موشيه الرأي، لكنّ عميت رفض الاستسلام. أخيراً، أرسل ملاحظة شخصيّة إلى الرئيس جمال

عبد الناصر، «من جندي إلى جندي»، وطلب تحرير السجناء، بمن فيهم فولفغانغ بيلتز، «جاسوس الشامبانيا»، الذي تمّ اعتقاله في قضيّة العلماء الألمان.

تفاوض عميت على تبادل الأسرى مع السوريين أيضاً. وكانت لديه مصلحة شخصيّة في هذه المفاوضات. فقد طلب من السوريين المساعدة على إطلاق سراح السيّدة شولا كوهين من الأسر في لبنان. وكانت شولا كوهين (اسمها الشيفري هو «اللؤلؤة») إحدى الجاسوسات الأسطوريات لدى الموساد. فقد أقامت سيدة المنزل البسيطة علاقات مع كبار القادة في لبنان وسوريا، ونظّمت هجرة سرّية لآلاف اليهود السوريين واللبنانيين، كما أدارت شبكة تجسّس ناجحة للغاية.

أدّى استعطاف مئير لعبد الناصر الأثر المطلوب، وسرعان ما تبعه السوريون بعد فترة وجيزة. ربح مئير عميت. وفي صفقة سرّية، عاد أسرى قضيّة لافون، وبيلتز، وشولا كوهين إلى إسرائيل.

الفصل الحادي عشر

لن ينسوا أبداً

في مطلع سبتمبر 1964، وصل رجل أصلع، قويّ البنية، في منتصف العقد الرابع من عمره، يضع نظّارة، على متن القطار السريع الآتي من باريس إلى محطّة روتردام في هولندا. حجز في فندق راينهوتيل الفخم في وسط المدينة، تحت اسم «أنطون كونزل» - رجل أعمال نمساوي - ثمّ توجّه إلى مكتب البريد المجاور، واستأجر صندوق بريد بالاسم نفسه. من هناك، توجّه إلى بنك أمرو، وفتح حساباً فيه، وأودع مبلغ 3000 دولار. وبعد ذلك توجّه إلى مطبعة، حيث أوصى بطباعة بطاقات عمل وقرطاسية باسم أنطون كونزل، مدير شركة استثمارية في روتردام. ومن هناك، توجّه مسرعاً إلى القنصلية البرازيلية، وملأ استمارات للحصول على تأشيرة سياحية إلى البرازيل. خضع لفحص روتيني في عيادة أحد الأطبّاء، وحصل على شهادة طبّية عن حالته الصحّية، ثمّ قام بزيارة إلى طبيب عيون، وغشّ في أثناء الفحص، وطلب نظّارة مكبّرة سميكة، مع أنّه لم يكن بحاجة إليها على الإطلاق.

في صباح اليوم التالي، قام برحلة قصيرة إلى زوريخ، وفتح حساباً في كريدي سويس بنك أودع فيه 6000 دولار. عاد بعد ذلك إلى باريس، وهناك قام فنّان تجميل بإضافة شارب كثّ إلى وجهه، والتقط له أحد المصوّرين صوراً بنظّارته الجديدة وأعطاه مجموعة من الصور الشمسية. في روتردام، أخذ الصور إلى موظّف التأشيرات في القنصلية البرازيلية، وخُتمت التأشيرة السياحية إلى البرازيل على جواز سفره النمساوي. أصبح بإمكانه الآن شراء تذاكر سفر إلى ريو دي جانيرو، ومن هناك إلى ساو باولو ومونتيفيديو في الأوروغواي. وحيثما ذهب، تحدّث الثرثار كونزل عن أعماله المزدهرة في النمسا. وكان «البقشيش» السخيّ

الذي ينثره في طريقه، واختياره أفخم الفنادق وأفضل المطاعم دليلاً كافياً على أنّه بالفعل رجل أعمال ثري وناجح.

بهذه الأعمال البسيطة كما يبدو، تمكّن عميل الموساد إسحاق ساريد (ليس اسمه الحقيقي) من بناء غطاء مضمون لنفسه. وفي مكان ما بين باريس وروتردام وزوريخ، تبخّر إسحاق ساريد في الهواء، وظهر مكانه رجل جديد: أنطون كونزل، رجل الأعمال النمساوي، مع عنوان في روتردام، وحسابات مصرفية، وبطاقات عمل، وتأشيرة، وتذكرة طائرة إلى البرازيل.

قبل بضعة أيّام فقط، في الأوّل من سبتمبر، تمّ استدعاء إسحاق ساريد إلى اجتماع في باريس. كان ساريد عضواً في فريق عمليّات الموساد الملقّب باسم «سيزاريا». في منزل آمن في شارع فيرساي، التقى إسحاق قائد سيزاريا، يوسكي ياريف، وهو رجل قويّ، مفتول العضلات، يتمتّع بإعجاب مرؤوسيه. كان ياريف - وهو ضابط سابق في الجيش - قد حلّ مكان رافي إيتان كرئيس لفريق العمليّات، في حين عُيّن إيتان رئيساً لمركز الموساد في أوروبا، ومقرّه باريس.

بدأ ياريف بالقول إنّ برلمان ألمانيا الغربية سيقوم خلال بضعة أشهر بتبنّي نظام من القيود المتعلّقة بجرائم الحرب؛ ممّا يعني أنّ المجرمين النازيين الذين يعيشون الآن في الخفاء سيتمكّنون من الخروج من مخابئهم واستئناف حياتهم الطبيعية؛ كما لو أنّهم لم يرتكبوا شيئاً من أفعالهم الشنيعة. قال ياريف إنّ الكثير من الألمان يرغبون في طيّ صفحة الماضي، وترك ماضي ألمانيا البشع خلفهم. وحتّى إنّ الدول الأخرى التي عانت تحت النير الألماني لم تعد حريصة على الاستمرار في ملاحقة المجرمين النازيين. فمنذ اختطاف إيخمان قبل أربع سنوات، تقلّص الوعي في ما يتعلق بالجرائم النازية، وكأنّ محاكمة النازي وإعدامه أنهيا فصلاً من تاريخ العالم. استناداً إلى ياريف، لا بدّ من التأكّد من أنّ نظام القيود الذي سيُفرض على الجرائم النازية لن يصبح قانوناً؛ إذ يجب تذكير العالم بأنّ الوحوش ما زالوا طلقاء.

قال ياريف لساريد: «علينا أن نقتل أحد كبار المجرمين النازيين». وكان عميل الموساد الذي أرسل في مهمّة إلى أميركا الجنوبية قد عثر على أحدهم. فقد تعرّف

بشكل مؤكّد على «جزّار ريغا»، نازي من لاتفيا، متّهم بذبح 30000 يهودي. كان يعيش في البرازيل بهويته الحقيقية؛ هربرتز كوكورز. وقد أعطى الرامساد مئير عميت الضوء الأخضر لتنفيذ العمليّة.

لذا، لجأ ياريف الآن إلى الاستعانة بساريد. ليس فقط بسبب سجلّ هذا العميل الذكيّ وواسع الدهاء الذي شارك في عمليّة إيخمان، بل لأنّه عرف أيضاً أنّ ساريد ولد في ألمانيا، وأنّ أبويه قضيا في المحرقة. كان ساريد قد هرب إلى فلسطين، لكنّه أقسم على محاربة هتلر، وكان واحداً من بين المتطوّعين اليهود الأوائل في الجيش البريطاني خلال الحرب. لذلك لم يشعر ياريف بأيّ داع للقلق حيال دوافع ساريد.

قال قائد سيزاريا لساريد: «أريدك أن تبني غطاءً لنفسك كرجل أعمال نمساوي. ستتمثّل مهمّتك في السفر إلى البرازيل والعثور على كوكورز، وكسب ثقته. ستكون تلك هي الخطوة الأولى لإعدامه». وفي التعليمات المفصّلة التي تبعت ذلك، أعطي ساريد اسماً جديداً: «أنطون كونزل».

بعد عشرة أيّام من اجتماع باريس، استقلّ أنطون كونزل طائرة فاريغ إلى ريو دي جانيرو. كان متحمّساً ومضطرباً في آن معاً؛ بسبب هذه المهمة التي لم يسبق له أن تولّى مثلها من قبل. عليه أن يعمل بمفرده تماماً، في بلد غريب، ويحاول مصادقة وحش متّقد الحواس توقّع بكلّ تأكيد أن يحاول شخص ما قتله في أحد الأيام. عرف كونزل جيّداً أنّ خطأ واحداً سيسبّب فشل العمليّة برمّتها، وأنّ زلّة واحدة قد تكلّفه حياته.

خلال الرحلة، طالع كونزل ملفًّا ضخماً من الوثائق، والشهادات، وقصاصات الصحف حول هربرتز كوكورز. وعرَف أنه اشتُهر في الثلاثينيات كطيّار موهوب وجريء طار من لاتفيا إلى غامبيا في أفريقيا، على متن طائرة صغيرة بناها بيديه. وبين عشية وضحاها، تحوّل الطيّار الشابّ والوسيم إلى بطل قومي في لاتفيا، فمُنح ميداليّة سانتوس دومونت الدولية. ولقّبته الصحافة «نسر لاتفيا» و«ليندبورغ لاتفيا». وتهافتت الجموع إلى متحف الحرب في ريغا لرؤية طائرة كوكورز المعروضة هناك.

كان كوكورز قومياً يمينياً، إلاّ أنّه كان يملك العديد من الأصدقاء اليهود. حتّى

إنّه سافر إلى فلسطين وعاد معجباً بشدّة بالإنجازات الصهيونية. وخطاباته الحماسية عن الروّاد في فلسطين جعلته يبدو حليفاً ليهود لاتفيا.

لكن، عند اندلاع الحرب العالمية الثانية، تغيّرت الأمور فجأة. فقد قام السوفيات أوّلاً باحتلال لاتفيا، وسرعان ما فازوا بكراهية الشعب، واضطهَدوا أمثال كوكورز. لكنّ الجيش الأحمر انسحب بعد غزو هتلر لروسيا، وسقطت لاتفيا بين أيدي الجيش الألماني. في هذه المرحلة تغيّر كوكورز كلّياً. فبصفته قومياً وفياً، وقائداً للمنظّمة الفاشية المتعصّبة صليب الرعد التي تطوّعت لخدمة النازيين، أصبح القاتل الأكثر وحشية وسادية ليهود ريغا. في البداية، قام هو وجنوده باقتياد ثلاثمئة يهودي إلى كنيس محلّي، ثم أضرموا النار فيه، ممّا أدّى إلى مقتل كلّ من كان فيه. كما اعتقل اليهود وضربهم بمسدّسه حتّى الموت، في حين أطلق النار على مئات آخرين، وأذلّ اليهود الأرثوذكس وقتلهم، وحطّم رؤوس الأطفال على جدران المدينة. وفي إحدى الليالي، أجبر فتاة يهودية على خلع ملابسها أمام سجناء يهود، وأذلّها أمام الحرّاس الثملين. وفي الصيف، أمر بإغراق 1200 يهودي في بحيرة كولديغا. وفي نوفمبر 1941، قاد 30000 يهودي من ريغا إلى حقل في غابات رومبولا، وهناك تمّ تجريدهم من ملابسهم من قبل الجنود الألمان، وإطلاق النار عليهم بدم بارد.

عندما قرأ كونزل إفادات بعض اليهود الذين نجوا بأعجوبة شعر بصدمة عميقة. وكانت الوثائق الموجودة في الملفّ قد وصفت كيفيّة سفر كوكورز إلى فرنسا بأوراق مزوّرة بعد انتهاء الحرب؛ فبعد أن تظاهر أنّه فلاّح، تمكّن من الصعود على متن قارب متّجه إلى ريو دي جانيرو، واصطحب معه بوليصة تأمين غريبة؛ فتاة يهودية شابّة تدعى ميريام كايتزنر، كان قد حماها خلال الحرب. تحدّثت ميريام في جميع أنحاء البرازيل عن منقذها النبيل من ريغا مؤدّية دور المدافعة عنه.

في ريو، سرعان ما أقام كوكورز علاقات صداقة مع الكثير من اليهود البرازيليين. كان يحبّ أن يروي لمستمعيه قصّة ميريام الرائعة، فيقول: «اعتقلها النازيون في لاتفيا، وكان بانتظارها مصير رهيب لو لم أخاطر بحياتي وأنقذها». لم يكن سكان ريو يقابلون كلّ يوم مثل هذا البطل الشجاع والمخلّص لليهود، لذا

بذل يهود المدينة ما في وسعهم ليُظهروا للاتفي الشجاع كم يقدّرون أعماله النبيلة.

أصبح كوكورز يتمتّع بشعبيّة واسعة في المجتمع اليهودي؛ حتّى الليلة التي أفرط فيها في احتساء الشراب. فقد حلّ الشراب عقدة لسانه، وراح يروي لجمهوره قصّة مختلفة تماماً. تحدّث عن اليهود أيضاً، لكنّه راح ينعتهم بالحثالة. وتكلّم بحماسة عن الوسائل التي استخدمها وأصدقاؤه النازيون لذبح يهود أوروبا، وعن اليهود الذين أُحرقوا، وأُغرقوا، وقُتلوا بالرصاص، وضُربوا حتّى الموت... ذُهل أصدقاؤه اليهود، ثمّ بدأوا يتحقّقون ممّا قاله، وكانت نتائج أبحاثهم مرعبة.

عندما ظهرت حقيقة هويّة كوكورز للعلن، اختفى على الفور. إلاّ أنّه لم يغادر ريو، بل اكتفى بالانتقال إلى حيّ بعيد في المدينة الكبيرة؛ تاركاً ميريام كايتزنر التي لم يعد بحاجة إليها بعد الآن. لاحقاً، تزوّجت ميريام من يهودي محلّي، وتكيّفت في المجتمع البرازيلي. أمّا كوكورز، فأحضر زوجته وأنجب ثلاثة أبناء.

مرّت عشر سنوات أصبح خلالها كوكورز صاحب شركة سيّارات أجرة محترمة. لكنّ جالية ريو اليهودية اكتشفت أمره مجدّداً عن طريق الصدفة، ولفتت إليه الانتباه، فاقتحم الطلاّب مكاتب شركة سيّارات الأجرة، وحطّموا النوافذ، ودمّروا المعدّات، وأفرغوا الملفّات... عندها، ترك كوكورز مدينة ريو مع أسرته فوراً واستقرّ في ساو باولو.

ورغم أنّ أحداً لم يزعجه هناك، إلاّ أنّه ظلّ يشعر بالخطر. فقد لاحقته المخاوف، واشتبه بكلّ غريب يقترب منه. وفي يونيو 1960، بعد بضعة أيّام من اختطاف إيخمان، ذهب كوكورز إلى مقرّ الشرطة في ساو باولو وطلب الحماية فحصل على مراده. لكنّ الأمر انتشر في وسائل الإعلام، وأصبح أقرباء ضحايا كوكورز في جميع أنحاء العالم يعرفون مكانه.

مع مرور السنوات، تضاعفت مخاوف كوكورز، فأخبر زوجته وأولاده أنّ اليهود الحاقدين عليه قد يكتشفون مكانه ويقتلونه في أيّ وقت. حتّى إنّه أعدّ لائحة تتضمّن أخطر أعدائه، وأهمّهم اليهود البرازيليون في ريو. وكان على رأس تلك اللائحة د. أهارون شتاينبروك عضو مجلس الشيوخ، ود. ألفريدو غارتنبرغ، ود. ماركوس كوستانتينو، ود. إسرائيل سكولنيكوف، والسيّد كلينغر، والسيّد بيريتزكي.

استعمل كوكورز اسمه الحقيقي، لكنّه حوّل منزله إلى قلعة حصينة، ودفع على ما يبدو رشى كبيرة للحصول على حماية الشرطة وأجهزة الأمن.

أطلق عدداً من المشاريع التجارية لكنّه فشل. واستناداً إلى ملفّ كونزل، كان آخر عناوينه مرسى في بحيرة اصطناعية خارج ساو باولو. فقد اعتاد كوكورز على استئجار بضعة قوارب وأخذ السيّاح في نزهات جوّية فوق المدينة في طائرته المائية.

أدرك كونزل أنّه إن حاول الاقتراب من كوكورز مباشرة فسيثير شكوكه بالتأكيد، لذلك أمضى بضعة أيّام في ريو أوّلاً. كانت إقامته في المدينة البرازيلية الخلاّبة تتناقض تماماً مع المهمّة السوداوية التي يزمع تنفيذها. مشى على شواطئ كوباكابانا وإبانيما، وتأمّل الجميلات السمراوات بالبكيني، وتأمّل السوغارلوف الرائع وشاهد احتفال ماكومبا (فودو برازيلي)، واستمتع بأشعّة الشمس الدافئة وإيقاعات السامبا. كان سائحاً نموذجياً، لكنّه تعرّف على بعض كبار المسؤولين ومستثمري القطاع الخاصّ في مجال السياحة، والتقى وزير السياحة البرازيلي، وعرّف عن نفسه على أنّه مستثمر مهتمّ بالمشاريع السياحية في البرازيل. وحصل على عدد من خطابات التوصية الموجّهة إلى بعض الشخصيّات الرئيسة في مجال السياحة في ساو باولو.

وصل كونزل إلى ساو باولو، وعثر على الفور على مرسى كوكورز. وجد قرب الرصيف – على مسافة قريبة من قوارب النزهة – طائرة مائية قديمة، وبجانبها رجل نحيل، وطويل القامة، يرتدي زيّ طيّار. كان ذاك هو هربرتز كوكورز.

توجّه كونزل نحو فتاة ألمانية جميلة تبيع تذاكر لنزهات كوكورز، وطلب الحصول على معلومات عن السياحة في تلك المنطقة. لم يعرف حينذاك أنّ تلك الشابّة كانت زوجة ابن كوكورز البكر. قالت إنّها لا تعرف الكثير عن السياحة، لكنّها أشارت إلى الرجل الذي يرتدي زيّ الطيّار وقالت: «اسأله، سيساعدك».

اقترب كونزل من الطيّار، وعرّف عن نفسه على أنّه مستثمر نمساوي. طرح عليه بعض الأسئلة المهنية، وأجابه كوكورز على مضض. لكنّ موقفه تبدّل عندما طلب منه كونزل الذهاب معه في رحلة فوق المدينة. بعد بضع دقائق، أصبحا في

الجوّ. تبادل الرجلان حديثاً طويلاً وودّياً، وعرف كونزل كيف يقيم معه علاقة صداقة. عند عودتهما، دعاه كوكورز إلى قاربه لتناول الشراب.

في أثناء ذلك، انطلق كوكورز فجأة في خطبة حامية ضدّ متّهميه، وصاح قائلاً: «أنا مجرم حرب؟! لقد أنقذت فتاة يهودية خلال الحرب». اشتبه كونزل أنّ استنكار كوكورز كان مزيّفاً، وأنّ الرجل أراد إثارة ردّ فعل لديه.

سأله كوكورز: «هل خدمت خلال الحرب؟».

أجاب كونزل: «أجل. على الجبهة الروسية». لكنّ نبرة صوته أشارت إلى العكس، وبدت وكأنّه يعني أنّه خدم في الحرب، ولكن بالتأكيد ليس على الجبهة الروسية. ثمّ فكّ أزرار قميصه وأظهر لكوكورز ندبة على صدره، وقال من دون أن يخوض في التفاصيل: «إنّها من آثار الحرب».

قيّم كونزل مضيفه بسرعة. كان كوكورز في حالة اقتصادية سيّئة. فزيّه بالٍ، وطائرته متداعية، وحالة قواربه مزرية؛ مما يشير إلى انخفاض مستوى معيشته. لذا، أدرك كونزل أنّ عليه أن يدفع كوكورز إلى الاعتقاد أنّه - أي كونزل - فرصته لحلّ مشاكله؛ فهو الرجل الذي سيحقّق له أرباحاً كبيرة. وهكذا، راح يتحدّث عن شركته وشركائه، وعن مشاريعه الرامية إلى استثمار مبالغ كبيرة من المال في السياحة في أميركا اللاتينية. ولمّح إلى كوكورز أنّه ربما يستطيع الانضمام إلى مجموعتهم؛ بما أنّه على معرفة جيّدة بالمشهد السياحي البرازيلي.

بدا كوكورز مهتمًّا بكلام ضيفه، لكنّ كونزل وقف فجأة وقال: «حسناً، لا أرغب في إزعاجك أكثر. لا بدّ أنّك مشغول جدًّا».

قال كوكورز: «كلاّ، إطلاقاً». واقترح أن يأتي كونزل إلى منزله يوماً ما بعد العمل، «لكي نتمكّن من مناقشة اهتماماتنا المشتركة».

وهكذا جرى الاتّصال، وألقي الطعم. والآن، ينبغي إقناع كوكورز بابتلاعه.

في تلك الليلة، أرسل كونزل برقية إلى يوسكي ياريف. وللمرّة الأولى، استخدم الاسم الشفري الذي اختاره ياريف لكوكورز: «الميت».

كتب كوكورز شيئاً ما في تلك الليلة أيضاً. فقد أخرج اللائحة التي تضمّ أسماء أخطر أعدائه وأضاف إليها اسماً جديداً؛ أنطون كونزل.

بعد أسبوع، توقّفت سيّارة أجرة بالقرب من منزل في حيّ الريفيرا في ساو باولو. كان المنزل متواضعاً، لكنّه محصّن مثل قلعة. فقد كان محاطاً بسور وبأسلاك شائكة، وكان المدخل مغلقاً ببوّابة حديدية وقف قربها شابّ وكلب شرس المظهر.

طلب كونزل من الشابّ - الذي تبيّن أنّه أحد أبناء كوكورز - إبلاغ الطيّار بوصوله. استقبله كوكورز بحرارة، ورافقه إلى منزله، وعرّفه على زوجته ميلدا، ثمّ فتح درجاً وعرض على كونزل حوالى خمس عشرة ميدالية من أيّام الحرب. كان معظمها مزيّناً بالصليب المعقوف.

فتح كوكورز درجاً آخر وعرض على كونزل المذهول أسلحته الخاصّة: ثلاثة مسدّسات ثقيلة وبندقية شبه آلية. وأخبره بفخر أنّ الاستخبارات البرازيلية أعطته رخصاً لجميع هذه الأسلحة وأضاف: «أنا أعرف كيف أحمي نفسي».

رأى كونزل في كلام كوكورز تهديداً مبطّناً. وكأنّه يقول له، إن حاولت إيذائي، فعليك أن تعرف أنّني مسلّح وخطير.

فجأة، خطرت لكوكورز فكرة. «ما رأيك بالذهاب معي في رحلة إلى مزارعي. إنّها في الريف، يمكننا تمضية ليلة هناك».

وافق كونزل على الفور. ولكن، في طريقه إلى الفندق، مرّ بأحد المتاجر وابتاع مدية، من باب الحيطة والحذر.

بعد بضعة أيّام، استقلّ الاثنان سيّارة كونزل المستأجرة، وتوجّها إلى الجبال.

كانت رحلة مخيفة سادها التوتّر. ها هو أنطون كونزل - المسلح بمدية بسيطة - يخشى كوكورز لكنّه مصمّم على إغرائه بالربح السهل، ودفعه إلى حتفه.

إلى جانبه جلس هربرتز كوكورز، الرجل القويّ والذكيّ، ولكنّه فقير ومتشكّك إزاء صديقه الجديد، ومسلّح بمسدّس ثقيل، وعاجز عن مقاومة طُعْم كونزل المتدلّي أمام عينيه.

خشي كونزل أن يكون هو الضحيّة في لعبة القطّ والفأر هذه. فربّما لم يصدّق كوكورز قصّته، وهو يصطحبه الآن إلى الجبال لقتله هناك.

في الطريق، زارا مزرعة مهجورة. فجأة، أخرج كوكورز بندقيته من حقيبته، فأجفل كونزل. لماذا أحضر كوكورز مسدّسه وبندقيته معه؟

سأله كوكورز: «ما رأيك بمباراة رماية؟». فهم كونزل على الفور أنّ كوكورز يرغب في اختبار قدراته كمقاتل سابق على الجبهة الروسية؛ لرؤية ما إذا كان ماهراً في الرماية. ثبّت اللاتفي هدفاً ورقياً على إحدى الأشجار، ثمّ لقّم بندقيته وأطلق عشر رصاصات سريعة. تجمّعت الطلقات على شكل دائرة قطرها 10 سم. ثمّ أخرج كوكورز من حقيبته هدفاً ورقياً ثانياً، ولقّم البندقية مجدّداً، وناولها لكونزل. كان كونزل رامياً ممتازاً بصفته جندياً مخضرماً في الجيش البريطاني والجيش الإسرائيلي. فأمسك السلاح وأطلق عشر رصاصات تجمّعت في دائرة قطرها 3 سم. هزّ كوكورز رأسه استحساناً، ثمّ قال: «ممتاز، هير أنطون».

عاد الرجلان إلى السيّارة، وتوجّها إلى مزرعة أخرى. كانت أكبر حجماً بكثير، وتضمّ غابة كثيفة ونهراً تمدّدت فيه التماسيح بكسل. قاده كوكورز عبر الغابة، فاجتاحته المخاوف مجدّداً. هل هذا فخّ؟ هل أحضره كوكورز إلى هذا المكان ليقتله من دون أن يترك أدلّة؟

واصل السير بجانب كوكورز. فجأة، داس على صخرة، فانغرس مسمار في عقب قدمه. انحنى كونزل إلى الأمام متألّماً، ثمّ ركع وخلع حذاءه، فسالت الدماء من جرح في قدمه.

عندها، انحنى كوكورز فوقه وأخرج مسدّسه. أصبح كونزل مكشوفاً، ومجرّداً من أيّ دفاع، وفكّر في سرّه أن لحظته الأخيرة قد حانت. إذ سيطلق عليه اللاتفي النار كما لو كان كلباً. لكنّ كوكورز أعطاه المسدس قائلاً: «استخدِم أسفله وأخرِج المسمار».

تناول كونزل المسدّس، وفجأة انعكست الأدوار. كانا بمفردهما في مزرعة جبلية، بعيدَين لأميال عن أيّ كائن بشري. وكان المسدّس ملقّماً. باستطاعته القضاء على كوكورز في تلك اللحظة. ما عليه سوى أن يوجّه إليه فوهة المسدّس، ويضغط على الزناد.

ولكنه عوضاً عن ذلك انحنى وأخرج المسمار من حذائه، ثمّ أعاد المسدّس إلى صاحبه.

عندما خيّم الليل، وصلا إلى كوخ متداع، وجهّزا عشاء من الطعام الذي

أحضراه معهما. بعد ذلك، أخرجا كيسي النوم ووضعاهما على سريرين حديديين قديمَين. رأى كونزل كوكورز وهو يدسّ المسدّس تحت وسادته. أقلقته أفكاره المشؤومة، فأخرج سكّينه من جيبه، وأبقاها في يده متأهّباً، لكنّه لم يستطع النوم.

في منتصف الليل، سمع جلبة آتية من سرير كوكورز. نهض النازي، وأخذ مسدّسه، ثمّ خرج بهدوء. لماذا؟ تساءل كونزل. حاول أن يصغي إلى الأصوات الآتية من الخارج، وفجأة سمع صوتاً يسهل تعرّفه؛ كان كوكورز قد خرج للتبوّل. وعلى الأرجح، ثمّة حيوانات برّية تترصّد في الخارج.

في اليوم التالي، عادا إلى ساو باولو سالمَين، فتنفّس كونزل الصعداء عندما دخل فندقه.

في الأسبوع التالي، قام كونزل بدعوة كوكورز إلى مطاعم فخمة، ونوادٍ ليلية مكلفة. لاحظ نظرة كوكورز الجائعة، وأدرك أنّ الرجل لم يتذوّق منذ سنوات تلك المتع التي يستطيع المال شراءها. تمثّلت خطوته التالية في دعوة كوكورز لمرافقته في عدّة رحلات داخل البلاد، على نفقة كونزل بالطبع. فزارا بعض المواقع السياحية الكبرى، واستمتع كوكورز بأشهى أنواع الطعام وأفضل المساكن.

اقترح كونزل الآن أن يسافرا إلى مونتيفيديو؛ عاصمة الأوروغواي، وقال إنّ شركاءه يريدون تأسيس مركز لشركتهم في أميركا الجنوبية، وأراد التحقّق من وجود أبنية مكاتب وغيرها من المنشآت؛ حتّى إنّه دفع تكاليف جواز سفر كوكورز الجديد.

سافر كونزل إلى مونتيفيديو، وبعد بضعة أيّام لحق به كوكورز. لكنّ شكوك اللاتفي لم تتبدّد، لذا اصطحب معه آلة تصوير. وعندما غادر الطائرة في مطار مونتيفيديو، رأى كونزل بانتظاره، فأخرج الكاميرا، والتقط عدّة صور لكونزل على حين غرّة. فالصديق، والشريك، والمموّل أصبح في عيني كوكورز المشتبه به الأوّل في مؤامرة اغتياله.

في تلك الأثناء، استأجر كونزل سيّارة أميركية كبيرة. أزعجه لونها الوردي الصارخ، لكنّها كانت الوحيدة المتوفّرة في الوكالة. كما قام أيضاً بحجز غرفتين لهما في أفضل فندق في المدينة؛ فيكتوريا بلازا. أمضيا بضعة أيّام في مونتيفيديو، يبحثان عن مبنى يمكن استخدامه كمقرّ لشركة كونزل، غير أنهما لم يجدا مكاناً

مناسـباً، لكنهما أمضيا عطلة تشـبه الأحلام. قام كونزل بدعوة كوكورز إلى أفضل المطاعم، واصطحبه إلى النوادي الليلية، وفي جولات سياحية، وإلى الكازينو حيث تقاسـم الأرباح مع ضيفه. شـعر كوكورز بالسـرور. أخيراً افترقا، وسـافر كونزل إلى أوروبـا بعدمـا وعـد كوكـورز بأنّه سـيرجع خلال بضعة أشـهر لمتابعـة العمل على مشـروعهما. عـاد كوكـورز إلى سـاو باولـو، لكنّه أخبر زوجته أنّ أحد الأشـخاص كان يلاحقه في مونتيفيديو، وأنّ عليه الآن أن يبقى متنبهاً وجاهزاً للدفاع عن نفسه.

فـي باريـس، التقـى كونزل مجدّداً ياريـف وأصدقاءه، وبدأوا فوراً الاسـتعداد للعمليّة. اتُّخذ القرار بتصفية كوكورز في مونتيفيديو لأسباب عدّة. ففي البرازيل، كان كوكورز تحت حماية الشـرطة المحلّية، ومن شـأن ذلك أن يسـبّب بعض المشاكل. وفي البرازيل، كانت الجالية اليهودية الكبيرة ضعيفة أمام اعتداءات النازيين الجدد أو الألمان الساعين إلى الانتقام. أخيراً، ما زالت عقوبة الإعدام معتمدة هناك، وفي حال تمّ القبض على فريق الاغتيال ومحاكمته، فقد يتعرّض للإعدام.

تألّف فريق الاغتيال من خمسـة عملاء، وترأسـه يوسـكي ياريف بنفسـه. كان أحـد العمـلاء هـو زئيـف عميـت (سـلوتزكي)؛ ابن عمّ الرامسـاد مئير عميت. أمّا الأعضـاء الآخـرون فكانـوا كونـزل، وأرييه كوهين (ليس اسـمه الحقيقـي)، وإليزر سوديت (شارون) الذي كان يملك أيضاً جواز سفر نمساويًّا باسم أوزفالد توسيغ.

وصل أعضاء الفريق إلى مونتيفيديو في فبراير 1965. استأجر أوزفالد توسيغ سيّارة فولكسفاغن خضراء، فضلاً عن منزل صغير، كازا كوبيرتيني، الواقع في شارع كارتاغينا، في حيّ كاراسكو. في اللحظة الأخيرة، كلّفه ياريف بمهمّة مرعبة: شراء صنـدوق كبيـر، مثـل صناديق السـفر التي كانت تسـتخدم في القرن التاسـع عشـر. سيُستخدم الصندوق كتابوت مؤقّت، وستوضع فيه جثة النازي بعد انتهاء العمليّة.

قام كونزل بدعوة كوكورز إلى مونتيفيديو مجدّداً.

فـي 15 فبرايـر 1965، قصـد كوكـورز مركز الشـرطة واسـتقبله أحـد الضبّاط، ألسـيدو سـينترا بوينـو فيلهـو. قـال اللاتفـي: «أنا رجـل أعمال. كنـت تحت حماية الشرطة البرازيلية لعدّة سنوات لأنّني أملك أسباباً وجيهة تدفعني إلى الخوف على

حياتي. والآن، ثمّة رجل أعمال أوروبي يطلب منّي السفر إلى مونتيفيديو للقائه. فما رأيك؟ هل يمكنني السفر إلى الأوروغواي؟ أليس في ذلك مخاطرة؟».

أجاب الضابط بحزم: «لا تذهب. هنا، أنت تعيش بسلام لأنّك تحت حمايتنا. لكن، لا تنسَ، في اللحظة التي تغادر فيها البرازيل لن تعود محميّاً. إن سافرت فستكون مكشوفاً أمام أعدائك. وإن كنت تملك أعداء، فأنا أفترض أنّهم لم ينسوك».

فكّر كوكورز لبعض الوقت وبدا متردّداً، لكنّه نهض أخيراً وقال: «لطالما كنت رجلاً شجاعاً. أنا لست خائفاً. أعرف كيف أدافع عن نفسي، فأنا أحمل مسدّساً معي على الدوام. وصدّقني، على الرغم من كلّ السنوات التي مرّت، ما زلت رامياً ماهراً».

التقى كونزل كوكورز في مونتيفيديو في 23 فبراير. تمّ نصب الفخّ. اصطحب كونزل كوكورز بسيّارة فولكسفاغن سوداء مستأجرة إلى كازا كوبيرتيني، وهناك كان فريق الاغتيال بانتظارهما. في الطريق، توقّفا عدّة مرّات «للبحث» عن منازل أخرى يمكن استخدامها كمكتب للشركة. أخيراً، وصلا إلى كازا كوبيرتيني، ورأيا بعض الرجال يعملون على إصلاح المنزل المجاور. كانت سيّارة توسيغ الخضراء أيضاً من طراز فولكسفاغن مركونة بالقرب من المنزل. أطفأ كونزل المحرّك ثمّ ترجّل من السيّارة، ومشى بتصميم نحو المنزل، فتبعه كوكورز. فتح كونزل الباب فرأى منظراً مرعباً: في المنزل المظلم، كان أعضاء الفريق واقفين قرب الجدران، بسراويلهم الداخلية وحسب. لقد عرفوا أنّهم لن يتمكّنوا من التغلّب على كوكورز سوى بعد عراك دامٍ، فخلعوا ملابسهم لكي لا تتلوّث بدمائه. كان ثمّة شيء مروّع في منظر مجموعة من الناس بالسراويل الداخلية، ينتظرون في الظلام دخول فريستهم.

ابتعد كونزل جانباً ودخل كوكورز المنزل. وحالما خطا إلى الداخل، أغلق كونزل الباب خلفه. انقضّ ثلاثة رجال على كوكورز. حاول زئيف عميت إمساكه من عنقه، مثلما تدرّب في باريس. أمّا الرجلان الآخران، فانقضّا عليه من الجانبين.

كافح اللاتفي، ونجح في إبعاد مهاجميه وفي الوصول إلى الباب. أمسك بقبضة الباب، ثمّ حاول إخراج المسدّس الذي يحمله دائماً وهو يصيح بالألمانية:

«*Lassen Sie Michsprechen!*» («دعوني أتكلّم!»).

خلال العراك، حاول ياريف تغطية فم كوكورز بيده لمنعه من الصراخ، فعضّ كوكورز يده بشراسة، وأوشك على بتر إحدى أصابعه، فصاح ياريف ألماً. في تلك اللحظة، تناول عميت مطرقة ثقيلة ووجّه ضربة إلى رأس كوكورز. تدفّق الدم من الجرح، وتحوّلت أجساد المهاجمين وضحيّتهم إلى كومة متشنّجة على الأرض، في حين حاول كوكورز يائساً أن يسحب مسدّسه. تطلب الأمر ثواني، إذ ضغط أرييه فوهة مسدّس كاتم للصوت على رأس كوكورز، وأطلق الرصاص مرّتين.

انهار جسد كوكورز، وسالت دماؤه على ملابسه وعلى الأرض وغطّت أعضاء فريق الموساد.

أسرع أوزفالد توسيغ إلى الباحة وفتح أنبوب المياه الرئيس. غسل أصدقاؤه الدماء عن أجسادهم، ثمّ قاموا بتنظيف الأرض والجدران. إلاّ أنّ بقع دماء كبيرة علقت على بلاط المنزل.

زعم أحد أعضاء فريق الاغتيال لاحقاً أنّ نيّتهم كانت القبض على كوكورز حيًّا وإخضاعه لمحاكمة عسكرية قبل إعدامه، لكنّ عيباً في التخطيط أو سوء تقدير فادحاً لقوّة كوكورز الجسدية حوّل المهمّة إلى حمام دم غير مخطّط له وغير ضروري. فقد قام عميل الموساد باستئجار المنزل في شارع كارتاغينا في اللحظة الأخيرة، كما تمّ شراء صندوق السفر في اللحظة الأخيرة أيضاً. وعوضاً عن القفز على الضحيّة بالملابس الداخلية، كان بإمكان عملاء الموساد إطلاق النار عليه على الفور. لكن، وكما قال لنا بعض أعضاء فريق العمليّة، أُنجزت المهمّة.

وضع العملاء جثّة كوكورز في الصندوق لجعل الشرطة تعتقد أنّهم كانوا ينوون اختطافه وتهريبه إلى خارج الأوروغواي، ثمّ تركوا على الجثّة رسالة مطبوعة باللغة الإنكليزية، تمّ تجهيزها مسبقاً: "نظراً إلى فظاعة الجرائم التي اتُّهم بها هربرتز كوكورز، لا سيّما مسؤوليّته الشخصيّة عن قتل ثلاثين ألف رجل وامرأة وطفل، ونظراً إلى الوحشيّة التي ارتكب بها هربرتز كوكورز جرائمه، حكمنا عليه بالإعدام. وقد تمّ تنفيذ الحكم في 23 فبراير 1965 من قبل من لن ينسوا أبداً".

غادر أعضاء الفريق المبنى ورحلوا في سيّارتَي الفولكسفاغن المستأجرتين.

في المنزل المجاور، واصل العمّال أشغالهم، ولم يسمعوا شيئاً. عانى ياريف من ألم مبرح في يده، ولم يتمكّن من استخدام إحدى أصابعه بشكل سليم حتّى آخر أيّامه. أعاد توسيغ وكونزل السيّارتين وغادرا الفندقين اللذين أقاما فيهما، ثمّ رحل الفريق من مونتيفيديو وعاد إلى أوروبا ثم إسرائيل عبر طرق معقّدة. عاد زئيف عميت إلى باريس، «جريح الجسد والروح»، وراودته الكوابيس المرعبة لعدّة أشهر، ولم يستطع التغلّب على صدمته وألمه.

عندما غادر جميع أعضاء فريق الاغتيال أميركا اللاتينية، قام عميل الموساد بالاتّصال بوكالات الأنباء في ألمانيا، وأبلغها بإعدام مجرم نازي في مونتيفيديو من قبل «من لن ينسوا أبداً».

أهمل المراسلون الرسالة؛ اعتقاداً منهم أنّها مزحة. لكن، عندما لم يحدث شيء، أعدّ عملاء الموساد رسالة أكثر تفصيلاً ومصداقية، وأرسلوها إلى وكالات الأنباء وإلى مراسل في صحيفة مونتيفيديو، فقام هذا الأخير بإبلاغ الشرطة. وفي 8 مارس، أي بعد عشرة أيّام من مقتل كوكورز، وصلت الشرطة أخيراً إلى كازا كوبيرتيني.

في اليوم التالي، أعلنت الصحافة العالمية، في عناوينها العريضة، عن اكتشاف جثّة كوكورز في منزل خال في مونتيفيديو. وفي التقارير الإعلامية، برز اسمان مشتبه بهما: أنطون كونزل وأوزفالد توسيغ. وبعد بضعة أيّام، نشرت مجلّة ريو دي جانيرو الأسبوعية صورة كبيرة لأنطون كونزل كان كوكورز قد التقطها. أطلقت المجلّة على كونزل لقب «النمساوي المبتسم»، وأعيد نشر الصورة على الصفحة الأولى لجريدة معاريف الإسرائيلية. فتعرّف بعض أصدقاء عميل الموساد على أنطون كونزل على الفور.

بعد بضعة أيّام أخرى، وصلت رسالة إلى منزل كوكورز. كانت بالأحرى محاولة فاشلة من أنطون كونزل لتغطية آثاره.

عزيزي هربرتز،

بعون الله، وبمساعدة بعض أبناء وطننا، تمكّنت من الوصول إلى تشيلي

بسلام. أنا الآن أرتاح بعد رحلة مضنية، وأثق أنّك عدت أنت أيضاً إلى بيتك. في هذه الأثناء، اكتشفت أنّنا كنّا ملاحقَين من قبل شخصين، رجل وامرأة. علينا أن نكون حذرَين جدّاً، وأن نتّخذ الاحتياطات كافّة. لطالما قلت لك إنّك تخاطر بالعمل والسفر باسمك الحقيقي، ومن شأن ذلك أن يكون كارثياً علينا، وأن يؤدّي إلى كشف هويّتك الحقيقية.

أتمنّى أن تكون التعقيدات التي واجهتنا في الأوروغواي قد علّمتك درساً للمستقبل، وأن تكون أكثر حذراً منذ الآن فصاعداً. وفي حال لاحظت أمراً مريباً داخل منزلك أو حوله، تذكّر النصيحة التي أعطيتك إيّاها: اذهب واختبئ بين رجال فون ليدز (زعيم نازي هرب إلى القاهرة مع مجموعة من المنفيين الألمان) لعام أو اثنين، حتّى تتمّ تسوية مسألة العفو.

عندما تستلم هذه الرسالة أجبني على العنوان الذي تعرفه في سانتياغو، تشيلي.

المخلص، أنطون ك.

بالطبع، لم تنطلِ الحيلة على أحد. كانت ميلدا، زوجة كوكورز حازمة: كونزل هو القاتل.

مات معظم الذين شاركوا في مقتل كوكورز. فقد توفّي زئيف عميت، الذي كان مؤلف هذا الكتاب على معرفة جيّدة به في حرب عام 1973.

لكنّ المهمّة أدّت غرضها المرجوّ. فقد رفض البرلمانان الألماني والنمساوي نظام القيود على الجرائم النازية.

بعد سنوات، اتّصل الرامساد السابق إيسير هاريل بأحد مؤلّفي هذا الكتاب وأخبره أنّ صديقاً مقرّباً له يرغب في مقابلته. لم يعطِهِ أيّ تفاصيل، بل مجرّد عنوان في شمال تل أبيب. وهناك وجد المؤلّف منزلاً صغيراً جميلاً. فتح الباب رجل أصلع وقوي البنية، فعرفه المؤلّف على الفور.

قال للرجل: «مساء الخير، هير كونزل».

الفصل الثاني عشر

البحث عن الأمير الأحمر

في 5 سبتمبر 1972، عند الساعة الرابعة والنصف فجراً، دخل ثمانية مسلّحين يضعون أقنعة شقّة الفريق الإسرائيلي في أولمبياد ميونيخ. فقتلوا موشيه واينبرغ مدرّب فريق المصارعة الذي حاول قطع طريقهم، وجو رومانو البطل في رفع الأثقال. استيقظ عدد من الرياضيين على أصوات الصراخ والرصاص، وهربوا قفزاً من النوافذ، في حين اختطف المسلّحون تسعة آخرين.

وصلت الشرطة الألمانية، يتبعها المراسلون الصحفيون، والمصوّرون، والفرق الإعلامية التي قامت بتغطية الحادث في القرية الأولمبية. للمرّة الأولى في التاريخ، شاهد العالم بأسره هجوماً بالبثّ الحيّ على الشاشات التلفزيونية. وكذلك فعلت غولدا مئير، رئيسة الوزراء الإسرائيلية التي أيقظها معاونها العسكري. شعرت غولدا أنّها عالقة في فخّ. فقد حدث الهجوم في دولة صديقة، ووقعت مسؤوليّة إنقاذ الرهائن على عاتق ألمانيا. رفضت سلطات ولاية بافاريا التي كانت مسرح الهجوم بلباقة الاقتراح الإسرائيلي القاضي بإرسال سايريت ماتكال، أفضل وحدة كوماندوس إسرائيلية. وقال الألمان للممثّلين الإسرائيليين إنّهم سيحرّرون جميع الرهائن، وطلبوا منهم ألاّ يخشوا شيئاً. لكنّ الألمان كانوا يفتقرون إلى الخبرة، والإبداع، والشجاعة لمواجهة منظّمة خطيرة ومتمرّسة. بعد مفاوضات شاقّة بين المهاجمين والسلطات الألمانية دامت يوماً كاملاً، تمّ اقتياد المختطفين والرهائن إلى مطار فيورستنفيلدبروك، خارج ميونيخ. من هناك - كما وعد الألمان الخاطفين - ستقلّهم الطائرة إلى الوجهة التي يقصدونها. لكنّ الشرطة كانت قد نصبت في الواقع فخّاً طفولياً وبدائياً في المطار. فقد وضعت طائرة

لوفتهانسا فارغة في وسط المطار، وتمركز قنّاصون غير كفوئين على الأسطح. أتى زعيم الخاطفين لتفقّد الطائرة. هل من الممكن لطائرة من دون طاقم، ومحرّكاتها باردة، أن تقلع خلال بضع دقائق؟ أدرك الخاطفون فوراً أنّهم قد تعرّضوا للخداع، فأطلقوا النار وألقوا القنابل اليدوية. وخلال تبادل إطلاق النار الذي جرى مع الشرطة، قَتلوا جميع الرهائن. قُتل أيضاً ضابط شرطة ألماني، فضلاً عن خمسة من الخاطفين الثمانية (تمّ لاحقاً القبض على الثلاثة الباقين، وإطلاق سراحهم بعد فترة قصيرة، بعد خطف طائرة لوفتهانسا من قبل المنظّمة الخاطفة). شاهد الجنرال الإسرائيلي تسفي زامير، الذي حلّ مؤخّراً مكان مئير عميت رئيساً للموساد، المشهد الدموي من برج المراقبة. كان قد أُرسِل إلى ميونيخ من قبل رئيسة الوزراء غولدا مئير، لكن لم يكن لديه الحقّ بالتدخّل في العمليّة الألمانية. فقد أصرّ الألمان على أنّ خطّتهم كانت ممتازة، وما عليه سوى الانتظار ليتأكّد من ذلك. لكنّ كلّ ما رآه الرامساد كان مجزرة راح ضحيّتها الرياضيون الإسرائيليون. حينها أدرك الرامساد أنّ إسرائيل أصبح لديها عدوّ جديد: منظّمة أطلقت على نفسها اسم «أيلول الأسود».

أيلول الأسود. هكذا سمّى المسلّحون الفلسطينيون شهر سبتمبر من عام 1970، عندما قام الملك حسين، ملك الأردن، بقتل الآلاف منهم في مملكته. ففي السنوات التي أعقبت حرب الأيام الستة عام 1967، استعاد المقاتلون الفلسطينيون تدريجيًّا سيطرتهم على أجواء واسعة من الأراضي الأردنية وعلى الكثير من المناطق المجاورة في العاصمة عمّان، فأصبحت القرى والبلدات المحاذية للحدود الإسرائيلية قواعد حصرية لهم يتجوّلون في شوارعها بأسلحتهم. رفضوا سلطة الملك حسين، وأصبحوا تدريجيًّا الأسياد الفعليين للأردن. أدرك الملك ذلك، لكنّه لم يفعل شيئاً. في إحدى زياراته إلى مخيّم للجيش، رأى حمالة ثديين ترفرف مثل علم من هوائي إحدى الدبّابات. فسأل غاضباً: «ما هذا؟».

أجاب قائد الدبّابة: «هذا يعني أنّنا نساء، فأنتم لا تسمحون لنا بالقتال».

أخيراً، لم يعد الملك حسين قادراً على الاحتمال. إذ لم يعد يستطيع دفن

رأسه في الرمال كالنعامة، وترك مملكته تُسلب من بين يديه. في 17 سبتمبر 1970، أطلق الملك جيشه ضدّ قواعد المسلّحين ومخيّماتهم. قُتل المسلّحون في الشوارع، وتمّت ملاحقتهم، واعتقالهم، وإعدامهم من دون محاكمة. هرب بعضهم إلى مخيّمات اللاجئين الفلسطينيين. لكنّ سلاح المدفعية قصف المخيّمات وقتل الآلاف. فعبر عشرات المسلّحين المذعورين نهر الأردن واستسلموا للجيش الإسرائيلي. فقد فضّلوا أن يتعفّنوا في السجون الإسرائيلية بدلاً من الموت بالأسلحة الأردنية. خلال المذبحة، فرّ معظم المسلّحين إلى سوريا ولبنان. وحتّى يومنا هذا، بقي عدد المسلّحين الذين قتلوا في أيلول الأسود مجهولاً، وتتراوح الأرقام بين ألفين وسبعة آلاف شخص.

أصبح ياسر عرفات مهووساً بالانتقام، فأسّس داخل فتح منظّمة سرّية داخلية، هي عبارة عن تنظيم سرّي ضمن تنظيم سرّي، حتّى إنّ أعضاء فتح العاديين كانوا يجهلون وجودها. أطلق عليها اسم «أيلول الأسود». لم تلتزم هذه المنظّمة بخطوط السلوك التي حاول عرفات فرضها على مجموعته من أجل نيل الاعتراف والتعاطف الدوليّين، بل كانت المجموعة قاسية ولا يردعها رادع، تهدف إلى مهاجمة «أعداء الشعب الفلسطيني» بكلّ الطرق الممكنة، ومن دون رحمة. رسميًّا، لم يكن لأيلول الأسود أيّ وجود، بل نفى عرفات أيّ علاقة له بها، لكنّه كان مؤسّسها وقائدها السرّي. فقد قام بتعيين أبو يوسف، أحد كبار قادة فتح، رئيساً لمنظّمة أيلول الأسود، واختار علي حسن سلامة قائداً للعمليّات؛ وهو شابّ ذو آراء متشددة لكنّه لا يقلّ عنه شجاعة ودهاء. كان علي هو ابن حسن سلامة، آخر قائد أعلى للقوّات الفلسطينية في الحرب العربية الإسرائيلية لعام 1948. قُتل حسن سلامة في المعركة، فأقسم ابنه علي على متابعة نضال والده.

لم تسبّب عمليّات أيلول الأسود قلقاً كبيراً لإسرائيل لأنّها كانت موجّهة بمعظمها ضدّ الأردن. فقد قام أعضاؤها بتفجير مكاتب الخطوط الجوّية الأردنية في روما، وخطفوا طائرة أردنية كانت متجهة إلى ليبيا، كما خرّبوا السفارة الأردنية في بيرن، ومصنعاً للإلكترونيات في ألمانيا، وخزّانات للنفط في هامبرغ وروتردام. وفي قبو أحد المنازل في بون، قاموا بقتل خمسة عملاء سرّيين أردنيين. وفي أبشع

عمليّاتهم، قتلوا رئيس الوزراء الأردني وصفي التلّ في بهو فندق الشيراتون في القاهرة، ثم انحنى أحد القتلة فوق الجثّة ولعق دماء ضحيّته.

مع انتصار إسرائيل في حرب الأيّام الستّة عام 1967، أخذت المنظّمة على عاتقها مواصلة الحرب ضدّ الدولة اليهودية. فخطفت طائرة، وعبرت حدود إسرائيل، وقتلت المدنيين، وزرعت المتفجّرات والعبوات الناسفة في المدن الكبيرة. أصبح على عملاء الشاباك والموساد خوض حرب مع عدوّ جديد الآن، واختراق المنظّمات الإرهابية، وتخريب خططها، واعتقال الناشطين فيها. وكانت فتح من أكبر المنظّمات التي تواجهها إسرائيل الآن، أمّا أيلول الأسود فلم تكن كذلك.

غير أنّ أيلول الأسود تجاوزت الخطوط التي وضعتها لأنشطتها في البداية، وبدأت تعمل ضدّ دول غربية؛ على رأسها إسرائيل.

كان اعتداء ميونيخ هو الاعتداء الدموي الأوّل.

هكذا استحقّ علي حسن سلامة لقبه. فقد كان الدماغ المخطّط لعمليّة ميونيخ. وانتشرت شائعات حول هوسه بالقتل والدم بين أعضاء المنظّمة، وبدأوا يطلقون على ابن حسن سلامة اسم «الأمير الأحمر».

في مطلع أكتوبر 1972، طلب جنرالان متقاعدان مقابلة رئيسة الوزراء غولدا مئير التي حلّت مكان ليفي إشكول بعد وفاته المفاجئة عام 1969. كان الرامساد الجديد هو تسفي زامير، أمّا مستشار رئيسة الوزراء في شؤون مكافحة الإرهاب فهو رئيس أمان السابق أهارون ياريف.

كانت غولدا مئير مصدومة بشدّة بعد «ليلة ميونيخ» التي قتل فيها الرياضيون الإسرائيليون. قالت: «مرّة أخرى يُقتل يهود مقيّدون على الأراضي الألمانية». كان واضحاً أنّ غولدا – المرأة القوية والقاسية – لن تترك حادثة ميونيخ تمضي من دون عقاب.

هذا بالضبط ما اقترحه زامير وياريف.

كان تسفي زامير رجلاً نحيلاً وأصلع الرأس، يغطّي النمش وجهه ذا الملامح الحادّة. كان محارباً سابقاً في البلماح، إلاّ أنّه لم يُعتبر جنرالاً غير عادي. أعلى

مركز احتلّه خلال خدمته العسكرية هو قائد الجبهة الجنوبية. ثمّ خدم لاحقاً كملحق عسكري وممثّل لوزارة الدفاع الإسرائيلية في بريطانيا العظمى. عام 1968، تمّ تعيينه رئيساً للموساد مكان مئير عميت الذي استكمل مدّته، فتعرّض للانتقاد من قبل الكثيرين ممّن اعتبروه رجلاً لطيفاً وخجولاً، لا خبرة لديه بالعمليّات السرّية. وبما أنّه كان يفتقر إلى الكاريزما، لم يعتبر نفسه رئيس موساد شبيهاً بهاريل وعميت اللذين سبقاه، وفضّل أن يؤدّي دور رئيس للمجلس، وفوّض السلطة لكثير من كبار مساعديه. لن يحقّق الشهرة سوى في حرب أكتوبر (انظر إلى الفصل 14)، إلاّ أنّه لم ينجز الكثير عام 1972. بغضه بعض عملاء الموساد المخضرمين، أمثال رافي إيتان، واستقالوا من مناصبهم احتجاجاً على تعيينه.

على غرار زامير، كان ياريف أقرب إلى رجل الظلّ. فقد ترأّس جهاز أمان بنجاح خلال حرب الأيام الستة، لكنّه تميّز خصوصاً بسبب فكره التحليلي. وقد بدا بكلامه اللطيف، ونظّارته، وجبينه الناصع، ولباقته أقرب إلى أستاذ واسع المعرفة منه إلى جاسوس بارع.

كان لدى ياريف وزامير الكثير من القواسم المشتركة. وكان من المفترض أن يتنافسا بسبب وظائفهما المتقاربة، إلاّ أنّهما عملا بتناغم وثقة متبادلة. امتازا بالهدوء، والتحفّظ، والخجل. لم يحبّا الظهور، وأبديا حذراً شديداً في تحليلاتهما، وتخطيطهما. لكنّ الفكرة التي عرضاها على غولدا في ذلك اليوم من شهر أكتوبر كانت قاسية على نحو مفاجئ: ستقوم الأجهزة السرّية بتحديد هويّة قادة أيلول الأسود وأماكنهم، كما ستقوم بتصفيتهم جميعاً.

منذ عمليّة ميونيخ، انخرط ياريف وزامير في نشاط محموم، وجمعا معلومات هامّة عن أيلول الأسود، ثمّ أتيا لمقابلة غولدا وهما على أتمّ استعداد. قالا إنّ منظمة أيلول الأسود تنوي شنّ حرب شاملة على إسرائيل. فقد أقسمت هذه المجموعة على قتل أكبر عدد ممكن من اليهود؛ من عسكريين، ومدنيين، ونساء، وأطفال. والطريقة الوحيدة لإيقافها هي قتل قادتها، واحداً تلو الآخر، أي سحق رأس الأفعى.

تردّدت غولدا؛ إذ لم يكن من السهل عليها اتّخاذ قرار يعني إرسال شباب

في حملة اغتيالات خطرة. إذ لم يسبق لإسرائيل أن فعلت ذلك من قبل. جلست هادئة لمدّة طويلة، ثمّ بدأت تتكلّم بصوت شبه مسموع، وكأنّها تتحدّث إلى نفسها. ذكرت أحداث المحرقة الفظيعة والمسيرة التراجيدية للشعب اليهودي عبر العصور؛ الشعب الذي تعرّض دائماً للاضطهاد والملاحقة والقتل.

أخيراً، رفعت رأسها ونظرت إلى ياريف وزامير وقالت: «أرسل الشباب».

بدأ زامير على الفور يستعدّ للعمليّة التي أطلق عليها اسم غضب الله.

لكن، كانت لغولدا كلمتها أيضاً. فبصفتها رئيسة وزراء الدولة اليهودية الديموقراطية، لم يكن بإمكانها الاعتماد فقط على وعد ياريف وزامير أنّ «الشباب» لن يؤذوا أحداً سوى القادة والمقاتلين الأساسيين في أيلول الأسود. فالوعود لم تكن كافية. وقد أدركت جيّداً أنّ عمليّة كهذه ستكون خارجة عن القانون، وأنّه في حال تراخي الإشراف المدني على أعمال الموساد، فقد يُقتَل أبرياء أيضاً. هكذا، قرّرت فرض رقابة مشدّدة على العمليّة، فأسّست لجنة سرّية تضمّنت - بالإضافة إليها - وزير الدفاع موشيه دايان، ونائب رئيس الوزراء يغال آلون، وهو جنرال سابق لامع. شكّل الثلاثة محكمة سرّية تراجع وتوافق على كلّ قضيّة من قضايا العمليّة. وأطلقوا على أنفسهم اسم اللجنة إكس. كان على ياريف وزامير تقديم كلّ ملفّ وكلّ اسم للثلاثي، حيث لا يدخل فريق الاغتيال التابع للموساد إلى مسرح الأحداث سوى بعد الحصول على موافقتهم.

كان قسم عمليّات الموساد، ماسادا (سيزاريا)، هو المكلف بتنفيذ العملية. ترأسه مايك هراري، وهو عميل سرّي أسود الشعر وقويّ ومتكتّم. تمّ التخطيط لتنفيذ جميع الضربات في أوروبا التي نشرت فيها أيلول الأسود رجالها، وقامت بحمايتهم بوسائل معقّدة.

اختار هراري رجاله من كيدون، وهي فرقة عمليّات من الماسادا. كانت كلّ وحدة مرسلة ضدّ أحد أعضاء أيلول الأسود تتألّف من عدّة فرق ثانوية. إذ تمّ تكليف فريق من ستّة رجال ونساء بتحديد المشتبه بهم وتتبّعهم؛ فعليهم التأكّد من أنّ الرجل المستهدف هو الرجل المطلوب بالفعل، وأنّه الذئب المختبئ بين

النعـاج. سيتوجب عليهـم السـفر إلى المدينة التـي يعمل فيها المشـتبه به، وتتبّعه، وتصويـره سـرًّا، والتعـرّف على عاداته، وتحديـد أصدقائه، وإيجاد عنوانه الصحيح، ومعرفة النوادي والمطاعم التي يرتادها، وتسجيل روتينه اليومي ساعة بساعة. كما تـمّ تكليـف وحـدة أصغـر، مؤلّفة غالباً مـن رجل وامرأة فقط، باللوجيسـتيات؛ أي اسـتئجار الشـقق، وغـرف الفنـادق، والسـيّارات. وكُلّف فريق صغيـر بالتواصل مع مقرّ عمليّات متطوّر يقام في المدن الأوروبية التي يعيش فيها المشتبه به ومع مقرّ الموساد في إسرائيل.

تألّف فريق الاغتيال نفسـه من عدّة عملاء للموسـاد، كانوا آخر الوافدين إلى الميـدان. تمثّلـت مهمّتهـم فـي الذهـاب إلـى عنوان معيّـن، في زمـان معيّن، وقتل الرجـل الـذي جـرى تزويدهم بصورته وبقيّة التفاصيـل عنه. وبينما هم يعملون في المدينـة المسـتهدفة، كانـوا تحت حماية فريق آخـر، هو عبارة عن طاقم من عملاء مسلّحين وسائقين متمركزين في الجوار، سيّاراتهم جاهزة للانطلاق في طرق فرار تـمّ التخطيـط لهـا والتدرّب عليها مسـبقاً. وتمثّلت مهمّتهـم في حماية أعضاء فريق الاغتيال؛ بالأسلحة إذا لزم الأمر. بعد انتهاء العمليّة مباشرة، يغادر كلّ أعضاء فريق الاغتيال والمكلّفون بأمنهم البلاد.

أمّا بالنسـبة إلى الفريق الذي يُحدّد هويّة المشـتبه به ويتتبعه، فإنّه يغادر البلاد قبل تنفيذ العمليّة. فيما يبقى أعضاء آخرون لبضعة أيّام إضافيّة لتغطية الآثار، وجمع المعدّات، وإعادة السيّارات المستأجرة التي استخدمت في أثناء التنفيذ.

أوّل مدينة تمّ اختيارها لتنفيذ العملية هي روما.

فـي تلـك المدينـة القديمة، حدّد فريق الاغتيال مكان رجل لا يمكن الاشـتباه بانتمائـه إلـى منظّمـة أيلـول الأسـود وتتبّعه. إنّـه موظّف عادي في السـفارة الليبية، فلسـطيني ولد في نابلس، يبلغ من العمر 38 عاماً، ويدعى وائل زعيتر. كان رجلاً نحيـلاً ولطيفـاً ولبقـاً، وابنـاً لرجـل معروف في مجـال الأدب والترجمـة إلى اللغة العربيـة. واشـتُهر وائـل نفسـه بترجمتـه الممتـازة للأدب الخيالي والشـعر من وإلى العربية. كما كان عاشـقاً للفنّ. عمل كمترجم في السـفارة الليبية براتب بسـيط لا يتجـاوز 100 دينـار ليبـيّ فـي الشـهر، وعاش حياة متواضعة جدًّا، وذلك في شـقّة

صغيرة في بياتزا أنيباليانو. عرفه أصدقاؤه كرجل معتدل، رفض كلّ أشكال العنف، وغالباً ما عبّر عن نبذه للإرهاب والقتل.

لكن، لم يكن أحد على علم بسرّه؛ ولا سيما أصدقاءه المقربين. إذ كان صديقهم الطيّب في الواقع متطرّفاً شرساً، يقود عمليّات أيلول الأسود في روما بلا شفقة ولا رحمة. ومؤخّراً، قام بالتخطيط لعملية قاسية وتنفيذها. فقد وجد شابّتين إنكليزيتين أمضتا الأيام الأولى من عطلتهما في روما قبل ذهابهما إلى إسرائيل، فطلب من شابّين فلسطينيَين وسيمَين إقامة علاقة مع الفتاتين ومحاولة إغوائهما. وبالفعل، سرعان ما انتهى الأمر بالشابّين في سريرَي البريطانيتين. وقبل الافتراق، طلب أحد الفلسطينيَين من فتاته أخذ آلة تسجيل صغيرة معها، هديّة إلى أسرته في الضفّة الغربية. وافقت الفتاة الساذجة على الفور، وتمّ التحقّق من آلة التسجيل مع بقيّة أمتعة السيّدتين في مكتب العال في مطار روما حسب الأصول. لكنّهما لم تعرفا أنّ زعيتر وعاشقيهما كانوا ينوون إرسالهما إلى حتفهما. تحت إشراف زعيتر، عمد عملاء أيلول الأسود إلى تفكيك آلة التسجيل، وحشوها بالمتفجّرات، ثمّ قاموا بتوضيبها في علبة جديدة. وتمّت برمجة الجهاز المفخّخ لينفجر حالما تصل الطائرة إلى الارتفاع اللازم، حيث يقضي على كلّ الركاب.

لحسن الحظّ، لم يعرف أعضاء المنظّمة أنّه بعد تفجير طائرة سويس إير المتوجّهة إلى إسرائيل بجهاز مشابه، تمّت تغطية قمرات التخزين في طائرات العال بطبقة مصفّحة؛ حيث لا ينجح أيّ لغم بتدمير الطائرة. وهكذا انفجرت آلة التسجيل، ولكنّ أثرها اقتصر على قمرة التخزين. عاد طيّار العال إلى المطار على الفور بعدما أنذره وميض ضوء أحمر. تمّ استجواب الفتاتين الإنكليزيتين المذهولتين، واكتشف أمر تورّطهما مع عاشقَين فلسطينيَين غادرا إيطاليا على الفور بعد أن ودّعا الفتاتين وداعاً عاطفيًّا.

وصلت المجموعات الأولى من فريق الاغتيال إلى روما، وتتبّعت زعيتر لعدّة أيام. فتنزّه زوجان شابّان أمام السفارة الليبية، وقامت المرأة بالتقاط صور بآلة تصوير مخفيّة في حقيبتها كلّما دخل زعيتر السفارة أو خرج منها. ووصل بعض «السيّاح» إلى روما على متن رحلات مختلفة. كان أحدهم كنديًّا يبلغ من العمر 47

عاماً ويدعى أنطوني هوتون. استأجر سيّارة من أفيس، وقال للموظّف إنّه يقيم في فندق إكسيلسيور في فيا فينيتو. ولو أنّ الموظّف تحقّق من المعلومات، لما وجد نزيلاً بهذا الاسم في إكسيلسيور؛ تماماً مثل «السيّاح» الآخرين الذين استأجروا سيّارات في الأسبوع نفسه، وأعطوا عناوين خاطئة لوكالات التأجير.

في ليلة 16 أكتوبر، عاد زعيتر إلى بيته، وكان على وشك إسقاط قطعة نقدية بقيمة عشر ليرات في المصعد. في مدخل المنزل المظلم، تناهى إليه لحن كئيب يعزفه شخص ما في الطابق الثالث على البيانو. فجأة، خرج رجلان من الظلام، وأفرغا اثنتي عشرة رصاصة بيريتا من عيار 0.22 في جسده. لم يسمع أحد صوت الرصاص، واستقلّ العميلان سيّارة فيات 125 كانت مركونة في ساحة أنيباليانو. وبعد بضع ساعات غادرا البلاد.

بعد مقتل زعيتر، لم يعد غطاؤه ضرورياً، فنشرت صحيفة بيروتية نعياً له، موقّعاً من قبل عدّة منظّمات فُجعت بخسارة «أحد أفضل مناضليها».

كان قائد الفريق الصغير الذي قتل زعيتر إسرائيلياً في أواسط العقد الثاني من عمره، يدعى ديفيد مولاد (ليس اسمه الحقيقي). ولد في تونس وهاجر إلى إسرائيل في طفولته. ورث من أبويه - وكانا أستاذين صهيونيَين - إتقانهما الكامل للغة الفرنسية، فضلاً عن حبّ عميق لدولة إسرائيل، ووطنيّة متّقدة. حلم منذ نعومة أظفاره بخدمة إسرائيل؛ حتّى على حساب حياته. في الجيش، تطوّع في وحدة كوماندوس للنخبة تابعة للجيش الإسرائيلي، وأدهش رؤساءه بجرأته وإبداعه. بعد تسريحه التحق بالموساد، وسرعان ما أصبح من أفضل عملاء الجهاز، وشارك في أخطر العمليّات. بفضل إتقانه الفرنسية، كان يستطيع أن ينتحل بسهولة هويّة مواطن فرنسي، أو بلجيكي، أو كندي، أو سويسري. تزوّج في شبابه، وسرعان ما أصبح والداً لصبيّ صغير، لكنّ هذا الأمر لم يخفّف من حماسته للخدمة في الصفوف الأمامية للموساد.

بعد اغتيال زعيتر، أمضى مولاد بضعة أيّام في إسرائيل، ثمّ سافر إلى باريس. بعد عدّة أيّام، رنّ الهاتف في شقّة في 175 شارع أليزيا، في باريس. ردّ الدكتور

محمود همشري على الهاتف، فقال المتّصل بلهجة إيطالية قوية: «هل أنت الدكتور همشري ممثّل منظّمة التحرير الفلسطينية في فرنسا؟». وعرّف عن نفسه بأنّه صحفي إيطالي متعاطف مع القضية الفلسطينية، ثمّ طلب مقابلة همشري. اتّفقا على اللقاء في مقهى بعيد عن منزل همشري. كان همشري مؤرّخاً قديراً يعيش في باريس مع زوجته الفرنسية ماري كلود وابنتهما الصغيرة، وقد اتّخذ احتياطات صارمة مؤخّراً. فعندما يسير في الشوارع، لا يكفّ عن مراقبة الناس خوفاً من وجود من يلاحقه. وكان يغادر المقاهي والمطاعم قبل تلبية طلباته، وغالباً ما يسأل جيرانه عمّا إذا كان غريب ما قد سأل عنه.

في الظاهر، لم يكن لديه سبب للقلق. فقد كان أكاديمياً معتدلاً ومندمجاً تماماً في الأوساط الفكرية الباريسية. وكما كتبت آني فرانكوس في المجلّة الأسبوعية جون أفريك: «لم يكن بحاجة إلى اتّخاذ أيّ احتياطات لأنّه لم يكن خطيراً. وكانت أجهزة المخابرات الإسرائيلية تعرف ذلك جيّداً».

لكنّ المخابرات الإسرائيلية عرفت أشياء أخرى، منها مشاركة همشري في محاولة اغتيال بن غوريون الفاشلة في الدانمارك عام 1969، وتورّطه في انفجار طائرة سويس إير في الجوّ عام 1970 الذي راح ضحيّته 47 شخصاً، هذا فضلاً عن علاقته بشباب عرب غامضين يتسلّلون إلى شقّته ليلاً متأبّطين حقائب ثقيلة.

علمت أجهزة المخابرات الإسرائيلية أنّ همشري أصبح الآن الرجل الثاني في قيادة أيلول الأسود في أوروبا.

إذاً، في اليوم الذي ذهب فيه همشري لمقابلة المراسل الإيطالي، اقتحم رجلان شقّته ثمّ غادرا بعد 15 دقيقة.

في اليوم التالي، انتظر الغرباء خروج زوجة همشري وابنته من الشقّة وبقاءه بمفرده. رنّ الهاتف، فرفع السمّاعة.

كان الصحفي الإيطالي مجدّداً: «د. همشري؟».

«أجل، أنا معك».

في تلك اللحظة، سمع همشري صوت صافرة، أعقبها انفجار مدوّ. فقد انفجرت عبوة ناسفة تمّ إخفاؤها تحت مكتبه، وأُصيب همشري بجروح خطيرة.

وبعد بضعة أيّام، توفّي في المستشفى بعدما اتّهم الموساد بمحاولة اغتياله.

بعد بضعة أسابيع من مقتل همشري، وصل مايك هراري ورجل يدعى جوناثان إنغلبي إلى جزيرة قبرص، وحجزا في فندق أولمبيا في نيقوسيا. مؤخّراً، أصبحت قبرص ساحة معركة بين عملاء إسرائيليين وعرب؛ نظراً إلى موقعها المجاور لإسرائيل وسوريا ولبنان ومصر. في هذا الوقت، كان العميلان الإسرائيليان يلاحقان فلسطينياً يدعى حسين عبد الحرّ. فقبل بضعة أشهر، تمّ تعيين عبد الحرّ مفوّضَ أيلول الأسود في قبرص، وكان مكلّفاً بالعلاقات مع الاتّحاد السوفييتي ودول الكتلة الشرقية التي أصبحت جنّة آمنة للمسلحين الفلسطينيين. ففي تشيكوسلوفاكيا، وهنغاريا، وبلغاريا، كان يتمّ تدريب المسلّحين الفلسطينيين في منشآت عسكرية ووحدات قوّات خاصّة. وكانت تلك الدول ترسل شحنات أسلحة ومعدّات للمنظّمات. إذ إنّ بعض القادة الفلسطينيين الذين يؤيّدون بحماسة الأيديولوجية السوفييتية كانوا يدرسون في جامعة باتريس لومومبا في موسكو.

تولّى عبد الحرّ أيضاً مسؤولية تسلّل الرجال الفلسطينيين إلى إسرائيل، والتخلّص من الجواسيس العرب الذين يأتون إلى قبرص لمقابلة مشغّليهم الإسرائيليين. فحكمت عليه لجنة إكس بالإعدام.

في تلك الليلة، عاد عبد الحرّ إلى غرفته في الفندق، ثمّ أطفأ الأنوار وخلد إلى النوم. وحين تأكّد جوناثان إنغلبي أنّ الرجل نائم ضغط زرًّا في جهاز تحكّم عن بعد. في تلك اللحظة، هزّ الفندق انفجار مزلزل. وفي غرفة في الطابق الثالث، اندسّ عروسان إسرائيليان تحت سريرهما طلباً للحماية. اندفع موظّف الاستقبال إلى غرفة عبد الحرّ. وعندما تبدّد الدخان، رأى أمامه مشهداً مرعباً سبّب له الإغماء: كان رأس عبد الحرّ المكسو بالدماء موجّهاً نحوه، وعالقاً في المغسلة.

* * *

أتى ردّ أيلول الأسود فوريًّا.

ففي 26 يناير 1973، التقى إسرائيلي يدعى موشيه حنان يشي صديقاً فلسطينيًّا في نادي موريسون في شارع خوسيه أنطونيو في مدريد. بعد أن وصلا إلى النادي،

ظهر أمامهما رجلان واعترضا طريقهما. هرب الفلسطيني، في حين سحب الرجلان أسلحتهما، وأمطرا يشي بالرصاص ثمّ اختفيا.

بعد بضعة أيام، تبيّن أنّ اسم يشي الحقيقي هو باروخ كوهين، وأنّه عميل مخضرم في الموساد أسّس شبكة مؤلّفة من طلاّب فلسطينيين في مدريد. وكان الشابّ الذي التقاه في النادي أحدَ مخبريه، لكنّ منظّمة أيلول الأسود هي التي زرعته في الشبكة في الواقع. وقد انتقم رفاق عبد الحرّ له عبر تصفيتهم باروخ كوهين.

اتُّهمت أيلول الأسود أيضاً بإطلاق النار على عميل إسرائيلي آخر يدعى زادوك أوفير في مقهى في بروكسل، وبإصابته بجروح، وباغتيال د. آمي شيشوري - ملحق السفارة الإسرائيلية في لندن - بواسطة طرد مفخّخ.

بعد أسبوعين من مقتل عبد الحرّ، عيّنت أيلول الأسود عميلاً آخر في قبرص. وبعد أربع وعشرين ساعة على وصول الفلسطيني إلى نيقوسيا، اجتمع بشخص من معارفه في الكيه جي بي، ثمّ عاد إلى الفندق، وأطفأ النور، ومات بالطريقة نفسها التي قضى بها سلفه.

عند ذلك، قرّر عرفات وعلي حسن سلامة تنفيذ عمليّة انتقامية كبيرة. فخطّطا لخطف طائرة، وشحنها بالمتفجّرات، ثم إرسالها إلى إسرائيل بواسطة انتحاري. عندها ستنفجر الطائرة وسط تل أبيب، وتقتل المئات. كانت تلك هي النسخة الأولى لهجوم 9/11 على برجَي التجارة في نيويورك.

حصل مخبرو الموساد على معلومات عن الاستعدادات، وبدأ عدّة عملاء بتتبّع مجموعة من الفلسطينيين في باريس، الذين تمّ تكليفهم بالمشروع على ما يبدو. وفي إحدى الليالي، لاحظ العملاء انضمام رجل عجوز إلى المجموعة. فأرسلوا صوراً للرجل إلى مقرّ الموساد، وتمّ التعرّف عليه على أنّه باسل الكبيسي، أحد كبار قادة أيلول الأسود. كان الكبيسي رجل قانون معروفاً، وأستاذاً لمادّة الحقوق في الجامعة الأميركية في بيروت، وعالماً قديراً. إلاّ أنّه - شأنه شأن زعيتر وهمشري وبضعة أشخاص آخرين - كان رجلاً خطيراً في السرّ. ففي عام 1956، حاول اغتيال الملك فيصل - ملك العراق - بواسطة قنبلة زرعت على طريق الموكب الملكي.

لكـنّ القنبلـة انفجـرت قبل الأوان، فهرب الكبيسـي إلى لبنـان، ومنه إلى الولايات المتّحدة. وبعد عدة سنوات، حاول اغتيال غولدا مئير خلال زيارة لها إلى الولايات المتّحدة. وعندما فشلت محاولته، كرّر المحاولة في القمّة الدولية الاشتراكية التي عقدت في باريس. إلاّ أنّ جهوده منيت بفشل آخر. لم يستسلم الكبيسي، بل انضمّ إلى الجبهة الشـعبية لتحرير فلسـطين، وأصبح مندوب نائب قائد المجموعة جورج حبش. شارك في التخطيط لعمليّة 30 مايو 1972 التي راح ضحيّتها مسافرون أبرياء في مطار اللدّ. إذ لقي 26 شخصاً مصرعهم في الهجوم، وكان معظمهم حجّاجاً من بورتوريكو أتوا لزيارة الأماكن المقدّسة. لاحقاً، انضمّ الكبيسي إلى أيلول الأسود، وأتـى الآن إلـى باريـس مـن أجل إدارة عمليّة الطائرة الانتحارية على الأرجح. نزل في فندق صغير في شارع أركاد؛ بجوار ساحة لا مادلين.

فـي 6 أبريـل، وبعـد تنـاول العشـاء فـي كافيـه دو لا بي، توجّه الكبيسـي إلى الفنـدق. فـي سـاحة لا مادليـن كان فريق الموسـاد بانتظـاره. وكان اثنان من الفريق قد تمركزا في الشـارع، فيما بقي اثنان آخران في سيّارة. وكان أحدهم يضع شـعراً مسـتعاراً أشـقر. عند اقتراب الكبيسـي من الفندق، توجّه نحوه العميلان، وأخرجا مسدّسيهما. لكنّ أمراً غير متوقّع حدث في تلك اللحظة. فقد توقّفت سيّارة مسرعة بجانب الكبيسي، وأطلّت حسناء من النافذة. تبادلا بضع عبارات، ثمّ صعد الكبيسي إلى السـيّارة التي غادرت فوراً. أدرك العملاء المحبطون أنّ المرأة كانت مومسـاً، وأنّها قدّمت عرضاً للكبيسي للتوّ.

فشلت العمليّة بأكملها بسببها!

لكنّ قائد الفريق الذي كان حاضراً طمأن مقاتليه خائبي الأمل، وقال لهم عن معرفة: انتظروا وسترون أنّها ستعيده إلى هنا بعد وقت قصير. لم يسألوه عن كيفية معرفته ذلك، ولكنّ الرجل كان محقًّا. فبعد عشـرين دقيقة تقريباً، عادت السـيّارة. ترجّل الكبيسي منها، وبدأ يسير باتّجاه الفندق. لم يكن قد سار سوى بضع خطوات عندما خرج رجلان من الظلال، واعترضا طريقه. كان أحدهما هو ديفيد مولاد.

فهم الكبيسـي على الفور ما سـيحصل فصاح بالفرنسـية: «كلاّ! كلاّ! لا تفعلا ذلك!».

اخترقت تسع رصاصات جسده، ووقع على الأرض بالقرب من كنيسة مادلين. عندها، ركض عميلا الموساد نحو سيّارة معدّة للفرار وغادرا الساحة.

في اليوم التالي، وكما حدث في قضيّة زعيتر، كشف المتحدّثون باسم الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين الدور الحقيقي لأستاذ القانون.

في الأشهر التالية، قام مولاد وأعضاء كيدون بتصفية عدّة مبعوثين لمنظّمة أيلول الأسود قصدوا اليونان لشراء سفن، وتحميلها بالمتفجّرات، وإرسالها إلى الموانئ الإسرائيلية.

لكنّ سؤالاً واحداً بقي من دون جواب: أين العقل المدبّر لعمليّة ميونيخ؟ أين سلامة؟

كان سلامة في مقرّه في بيروت؛ يخطّط لخطواته التالية. وكانت أولاها هي عمليّة السفارة الإسرائيلية في تايلند من قبل فريق تابع لأيلول الأسود، لكنّ العمليّة باءت بالفشل. فتحت تهديد الجنرالات التايلنديين القساة، وبضغط من السفير المصري في بانكوك، أفرج الخاطفون عن رهائنهم وغادروا تايلند وهم يشعرون بإحراج كبير.

كانت عمليّة سلامة التالية أكثر تهوّراً: فقد اقتحم رجاله بكامل أسلحتهم السفارة السعودية في الخرطوم خلال حفلة توديع المبعوث الأوروبي، وخطفوا معظم أفراد السلك الدبلوماسي الموجودين في العاصمة السودانية. لكن بأمر من عرفات، أفرجوا عن معظم الرهائن، واحتفظوا فقط بالسفير الأميركي كليو أ. نويل، ونائب رئيس البعثة الأميركية جورج س. مور، والسفير البلجيكي بالوكالة غي إيد. وبناء على تعليمات سلامة، قاموا بقتلهم بطريقة مروّعة، إذ أطلقوا النار أوّلاً على أرجل الضحايا، ثمّ رفعوا فوّهات بنادق الكلاشينكوف ببطء إلى أن بلغت صدورهم.

تمّ اعتقال المنفذين بعد المجزرة، إلاّ أنّ الحكومة السودانية أطلقت سراحهم بعد بضعة أسابيع.

سيطر الغضب والاشمئزاز على ردود الفعل العالمية إزاء عمليّة اغتيال

الدبلوماسيين النكراء. وشعرت إسرائيل أنّ الوقت قد حان لتوجيه ضربة قاضية إلى أيلول الأسود.

في القدس، أعطت غولدا مئير موافقتها على عمليّة ربيع الشباب التي شكّلت مرحلة جديدة من عمليّة غضب الله.

* * *

في 1 أبريل 1973، حجز سائح بلجيكي في الخامسة والثلاثين من عمره يدعى جيلبير ريمبو في فندق ساندس في بيروت. وفي اليوم نفسه حجز في الفندق سائح آخر يدعى ديتر ألتنودر. لم يكن الرجلان يعرفان بعضهما في الظاهر، وحصل كل منهما على غرفة مطلّة على البحر.

في 6 أبريل، وصل ثلاثة سيّاح آخرين إلى الفندق. كان أندرو ويتشلو بريطانياً أنيق الملبس. وأبرز ديفيد مولاد، الذي وصل بعد ساعتين على متن طائرة آتية من روما، جواز سفر بلجيكياً باسم تشارلز بوسار. وكان جورج إلدر الذي وصل في المساء بريطانياً أيضاً، إلاّ أنّه كان نقيض البريطاني الأوّل. وحجز سائح بريطاني آخر يدعى تشارلز مايسي في فندق أتلانتك على شاطئ الرملة البيضاء. وعلى غرار إنكليزي حقيقي، راح يسأل مرّتين في اليوم عن أخبار الطقس.

قام كلّ من الرجال الستّة بالتجوّل في بيروت بمفرده، والتنزّه في الشوارع، والتعرّف على خطوط السير الرئيسة. واستأجروا سيّارات من وكالتَي أفيس ولينا كار: ثلاث سيّارات من ماركة بويك سكايلاركس، وسيّارة ستايشن من طراز بلاي ماوث، وفاليانت، ورينو 16.

في 9 أبريل، أبحر أسطول صغير مؤلّف من تسعة قوارب تابعة للبحرية الإسرائيلية، واختلط بخطوط الإبحار الدولية. كان قارب م ب ميتفا يقلّ وحدة مظلّيين تحت قيادة العقيد أمنون ليبكين. وكانت هذه الوحدة مكلّفة بالهجوم على مقرّ الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. استقلّت وحدتان أخريان م ب غاش، وكانت إحداهما وحدة مظلّيين، فيما الأخرى تابعة لسايريت ماتكال وتحت قيادة العقيد إيهود باراك. كلّفت هاتان الوحدتان بمهمّة مختلفة. فقبل الانطلاق، استلمت كلّ منهما صوراً لأربعة أشخاص. ثلاثة منهم هم أبو يوسف؛ القائد الأعلى لأيلول

الأسـود، وكمـال عـدوان؛ القائد الأعلـى لعمليّات فتح والمكلّـف كذلك بعمليّات أيلول الأسـود على الأراضي المحتلّة، وكمال ناصر؛ المتكلّم الرئيس باسـم فتح. وقيل للجنود إنّ الثلاثة يعيشون في المبنى السكني نفسه في شارع فردان.

أمّا الصورة الرابعة فكانت لعلي حسن سلامة الذي لم يعرف أحد مكانه.

كان رجال الكوماندوس يرتدون ملابس مدنية. عند الساعة التاسعة والنصف مساء، ومع اقتراب الزوارق من بيروت، تنكّروا بشعر مستعار وملابس هيبية، بينما ارتـدى إيهـود بـاراك فسـتاناً، وتنكّر بزيّ سـمراء مغرية. وفي حمالـة الثديين أخفى عدّة عبوات ناسفة. خرجت من الظلام عدّة زوارق مطّاطية واتّجهت نحو شواطئ بيروت؛ مقلّة على متنها مظلّيين من السـفن الأمّ. رأوا أمامهم سـتّ سيّارات، مع أحد «السيّاح» خلف كلّ مقود. عرف كلّ جندي السيارة التي يجب عليه أن يتوجّه إليها. وفي غضون دقائق، انطلقت السـيّارات باتّجاهات مختلفة. ذهب بعضها إلى مقرّ الجبهة الشعبية، في حين ذهب بعضها الآخر - وإحداها يقودها مولاد - إلى المبنى السكني الذي يقطنه قادة أيلول الأسود.

كانـت وحـدة الكومانـدوس التي انطلقت نحو مقرّ الجبهة الشـعبية قد تدرّبت مسبقاً على الهجوم، مستخدمة مبنى غير مكتمل في إحدى ضواحي تل أبيب. في إحـدى الليالـي، عندمـا أتى رئيس الأركان ديفيد (دادو) إلعازر لمشـاهدة التدريب، اقترب منه ملازم شابّ ووسيم يدعى أفيدا شور وقال له: «سوف نستخدم 120 كلغ مـن المتفجّـرات لتدميـر المبنـى في بيروت. لكنّ هذا الأمـر غير ضروري وخطير. فالانفجار سيؤذي المباني المجاورة، وهي مليئة بالمدنيين». وأخرج من جيبه دفتر ملاحظات ثمّ أضاف: «أجريت بعض الحسابات. لن نستخدم سوى 80 كلغ. وبهذه الطريقة سينهار المبنى من دون أن يتأذّى الأبرياء في منازل أخرى». تحقّق إلعازر من الأرقام، ووافق على اقتراح شور، ثمّ أمر قائد العمليّة باستخدام عبوة ناسفة لا تتجاوز زنتها 80 كلغ.

وصـل المظلّيـون الآن إلـى مقـرّ الجبهـة الشـعبية. وبعـد تبـادل إطـلاق النار لفترة قصيرة قُتل إسـرائيليان، ثم اقتحم المظليون المبنى، وزرعوا فيه 80 كلغ من المتفجّرات. حوّل الانفجار المبنى إلى أنقاض، وأسـفر عن مقتل العشـرات، لكنّ

أيًّا من المنازل المجاورة لم يتضرّر.

أحد رجال الكوماندوس الذين قتلوا كان أفيدا شور.

* * *

في الوقت نفسه، هاجمت وحدات من المظلّيين وكوماندوس البحريّة عدّة مخيّمات جنوب بيروت؛ في خطوة تهدف إلى تشتيت الانتباه وتحريض الفلسطينيين والجيش اللبناني للقيام بردّ فعل ما؛ لكنّ أيًّا منهم لم يستجب.

في تلك اللحظة تماماً، وصل كوماندوس سايريت ماتكال إلى مبنى شارع فردان. كانوا على وشك الدخول عندما مرّ شرطيان لبنانيان قربهم. لكنّ كلّ ما رأياه كان أربعة عشّاق متعانقين على الرصيف. لم يكن روميو سوى موكي بيتزير؛ أحد أفضل مقاتلي سايريت، في حين كانت جولييت هي إيهود باراك. ما إن ابتعد عنصرا الشرطة حتّى اقتحم الإسرائيليون المبنى، ودخلوا في وقت متزامن شقق كلّ من كمال عدوان في الطابق الثاني، وكمال ناصر في الطابق الثالث، وأبو يوسف في الطابق السادس.

لم تكن لدى القادة الفلسطينيين أيّ فرصة للنجاة. فعندما اقتحم المظلّيون شققهم، حاولوا الوصول إلى أسلحتهم، لكنّ الجنود كانوا أسرع. وفي غضون دقائق، تمّت تصفية الثلاثة. حاولت زوجة أبو يوسف حمايته بجسدها، وأصيبت هي أيضاً. كما أصيبت خلال العمليّة امرأة إيطالية مسنّة كانت تعيش في الشقّة المقابلة لشقّة عدوان. فعندما سمعت أصوات الرصاص، فتحت الباب، وراحت ضحيّة إطلاق نار مفاجئ.

في أثناء العمليّة، جمع رجال الكوماندوس وثائق عثروا عليها في خزائن وأدراج زعماء أيلول الأسود، ثمّ حملوا جرحاهم وقتلاهم وعادوا مسرعين إلى السيّارات التي توجّهت بهم إلى الشاطئ، حيث كانت الزوارق المطّاطية بانتظارهم هناك.

على الشاطئ، ركن «سيّاح» الموساد الستّة سيّاراتهم المستأجرة في صفّ مرتّب، وتركوا المفاتيح فيها. وبعد بضعة أيّام، تلقّت شركتا تأجير السيّارات مالهما عبر الأميركان إكسبرس.

اجتمع الأعضاء الذين نفّذوا المهمّة على السفينة الأمّ، وأبحروا عائدين إلى إسرائيل بعد أن حقّقت العمليّة نجاحاً تامًّا. فقد تمّ تدمير مقرّ الجبهة الشعبية، كما قتل قادة أيلول الأسود، بمن فيهم أبو يوسف قائد المنظّمة.

لكنّ رجال الكوماندوس لم يعرفوا أنّه على مسافة لا تتجاوز خمسين ياردة من منزل شارع فردان، كان علي حسن سلامة ينام مطمئنًّا في شقّة مموّهة. لم يتعرّض لأيّ إزعاج. وفي اليوم التالي، عندما أعلن عن مقتل أبو يوسف، أصبح هو قائد أيلول الأسود.

بشّرت عملية ربيع الشباب بنهاية أيلول الأسود. فالمنظّمة لا يمكن أن تقف على قدميها مجدّداً بعد مقتل جميع قادتها.

جميعهم ما عدا واحداً.

في تل أبيب، ساعدت الوثائق التي تمّ الحصول عليها في أثناء تنفيذ عمليّة ربيع الشباب على حلّ اللغز الذي شغل الموساد خلال العامين السابقين، ألا وهو قضيّة عيد الفصح (اليهودي).

في أبريل 1971، وصلت شابّتان فرنسيتان جميلتان إلى مطار اللّد، وحاولتا المرور عبر مكتب الهجرة بواسطة جوازي سفر مزوّرين. كان جهاز الأمن في المطار قد تلقّى إنذاراً مبكراً بوصولهما، فتمّ اصطحاب الشابّتين إلى غرفة جانبية، وتفتيشهما من قبل الشرطة النسائية وضابطات الشاباك. كشف التفتيش أمراً غريباً. فقد كانت ملابس المرأتين - بما في ذلك ملابسهما الداخلية - تزن ضعف وزنها الطبيعي. ولاحظت الشرطيات أنّ الملابس كانت مشبعة بمسحوق أبيض. على ما يبدو، غُمِرت الملابس بمحلول كثيف يحتوي على المسحوق الأبيض. وعندما تمّ نفض الملابس وفركها، تساقطت منها كمّيات كبيرة من المسحوق الأبيض. كما عُثر على المسحوق الأبيض داخل الحذاءين اللذين كانت السيدتان تنتعلانهما. كانت الفتاتان تحملان نحو 12 باونداً من المسحوق الأبيض الذي تبيّن أنّه مادّة بلاستيكية متفجّرة قوية. وفي علبة للفوط الصحية النسائية - كانت موجودة في حقيبة إحدى الفتاتين - عثرت الشرطة على عشرات أجهزة التفجير.

انهارت الفتاتان في أثناء الاستجواب، واعترفتا أنّهما أختان وابنتان لرجل أعمال مغربي ثري. كانتا تدعيان ناديا ومادلين بارديلي. اتّصل بهما رجل في باريس، وبما أنّهما تعشقان المغامرة، فقد وافقتا على تهريب المسحوق.

سأل المحقّقون: «ومن معكما أيضاً؟».

عصر ذلك اليوم، داهم عدد من رجال الشرطة فندق كومودور الصغير في تل أبيب واعتقلوا زوجين فرنسيّين مسنّين، بيار وإديث بورغالتيه. وعندما قاموا بتفكيك جهاز ترانزيستور لديهما، وجدوه محشوًّا بصمّامات تمّ تأخير عملها وتُستخدم لتصنيع العبوات الناسفة. فانفجر بيار بورغالتيه باكياً.

في اليوم التالي، وصلت قائدة العمليّة إلى إسرائيل مطمئنّة. كانت فرنسية جميلة تبلغ من العمر 26 عاماً، وتحمل جواز سفر باسم فرانسين أدلين ماريا. كان اسمها الحقيقي إيفلين بارج، وكانت معروفة لدى الموساد كإرهابية محترفة، وماركسية متطرّفة سبق أن شاركت في عدّة عمليّات في أوروبا.

اعترف أعضاء فريق عيد الفصح عند استجوابهم من قبل الشرطة أنّهم كانوا يعتزمون تفجير عبواتهم البلاستيكية الناسفة في تسعة فنادق كبرى في تل أبيب – وذلك في ذروة الموسم السياحي – وقتل أكبر عدد ممكن من السيّاح والإسرائيليين؛ موجّهين بذلك ضربة قوية للدولة العبرية.

ذهبت العصابة الصغيرة إلى السجن، لكنّ العقل المدبّر ظلّ حرًّا طليقاً. كان محمّد بودية؛ الجزائري الفاتن. كان نموذجاً آخر من د. جيكيل ومستر هايد. فهو رجل مثقّف وفنّان، حياته على المسرح ليست سوى غطاء لأنشطته. كان بودية عشيق إيفلين بارج، ومتورّطاً في عدد لا يحصى من العلاقات العاطفية، حيث لقّبه عملاء الموساد بذي اللحية الزرقاء.

كان بودية في الأساس يتلقّى الأوامر من جورج حبش والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. وبعد عام من القبض على فريق عيد الفصح، انضمّ إلى أيلول الأسود وتمّ تعيينه رئيساً للمنظّمة في فرنسا. فشارك في قتل خضر كانو – مراسل سوري في باريس – الذي اشتبه في أنّه مخبر للموساد. كُلّف بودية أيضاً بعمليّات أيلول الأسود في أوروبا، وخطّط لشنّ هجوم على مخيّم مؤقّت للمهاجرين اليهود من

روسيا. وبعد اغتيال همشري، أصبح بودية في غاية الحذر، واستحال تتبّعه.

في مايو من عام 1972، وصل فريق الاغتيال التابع لمجموعة ماسادا إلى باريس وحاول إيجاد بودية، وكان يعرف اسم عشيقته الجديدة وعنوانها. انتظر أعضاء الفريق بصبر عند زاوية المبنى الذي تعيش فيه. أخيراً، ظهر بودية فجأة وتسلّل إلى الداخل. لكن، في اليوم التالي، عندما غادر معظم السكّان المبنى متجهين إلى أعمالهم لم يكن بينهم! مرّ شهر من الإحباط، قبل أن يقوم العملاء بمقارنة الملاحظات وباكتشاف أمر غريب: كلّ صباح، بعد الليالي الحمراء التي يقضيها بودية مع حبيبته، كانت امرأة ضخمة وطويلة القامة تخرج مع الناس الذين يغادرون المبنى. في بعض الأوقات تكون شقراء، وفي أوقات أخرى تكون سمراء... أخيراً، تمكّن العملاء من حلّ الأحجية. كان بودية يستخدم مواهبه التمثيلية، ويتنكّر بزيّ امرأة قبل أن يغادر الشقّة.

لكن الآن، ولسبب ما، توقّف عن زيارة عشيقته، وفقد الموساد أثره. كان الخيط الوحيد الذي يملكونه هو أنّه يسافر بالمترو كلّ صباح لحضور اجتماعاته، ويستقلّ قطاراً إلى محطّة إتوال تحت قوس النصر. كانت محطّة المترو تلك مركزاً تعبره عشرات القطارات، ويمرّ ملايين الناس عبر ممرّاتها الأرضية، وخطوط التحويل فيها، فكيف سيتمكّنون من إيجاد بودية، «الرجل ذو الوجوه الألف»؟

لكن، لم يكن أمامهم خيار آخر. تمّ تنبيه عملاء الموساد في جميع أنحاء أوروبا. وتلقّى عشرات الإسرائيليين صوراً لبودية، كما وزّعت صور له في أروقة محطّة إتوال الضخمة وممرّاتها ومنصّاتها. مرّ يوم، وتبعه يوم ثان ثم ثالث من دون أن يحدث شيء. لكن، في اليوم الرابع، رصد أحد العملاء بودية. كان متنكّراً، لكنّه ما زال الرجل الذي يبحثون عنه. هذه المرّة، التصقوا به كظلّه إلى أن استقلّ سيّارته المركونة بالقرب من مخرج المترو. تبعوا السيّارة وراقبوها طوال الليل، بينما مكث بودية في منزل في شارع فوسيه سان بيرنار؛ هو على الأرجح منزل عشيقته الجديدة. في اليوم التالي، في 29 يونيو 1973، اقترب بودية من سيّارته، ثمّ تفقّدها من الخارج بعناية، ونظر تحت الهيكل، وبعدما اطمأنّ على ما يبدو، فتحها وجلس على مقعد السائق. في تلك اللحظة، وقع انفجار مدوٍّ، وتحوّلت السيّارة إلى

كومة معدنية متفحّمة، وقُتل بودية. استناداً إلى المراسلين الأوروبيين، كان الرامساد تسفي زامير يشاهد الانفجار من ناصية أحد الشوارع.

لكنّ رؤساء الموساد لم يكن لديهم الوقت للاحتفال بنجاحهم. فقد وصلت رسالة طارئة إلى المقرّ: تمّ إرسال مبعوث خاصّ من قبل أيلول الأسود، هو الجزائري بن أمانة، للاجتماع مع علي حسن سلامة. عبر بن أمانة أوروبا سالكاً طريقاً شاقًّا وغريباً، ووصل إلى ليلهامر، وهي مدينة سياحية في النرويج.

بعد بضعة أيّام، وصل فريق الاغتيال التابع لوحدة كيدون - بقيادة مايك هراري - إلى ليلهامر وتمركز هناك. لم يكن أحد يعلم ما الذي يفعله سلامة في تلك البلدة الجبلية الهادئة. تبع الفريق الأوّل بن أمانة إلى مسبح البلدة، ورآه يتحدّث مع رجل ذي ملامح شرق أوسطية. نظر أعضاء الفريق الثلاثة إلى الصور التي يحملونها واستنتجوا أنّ الرجل كان سلامة بلا شكّ. فتجاهلوا زميلهم الرابع الذي سمع الرجل وهو يتكلّم مع أشخاص آخرين وقال إنّه من المستحيل أن يتكلّم سلامة اللغة النرويجية.

كان العملاء واثقين من هويّة الرجل، فتتبّعوا سلامة في شوارع ليلهامر، ورأوه بصحبة شابّة نرويجية حامل.

دخلت العمليّة مرحلتها النهائية. فقد وصل المزيد من العملاء من إسرائيل، وكان تسفي زامير واحداً منهم. كانت تصفية سلامة هي الخطوة الأخيرة للقضاء على أيلول الأسود نهائيًّا، وأراد تسفي زامير أن يكون شاهداً عليها. كان القتلة هم جوناثان إنغلبي - الحاضر دائماً - بالإضافة إلى رولف بير وجيرار إميل لافون. لم يشارك ديفيد مولاد في تلك العمليّة. استأجر طاقم الدعم سيّارات وغرفاً. يقول البعض إنّ سكّان البلدة لاحظوا على الفور حركة غير اعتيادية. فبلدة ليلهامر لم تكن معتادة صيفاً على كثرة «السيّاح» الذين تنطلق سيّاراتهم في كلّ الاتّجاهات.

في 21 يوليو 1973، خرج سلامة وصديقته الحامل من دار للسينما حيث كانا يشاهدان فيلم Where Eagles Dare للممثّل كلينت إيستوود. استقلاّ الحافلة ثمّ ترجّلا منها في شارع مهجور وهادئ. فجأة، مرّت بجانبهما سيّارة بيضاء. قفز

منها رجلان، وقفا على الرصيف حاملَين بندقيتي بيريتا بأيديهما، ورشّا جسد سلامة بأربع عشرة رصاصة.

مات الأمير الأحمر.

انتهت العمليّة، وأمر مايك هراري رجاله بمغادرة النرويج على الفور. تمّ الانسحاب بحسب القواعد: غادر القتلة أوّلاً تاركين سيّارتهم البيضاء في وسط ليلهامر، واستقلّوا أوّل رحلة من العاصمة أوسلو. تبعهم معظم العملاء ومعهم مايك هراري، وتركوا خلفهم الطاقم المسؤول عن إخلاء البيوت الآمنة وإعادة السيّارات المستأجرة. لكنّ مصادفة غير متوقّعة قلبت كلّ الموازين. فقد لاحظت امرأة تعيش على مقربة من مكان الحادث لون سيّارة القتلة وطرازها؛ بيجو بيضاء. ورأى ضابط شرطة يقف عند حاجز بين ليلهامر وأوسلو سيّارة بيجو بيضاء تقودها امرأة رائعة الجمال، ودوّن رقم لوحة السيّارة. في اليوم التالي، عندما أعيدت السيّارة إلى مكتب استئجار السيّارات في المطار، ألقت الشرطة القبض على الراكبَين دان أربيل وماريان غلادنيكوف. أدّى استجوابهما إلى اعتقال عميلَين آخرَين هما سيلفيا رافايل وأبراهام غيمير. كما تمّ توقيف عميلَين آخرَين في اليوم نفسه. انهار أربيل وغلادنيكوف تحت الاستجواب المكثّف، وكشفا معلومات بالغة السرّية عن العمليّة؛ بما في ذلك عناوين المنازل الآمنة في النرويج ومختلف أنحاء أوروبا، وقواعد التآمر، وأرقام هواتف، فضلاً عن طريقة عمل الموساد. فداهمت الشرطة شقّة في أوسلو وعثرت فيها على كنز من الوثائق. كما اكتشفت أيضاً أنّ إيغال إيال، ضابط أمن السفارة الإسرائيلية، على اتّصال بالموساد. كانت تلك كارثة.

في اليوم التالي، نشرت وسائل الإعلام النرويجية أنباء عن اعتقال العملاء الإسرائيليين. شكّل ذلك ضربة قاسية لهيبة الموساد ومصداقيته. لكنّ وسائل الإعلام نشرت خبراً آخر نزل على الإسرائيليين كالصاعقة: لقد قتل الموساد الرجل الخطأ.

لم يكن الرجل الذي قتل في ليلهامر علي حسن سلامة، بل أحمد بوشيكي. وهو نادل مغربي أتى إلى النرويج بحثاً عن عمل، وتزوّج من امرأة نرويجية، توريل الشقراء، وكانت حاملاً في شهرها السابع.

ملأت العناوين المثيرة الصحف في جميع أنحاء العالم. تمّت محاكمة العملاء المعتقلين، وحُكم على بعضهم بالسجن لمدّة طويلة. أمّا سلفيا رافايل، فقد تركت انطباعاً قوياً لدى النرويجيين بسبب مظهرها النبيل. وجلبت لها محاكمتها جائزة غير متوقّعة، فقد وقعت في حبّ محاميها النرويجي. وبعد إطلاق سراحها، تزوّجت منه وعاشت معه بسعادة حتّى وفاتها بالسرطان عام 2005.

بعد فشل عمليّة ليلهامر، كان على رؤساء الموساد إجراء تغييرات جذرية، بما في ذلك تغيير قواعد المؤامرة، وترك البيوت الآمنة، وإقامة علاقات جديدة... كان عليهم أن يقرّوا بمسؤوليّتهم عن مقتل أحمد بوشيكي، فدفعوا إلى أسرته 400,000 دولار. لكنّ الأسوأ كان تبدّد أسطورة جهاز الموساد القويّ الذي لا يُقهر.

أمرت غولدا مئير رئيس الموساد تسفي زامير بإنهاء عمليّة غضب الله على الفور. لكن، سرعان ما حجبت أحداث أكثر مأساوية ذلك الفشل. ففي 6 أكتوبر، شنّت جيوش مصر وسوريا هجوماً مفاجئاً على إسرائيل. هكذا بدأت حرب أكتوبر (انظر إلى الفصل 14).

مرّ عامان.

في مساء ربيعي من عام 1975، استضافت أسرة بيروتية أجمل امرأة في العالم. من دون شكّ، استحقّت جورجينا رزق ذلك اللقب. فقبل أربع سنوات تمّ انتخابها ملكة جمال الكون في مسابقة جمال كبيرة أقيمت في ميامي بيتش في فلوريدا. فازت الجميلة اللبنانية بالشهرة، والجوائز، والرحلات، وباجتماعات مع قادة العالم. وعندما عادت إلى لبنان، أسّست حياة مهنية لامعة كعارضة أزياء وصاحبة محلاّت للأزياء.

في تلك الأمسية، التقت في منزل أصدقائها شابًّا كاريزماتيًّا وسيماً، فأغرما ببعضهما. وبعد عامين، في 8 يونيو 1977، تزوّجا. كان العريس سعيد الحظّ هو علي حسن سلامة.

خلال الأعوام الأخيرة، تحسّنت حياته المهنية أيضاً. ففي أواخر عام 1973، لم تعد منظّمة أيلول الأسود موجودة. لكن، على الرغم من انهيارها، أصبح سلامة

اليد اليمنى لعرفات و"ابنه المدلّل". وسرت شائعات بأنّه سيعيّن خليفة لعرفات على رأس منظمّة التحرير الفلسطينية.

بعد سقوط أيلول الأسود، أصبح سلامة رئيس فرقة السبعة عشر التي كانت مكلّفة بالأمن الشخصي لقادة فتح وبجميع الانقلابات غير التقليدية. رافق سلامة عرفات في رحلة إلى نيويورك. دخل عرفات الجمعية العامّة للأمم المتّحدة وهو يحمل غصن زيتون بيده، لكنّه كان يضع مسدّساً تحت حزامه. وكان سلامة إلى جانب عرفات عندما سافر إلى موسكو واجتمع بزعماء العالم. ولدهشة إسرائيل، تودّدت إليه أيضاً وكالة المخابرات المركزية السي آي إيه.

قرّرت السي آي إيه تجاهل ماضي "الأمير الأحمر" الدموي، ودوره في مجزرة ميونيخ، وعمليّة القتل الوحشية التي تعرّض لها الدبلوماسيون الأميركيون في الخرطوم والتي كان العقل المدبّر لها، والحقيقة البسيطة؛ وهي أنّ سلامة كان أحد أخطر المطلوبين في العالم. وقد فعلت ذلك بهدف تجنيده مخبراً لها. أملت السي آي إيه أن يصبح سلامة الخادم الأمين للمصالح الأميركية، فعرضت عليه مئات آلاف الدولارات، إلاّ أنّه رفض. بالمقابل، وافق على تمضية عطلة طويلة مع جورجينا في هاواي، وهي عطلة غطّت الوكالة نفقاتها كافّة.

تغيّر نمط حياة سلامة، وبدأ أصدقاؤه يعتقدون أنّه لم يعد في خطر. غير أنّه أحسّ أنّ أيّامه باتت معدودة، ولم يكفّ عن الحديث عن موته. قال لأحد الصحفيين: "أعلم أنّه عندما تأتي ساعتي سأموت، ولن يتمكّن أحد من إنقاذي".

وقد قرّرت إسرائيل وضع حدّ لحياته.

حدثت تغييرات عديدة في إسرائيل منذ سقوط أيلول الأسود. فقد رحلت غولدا مئير، واستقال خليفتها إسحاق رابين، وتولّى السلطة رئيس وزراء جديد هو مناحيم بيغن. تمّ استبدال الرامساد تسفي زامير بالجنرال إسحاق (هاكا) هوفي، وهو قائد سابق للمنطقة الشمالية. تواصلت العمليّات الفلسطينية ضدّ إسرائيل على نحو متقطّع. ففي عام 1976، أدّى اختطاف طائرة تابعة للخطوط الجوّية الفرنسية كانت متوجّهة إلى عنتبي في أوغندا إلى تنفيذ عمليّة إنقاذ جريئة من قبل مظلّيين

إسرائيليين ووحدة سايريت ماتكال. عام 1978، وصل عناصر من فتح إلى إسرائيل، واختطفوا حافلة مدنية، ثم توجّهوا إلى تل أبيب. تمّ إيقافهم عند حاجز تفتيش في ضواحي المدينة، والتغلّب عليهم أخيراً، لكن ليس قبل قتل 35 مدنياً من الركّاب. كان يتـمّ بانتظـام قتـل مدنييـن مـن رجال ونسـاء وأطفال في عمليّـات توغّل داخل الأراضي الإسرائيلية.

شـعر مناحيـم بيغـن أنّـه لا يمكـن تـرك أحد من القتلة بسـلام ويـداه ملوّثتان بالدماء. وهكذا، أُدرج اسم سلامة على القائمة مجدّداً، وذلك في أواخر السبعينيات.

أُرسل عميل موساد سرّي إلى بيروت، وتمكّن من الانضمام إلى النادي الذي يرتاده سلامة. وفي أحد الأيّام، بينما كان متّجهاً إلى السونا، وجد نفسه وجهاً لوجه أمام سلامة.

أثار هذا الاكتشـاف المذهل جدالاً حامياً في مقرّ الموسـاد. فقد كان سـلامة فريسة سهلة في النادي الصحّي. إلاّ أنّ أيّ محاولة لقتله قد تؤدّي إلى وفاة مدنيين. لذلك، تمّ التخلّي عن هذه الخطّة.

هنا أدخلت إيريكا ماري تشامبرز على الخطّ.

كانت امرأة إنكليزية عزباء، غريبة الأطوار، عاشت في ألمانيا خلال السنوات الأربع الماضية. أتت إلى بيروت، واستأجرت شقّة في الطابق الثامن من مبنى يقع عند زاوية شارع فردان وشارع مدام كوري. لقّبها جيرانها باسم بينيلوب. قالت لهم إنّها تقوم بعمل تطوّعي لمنظّمة دولية تعتني بالأطفال الفقراء. وقد ظهرت فعلاً في المستشـفيات ووكالات الإغاثة، وقال البعض إنّها التقت علي حسـن سـلامة. بدت امرأة وحيدة جدًّا. فهي شعثاء الشعر دائماً، وترتدي ملابس رثّة، وتخرج إلى الشارع حاملة أطباقاً مليئة بالطعام من أجل القطط المشرّدة. كما قيل إنّ شقّتها كانت مليئة بتلـك الحيوانـات التـي تحبّها. كانت شـغوفة بالرسـم أيضاً؛ لكـنّ من رأوا لوحاتها سرعان ما أدركوا أنّ مواهبها محدودة.

لكن، بالإضافة إلى رسم المناظر الطبيعية اللبنانية، كان أكثر ما يجذب اهتمام الآنسة تشامبرز فعلاً هو حركة المرور المزدحمة في الشارع في الأسفل، وتحديداً، مرور سـيّارتين يوميًّا من تحت نافذتها: سـيّارة ستايشـن من طراز شـيفروليه داكنة

اللـون، تتبعهـا دائمـاً سـيارة جيب من طراز لاند روفر. اسـتخدمت إيريكا شـيفرة، ودوّنـت بدقّـة أوقـات واتّجاهات حركة السـيّارتين. كانتـا تأتيان كلّ صباح من حيّ الصنوبرة تحت شـارعَي فردان وكوري، وتتّجهان جنوباً نحو مقرّ فتح، ثم تعودان عنـد وقـت الغـداء، ثمّ تظهران مجدّداً في سـاعة مبكرة مـن بعد الظهيرة وتتوجّهان مرّة أخرى إلى المقرّ.

راقبت إيريكا السـيّارتين بواسـطة منظار مكبّر، وتعرّفت على سـلامة الجالس على المقعد الخلفي للشيفروليه بين حارسَين مسلّحَين، في حين ركب عدّة مسلّحين في الجيب الذي يتبعهم.

ربّما كان حرّاس سلامة يستطيعون حمايته، لكن ليس بإمكانهم إنقاذه من أسوأ عدوّ للعميل السرّي: الروتين. فمنذ زواج سلامة من الجميلة جورجينا، انحصرت حياتـه فـي نمـط ثابت. فقد اسـتقرّ مع زوجته في حـيّ الصنوبرة، وكان يذهب إلى العمل - مثل موظّف رسمي - كلّ صباح في الوقت نفسه، ثمّ يعود لتناول الغداء في المنزل وللحصول على استراحة، ويرجع إلى العمل بعد القيلولة. وكان يتجاهل القواعد الأساسيّة للنشاط السرّي: لا تطوّر أبداً عادات منتظمة، ولا تمكث أبداً في العنوان نفسه لمدّة طويلة، ولا تستخدم أبداً خطّ السير نفسه مرّتين، ولا تتنقّل أبداً في الوقت نفسه كلّ يوم.

فـي 18 ينايـر 1979، وصـل إلـى بيروت سـائح بريطاني يدعى بيتر سـكرايفر. حجز في فندق ميديتيرانيه واستأجر سيّارة فولكسفاغن زرقاء من وكالة لينا كار. في اليوم نفسه، التقى سائحاً كندياً يدعى رونالد كولبيرغ يقيم في فندق رويال غاردن، وقد استأجر سيّارة سيمكا كرايسلير، من وكالة لينا كار أيضاً. لم يكن كولبيرغ سوى ديفيد مولاد. أمّا الزبون الثالث لوكالة السـيّارات الشـهيرة فدخل مكتبها في اليوم التالي. كان ذاك الزبون هو إيريكا تشـامبرز التي طلبت اسـتئجار سـيّارة "من أجل رحلة جبلية". أخذت سيّارة داتسون، وركنتها بالقرب من منزلها.

في تلك الليلة، وصلت ثلاثة قوارب إسرائيلية إلى شاطئ مهجور بين بيروت ومرفأ جونية، وتركت على الرمال الرطبة شحنة كبيرة من المتفجّرات. كان كولبيرغ وسكرايفر هناك، وقاما بتحميل المتفجّرات في سيّارة الفولكسفاغن.

في 21 يناير، أنهى بيتر سكرايفر حجزه في الفندق، ثمّ قاد السيّارة الزرقاء إلى شارع فردان، وركنها أمام المبنى الذي تقيم فيه إيريكا تشامبرز، ثم ركب سيّارة أجرة نقلته إلى المطار حيث استقلّ طائرة إلى قبرص. أنهى رونالد كولبيرغ حجزه في الفندق أيضاً، وانتقل إلى فندق مونمارتر في جونية.

عند الساعة 3:45 عصراً، استقلّ علي حسن سلامة سيّارة الشيفروليه كالعادة، فيما ركب حرّاسه في اللاند روفر، وتوجّه الموكب الصغير إلى مقرّ حركة فتح. مرّت السيّارات بشارع مدام كوري، وانعطفت إلى شارع فردان.

من الطابق الثامن للمبنى الواقع عند الزاوية، راقبت إيريكا تشامبرز اقترابهم. وقف مولاد بجانبها، حاملاً جهاز تحكّم عن بعد.

مرّت الشيفروليه بجانب السيّارة الزرقاء. وفي تلك اللحظة، ضغط مولاد على زرّ جهاز التحكّم.

انفجرت الفولكسفاغن، وتحوّلت إلى كرة نار كبيرة. واجتاحت النيران سيّارة الشيفروليه التي انفجرت بدورها. وتطايرت شظايا المعادن والزجاج بقوّة نحو الأعلى، كما تحطّم زجاج النوافذ في الأبنية المجاورة وتناثر على الرصيف. حدّق المارّة إلى جثث ركّاب الشيفروليه الذين تحوّلوا إلى أشلاء بين الحطام المشتعل بذعر.

هرعت سيّارات الشرطة والإسعاف باتّجاه مسرح الحادث، وأخرج المسعفون من هيكل الشيفروليه الملتوي جثث السائق، والحارسين، وعلي حسن سلامة.

في دمشق، أحضر مبعوث برقية عاجلة إلى ياسر عرفات الذي كان يترأس اجتماعاً في فندق ميريديان. قرأ عرفات البرقية مذهولاً، ثمّ انفجر باكياً.

في الليلة نفسها، وصل زورق مطّاطي أُطلق من مركب حربي إسرائيلي إلى شاطئ جونية. قفز رونالد كولبيرغ وإيريكا تشامبرز إلى الزورق الذي أقلّهما إلى المركب الحربي. وبعد بضع ساعات، أصبحا في إسرائيل. عثرت الشرطة اللبنانية على سيّارتيهما المستأجرتين مركونتين على الشاطئ، والمفاتيح فيهما.

إيريكا ماري تشامبرز هو الاسم الحقيقي لعميلة موساد يهودية بريطانية، عاشت في إنكلترا وأستراليا قبل أن تهاجر إلى إسرائيل، وتمّ تجنيدها من قبل

الموساد في أثناء دراساتها في الجامعة العبرية. عادت إلى إسرائيل، ولم يُسمع عنها شيء بعد ذلك.

كانت تلك نهاية البحث ونهاية عمليّة غضب الله.

تمّ القضاء على أيلول الأسود.

بعد سنوات عديدة، خرجت بعض تفاصيل العمليّة إلى الضوء. فقد اعترف الجنرال أهارون ياريف في مقابلة تلفزيونية أنّه نصح رئيسة الوزراء غولدا مئير بقتل أكبر عدد ممكن من قادة أيلول الأسود، واعترف أنّه فوجئ أنّ "عمليّة عسكرية لقوّاتنا في بيروت وبضع عمليّات قتل في أوروبا كانت كافية لجعل قادة فتح يوقفون عملياتهم في الخارج. هذا يثبت أنّنا كنّا محقّين باستخدام هذه الطريقة لفترة معيّنة".

الفصل الثالث عشر

العذارى السوريات

في ليلة عاصفة من شهر نوفمبر 1971، راح قارب حربي تابع للبحرية الإسرائيلية يصارع أمواج البحر الأبيض المتوسّط العاتية وهو يشقّ طريقه باتّجاه الساحل السوري. كان قد غادر القاعدة البحرية الكبيرة في حيفا في بداية المساء، وأبحر على طول الساحل اللبناني، ودخل المياه الإقليمية السورية. مرّ القارب المظلم بميناء اللاذقية، وواصل مساره شمالاً. أخيراً، رسا على مسافة آمنة من شاطئ مهجور، على مقربة من الحدود التركية. خرج كوماندوس البحرية التابعون للأسطول الصغير 13 إلى سطح القارب الذي يتمايل بعنف، وأطلقوا ثلاثة زوارق مطّاطية في الماء.

عندما أصبحوا جاهزين للانطلاق، فُتح باب كابينة جانبية مقفلة، وخرج منه ثلاثة رجال يرتدون ملابس مدنية. كانت وجوههم مخبّأة خلف كوفيات، بينما حملوا في حقائبهم المقاومة للماء أجهزة استقبال صغيرة، وجوازات سفر مزوّرة، وأمتعة شخصية، ومسدّسات ملقّمة. ومن دون أن ينطقوا بأيّ كلمة، قفزوا إلى الزوارق المطاطية وتوجّهوا إلى الشاطئ. لم يتمّ إخبار الكوماندوس بهوية أولئك الرجال، أو بأسباب اصطحابهم إلى سوريا. عندما اقترب المدنيون الثلاثة من الساحل قبيل الفجر، غاصوا في المياه الباردة، وسبحوا إلى الشاطئ. ظلّوا في المياه إلى أن رأوا خيال رجل ينتظر على الرمال. عندها، سبحوا المسافة المتبقّية وانضمّوا إليه. كان الرجل هو قائدهم يوناتان، واسمه الشفري «بروسبر». أحضر يوناتان الملابس الجافّة لأصدقائه الذين يرتعدون من شدّة البرد، فارتدوها على الفور. بعد ذلك، أخذهم إلى سيّارته التي أخفاها بالقرب من الشاطئ. كان ثمّة

رجل غريب، يبدو أنّه مساعد للموساد في المنطقة، ينتظر أمام المقود. شغّل محرّك السيّارة، وذاب ببراعة في حركة المرور على إحدى الطرقات السريعة الرئيسة في سوريا. بعد عدّة ساعات، دخلوا دمشق.

حجزوا في فندقين. وبعد أن ناموا لفترة طويلة، اجتمعوا وانطلقوا لاستطلاع العاصمة السورية. كانوا جميعاً أعضاء سابقين في كوماندوس الأسطول الصغير 13، وهم الآن عملاء موساد كلّفوا بأغرب مهمّة في حياتهم. وكان ديفيد مولاد واحداً منهم.

تمّ التخطيط للعملية قبل عدّة أسابيع، في مقرّ الموساد في تل أبيب. إذ اجتمع الرامساد تسفي زامير، ورئيس سيزاريا مايك هراري، وبضعة رؤساء أقسام آخرين بأربعة شباب تتراوح أعمارهم بين الثالثة والعشرين والسابعة والعشرين. كان الأربعة أصدقاء مقرّبين، وقد سبق لهم أن شاركوا في عدّة عمليّات معاً، ومزجوا مهارات كوماندوس البحرية مع تدريبهم في الموساد. ولدوا جميعاً في شمال أفريقيا، وكانوا يتحدّثون الفرنسية والعربية بطلاقة. أطلقوا على أنفسهم اسم «كوزا نوسترا»، على غرار المافيا الصقلية. بدأ زامير بإعطائهم التعليمات.

قبل عامين، وصلت رسالة من سوريا مرسلة من قبل قادة الجالية اليهودية المتناقص عددها. فنظام الرئيس حافظ الأسد، الذي تولى السلطة في العام 1970، ضيّق على اليهود المحلّيين الخناق، فهاجر كثير منهم، وتركوا خلفهم جالية صغيرة مسنّة. هرب الشباب من سوريا، وتركوا فتيات يهوديات لا أمل لهنّ بإيجاد أزواج. وكان أفضل خيار لديهنّ هو الفرار إلى إسرائيل.

قال زامير لكوزا نوسترا إنّ بعض الفتيات حاولن الهرب عن طريق لبنان من خلال رشوة المهرّبين. ولكن، تمّ إلقاء القبض على بعضهنّ وضربهنّ وتعذيبهنّ، وحتّى إطلاق النار عليهنّ. لكنّ عدداً منهن تمكّن من الوصول إلى بيروت. وكنّ جميعاً يملكن عنوان بيت آمن في العاصمة اللبنانية، حيث اعتنى بهنّ عناصر محلّيون من الموساد إلى أن انتقلن إلى إسرائيل.

في إحدى الليالي، في شتاء 1970، اقترب قارب حربي إسرائيلي من مرفأ جونية، شمال بيروت، وجلب الصيّادون المحلّيون 12 فتاة يهودية هاربة من سوريا.

كان قبطان القارب الإسرائيلي ذئب بحر مخضرماً وقائد غوّاصة، يدعى العقيد أبراهام (زابو) بن زئيف. قبل العمليّة، خاض هو ورجاله تدريباً صارماً جدًّا على نموذج قاموا ببنائه في قاعدة تابعة للبحرية. كان التدريب ممتازاً، وتمّ نقل الفتيات إلى متن القارب بسلاسة ونجاح. ألقى زابو ورجاله بطّانيات على الفتيات الخائفات والمرتعشات، وقدّموا لهنّ الشطائر والقهوة، ثمّ أبحروا إلى حيفا بالسرعة القصوى. رسا زابو عند الساعة الرابعة فجراً، ولدهشته الكبيرة، رأى رئيسة الوزراء غولدا مئير تنتظر على الرصيف؛ جنباً إلى جنب مع رئيس الأركان الإسرائيلي الجنرال حاليم بارليف، ونائبه الجنرال ديفيد (دادو) إلعازر. أقامت غولدا حفلة متواضعة للفتيات السوريات، وتأثّرت كثيراً بقصصهنّ. وخلال العام التالي، نفّذ بن زئيف وخلفه، أمنون غونين، بضع عمليّات أخرى لإحضار المزيد من الفتيات السوريات من الساحل اللبناني إلى إسرائيل. لكنّ عبور الحدود السورية اللبنانية أصبح محفوفاً بالمخاطر، ولم يعد الوثوق بالمهرّبين والصيّادين العرب أمراً ممكناً. لذا، قرّرت غولدا إحضار بقيّة الفتيات مباشرة من سوريا إلى إسرائيل.

اتّصلت بزامير وطلبت منه إنقاذ الفتيات السوريات.

في أثناء الاجتماع مع كوزا نوسترا، قال زامير للشباب الأربعة: «عليكم إنقاذ أولئك الفتيات. هذه مهمّتكم».

اندلع سجال حامٍ في قاعة المؤتمرات. وتساءل أحد الحاضرين: أهذا من عمل الموساد؟ ينبغي أن تتولى الوكالة اليهودية هذه المهمة. وأضاف آخر بغضب أنّ جهاز الموساد ليس وكالة لترتيب الزيجات، وأنّه لا يتعيّن على ضبّاطه المخاطرة بحياتهم في إحدى الدول العربية الأكثر قسوة وخطورة لمساعدة بعض العذارى اليهوديات على إيجاد عرسان.

لم يتزحزح الرامساد عن موقفه، بل ذكّر رجاله أنّ إنقاذ الجاليات اليهودية في الدول العربية كان من بين مهام الموساد منذ البداية.

أطلق على العمليّة اسم «شميحا»؛ وهي كلمة عبرية تعني «بطّانية».

في اليوم التالي لوصول أعضاء كوزا نوسترا إلى الأراضي السورية، تحسّنت ثقتهم بأنفسهم، وجالوا في شوارع دمشق، وهم يدردشون باللغة الفرنسية. أمعنوا النظر في محيطهم، وتأكّدوا أنّ المخابرات السورية لا تتبعهم. وفي وقت لاحق من ذلك اليوم، تجوّلوا في أسواق المدينة المضاءة، ودخلوا محلّ مجوهرات. كان «بروسبر» و«كلودي» (إيمانويل ألون) يتفحّصان المجوهرات، ويتحدّثان بالفرنسية، عندما انحنى البائع نحوهما وهمس قائلاً: «أنتما من بناي أمينو (كلمة عبرية تعني شعبنا)، أليس كذلك؟».

ذهل العملاء كثيراً، فإن كان تحديد هويّتهم بهذه السهولة، فهم في خطر محدق. تجاهلوا ملاحظة التاجر، وتسلّلوا من المتجر بسرعة واختفوا بين المارّة.

انتشر خبر فرصة الهرب من سوريا إلى إسرائيل بين فتيات الجالية اليهودية. قالت سارة غافني - إحدى الشابّات - لاحقاً: «كان وضعنا سيّئاً جدًّا في سوريا. كنّا نتعرّض لضغوط من أجل الزواج، لكن ممّن؟ لم يكن ثمّة أحد. سمعنا قصصاً وشائعات كثيرة، وأصبحنا مهووسات بفكرة الذهاب إلى إسرائيل؛ إلى أرض اليهود».

وصلت رسالة سرّية إلى بروسبر: مساء غد، ستنتظر الفتيات في شاحنة صغيرة لا تبعد كثيراً عن الفنادق التي تنزلون فيها.

في مساء اليوم التالي، وجد رجال كوزا نوسترا بالفعل الشاحنة الصغيرة مركونة في شارع مظلم، وكانت مغطاة بالقماش. كان العملاء قد أنهوا حجزهم في الفنادق وحملوا حقائبهم معهم. جلس اثنان من كوزا نوسترا في مقدّمة السيّارة، فيما جلس اثنان آخران في الخلف، تحت السقف القماشي؛ حيث كانت عدّة فتيات بانتظارهم؛ تتراوح أعمارهن بين الخامسة عشرة والعشرين، بالإضافة إلى شابّ مراهق. كان أعضاء كوزا نوسترا قد ارتدوا كفّياتهم مجدّداً، وغطّوا رؤوسهم، ولم يتركوا سوى فتحات ضيّقة لأعينهم. عرفوا أنّ عناصر الجيش والشرطة غالباً ما يقيمون حواجز ومراكز تفتيش على الطرقات السريعة في سوريا. وقرّروا - في حال تمّ إيقافهم من قبل الشرطة - أن يقولوا إنّ الشاحنة تصطحب الفتيات في رحلة مدرسية ميدانية.

كان المساعد المحلّي الذي جلب الشاحنة هو الذي يقودها. اصطحب بضع

فتيات من أماكن تمّ التخطيط لها مسبقاً، ثمّ توجّه شمالاً، باتّجاه طرطوس. وصلوا إلى شاطئ منعزل، فاختبأت اليهوديات السوريات والعملاء في كوخ مهجور. على مسافة من الشاطئ، كان بانتظارهم قارب حربي تابع للجيش الإسرائيلي. أرسل بروسبر إشارة إلى القارب بواسطة مصباحه اليدوي، واتّصل بجهاز الراديو. وبعد قليل، وصلت إلى الشاطئ الزوارق المطّاطية يقودها رجال كوماندوس من الأسطول 13.

فجأة، تردّدت أصوات طلقات رصاص قريبة من بروسبر وأصدقائه، فهرعوا للاختباء. لكن سرعان ما تبيّن لهم أنّ الطلقات لم تكن موجّهة إليهم. من الذي يطلق النار؟ هل اكتشف السوريون زوارق الأسطول 13؟ تحدّث قائد رجال الكوماندوس البحريين، غادي كرول، مع إسرائيل قائلاً: «مشاكل على الشاطئ». ثمّ اتّصل بالزوارق المطّاطية وأبحر شمالاً، إلى شاطئ بديل تمّ اختياره مسبقاً. في الوقت نفسه، اندفع بروسبر مع رجاله والفتيات إلى الشاحنة، وانطلقوا شمالاً، ثمّ اتّصلوا بزوارق البحريّة مجدّداً. هذه المرّة، كان الشاطئ هادئاً، فتوجّهت إليه الفتيات مع أفراد كوزا نوسترا، بوجوههم المخبّأة خلف الكفّيات، وغاصوا في الماء حتّى وسطهم، ثمّ صعدوا إلى الزوارق المطّاطية التي أخذتهم إلى عرض البحر. وبعد رحلة صعبة في المياه الهائجة، استقلّوا قارب البحرية الذي استدار عائداً إلى إسرائيل. اختفى العملاء في إحدى القمرات، وأُخذت الفتيات إلى قمرة أخرى، وأُمرن بعدم قول أيّ كلمة لأحد حول هربهنّ من سوريا. فقد تركن أسرهنّ في دمشق، وإن أذيع خبر مجيئهنّ إلى إسرائيل، فسيدفع أهاليهنّ حياتهم ثمناً لذلك.

عاد المساعد المحلّي بالشاحنة إلى دمشق، استعداداً للعملية التالية.

وصل القارب الحربي إلى حيفا من دون مشاكل أخرى. لكن، قبل إرسال الشباب في مهمّتهم التالية، حاول الموساد أن يعرف من الذي أطلق النار تلك الليلة على الشاطئ. فتحقّق جهاز المخابرات من تقارير الجواسيس، ونشّط عملاءه النائمين في سوريا، واتّصل بمصادره في الجيش، لكن من دون جدوى. فاستنتج أنّ الحادث قد يكون كميناً فاشلاً أو ردّ فعل عصبيًّا من قبل الجنود السوريين لدى ملاحظتهم حركة مشبوهة في المياه.

في المرّة التالية، وصل فريق كوزا نوسترا إلى دمشق عن طريق الجوّ. أتوا من باريس كطلاّب في علم الآثار جاءوا لزيارة الآثار السورية. حملوا أوراقاً مزوّرة، وكانت جيوبهم مليئة بتذاكر مترو (باريسي)، ونقود معدنية، وإيصالات من المقاهي والمطاعم، وغير ذلك من الأدلّة الملموسة على هويّتهم المفترضة. كانت وثائقهم نظامية، إلاّ أنّهم متوترون. فماذا لو كشفت المخابرات غطاءهم؟ اجتازوا قسم الهجرة من دون مشاكل، إلاّ أنّهم لم يرتاحوا بالرغم من ذلك. عبروا قاعة الوصول المزدحمة في المطار، وتوجّهوا إلى المدينة مستقلين عدّة سيّارات أجرة. نزل أعضاء كوزا نوسترا في فنادق مختلفة. وحجز كلودي في فندق الهيلتون في دمشق.

هذه المرّة، أمضوا أوّل ليلة لهم في دمشق بأعصاب متوترة. فقد أدرك الشباب الأربعة كيف سيكون مصيرهم إن قُبض عليهم: التعذيب والموت المروّع. طلبوا من المساعد اصطحابهم إلى الساحة التي شنق فيها السوريون قبل بضع سنوات أعظم جاسوس إسرائيلي، إيلي كوهين. كان من الصعب عليهم جدًّا الوقوف في الساحة التي تدلّت فيها جثّة كوهين من حبل المشنقة في حين هتف المحتشدون حوله ولوّحوا بأيديهم. ترك كلودي أصدقاءه في الساحة، وعاد مسرعاً إلى الفندق. لقد أثّرت فيه تلك التجربة وهزّته من الأعماق.

لاحقته تلك الصورة المخيفة، وأمضى الليل وهو يتقلّب على سريره وقد جافاه النوم. فجأة، في منتصف الليل، سمع صوتاً آتياً من قرب الباب، وعرف مصدره فوراً: كان أحدهم يُدخل مفتاحاً في القفل. انتهى الأمر، لقد قبضوا عليه. سيكون التالي الذي سيشنق في ساحة المدينة. اندفع نحو الباب، ونظر عبر الثقب، فرأى سائحة أميركية مسنّة تحاول عبثاً فتح الباب. وبعد عدّة محاولات فاشلة، مشت في طريقها. تبيّن أنّ السيّدة قد صعدت إلى الطابق الخطأ، فشعر كلودي وكأنّه ولد من جديد.

بينما كان الفريق ينتظر استعداد المجموعة التالية من الفتيات، راح أعضاؤه يتجوّلون في شوارع دمشق، ويرتادون المقاهي والمطاعم. نظر النادل بدهشة إلى «الفرنساوية» الأربعة الذين يغرقون في الضحك في أثناء تناولهم الطعام. كان ذلك

خطأ كلودي الذي عمد تكراراً إلى تبديد جوّ التوتّر الهائل الذي يسيطر عليهم من خلال إلقاء خطابات منمّقة ومرتجلة بالفرنسية، وإدخال كلمات ونكات عاميّة بالعبرية.

تمّ تنفيذ هذه العمليّة والعمليّات التي تلتها بنجاح تامّ، حتّى اليوم الذي لاحظ فيه بروسبر وأصدقاؤه حركة غير اعتيادية وتجمّعات كبيرة من الجنود على الشاطئ. لم يكن بإمكانهم المخاطرة على ساحل يخضع لهذا القدر من المراقبة، لذا قرّر بروسبر تغيير خطّ السير.

قال لمساعده: «اذهب إلى بيروت!». واندفعوا إلى العاصمة اللبنانية التي تبعد مئة كلم. بعد عبور الحدود إلى لبنان، توجّه بروسبر إلى جونية؛ الميناء الواقع شمال مدينة بيروت، والذي تقطنه غالبية مسيحية. وقام خلال وقت وجيز باستئجار يخت متوسّط الحجم؛ بعد أن شرح لمالكه أنّه يرغب في اصطحاب حوالى 15 ضيفاً في رحلة بحرية لإقامة «حفلة مفاجئة» لأحد أصدقائه. ما إن تمّ تأمين اليخت وتحضيره للانطلاق، حتّى أبرق إلى رؤسائه في باريس بالشيفرة وأبلغهم بتغيّر المخطّط. وسرعان ما تلقّى تأكيداً على القناة نفسها.

في تلك الليلة، أتت الشاحنة من دمشق، محمّلة كالعادة بشابّات يهوديات. كان كلودي جالساً أمام المقود. توقّفت الشاحنة على بعد عدّة كيلومترات من الحدود اللبنانية، وفرّغت حمولتها البشرية، فيما تابع كلودي طريقه في الشاحنة بمفرده، وقدّم أوراقه في مركز التفتيش الحدودي ثمّ عبر إلى لبنان. وهناك، أوقف الشاحنة على جانب الطريق وانتظر. مشت الفتيات في الظلام وهنّ يحملن حقائبهنّ الثقيلة برفقة عملاء الموساد لساعات، وكنّ يتعثّرن فوق الأرض الصخرية وهنّ يتجاوزن حاجز مراقبة الحدود. وبعد مسيرة مضنية، وصل الجميع إلى الطريق الواقع إلى الجانب الآخر من الحدود، والتحقوا بكلودي الذي اصطحبهم إلى جونية. صعدوا على متن اليخت، واحداً تلو الآخر، وأبحر اليخت أخيراً في «الرحلة الممتعة». وفي عرض البحر، نُقلت الفتيات إلى قارب البحريّة.

أمضى أعضاء فريق كوزا نوسترا اليوم التالي في بيروت وهم يتجوّلون ويتسوّقون. وفي الليل، عادوا إلى دمشق بالطريقة نفسها التي جاءوا فيها. فترجّل

ثلاثة من العملاء قبل بضعة كيلومترات من الحدود، ومشـوا في الحقول المظلمة للالتفـاف حـول مركـز التفتيش. أمّا كلـودي، فعبر الحدود بشـاحنته بطريقة قانونية والتقى أصدقاءه على الطريق، واصطحبهم معه إلى دمشق.

في اليوم التالي، سافروا جميعاً إلى باريس، ومن هناك إلى تل أبيب.

انتهـت العمليّـة فـي أبريـل 1973، عندمـا أتت غولدا مئير شـخصياً إلى قاعدة حيفا البحرية لتقديم الشكر إلى بروسبر، وكلودي، وأصدقائهما على ما فعلوه. بين سـبتمبر 1970 وأبريل 1973، نفّذ الموسـاد والبحرية حوالى 20 عمليّة لنقل شـابّات يهوديات من سوريا عبر شواطئ طرطوس والساحل اللبناني. كانت جميع العمليّات ناجحة، وتمّ نقل حوالى 120 شـابّة إلى إسـرائيل. بقيت هذه المهمّة طيّ الكتمان لأكثر من ثلاثين عاماً.

كانـت تلـك نهايـة كوزا نوسـترا. فقد تحوّل أعضاؤها بعد ذلك إلى ممارسـة أنشـطة أكثر سـلمية مثل الأعمال التجارية، والسـياحة، والخدمة المدنية؛ وإن كانوا يُطلبون من وقت إلى آخر لأداء عمليّات خاصّة للموساد.

مرّ الوقت، ودعي إيمانويل ألون (كلودي) إلى حفل زفاف أحد أقاربه. وعندما تـمّ تقديمـه إلـى العـروس، عرفها على الفور. كانت إحدى العذارى اللواتي سـاعد على إحضارهنّ من سوريا. سألها: «من أين أنت؟».

شحب وجه الفتاة، فقد شعرت أنّها ملزمة بالمحافظة على سرّية ما حصل في ماضيها، إلاّ أنّ ألون ابتسم قائلاً: «ألم تأتي من سوريا عن طريق البحر؟».

أوشكت المرأة أن تصاب بالإغماء، لكنّها فجأة فتحت ذراعيها وعانقته وقبّلته بحرارة. تمتمت: «أنت، أنت من أخرجني من هناك!».

قال ألون لاحقاً: «كانت تلك اللحظة تستحقّ المجازفة».

الفصل الرابع عشر

«اليوم سنخوض الحرب!»

في 5 أكتوبر 1973، عند الساعة الواحدة من بعد منتصف الليل، تلقّى عميل الموساد الملقّب بالاسم الشفري «دوبي» اتّصالاً من القاهرة. كان دوبي ضابطاً رفيع المستوى يعمل في إحدى القضايا من بيت آمن في لندن. شكّلت له المكالمة الهاتفية صدمة هائلة. كان المتصل أحد أهمّ عملاء الموساد وأكثرهم سرّية؛ إذ كانت قلّة مختارة فقط هي التي تعرف بوجوده. كان معروفاً بلقب الملاك (ويسمّى في بعض التقارير «رشاش» أو «هوتئيل»). قال الملاك بضع كلمات فقط، لكنّ كلمتين فقط جعلتا دوبي يرتعد خوفاً: «مواد كيميائية». اتّصل دوبي بمقرّ الموساد في إسرائيل على الفور، ونقل إليهم الكلمة المشفّرة. ما إن سمع بها الرامساد، تسفي زامير، حتّى قال لرئيس أركانه فريدي إيني: «أنا ذاهب إلى لندن».

عرف أنّ الوقت ضيّق. فعبارة «مواد كيميائية»، تنطوي على رسالة لا تحمد عقباها مفادها: «نتوقّع هجوماً فوريًّا على إسرائيل».

كانت إسرائيل تتوقّع هجوماً من جيرانها العرب منذ حرب الأيّام الستّة عام 1967 التي سيطرت فيها على أجزاء كبيرة من الأراضي: شبه جزيرة سيناء، وقطاع غزّة من مصر، ومرتفعات الجولان من سوريا، والضفّة الغربية والقدس من الأردن. وكان الجيش الإسرائيلي منتشراً الآن على هضبة الجولان، وعلى الساحل الشرقي لقناة السويس، وعلى طول نهر الأردن. وكانت الدول العربية تسنّ سيوفها وتتوعّد بالانتقام، لكن في حرب الاستنزاف التي أعقبت معارك الأيّام الستّة، بقيت الغلبة لإسرائيل. وكلّ جهودها لمقايضة الأراضي التي احتلّتها حديثاً بالسلام قوبلت برفض غاضب من الدول العربية. في تلك الأثناء، توفّي رئيس مصر ذو المشاعر

الملتهبة جمال عبد الناصر، وحلّ مكانه أنور السادات. كان السادات رجلاً يفتقر إلى الكاريزما، واعتبره الخبراء الإسرائيليون ضعيفاً ومتردّداً وعاجزاً عن قيادة شعبه إلى حرب جديدة. أمّا في إسرائيل، فبعد وفاة رئيس الوزراء إشكول، أوكلت قيادة إسرائيل إلى يدي غولدا مئير القويتين، بشخصيتها الكاريزمية. كانت مئير سياسية صارمة وقوية، يعاونها وزير الدفاع المشهور عالمياً موشيه دايان. فبدا أنّ أمن إسرائيل أصبح في أياد أمينة.

قبل بضعة أسابيع من الاتّصال الهاتفي، سافر الملك حسين، ملك الأردن، إلى إسرائيل بسرّية تامّة، وحذّر غولدا مئير من أنّ المصريين والسوريين يخطّطون لشنّ هجوم على إسرائيل. كان حسين قد أصبح حليف إسرائيل سرًّا، ودخل في مفاوضات مكثّفة مع مبعوثي غولدا. لكن، في ذلك الوقت لم تركّز غولدا على تحذيرات الملك حسين، بل كانت أكثر اهتماماً بالانتخابات المقبلة، وشنّت حملتها الانتخابية في حزب العمّال تحت شعار: «كلّ شيء هادئ على قناة السويس».

قبل 18 ساعة من 6 أكتوبر (يوم كيبور)، بدا أنّ قناة السويس غير هادئة إطلاقاً. فقد أخذ تسفي زامير تحذير الملاك على محمل الجدّ. واستناداً إلى الإجراءات التي تمّ ترتيبها مسبقاً، كان يتعيّن على الرامساد، عند تبلّغه بكلمة السرّ، أن يقابل عميله في لندن حالما تصله الإشارة.

استقلّ زامير أوّل طائرة متجهة إلى لندن. كان الموساد يحتفظ بمنزل سرّي آمن في الطابق السادس من مبنى سكني في العاصمة البريطانية، على مقربة من فندق دورتشستر. وكانت الشقّة مؤمّنة من قبل عملاء الموساد. فقد تمّ الحصول عليها وتجهيزها لغرض واحد: الاجتماعات مع الملاك. حالما وصل تسفي زامير، قامت مجموعة من عشرة عملاء موساد بالتمركز حول المبنى، لحماية رئيسهم في حال كانت الإشارة التي أتت من القاهرة جزءاً من مؤامرة لخطفه أو التعرّض له بالأذى. كان رئيس الوحدة هو المخضرم تسفي مالكين، العميل الأسطوري الذي ساعد في عمليّة إلقاء القبض على إيخمان في الأرجنتين.

انتظر زامير بتوتّر وصول الملاك طوال اليوم. على ما يبدو، توقّف عميله في روما في طريقه من القاهرة، ولم يصل إلى لندن إلاّ في ساعة متأخّرة من المساء.

التقى الرجلان في المنزل الآمن عند الساعة 11 مساء.

في غضون ذلك، حلّ على إسرائيل يوم كابور، وهو يوم عطلة مخصص للصلاة، والصوم، والتكفير. فيه تتوقّف كلّ الأعمال، ويوقف الراديو والتلفزيون البرامج الإذاعية، ولا تسير أيّ سيّارة على الطرقات. وبقيت حدود الدولة اليهودية تحت حراسة وحدات جيش خالية.

دام الاجتماع بين زامير والملاك ساعتين، دوّن خلالهما دوبي كلّ كلمة قيلت.

كانت الساعة قد شارفت على الواحدة صباحاً عندما انفضّ الاجتماع. قام دوبي بدعوة الملاك إلى غرفة أخرى، وهناك دفع له أجره المعتاد البالغ 100,000 دولار. أمّا زامير، فكتب برقية عاجلة إلى إسرائيل. لكنّ عملاء الموساد، لم يتمكّنوا من إيجاد مفكّك الشيفرة في السفارة لنقل الرسالة الحيوية. أخيراً، فقد زامير أعصابه واتّصل بمنزل فريدي إيني. لم يجب أحد على الاتّصال، فقال له عامل الهاتف: «لم يجب أحد يا سيّدي. أظنّ أنّ اليوم يوم عطلة مهمّة في إسرائيل».

أجاب زامير غاضباً: «حاول مجدّداً!». أخيراً، أيقظ الرنين رئيس أركانه الذي ردّ على الهاتف. بدا شبه نائم. فقال له زامير: «أحضر حوضاً من الماء البارد، وضع قدميك فيه، ثمّ تناول قلماً وورقة». فعل فريدي ما أُمر به، ثمّ أملى عليه زامير الجملة المشفّرة: «إنّ الشركة ستوقّع العقد بنهاية هذا اليوم».

أضاف زامير: «والآن، ارتدِ ملابسك، واذهب إلى المقرّ وأيقظ الجميع».

نفّذ فريدي أوامر زامير حرفياً، فبدأ يتّصل بقادة إسرائيل السياسيين والعسكريين. كان ملخّص رسالته يعني: «الحرب ستندلع اليوم».

بعد مدّة قصيرة، وصلت البرقيّة التي كتبها زامير أخيراً إلى تل أبيب: «استناداً إلى الخطّة، سيشنّ المصريون والسوريون هجوماً في وقت مبكر من المساء. فهم يعرفون أنّ اليوم يوم عطلة، ويعتقدون أنّهم يستطيعون الوصول [إلى جانبنا من قناة السويس] قبل حلول الظلام. سيتمّ تنفيذ الهجوم وفقاً للخطّة التي نعرفها. يعتقد (الملاك) أنّ السادات لا يستطيع تأجيل الهجوم بسبب وعد أعطاه لزعماء عرب آخرين، ويرغب في الالتزام بوعده بتفاصيله كافة. ويقدّر المصدر أنّه على

الرغم من تردّد السادات، فإنّ احتمال تنفيذ الهجوم يبلغ 99.9 بالمئة. يعتقدون أنّهم سينتصرون، لهذا السبب يخشون كشفاً مبكراً قد يتسبّب بتدخّل خارجي. ومن شأن ذلك أن يردع بعض الشركاء الذين سيعيدون النظر في بعض الأمور. لن يشارك الروس في العمليّة».

لم يأخذ الجميع تقرير الزامساد الدرامي على محمل الجدّ. فقد كان الجنرال إيلي زيرا، رئيس أمان الوسيم والواثق من نفسه، على قناعة أنّه ما من خطر حرب، على الرغم من التقارير المقلقة الواردة من المصادر الاستخبارية. واعتقد أنّ التمركز الكبير للجنود المصريين والمدرعات على الشاطئ الأفريقي لقناة السويس ليس سوى جزء من مناورة عسكرية كبيرة. أقرّ زيرا أيضاً - في حديث مع زامير - أنّه «لا يملك تفسيراً» لسبب ذكر تقرير وارد من الوحدة 848 (سمّيت لاحقاً الوحدة 8200، وكانت 848 منشأة استماع ورصد تابعة للجيش الإسرائيلي) أنّ أسر المستشارين العسكريين الروس في سوريا ومصر تغادر البلدين على وجه السرعة؛ وهي إشارة مؤكّدة إلى حرب وشيكة.

كان رئيس أمان ومعظم قادة مجتمع الدفاع مؤمنين «بالمفهوم»؛ وهي نظرية تفيد أنّ مصر لن تهاجم إسرائيل إلاّ بشرطين: الأوّل، أن تحصل من الاتّحاد السوفييتي على طائرات مقاتلة قادرة على مواجهة الطائرات الحربية الإسرائيلية، فضلاً عن قاذفات وصواريخ تصل إلى المراكز السكّانية الإسرائيلية. والثاني، أن تضمن مشاركة الدول العربية الأخرى في الهجوم. وإن لم يتحقّق هذان الشرطان، فلن يكون هناك احتمال لهجوم مصري؛ وفقاً للمفهوم. من شأن مصر أن تهدّد، وأن تستفزّ، وأن تنفّذ مناورات ضخمة، لكنّها لن تذهب إلى حرب.

لكنّ هذه النظرية فشلت قبل ذلك، عام 1967. ففي ذلك العام، كان جزء كبير من الجيش المصري موجوداً في اليمن؛ يشنّ حرباً طويلة ضدّ الجيش الملكي. وكانت إسرائيل مقتنعة أنّ مصر لن تبادر إلى القيام بأيّ عمل استفزازي أو عدواني ما دام جيشها في المستنقع اليمني. لكن، في 15 مايو 1967، اجتازت وحدات النخبة في الجيش المصري سيناء فجأة ووصلت إلى الحدود الإسرائيلية، في حين طرد الرئيس جمال عبد الناصر مراقبي الأمم المتّحدة، وأغلق مضيق البحر

الأحمر أمام السفن الإسرائيلية. وكان ينبغي على الخبراء الإسرائيليين أن يدركوا فشل منطقهم، لكنّ بريق الانتصار المذهل الذي حقّقته إسرائيل في حرب الأيّام الستّة أنساهم ذلك.

سيطرت نظرية «المفهوم» على اجتماع مجلس الوزراء الاستثنائي الذي تمّت الدعوة إليه في الساعات الأولى من 6 أكتوبر 1973. وشكّك عدّة وزراء، بالإضافة إلى زيرا، في صحّة التقرير عن هجوم مصري سوري وشيك ومفاجئ. سبق للملاك أن حذّر إسرائيل مرّتين في الماضي، في نوفمبر 1972 ومايو 1973، بشأن هجوم وشيك. صحيح أنّه تراجع في اللحظة الأخيرة، لكن في مايو 1973، تمّ حشد أعداد هائلة من جنود الاحتياط على وجه السرعة، وكلّفت العمليّة إسرائيل مبلغاً هائلاً بلغ 34.5 مليون دولار.

في اجتماع مجلس الوزراء الذي عقد صباح هذا اليوم، كان الجميع يدركون خطورة الوضع. مع ذلك، استقرّ رأيهم على تعبئة جزئية لجنود الاحتياط. قرّر الوزراء أيضاً عدم شنّ ضربة وقائية على الجيوش المصرية المتمركزة على طول القناة.

عاد زامير إلى إسرائيل، وظلّ متمسّكاً برأيه: «الحرب باتت وشيكة!». ونقل تحذير الملاك بأنّ هجوماً مصرياً سورياً مشتركاً سيشنّ قبل الغروب بقليل.

عند الساعة الثانية ظهراً، استدعى زيرا المراسلين العسكريين إلى مكتبه، وأبلغهم بوجود احتمال ضعيف باندلاع حرب. لم يكن قد أنهى حديثه بعد عندما دخل أحد المساعدين مكتبه وسلّمه مذكّرة قصيرة. قرأها زيرا، ومن دون أن يتفوّه بأيّ كلمة حمل قبّعته وأسرع خارجاً من الغرفة.

بعد بضع لحظات، مزّقت صفّارات الإنذار الصمت، وبدأت الحرب.

بعد الحرب، اتّهم كبار ضبّاط أمان الملاك بأنّه ضلّل زامير عندما ذكر أنّ ساعة الصفر لبداية الحرب هي آخر النهار، في حين أن الهجوم الفعلي بدأ في منتصف اليوم. ولم يثبت سوى لاحقاً أنّ ساعة الصفر قد عُدّلت في آخر لحظة؛ خلال اتّصال هاتفي بين الرئيسين السوري والمصري. وحينذاك، كان الملاك في

الجوّ، في طريقه إلى لندن.

يبدو غريباً أن ينزعج قادة أمان من الخطأ الذي ارتكبه الملاك، أو من تحذيراته الخاطئة السابقة. على ما يبدو، لم يعتبر رؤساء أمان الملاك مصدراً للمخابرات، بل ممثّلاً للموساد في مكتب الرئيس المصري؛ يفترض به أن يقدّم تقريراً مفصّلاً عن كلّ ما يجري هناك. وتجاهلوا أنّه على الرغم من منصبه الرفيع، لم يكن سوى جاسوس يقدّم تقارير ممتازة، لكنّه لا يعرف دائماً كلّ شيء؛ كما هو الحال مع أيّ جاسوس آخر.

في حرب 6 أكتوبر التي اندلعت في ذلك اليوم، ظلّ الملاك يزوّد إسرائيل بمعلومات من الدرجة الأولى. وعندما أطلق المصريون صاروخَي سكود على تجمّعات للجنود الإسرائيليين، وصل تقرير مطمئن إلى إسرائيل من قبل الملاك. لم تكن لدى الجيش الإسرائيلي أيّ نيّة باستخدام المزيد من الصواريخ في أثناء القتال، ولن تصعّد مصر الحرب على إسرائيل؛ وفقاً لما قاله.

انتهت الحرب في 23 أكتوبر. في مرتفعات الجولان، هُزم الجيش السوري، وتمركزت المدافع الإسرائيلية على بعد 20 ميلاً من دمشق. في الجنوب، احتلّ المصريون قطاعاً بعرض خمسة أميال من الشاطئ الإسرائيلي لقناة السويس، لكنّ جيشهم الثالث كان محاطاً تماماً من قبل الإسرائيليين الذين أسّسوا رأس جسر في الأراضي المصرية، واخترقوا الخطوط المصرية، ووصلوا إلى مراكز جديدة بالكاد تبعد 63 ميلاً من القاهرة.

مع ذلك، لم تستطع إسرائيل أن تفرح بهذا الفوز. فقد كلّفتها الحرب حياة 2656 شخصاً، و7251 جريحاً، كما أنّ أسطورة تفوّقها قد تدمّرت.

بدأت المفاوضات بين الإسرائيليين والمصريين، وبدأ التوقيع على معاهدات؛ أوّلاً لإنهاء القتال، ومن ثمّ لإحلال سلام دائم بين الأمّتين. أمّا سوريا فرفضت الانضمام إلى عمليّة السلام.

أكمل تسفي زامير مدّته في منصبه، وحلّ مكانه الجنرال إسحاق (هاكا) هوفي. تقاعد زامير وسط تنويه عام بإنجازاته. وقد شُهد له أنّه الرجل الوحيد في أجهزة الاستخبارات الذي حذّر من استعدادات عسكرية للسوريين والمصريين،

وأتى بتقرير حاسم حول هجوم وشيك على إسرائيل. ولو أنّ قادة إسرائيل أخذوا تحذيراته بجدّية أكبر، وأمروا بضربة وقائية فورية، لكان من المحتمل جدًّا أن تُسفر الحرب عن نتائج أفضل بكثير بالنسبة إلى إسرائيل. وأكّد بعض وزراء الحكومة أنّ إسرائيل امتنعت عن اتّخاذ إجراء وقائي لكي لا تُتّهم ببدء الحرب. هذه المقولة لا تبدو ملفّقة وحسب، بل تُعتبر أيضاً قراراً ينمّ عن قِصر نظر. فما هو الأهمّ، ألاّ «تُتّهم» إسرائيل بالتسبّب بحرب أم أن تحمي نفسها بكلّ الوسائل المتاحة لها؟

مع ذلك، يؤكّد المؤرّخ الإسرائيلي د. يوري بار يوسف أنّ تحذير الملاك أنقذ مرتفعات الجولان. ففي صبيحة 6 أكتوبر، تمّ حشد الدبّابات على وجه السرعة بعد تقرير الملاك، كما كتب. ووصلت تلك الدبّابات إلى الجولان بعد الظهيرة، وأوقفت التقدّم السوري في قطاع رفح.

عند انتهاء الحرب، وتحت ضغط شعبي غير مسبوق، عيّنت الحكومة الإسرائيلية مجلس تحقيق برئاسة قاضي المحكمة العليا شيمون أغرانات للتحقيق في عمليّة صنع القرار خلال يوم 6 أكتوبر. وأمر المجلس بصرف الجنرال إيلي زيرا من الخدمة فوراً (فضلاً عن عدّة ضبّاط آخرين، بمن فيهم رئيس الأركان ديفيد إلعازر).

لكن، من كان الملاك؟ نُشرت سلسلة لا متناهية من القصص، والتقارير، والكتب – وجميعها خاطئة – عن هويّته على مرّ السنوات. لا شكّ أنّ الملاك كان شخصاً مقرّباً جدًّا من الدوائر الحاكمة في مصر ومن القيادة العليا للجيش المصري، لكنْ لم يتمكن أحد من اختراق درع السرّية التي حمت هويّته الحقيقية. أطلق عليه الصحفيون والمحلّلون عدّة ألقاب، ورسموا له صورة أضفوا عليها مواهب أسطورية. فأصبح بطل الكثير من قصص التجسّس وحتّى بعض الروايات الأكثر مبيعاً.

بعد خروج الجنرال زيرا من الخدمة، شعر بإحباط عميق، وكان مصمّماً على إثبات براءته وكشف روايته لأحداث عام 1973 إلى العالم.

أخيراً، قرّر تأليف كتاب، وإعطاء إجابته عن السؤال: لماذا رفض تقرير الملاك؟

كتب الجنرال أنّ الملاك لم يكن سوى عميل مزدوج زُرع في الموساد من قبل المصريين المراوغين من أجل تضليل الإسرائيليين.

صدّق بعض المراسلين قصّة زيرا، وكتبوا أنّ الملاك كان بالفعل عميلاً مزدوجاً بامتياز. وشرحوا أنّ دور الملاك كان يقوم على تسليم إسرائيل - على مدى فترة من الزمن - معلومات صادقة ودقيقة من أجل كسب ثقتها. وعندما يركن الموساد إليه ويثق بمعلوماته، يتمّ تزويد الجهاز بكذبة بشعة تهدف إلى تدميره.

كانت قصّة عظيمة. فهي تشرح كلّ شيء، تقريباً... لأنّ كلاً من زيرا وأتباعه اختاروا تجاهل حقيقة واضحة وبسيطة، وهي أنّ كلّ تقارير الملاك - من البداية إلى النهاية - كانت دقيقة تماماً. فأين يكمن الكذب؟

ففيما كان باستطاعة الملاك تضليل إسرائيل وإبلاغها أنّ انتشار القوّات على ساحل قناة السويس كان مجرّد مناورة، وأنّ خطر الحرب ليس موجوداً، اختار «العميل المزدوج» الحلّ المعاكس، واتّصل بمساعد زامير في إنكلترا، وأرسل إليه تحذيراً - «مواد كيميائية» - ثمّ سافر إلى لندن وحذّر زامير من أنّ الهجوم المفاجئ بات وشيكاً.

لكنّ زيرا لم يكتف بذلك. ففي عام 2004، نُشرت طبعة جديدة من كتابه، وذهب فيها خطوة أبعد؛ كاشفاً عن هويّة الملاك الحقيقية إلى العلن. وفي سلسلة من المقابلات التي بلغت ذورتها في برنامج إخباري تلفزيوني استضافه الصحفي المخضرم دان مارغاليت، استخدم زيرا الاسم الحقيقي للملاك.

أشرف مروان.

أذهل الاسم كلّ من يعرف الأوساط السياسية المصرية. ولم يصدّقوا أنّ مروان يمكن أن يكون جاسوساً إسرائيلياً.

لكن، من كان هذا الجاسوس البارع؟ من كان أشرف مروان؟

عام 1965، التقت فتاة مصرية جميلة وخجولة شابًا ساحراً ووسيماً في ملعب تنس في مصر الجديدة. كانت الفتاة المدعوة منى هي الابنة الثالثة في أسرتها، لكنّها لم تكن الأكثر ذكاءً بالضبط. فقد كانت شقيقتها هدى أكثر ذكاء منها، وكانت طالبة

مجتهدة في ثانوية الجيزة. أمّا منى، فكانت جميلة وساحرة وطفلة أبيها المدلّلة.
كان الشابّ الذي التقته ينتمي إلى أسرة محترمة وميسورة. تخرّج للتوّ بدرجة بكالوريوس في الكيمياء، والتحق بالجيش. وأغرمت به منى حتّى أذنيها.

بعد مدّة قصيرة، عرّفت أسرتها على صديقها. وهكذا، تعرّف الشابّ على والد منى؛ الرئيس المصري جمال عبد الناصر.

لم يكن عبد الناصر واثقاً من أنّ ابنته اختارت الرجل المثالي، لكنّها لم تترك له أيّ خيار. أخيراً، دعا عبد الناصر والد الشابّ الذي كان ضابطاً كبيراً في الحرس الجمهوري إلى مكتبه، واتّفق الرجلان على زواج ولديهما. بعد عام، في يوليو 1966، تزوّج الشابّان. وبعد فترة وجيزة، تمّ تعيين زوج منى الشابّ في قسم الكيمياء في الحرس الجمهوري. وفي أواخر عام 1968، نُقل إلى قسم العلوم الرئاسي.

كان اسم صهر الرئيس أشرف مروان.

على ما يبدو، لم يكن الشابّ راضياً بوظيفته الجديدة، فطلب من عبد الناصر السماح له بمتابعة دراساته في لندن. وافق عبد الناصر، وانتقل أشرف مروان إلى العاصمة البريطانية بمفرده، تحت المراقبة المشدّدة للسفارة المصرية.

لكنّ المراقبة لم تكن مشدّدة بما فيه الكفاية على ما يبدو. فقد أحبّ أشرف مروان الحياة الغربية والحفلات والمغامرات، وكانت لندن في الستّينيات تقدّم كلّ ذلك بسخاء. ولم يمضِ وقت طويل حتّى أنفق الشابّ المصري كلّ مخصّصاته، وأصبح بحاجة إلى مصدر آخر لتمويل ملذّاته الليلية، وسرعان ما وجده.

كان اسمها سعاد، وكانت زوجة أحد الشيوخ الخليجيين. سحر أشرف السيّدة الرومانسية، التي فتحت له حقيبتها في المقابل. لكنّ ذلك لم يدم طويلاً، فقد وصل خبر العلاقة إلى عبد الناصر الذي ثار غضبه، وأرسل في طلب الشابّ. طلب عبد الناصر من منى أن تنفصل عن زوجها الخائن، لكنّها رفضت رفضاً قاطعاً. أخيراً، قرّر عبد الناصر أن يبقى مروان في مصر، حيث لا يُسمح له بالذهاب إلى لندن إلاّ لتقديم أوراقه إلى أساتذته. كان على مروان أيضاً أن يعيد لسعاد كلّ المال الذي أخذه منها. فاستلم وظيفة في مكتب عبد الناصر، وكان يكلّف من وقت إلى آخر بمهام بسيطة.

عام 1969، عاد أشرف مروان إلى لندن مجدّداً لتقديم رسالة إلى الجامعة. لكن، في تلك المناسبة، قام بأوّل خطوة لخيانة حميه. فإذلال الرئيس المصري له خلّف لديه إحساساً بالمرارة والإحباط. لم يتردّد، بل اتّصل بالسفارة الإسرائيلية وطلب التحدّث مع الملحق العسكري. وعندما أجاب الموظّف، عرّف مروان عن نفسه باسمه الحقيقي، وقال بوضوح إنّه يريد العمل لصالح إسرائيل، وطلب إرسال عرضه إلى الأشخاص المسؤولين عن هذا النوع من الأنشطة. لم يأخذ الموظّف كلامه على محمل الجدّ، ولم يبلغ عن الاتّصال. وبقي الاتّصال الثاني لمروان أيضاً من دون جواب. لكنّ القصّة بلغت مسامع بعض المسؤولين في الموساد. فقد تلقّى رئيس القسم الأوروبي في الموساد، شموئيل غورين، مكالمة هاتفية من مروان. عرف غورين من يكون مروان، وأدرك موقعه الهامّ، وطلب منه عدم الاتّصال بالسفارة بعد الآن. ثمّ أعطاه رقماً غير مدرج، وأخبر بعض زملائه على الفور. تمّ تسليم تقرير غورين بالغ السرّية إلى تسفي زامير ورحافيا فاردي، رئيس تسوميت؛ وهو قسم الموساد المسؤول عن تجنيد العملاء. فعيّن الرجلان فريقاً خاصًّا لبحث عرض مروان بشكل معمّق. من جهة، كانت خطوة مروان تشتمل على كلّ خصائص عمليّة اللدغة الكلاسيكية، التي يقوم فيها شخص رفيع المستوى في منظّمة معادية بالتطوّع كعميل؛ من دون الحاجة إلى أيّ مجهود لتجنيده. بدا ذلك مريباً جدًّا؛ فقد يكون الرجل عميلاً مزدوجاً أرسل كطعم من قبل الأجهزة المصرية.

لكن بالمقابل، قد يكون للمعادلة نفسها معنى معاكس. يقوم شخص رفيع المستوى في منظّمة معادية بالتطوّع كعميل. لا شكّ في أنّه يستطيع الوصول إلى مواد بالغة السرّية لا يمكن لأحد غيره توفيرها. قد يكون في النهاية العميل المثالي الذي يحلم به أيّ جهاز مخابرات في العالم. علاوة على ذلك، كان رجال فاردي يعرفون من هو مروان؛ فهو شابّ طموح، يسعى وراء المتعة، وبالتالي يحبّ المال. لذا، وجد مجنِّدو الموساد الإغراء عظيماً.

ذهب غورين إلى لندن وطلب الاجتماع بمروان، فوافق المصري وأتى مرتدياً ملابس أنيقة؛ فهو يحب أن يظهر بمظهر الشابّ الوسيم دائماً. أخبر أشرف غورين بصراحة أنّه شعر بخيبة أمل عميقة بعد هزيمة مصر في حرب الأيّام الستّة، وقرّر

الانضمام إلى الفريق المنتصر. لكن، بالإضافة إلى ذلك الدافع «الأيديولوجي»، طلب مروان مبالغ كبيرة من المال: 100,000 دولار عن كلّ اجتماع يقدّم فيه تقريراً لمشغّليه.

مال غورين إلى قبول العرض على الرغم من كلفته الباهظة؛ إذ لم يُدفع مبلغ كبير كهذا من قبل لأيّ عميل موساد. لكنّه احتاج أوّلاً إلى دليل ملموس على أنّ مروان سيلتزم بكلامه، فطلب منه عيّنة من الوثائق السرّية التي يمكنه تقديمها. أضف إلى ذلك أنّ تسليم تلك الوثائق سيربط مروان بالموساد، وسيشكّل دليلاً قاطعاً - ومجرّماً - على أنّ مروان أصبح عميلاً إسرائيلياً الآن. ومن وجهة النظر المصرية، سيجعله ذلك خائناً وعميلاً للعدوّ.

لم يدعه مروان ينتظر طويلاً، بل جلب له المحضر الكامل للمحادثات التي أجراها الرئيس عبد الناصر مع قادة الاتّحاد السوفييتي في موسكو، في 22 يناير 1970. في تلك الزيارة، طلب عبد الناصر أن يزوّده السوفييت بقاذفات نفّاثة طويلة المدى تحمل المتفجّرات إلى عمق إسرائيل.

أذهلت الوثيقة كلّ من قرأها، إذ لم يسبق لهم أن رأوا ورقة كهذه، وأصالتها لم تدع مجالاً للشكّ. أدرك رؤساء الموساد الآن أنّهم يملكون كنزاً خيالياً بين أيديهم، فعيّنوا دوبي مشغّلاً لمروان وأرسلوه إلى لندن، كما اعتنوا بالترتيبات كافّة على الفور: استئجار شقّة في لندن من أجل الاجتماعات مع الملاك، وتجهيزها بأجهزة تنصّت وتسجيل خفيّة، وتأمينها، وإنشاء صندوق خاصّ من أجل تمويل عميلهم النجم. أصبح بالإمكان بدء اللعبة.

كان مروان هو من يبادر إلى الاجتماعات؛ كلّما كان لديه ما يقدّمه. فاستناداً إلى القواعد التي وضعها مع دوبي، كان يتّصل بوسيط (ادّعت بعض المصادر أنّه كان يتّصل بنساء يهوديات في لندن)، وهكذا يتمّ تنبيه الموساد. قدّم مروان لمشغّليه الكثير من المعلومات والوثائق السياسية والعسكرية بالغة السرّية. وشارك الكولونيل مثير مثير، رئيس الفرع السادس (الجيش المصري) في أمان، في عدد من تلك الاجتماعات. كان مثير يسافر إلى لندن بهويّة مزيّفة، وتتمّ إزالة كلّ الشارات عن ملابسه. وكان يتنقّل في أرجاء لندن لساعات، سيراً على الأقدام، وفي سيّارات

الأجـرة والباصـات، ليتأكّـد أنّـه ليـس ملاحقاً، ثمّ يتوجّه أخيراً إلى المبنى السـكني ويصعد إلى الطابق السادس. عندما قصد الشقّة في المرّة الأولى، التقى هناك رجلاً وسيماً لكنّه غير لطيف، ازدراه بشكل صريح وتكبّر عليه. ولم يتحسّن سلوك مروان إلاّ عندمـا أدرك أنّ مئيـر رجـل واسـع المعرفة والخبرة. فـي إحدى المرّات، طلب عميل الموساد من مئير أن يجلب لمروان حقيبة. وعندما سأل عمّا يوجد في تلك الحقيبـة، غمـزه صديقـه وقـال: «بينتهـاوس في سـاحة هاميدينا» (أهـمّ حيّ في تل أبيب)، ملمحاً إلى أنّها تحتوي على مبلغ خيالي من المال. اسـتناداً إلى تقديرات الموسـاد، كلّفت تقارير مروان الدولة اليهودية في أثناء عمالته لإسـرائيل أكثر من 3 ملايين دولار.

توفّـي عبـد الناصـر فـي 28 سـبتمبر 1970، وحـلّ مكانه أنور السـادات. فقام البروفيسـور شـيمون شـامير، أحد أهمّ العلماء الإسـرائيليين في الشـؤون المصرية، بتحليل شـخصية السـادات للموسـاد. قال عنه إنّه رجل ضعيف وممل، وشدّد على أنّ السـادات لن يمكث في السـلطة طويلاً أو يذهب إلى الحرب. كان الكثير من قادة مصر يعتقدون الشـيء نفسـه، لكنّ مروان قرّر دعم السـادات من دون قيد أو شـرط، فأخذ مفاتيح خزنة عبد الناصر الشـخصية من زوجته، وجمع أهمّ الملفّات والوثائق، وأخذها إلى الرئيس الجديد.

كمـا وقـف بجانبـه مجدّداً في مايو 1971، عندمـا تآمر بعض قادة مصر لتنفيذ انقـلاب مـوال للاتّحـاد السـوفييتي. وكان مـن بين المتآمرين بعض الأسـماء الأكثر شـهرة في مصر: علي صبري نائب الرئيس السـابق، ومحمود فوزي وزير الحرب السـابق، وشـعراوي جمعـة وزيـر الداخلية، وغيرهـم من الـوزراء وأعضاء البرلمان. كانـت الخطّـة تقضـي باغتيال السـادات خلال زيارته إلى جامعة الإسـكندرية. لكنّ السـادات تحرّك أوّلاً واعتقل المتآمرين، فوقف مروان بجانبه، وعاونه على سـحق المؤامرة.

وسرعان ما قطف ثمار ذلك. فقد تحسّن مركزه في التسلسل الهرمي المصري تحسّـناً كبيـراً، وتـمّ تعيينـه أميناً عامًّا رئاسـياً للمعلومات، ومستشـاراً خاصًّا لرئيس الجمهوريـة. وهكـذا، رافـق السـادات في رحلاته في أنحاء العالم العربي، وشـارك

في محادثات سياسية على أعلى مستوى.

مع تحسّـن مركز مروان، تحسّـنت تقاريره. ففي عام 1971، سـافر السـادات إلى موسـكو عدّة مرّات، وقدّم لليونيد بريجنيف لائحة بالأسـلحة التي يحتاج إليها للهجوم على إسرائيل. تضمّنت اللائحة - من بين أشياء أخرى - طائرة ميغ - 25. قدّم مروان اللائحة إلى مشغّليه في الموساد. وعندما سألوه عن محضر المحادثات بين السـادات وبريجنيف، أحضره أيضاً. أعجب تسـفي زامير بتقارير مروان إعجاباً كبيراً، والتقاه شخصياً. تمّ توزيع المواد التي قدّمها مروان على عدد قليل من كبار ضبّاط الموسـاد وأمان، ورئيس أركان الجيش الإسـرائيلي ونائبه، ورئيسـة الوزراء غولدا مئير، ووزير الدفاع موشـيه دايان، والمؤتمن على أسـرار غولدا، الوزير من دون حقيبة، إسرائيل جليلي.

ويبدو أنّ بعض المواد التي أحضرها مروان وجدت طريقها إلى مكاتب أجهزة استخبارات أخرى. فقد اتّصل بجهاز الاستخبارات الإيطالي وعرض العمل لصالحه أيضاً. واستناداً إلى أحد المصادر، أقام اتّصالاً مع المخابرات البريطانية. وهذا يفسّر سبب توقّفه في روما يوم 5 أكتوبر المشؤوم، عندما كان في طريقه للقاء تسفي زامير في لندن، فقد أبلغ الإيطاليين أيضاً بالحرب المقبلة.

سـبق أن وصـل أحـد تقاريـره إلى الإيطاليين، لكن عن طريق الموسـاد. فقبل شهر من 6 أكتوبر، طلبت ليبيا مساعدة مصر. إذ خطّط فلسطينيون، يعملون لصالح الزعيم الليبـي معمّر القذّافي، لإسقاط طائرة تابعة لشركة العال خلال إقلاعها من مطار روما.

كان مـن المفتـرض أن تشـكّل هـذه العمليّـة عمـلاً انتقامياً ضدّ إسـرائيل التي أسـقطت عـن طريـق الخطـأ طائرة مدنية ليبية فوق سـيناء فـي فبراير 1973. حصل الموسـاد علـى معلومات عن أنّ فلسـطينيين يخطّطون لاختطـاف طائرة، وتحميلها بالمتفجّرات، وتحطيمها في إحدى أكبر المدن الإسرائيلية (انظر إلى الفصل 12). وعندما ظهرت طائرة ليبية فوق سيناء ورفضت التعريف عن نفسها ومغادرة الأجواء الإسرائيلية، استنتج مراقبو سلاح الجوّ الإسرائيلي أنّها طائرة الانتحاريين، فأطلقوا طائرتين مقاتلتين أسقطتا الطائرة. وتبيّن لاحقاً أنّ الطائرة قد انحرفت عن مسارها

بسبب عاصفة رملية هبّت على سيناء. ووجد المسعفون الإسرائيليون 108 جثث بين حطام الطائرة المشتعلة.

أقسم القذّافي على الانتقام للضحايا. كان الفريق المسؤول عن تنفيذ العمليّة يضمّ 5 من أعضاء فتح، يتزعّمهم أمين الهندي. قرّر الرئيس السادات مساعدة الليبيين، وأمر مروان بتسليم صاروخي ستريلا روسيّي الصنع إليهم. فأرسل مروان صاروخَي أرض جوّ إلى روما عن طريق الحقيبة الدبلوماسية. وفي روما، حمّل مروان الصاروخين في سيّارته، ثمّ التقى الهندي في محلّ لبيع الأحذية في شارع فيا فينيتو الشهير، ودخل معه محلاً لبيع السجّاد، واشترى سجّادتين كبيرتين. قاما معاً بلفّ الصاروخين بالسجادتين ونقلهما بو سطة مترو الأنفاق إلى بيت آمن للفلسطينيين... استعدّ الفلسطينيون لإطلاق الصواريخ، غير مدركين أنّ مروان قام أساساً بإخطار الموساد، وأنّ الموساد حذّر الإيطاليين. في 6 سبتمبر، داهمت فرقة مكافحة الإرهاب التابعة للشرطة الإيطالية شقّة في أوستيا؛ على مقربة من مطار روما، واعتقل الإيطاليون بعض أعضاء الفريق واستولوا على الصاروخين. أمّا أعضاء الفريق الآخرون فقد ألقي القبض عليهم في فندق في روما. أوردت الصحافة الإيطالية أنّ الموساد هو المصدر الذي نبّه الأجهزة الإيطالية، وأكّد البعض أنّ تسفي زامير كان موجوداً في روما شخصياً خلال العمليّة.

بعد شهر، اندلعت حرب 6 أكتوبر.

بعد الحرب، استمرّ مروان بتأدية مهام سرّية هامّة للسادات. فأُرسل مبعوثاً للسادات إلى العواصم العربية، وكان ناشطاً في فصل القوّات بين سوريا ومصر وإسرائيل. وكان حاضراً أيضاً في المحادثات بين وزير الخارجية الأميركي هنري كيسنجر والملك حسين عاهل الأردن في عمّان. أعطى الفصل بين القوّات مروان الفرصة للاتّصال بجهاز مخابرات آخر؛ وهو وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية التي كانت تبحث عن معلومات موثوقة حول سياسة مصر بعد المعاهدات المؤقّتة مع إسرائيل. واستناداً إلى المصادر الأميركية، دامت العلاقات السرّية بين مروان والسي آي إيه حوالى 25 عاماً. قام بزيارة الولايات المتّحدة عدّة مرّات لتلقي

العلاج الطبّي، ولاقى ترحيباً حارًّا وكرم ضيافة من جانب السي آي إيه.

لكن المركز الرفيع والأنشطة السرّية فقدت جاذبيّتها لدى مروان، فخاض في مجال الأعمال التجارية، واشترى شقّة فخمة في لندن، في 24 كارلتون هاوس تيراس، وبدأ يستثمر أمواله في مشاريع مختلفة. وفي عام 1975، عُيّن أشرف مروان رئيساً لمجلس إدارة الاتّحاد الصناعي العربي؛ وهي منظّمة أسّستها كلّ من مصر، والمملكة العربية السعودية، والإمارات من أجل إنتاج أسلحة تقليدية بالوسائل الغربية. فشل المشروع، لكنّه ساعد مروان على إقامة علاقات هامّة في عالم الأعمال. وبعد مدّة قصيرة، أُقيل من منصبه، وفي عام 1979 انتقل إلى باريس. بعد عامين، في أعقاب اغتيال الرئيس السادات، انتقل إلى لندن وبدأ حياة مهنية لامعة في مجال الأعمال؛ جعلت منه رجلاً واسع الثراء. استضاف مشغّله في الموساد، دوبي، في فندق كان يملكه في مايورمكا، في جزر البليار، وأخبره أنّه يرغب في التقاعد من عالم التجسّس. يدّعي البعض أنّ مروان شعر في أواخر السبعينيات أنّ الأرض المصرية لم تعد آمنة، وأنّه اشتُبه بإقامته علاقات سرّية مع إسرائيل، لذلك قرّر ترك كلّ من مصر والموساد نهائياً.

في الأعوام التالية، عقد مروان سلسلة من الصفقات التجارية الخيالية. استثمر أمواله جيّداً، وسرعان ما اشترى جزءاً من نادي تشيلسي لكرة القدم، في حين تنافس مع محمّد الفايد - والد صديق الأميرة ديانا؛ دودي - لشراء متجر هارودس الراقي في لندن. تمسّك بنمط حياته، فكان دائماً أنيق الملبس، ويجرّ خلفه سلسلة من العلاقات العاطفية. حتّى إنّ بعض عملاء السي آي إيه الذين أتوا لرؤيته مرّة في فندقه في نيويورك، اضطرّوا إلى الانتظار في الخارج حتّى ترتدي عشيقته ملابسها وتخرج من جناحه.

في الثمانينيات، ارتبط اسم مروان بعدّة صفقات أسلحة لنظام القذّافي في ليبيا وللمقاتلين في لبنان. وأوردت صحيفة أميركية أنّه دعا عميل السي آي إيه إلى منزله، وقاده إلى الشرفة، وأشار إلى سيّارة رولز رويس لامعة متوقّفة أمام منزله، ثمّ قال: «هذه هديّة من القذّافي».

يبدو أنّ قصّة علاقات مروان مع المقاتلين محض افتراء. فمن غير الممكن أن

يتعامل معهم مجازفاً بمواجهة مع الموساد الذي يمكنه أن يكشف ماضيه كعميل إسرائيلي؛ ممّا سيعرّضه لعقوبة الإعدام. وإن كان مروان قد دخل في صفقات مشبوهة مع ليبيا والمقاتلين، فمن الممكن أن يكون ذلك قد تمّ بتعاون كامل مع الموساد.

مرّت السنوات، وفي عام 2002، نُشر كتاب في لندن بعنوان تاريخ إسرائيل. كان الكتاب من تأليف الباحث الإسرائيلي أهارون براغمن، وأورد فيه قصّة الجاسوس الذي حذّر إسرائيل من حرب 6 أكتوبر. أطلق بيرغمان على الجاسوس لقب «الصهر». وكانت تلك إشارة إلى علاقته بشخصيّة هامّة، فالملاك كان صهر عبد الناصر. كتب بيرغمان أنّ الرجل كان عميلاً مزدوجاً، وأنّه زوّد إسرائيل بمعلومات كاذبة.

لم يكشف الكتاب اسم مروان، إلاّ أنّه أثار غضبه، فأتى ردّ فعله في مقابلة مع صحيفة الأهرام المصرية، وفيها سخر من بحث بيرغمان، ووصفه أنّه «قصّة بوليسية سخيفة».

شعر بيرغمان بالإهانة وقرّر الدفاع عن سمعته، فصرّح في مقابلة مع الأهرام أنّ «الصهر» كان بالفعل أشرف مروان. شكّل ذلك اتّهاماً خطيراً، لكنّه كان يفتقر إلى دليل. لم يكن هناك أيّ أثر يثبت تورّطه؛ حتّى اليوم الذي أعلن فيه إيلي زيرا أنّ العميل المزدوج الذي «خدع» إسرائيل كان بالفعل أشرف مروان.

لم يسبق أن حدث شيء كهذا في إسرائيل. فهويّة الجواسيس السابقين تبقى طيّ الكتمان في حالات كثيرة؛ حتّى بعد وفاتهم. وأشرف مروان ما زال حيًّا وضعيفاً؛ أي إنّه فريسة سهلة لقتلة المخابرات المصرية. عاد تسفي زامير بعد ثلاثين عاماً من التقاعد وحاول التواصل مع مروان، لكنّ الملاك رفض التحدّث معه. قال زامير بحزن: «لم يشأ ذلك لأنّه شعر أنّني لم أحمه. بذلت كلّ ما في وسعي لحمايته، لكنّني لم أنجح».

بعد ما كشفه زيرا، خرج زامير عن صمته، وهاجم رئيس أمان السابق بشراسة، واتّهمه بكشف أسرار الدولة. فردّ زيرا، مدّعياً أنّ الرامساد السابق كان يحمي رجلاً لم يكن سوى عميل مزدوج.

رأى الصحفي الإسرائيلي رونين بيرغمان - الذي شاهد البثّ التلفزيوني الحيّ لاحتفال رسمي في مصر - كيف صافح الرئيس حسني مبارك بحرارة مروان الذي رافقه لوضع إكليل من الأزهار على قبر عبد الناصر. بعد الاحتفال، كتب بيرغمان أنّ مروان كان عميلاً مزدوجاً. أمّا الرئيس مبارك، فهبّ لمساعدة مروان ورفض بشدّة الشائعات التي تردّدت عن كونه جاسوساً إسرائيلياً.

اجتاحت إسرائيل موجة من الاتّهامات والاتّهامات المضادّة. فأنشأ جهازا الموساد وأمان مجلسي تحقيق توصّلا إلى استنتاج واحد: لم يكن مروان عميلاً مزدوجاً، ولم يلحق أيّ أذى بإسرائيل. لم يستسلم زيرا، بل رفع دعوى ضدّ زامير في المحكمة، فحكم القاضي السابق ثيودور أور - الذي تمّ تعيينه حَكَماً من قبل المحكمة - أنّ رواية زامير هي الصحيحة.

قرّر زيرا وأنصاره على ما يبدو تجاهل حقيقة كون مروان إحدى الشخصيات البارزة في الحكومة المصرية، وصهر جمال عبد الناصر، ومستشاراً مقرّباً من السادات. ولم يشأ قادة مصر الإقرار أنّ واحداً منهم كان خائناً وجاسوساً صهيونياً. فهذا الإقرار سيصدم الرأي العامّ المصري ويزعزع ثقة المصريين بقادتهم. ولهذا، قرّروا اختيار نهج مختلف: مدح مروان والثناء عليه علناً، واتّخاذ القرار بتصفيته سرًّا.

في مطلع يونيو 2007، نشر القاضي أور النتائج التي توصّل إليها. وفي 12 يونيو، أكّدت إحدى المحاكم الإسرائيلية رسمياً رواية زامير بشأن دور مروان في خدمة الموساد. وبعد أسبوعين، في 27 يونيو، تمّ العثور على جثّة مروان على الرصيف، تحت شرفته.

اتّهم المراقبون الإسرائيليون المخابرات المصرية بقتله. واتّهم كثيرون زيرا بذلك؛ مدّعين أنّ سلوكه المتهوّر أدّى إلى نهاية مروان. من جهة أخرى، وفي بيان غير مثير للاستغراب، اتّهمت أرملة مروان الموساد بقتل زوجها. قال شهود عيان إنّهم رأوا رجالاً ذوي ملامح شرق أوسطية واقفين مع مروان على شرفته قبل دقائق من مقتله.

أغلقت مباحث سكوتلند يارد القضيّة، وأعادت فتحها لاحقاً، ثمّ أعلنت أخيراً أنّها لم تتمكّن من إيجاد الجناة. وما زال قتلة الملاك أحراراً.

الفصل الخامس عشر

فخّ العسل

باستثناء رفعه لائحة كُتب عليها «أنا جاسوس»، فعل موردخاي فانونو كلّ ما في وسعه لكشف حياته السرّية.

كان فانونو فنّياً في مفاعل ديمونة الذرّي، وهي المنشأة الأكثر حراسة وسرّية في إسرائيل. كانت الصحافة الأجنبية وعدد كبير من الحكومات على قناعة بأن إسرائيل تقوم ببناء أسلحة نووية في تلك المنشأة بالغة السرّية. وكلّ من يتقدّم بطلب وظيفة في ديمونة يجتاز عمليّة طويلة وشاقّة تتمثّل في ملء استمارات، والخضوع لاستجوابات؛ وتحقيقات من قبل الشاباك وغيره من خبراء الأمن؛ حتّى يتمّ في نهاية تلك العمليّة المضنية السماح للمتقدّم بدخول المجمّع السرّي. وكانت المراقبة المكثّفة تتواصل خلال عمل الموظّف في مفاعل ديمونة.

تقدّم فانونو بطلب وظيفة في ديمونة بعد إعلان قرأه في صحيفة يومية. ملأ استمارة في مكتب «منشأة الأبحاث الذرية» في بئر السبع، وخضع لتحقيق أمني روتيني قبل أن يحصل على الوظيفة من دون مشاكل.

كيف حصل ذلك؟ فقد كان راديكالياً يسارياً، أما أصدقاؤه فأعضاء عرب في حزب ركاح الشيوعي المناهض للصهيونية. شارك معهم في تظاهرات، وتمّ تصويره في تظاهرات مؤيّدة للفلسطينيين؛ حمل فيها لافتات، وألقى خطابات، وأجرى لقاءات مع وسائل الإعلام.

استضاف فانونو أيضاً مناضلي ركاح في شقّته الصغيرة في بئر السبع، وطلب منهم الانضمام إلى خليّتهم الجامعية المؤلّفة حصرياً من راديكاليين عرب شباب، معادين علناً لدولة إسرائيل. وفي جامعة بن غوريون التي تسجّل فيها كطالب،

عُرف بآرائه المتطرّفة.

كان شـابًّا موهوباً لكنه غير مسـتقرّ. وقبل أن يصبح مؤيّداً لركاح، كان يمينياً متطرّفـاً مـن أنصـار الحاخـام العنصري كهانا. أيّد لاحقاً الحـزب اليميني المتطرّف هتحيـاه (إعـادة الإحيـاء)، وصوّت لحـزب الليكود. وأخيراً، انتهـى به المطاف في اليسـار المتطرّف. ادّعى أنّ حرب لبنان عام 1982 المثيرة للجدل هي التي جعلته يغيّـر آراءه السياسـية. كان شـابًّا انطوائيـاً، ولا يملـك أصدقـاء تقريبـاً، ولديه اعتقاد راسخ بأنه يتعرّض للاضطهاد بسبب أصله المغربي. وتنامت لديه هذه القناعة عندما فشل في اختبارات القبول لأكاديمية سلاح الجوّ، وحُوّل إلى سلاح الهندسة. بعد تسـريحه من الجيش، بدأ بدراسـة الهندسـة في تل أبيب، ثمّ توقّف عن الدراسـة، وانتقـل إلـى بئـر السـبع لدراسـة الاقتصـاد، ثـمّ غيّر رأيه مجـدّداً وتحـوّل إلى فرع الفلسفة. أصبح نباتياً جزئيًّا، ومن ثمّ نباتياً صرفاً.

لاحظ أصدقاؤه في الدراسـة حبّه الشـديد للمال. وكان يتباهى أنّه لا يحتاج إلى العمل لأنّه يستثمر في البورصة. في حياته اليومية، أعطى «الأولويّة القصوى» للبورصة، وفضّلها على الفلسفة والإنجليزية. قاد سيّارة أودي حمراء، وجنى بعض المال من عمله كعارض عارٍ، وفي إحدى الحفلات الطلاّبية خلع ملابسه الداخلية للفوز بجائزة.

كان نمـط حياتـه أمـراً شـخصياً بالطبع، لكنّ أنشـطته السياسـية كمتعاطف مع حزب الركاح ومؤيّد للفلسطينيين دقّت ناقوس الخطر لدى الإسرائيليين. فاستدعي إلى اجتماع مع مسؤولين في الشاباك، وطُلب منه التوقّف عن ممارسة هذه الأنشطة، والتوقيع على وثيقة تشير إلى أنّه تمّ تحذيره بالتوقّف عن أفعاله. لكنّه لم يوقّع على الوثيقة ولم يتوقّف.

وصف الشاباك أنشطة فانونو في تقرير روتيني رُفع إلى مدير الأمن في وزارة الدفـاع، فحـوّل المديـر التقريـر إلى مدير الأمن في مفاعـل ديمونة الذي حفظه في أحـد ملفّاتـه، وهكـذا انتهـى الموضوع. لم يتّخذ أيّ إجراء بحقّه، ولم يوضع تحت المراقبة. شـكّل ذلك إغفالاً كبيراً. فقد فشـلت سلسـلة كاملة من الأشـخاص – من ضبّاط الشـاباك على المسـتوى المحلّي والوطني، ومديري الأمن في الوزارة وفي

مفاعل ديمونة - في أداء واجبهم.

واصل فانونو أنشطته السياسية، ولم يتعرّض للإزعاج بعد ذلك.

كان «عاملاً» في المعهد 2؛ وهو أكثر الأقسام سرّية في مجمّع ديمونة. فمن أصل 2700 موظّف في ديمونة، كان يُسمح لحوالى 150 فقط بدخول المعهد 2. وكان فانونو يملك شارتين: 8-9567 لدخول منشأة ديمونة، و320 لدخول المعهد 2.

من الخارج، يبدو المعهد بناء متواضعاً مؤلفاً من طابقين، ويشبه مخزناً أو منشأة فرعية. سيلاحظ أصحاب العقول الفضولية وجود مصعد على السطح المستوي، وسيتساءلون عن سبب احتياج مبنى من طابقين إلى مصعد. لكنّ مفتاح هذا اللغز كان السرّ الحقيقي للمعهد 2: كان المصعد ضرورياً ليس للصعود فقط، بل للنزول ستّة طوابق تحت الأرض؛ تمّ إخفاؤها بدهاء. كان فانونو مسؤولاً عن المناوبة الليلية، ويعرف المبنى جيّداً. فالطابق الأوّل يضمّ عدّة مكاتب وكافتيريا، في حين يشتمل الطابق الأرضي على عدّة أبواب تستخدم لنقل قضبان اليورانيوم المستخدمة في المفاعل. وكان في الطابق نفسه بعض المكاتب الإضافية ومختبرات التجميع. احتوى الطابق السفلي الأوّل على أنابيب وصمّامات. أمّا الثاني فتوجد فيه غرفة التحكّم المركزي، ومكان شبيه بالشرفة؛ أطلق عليه اسم "شرفة غولدا". كان الزوّار المهمّون ورفيعو المستوى يستطيعون أن يطلّوا على قاعة الإنتاج الموجودة في الأسفل من تلك الشرفة. وفي الطابق السفلي الثالث، عمل الفنّيون على قضبان اليورانيوم التي كان إنزالها يتمّ من الأعلى. فيما احتوى الطابق الرابع على مساحة واسعة بارتفاع ثلاثة طوابق من أجل وحدة الإنتاج، ووحدة فصل البلوتونيوم الذي يتمّ إنتاجه في المفاعل عن قضبان اليورانيوم. في الطابق الخامس، أنشئ قسم الأرصاد الجوّية والمختبر الذي يتمّ فيه إنتاج مكوّنات القنبلة. وفي الطابق السادس، كان يتمّ تخزين النفايات الكيميائية في حاويات خاصّة.

عرف فانونو أنّه خلال العمل الطبيعي للمفاعل النووي كانت سلسلة التفاعل تُنتج البلوتونيوم الذي يتراكم على قضبان اليورانيوم. وبعد نزعه عن القضبان، كان يُستخدم في الطابقين الرابع والخامس، وفي تجميع الأسلحة الذرّية الإسرائيلية.

ذات يوم، ومن دون سبب معيّن، أخذ فانونو معه آلة تصوير إلى المعهد 2. حملها في حقيبته، بين الكتب التي سيأخذها معه لاحقاً إلى صفّه في جامعة بن غوريون. ولو سأله المسؤولون عن التفتيش الأمني عن سبب أخذه آلة تصوير إلى ديمونة، كان ينوي القول إنّه أخذها إلى الشاطئ ونسيها في حقيبته. لكن، لم يُفتّش أحد حقيبته أو يطرح عليه أيّ أسئلة، وتمكّن من وضع آلة التصوير في خزانته الشخصية. وفي أثناء استراحة الغداء والاستراحات المسائية التي يكون المبنى فارغاً فيها، كان فانونو يتجوّل في الطوابق السفلية، ويلتقط صوراً للمختبرات والمعدّات والقاعات، ويضع رسومات مفصّلة، ويدخل المكاتب الخالية، ويبحث عن وثائق في الخزائن المفتوحة. لم يره أحد أو يشتبه به أحد. وبدا الأمر وكأنّ رجال الأمن اختفوا تماماً. ولم تكن لدى رؤساء فانونو أيّ فكرة عن هوايته الخطيرة، بل اعتبروه فنّياً هادئاً، وجادًّا، ومجتهداً.

في أواخر عام 1985، أقيل فانونو من عمله بعد تسع سنوات أمضاها في ديمونة. لم تكن لإقالته أيّ علاقة بأنشطته السياسية، وإنّما كان سببها خفض الميزانية. أقيل شأنه شأن الكثيرين، وحصل على تعويضات بنسبة 150 بالمئة، ورواتب ثمانية أشهر كمنحة تكيّف مع الوضع الجديد. غير أنّ إقالته سبّبت له الغضب والإحباط، فقرّر السفر إلى الخارج في رحلة طويلة قد لا يرجع منها مرّة أخرى إن عثر لنفسه على منزل جديد؛ على غرار 12 مليون يهودي يعيشون خارج إسرائيل. لذا، باع شقّته وسيّارته، وصفّى حساباته المصرفية.

حمل فانونو البالغ من العمر حينذاك 31 عاماً حقيبته، وانطلق في رحلته. كان قد سبق له القيام برحلات طويلة من قبل؛ واحدة إلى أوروبا والأخرى إلى الولايات المتّحدة. لكنّه توجّه هذه المرّة إلى الشرق الأقصى، وحمل في حقيبته فيلمين صوّرهما في ديمونة.

كانت محطّته الأولى في اليونان، ومنها انطلق إلى روسيا، وتايلاند، ونيبال. في كاتماندو، التقى فتاة إسرائيلية، وتودّد إليها بخجل. عرّف عن نفسه على أنّه "موردي"، وأقرّ أنّه رجل سلام يساري، وقد لا يعود إلى إسرائيل مجدّداً. زار يوماً

معبداً بوذيًا، فداعبته فكرة اعتناق البوذية.

بعد كاتماندو، سافر فانونو إلى الشرق الأوسط، وحطّ رحاله في أستراليا. عمل لبضعة أشهر في وظائف مؤقّتة في سيدني، لكنّه عاش في أغلب الأوقات وحيداً وبائساً. ذات مساء، دخل حيًّا مشبوهاً؛ يُعتبر معقلاً للدعارة والسرقة وتجارة المخدّرات. ظهر أمامه في الظلام برج كنيسة سان جورج التي تُعتبر ملاذاً معروفاً للنفوس المعذّبة؛ من رجال ونساء بؤساء، ومجرمين، ومشرّدين، وفقراء، ومضطهدين. دخل الكنيسة، والتقى القسّ الإنجيلي جون مكنايت. أدرك الكاهن الطيّب على الفور أنّ فانونو يبحث عن مأوى وأسرة، فأقام علاقة وثيقة وودّية مع ضيفه الخجول والمرتبك. وخلال الأسابيع التالية، أجرى الاثنان أحاديث طويلة وصريحة. وأخيراً، في 17 أغسطس 1986، تمّ تعميد فانونو ليصبح مسيحياً، واختار اسماً جديداً: جون كروسمان.

شكّل ذلك نقلة نوعية بالنسبة إلى يهودي متديّن ولد في مراكش، وأمضى طفولته في المدارس التلمودية ومعاهد بئر السبع اليهودية. صحيح أنّ حماسته الدينية فترت مع مرور السنوات، لكنّ ارتداده عن اليهودية أتى نتيجة عدم استقرار وارتباك، وليس نتيجة خيبة أمله من ديانته. ولو لم يدخل كنيسة سان جورج ويلتقي الأب جون، لربّما اعتنق البوذية أو ديانة أخرى. لكنه بارتداده عن اليهودية أدار ظهره إلى كلّ ما يمتّ إلى إسرائيل بصلة. وأصبحت كراهيته لبلاده تدريجياً أحد الدوافع الرئيسة لأفعاله المستقبلية.

خلال اجتماع في الكنيسة، حكى فانونو لأصدقائه عن عمله في إسرائيل، ووصف مفاعل ديمونة، وعرض عليهم إقامة معرض للصور التي التقطها، فنظروا إليه من دون أن يفهموا ما يتحدّث عنه. لكنّ شخصاً واحداً بين الحضور اهتمّ بكلامه. كان يدعى أوسكار غيريرو، وهو رحّالة كولومبي وصحفي أحياناً. كانا قد قاما معاً بطلاء سور الكنيسة، وعاشا في شقّة واحدة لفترة من الزمن. أدرك غيريرو أهمّية الصور، وألهب خيال فانونو بوعود بالثروة والمجد.

كان فانونو بحاجة ماسّة إلى المال، لكنّه فكّر أيضاً أنّ بمقدوره استخدام الشهرة الموعودة للتشجيع على السلام بين اليهود والعرب. لم تكن هذه هي

خطّته الأصلية، فإحلال السلام لم يكن السبب الذي دفعه إلى ترك إسرائيل، وحمل الفيلمين معه في أثناء تنقّله حول العالم على مدى شهور طويلة. لكنّ إحلال السلام وإنقاذ العالم من قنبلة إسرائيل النووية أصبحا الدافع النبيل المزعوم لأعماله. اكتسبت حربه الخاصّة ضدّ المشروع النووي الإسرائيلي زخماً مع مرور الأيّام، وتحوّلت إلى سبب رئيس لنشر صور مفاعل ديمونة. لكنّ فانونو أدرك أيضاً أنّه إن فعل ذلك، فستكون تلك نهاية مشواره كإسرائيلي. ولن يتمكّن من العودة إلى إسرائيل أبداً، لأنّه سيُعتبر خائناً وعدوًّا للدولة.

مع ذلك، كان الإغراء قوياً. ذهب فانونو وغيريرو إلى محل تصوير في سيدني، وقاما بتظهير صور المعهد 2، وحاولا جذب اهتمام المجلاّت الأميركية المحلّية ومحطّات التلفزة الأسترالية إليها، لكن عبثاً. فقد اعتُبرا شخصين غريبَي الأطوار، أو محتالَين يحاولان كسب المال بسهولة. ولم يصدّق أحد أنّ الشابّ الخجول والمضطهد يملك دليلاً يكشف عن أحد أسرار إسرائيل الأكثر غموضاً.

أخيراً، سافر غيريرو إلى إسبانيا وإنكلترا، ونجح هذه المرّة في تحقيق مآربه. فقد أدرك محرّرو صحيفة صنداي تايمز اللندنية الذين سمعوا قصّته الأثر الهائل الذي سيتركه المقال عن المفاعل النووي الإسرائيلي؛ استناداً إلى صور ورسومات حصرية. إلاّ أنّهم كانوا حذرين للغاية. فمنذ مدّة غير بعيدة، تعرّضوا لضربة قويّة عندما قاموا بشراء «مذكّرات هتلر» التي تبيّن أنّها كانت مزيّفة تماماً. لذلك، طلبوا تفحّص المواد التي ذكرها غيريرو.

في تلك الأثناء، اتّصل مسؤول في التلفزيون الأسترالي بالسفارة الإسرائيلية في كانبرا، وسأل عمّا إذا كان الرجل غريب الأطوار الذي عرض عليهم صور مفاعل ديمونة مواطناً إسرائيليًّا بالفعل. أثارت القصّة اهتمام صحفي إسرائيلي، فقام بنقل الخبر إلى صحيفته في تل أبيب.

كان وقع الصدمة على أجهزة المخابرات الإسرائيلية كالصاعقة: أحد العاملين السابقين في المعهد 2 في ديمونة يحاول بيع أهمّ أسرار إسرائيل. أقرّ حاييم كرمون الذي كان حينذاك مدير الأمن في وزارة الدفاع: «لقد فشل النظام، لم نصل إليه في الوقت المناسب».

وصل الخبر إلى «نادي رؤساء الحكومة» - إلى رئيس الوزراء بيريز، ورئيسَي الوزراء السابقَين رابين وشامير - وهم أعضاء في حكومة الوحدة الوطنية، فقرّروا العثـور علـى فانونـو فـوراً وإحضاره إلى إسـرائيل. واقترح البعـض قتله عوضاً عن إعادتـه، لكـنّ ذلـك الاقتراح قوبل بالرفض. فتنـاول رئيس الوزراء الهاتف، واتّصل برئيس الموساد.

* * *

منذ عام 1982، أصبح للموساد مدير جديد يدعى ناحوم أدموني. فبعد حوالى 20 عاماً هبط خلالها الجنرالات من الجيش الإسرائيلي وتربّعوا على عرش الموساد، أصبح للمنظّمة أخيراً رئيس جديد شقّ طريقه من الداخل. ولد ناحوم أدموني في القدس، وكان عضواً مخضرماً في جهازَي شاي وأمان. كان نائب إسحاق هوفي، واحتلّ منصب الرامسـاد بعد تقاعد هوفي عام 1982. سـيمضي في رئاسـة الموساد سبع سنوات، إلاّ أنّها لن تكون أفضل سنوات مجتمع المخابرات. فبين عامي 1982 و1989، وقعت عدّة حوادث سـبّبت إحراجاً للموسـاد: قضيّة بولارد التي تفجّرت عندما تمّ اعتقال محلّل استخباري مدني يهودي في واشنطن بتهمة التجسّس لصالح وحدة مخابرات إسرائيلية سرّية، وقضيّة إيران - كونترا التي تورّطت فيها إسرائيل، واعتقال عدّة عملاء موساد في دول أجنبية بسبب الإهمال. لكنّ أكبر ضرر أصاب إسـرائيل سـبّبه بكلّ تأكيد موردخاي فانونو. حالما اتّصل بيريز بأدموني، أطلق هذا الأخير عمليّة لاعتقال فانونو. وسمّيت العمليّة في كمبيوتر الموساد باسم: «كانيوك».

أرسل ناحوم أدموني على وجه السرعة وحدة من سيزاريا إلى أستراليا، وكلّفها بالعثـور علـى فانونـو. لكـنّ العملاء اكتشـفوا أنّهم وصلوا متأخّريـن جدًّا. فقد طار العصفور من العشّ، وأصبح في إنكلترا.

بعد المقابلة مع غيريرو، أرسل محرّر صنداي تايمز الصحفي بيتر هونام الذي لمع اسمه في قسم التحقيقات الصحفية في الصحيفة الأسبوعية إلى أستراليا للقاء فانونـو. عندمـا اسـتقلّ هونـام الطائرة، كان يعـرف أنّ العلمـاء البريطانيين تفحّصوا بعـض الصـور التـي أحضرها غيريرو وتأكّدوا من صحّتها. اقتنع هونام أيضاً بصحّة

الرواية بعد لقائه فانونو في سيدني، وأعجب بإنكار فانونو ادّعاءات غيريرو المبالغ فيها، والزاعمة أنّه «عالم إسرائيلي». إذ أخبره الحقيقة: لم يكن سوى فنّي عمل في مفاعل ديمونة.

سافر فانونو وهونام إلى لندن، وتركوا غيريرو في أستراليا. في لندن، خضع فانونو لعدّة استجوابات مكثّفة من رجال صنداي تايمز. فأخبرهم كلّ ما يعرفه، وكشف للبريطانيين أنّ إسرائيل كانت تطوّر أيضاً قنبلة نترون قادرة على تدمير الكائنات الحيّة من دون المساس بالمباني. كما وصف لهم عمليّة تجميع القنابل في المعهد 2. إلاّ أنّه خلال ذلك بدا خائفاً ومتوتّراً؛ فقد خشي أن يتعرّض للقتل أو الاختطاف على أيدي المخابرات الإسرائيلية. حاول رجال صنداي تايمز تهدئة روعه، فنقلوه إلى فندق آخر، وجنّدوا موظّفيهم كافّة للتناوب على السهر على سلامة ضيفهم الغالي. وأصرّوا عليه – عبثاً – ألاّ يتجوّل في الشوارع بمفرده. عند انتهاء الاستجوابات، قدّموا له عرضاً رائعاً: 100,000 دولار مقابل القصّة والصور، و40 بالمئة من حقوق نشر مقالات الصحيفة، و25 بالمئة من حقوق نشر الكتاب؛ هذا إن تمّ تأليف كتاب. كما قالوا له إنّ روبرت موردوخ – مالك الصحيفة – يملك أيضاً شركة الإنتاج السينمائي فوكس القرن العشرين، وإنّه يفكّر في إنتاج فيلم يتناول قصّة حياته. وسيؤدّي دور فانونو في الفيلم الممثّل الشهير روبرت دي نيرو.

قدّم مضيفو فانونو في لندن له كلّ الإغراءات، باستثناء إغراء واحد: امرأة. كان فانونو يتوق إلى دفء امرأة، لكنّه لم يتمكّن من الحصول عليه. هكذا، عندما بقيت روينا وبستر، الموظّفة في قسم التحقيقات برفقته، حاول إقناعها بإقامة علاقة معه لكنّها رفضت. كان الجنس نقطة ضعف فانونو، لكنّ محرّري صنداي تايمز الأذكياء لم يدركوا ذلك.

لم يدركوا أيضاً أنّ مخاوف فانونو من الأجهزة الإسرائيلية كان لها ما يبرّرها. تمّ إرسال أحد مراسلي قسم التحقيقات إلى إسرائيل لمعرفة ما إذا كان فانونو بالفعل الشخص الذي يدّعيه. فتحدّث عنه مع صحفي إسرائيلي، وقام هذا الأخير على الفور بإبلاغ الشاباك. بعد بضع ساعات، وصل عدّة أعضاء من فريق العمليّات التابع للموساد إلى لندن. ترأس الفريق نائب رئيس الرامساد، شبتاي شافيت. وكانت

العمليّة تحت قيادة النائب الثاني للرامساد ورئيس سيزاريا، بني زئيفي.

تجوّل عميلان للموساد، انتحلا شخصية مصوّرَين صحفيّين، أمام مبنى صنداي تايمز، وقاما بالتقاط صور للعمّال المتظاهرين الذين صودف أنهم أعلنوا الإضراب. بعد بضعة أيّام، رأى العميلان فانونو، وقاما بتصويره وتتبّعه في شوارع لندن، مستخدمين طريقة «المشط» التي ابتكرها عميل الموساد المخضرم تسفي مالكين. فبالإضافة إلى تتبّع الهدف، قام العميلان بتمشيط المناطق التي قد يزورها، ووصلا إلى المكان قبله. هكذا، في 24 سبتمبر، وصل فانونو إلى ساحة ليستر، المفضّلة لدى السيّاح والزوّار. وبالقرب من كشك للصحف، رأى فتاة «تشبه كثيراً فرح فاوست».

كانت شقراء جميلة، وبدت بالنسبة إليه «جميلة وفاتنة». تأمّلها وهي تقف بالصفّ أمام الكشك. التفتت ونظرت إليه نظرة طويلة وذات مغزى. التقت نظراتهما للحظة، لكن عندما حان دورها، اشترت الصحيفة ومضت في سبيلها. مضى هو أيضاً في طريقه، إلاّ أنّه استجمع شجاعته، وعاد وسألها إن كان يستطيع التحدّث إليها، فوافقت مبتسمة. تحدّثا قليلاً، وقدّمت نفسها على أنّها سيندي، خبيرة تجميل يهودية من فيلادلفيا، تقوم برحلة في أوروبا.

كان فانونو متشكّكاً إلى حدّ ما في تلك الفترة. فقد سبّبت له الأيّام الأخيرة توتّراً كبيراً. إذ قام فريق صنداي تايمز باستجوابه مطوّلاً، كما تم تأجيل موعد نشر قصّته. وتضاعفت مخاوفه من المخابرات الإسرائيلية بعدما عرف أنّ الصحيفة ستسأل السفارة الإسرائيلية في لندن عن رأيها بالقصّة. شرحوا له أنّ صحيفة محترمة مثل صنداي تايمز يتعيّن عليها أن تسأل عن رأي الطرف الآخر دائماً. لم يقتنع، بل شعر بالوحدة والغضب ونفاد الصبر.

فجأة، ظهرت سيندي أمامه.

سألها على سبيل الدعابة: «هل أنت من الموساد؟».

أجابت: «كلاّ، إطلاقاً. ما هو الموساد؟».

ثمّ سألته عن اسمه.

أجاب: «جورج». كان هذا هو الاسم الذي استخدمه عندما حجز غرفة في الفندق.

ابتسمت الفتاة وقالت: «كلاّ، أنت لست جورج».

عندما جلسا في أحد المقاهي، أخبرها باسمه الحقيقي، كما حكى لها عن قصّته مع صنداي تايمز والمشاكل التي يواجهها، فاقترحت عليه على الفور أن يسافر معها إلى نيويورك، وهناك ستجد له صحفاً جيّدة ومحامين متمرّسين.

لم يكن موردخاي فانونو يصغي إليها، فقد وقع في حبها من النظرة الأولى. التقى سيندي عدّة مرّات في الأيّام التالية، وعلى حدّ قوله، كانت تلك أجمل أيّام حياته. تنزّها في الحدائق، ويداهما متشابكتان، وذهبا إلى السينما وشاهدا فيلمَي الشاهد لهاريسون فورد، وحنا وإخواتها لوودي آلن. كما حضرا أيضاً مسرحية موسيقية، الشارع 42، وتبادلا القبلات مطوّلاً. لن ينسى فانونو أبداً العناق والقبلات الحارّة.

منحته سيندي القبلات الدافئة، لكنّها رفضت مرافقته إلى السرير رفضاً قاطعاً، وقالت له إنّها لا تستطيع دعوته إلى غرفتها في الفندق لأنّها تتقاسمها مع فتاة أخرى. كما رفضت المجيء إلى غرفته. قالت له مراراً إنّه متوتّر، وإنّ الأمر لن ينجح. ليس في لندن.

ثمّ خطرت لها فكرة: «لماذا لا ترافقني إلى روما؟ شقيقتي تعيش هناك، ولديها شقّة. يمكننا تمضية وقت جميل هناك، وستنسى كلّ مشاكلك».

رفض في البداية، لكنّها كانت مصمّمة على السفر إلى روما، واشترت تذكرة طيران في الدرجة الأولى. وعندما أقنعته أخيراً، اشترت له تذكرة أيضاً وقالت: «ستعيد إليّ المال في ما بعد».

وهكذا، وقع تحت تأثير الإغراء.

ولو كان رجلاً أكثر جدّية ومنطقية، لأدرك على الفور أنّه وقع في فخّ العسل؛ كما تسمّي أجهزة المخابرات إغراء المرأة. هكذا، يلتقي فتاة في الشارع، وتقع في غرامه حتّى أذنيها، وتصبح على استعداد لفعل أيّ شيء من أجله، بما في ذلك اصطحابه إلى شقّة أختها في روما، وشراء تذكرة طيران له مع أنّها بالكاد تعرفه. لا يمكنها مشاركته الفراش في لندن، لكنّها تستطيع فعل ذلك في روما. من شأن أيّ رجل عاقل أن يستنتج أنّ قصّة سيندي مريبة، لا بل مثيرة للسخرية. لكنّ الخبراء

النفسيين لدى الموساد قاموا بعمل ممتاز هذه المرّة. فقد عرفوا بالضبط ما يريده فانونو، وتوقّعوا أن يسير كالأعمى خلف القبلات الحارّة والوعود الأكثر حرارة لامرأة جميلة ومثيرة.

كان بيتر هونام من صنداي تايمز رجلاً رزيناً. وما إن سمع عن سيندي حتّى شعر بالارتياب، وبذل جهده لإقناع فانونو بعدم مقابلتها؛ لكن من دون جدوى. إذ كان فانونو قد ابتلع الطعم وما من شيء سيدفعه إلى العدول عن رأيه. في إحدى المرّات، طلب فانونو من بيتر إيصاله بسيّارته لمقابلة سيندي التي كانت بانتظاره في أحد المقاهي، فلمح بيتر الشابّة (سيقوم لاحقاً برسم صورة لوجهها استناداً إلى ذلك اللقاء الوجيز). عندما علم بيتر أنّ فانونو ينوي مغادرة المدينة لبضعة أيّام، حاول مجدّداً ثنيه عن ذلك، ولكن عبثاً. مع ذلك، حذّر فانونو من مغادرة إنكلترا أو ترك جواز سفره مع موظّفي الاستقبال في الفندق. لكنّ بيتر هونام لم يتخيّل أنّ فانونو سيسافر إلى روما حتّى يتمكّن أخيراً من مشاركتها الفراش.

كانت سيندي قد وافقت على معاشرة فانونو في روما لسبب مختلف تماماً. وذلك لأنّ إسرائيل لم ترغب في اختطاف فانونو على أرض بريطانية؛ لأنّ شيمون بيريز لم يشأ مواجهة «المرأة الحديدية»، مارغريت تاتشر. كما أنّ الموساد لم يشعر بالارتياح في بريطانيا العظمى. فقبل بضعة أشهر، عثرت السلطات البريطانية في إحدى حجرات الهاتف العمومي على حقيبة تحتوي على ثمانية جوازات سفر بريطانية مزورة. مع الأسف، كانت الحقيبة تحمل بطاقة تحدّد هويّة صاحبها وعلاقته بالسفارة الإسرائيلية. وبطبيعة الحال، أثارت هذه الحادثة حفيظة الحكومة البريطانية؛ الأمر الذي اضطُرّ الموساد للتعهّد بعدم المساس بالسيادة البريطانية مجدّداً. ولهذا، لم يفكّر بيريز أو الموساد بإطلاق عمليّة سرّية على الأراضي البريطانية.

أصبحت روما أفضل الخيارات المتاحة. فالعلاقات التي تربط الموساد بالاستخبارات الإيطالية كانت وطيدة. وكان الرامساد ناحوم أدموني والأدميرال فولفيو مارتيني، رئيس المخابرات الإيطالية، صديقين حميمين. ومع الفوضى المزمنة السائدة في إيطاليا، من المؤكّد تقريباً أنّ الإيطاليين لن ينجحوا أبداً في إثبات أنّ فانونو قد اختطف على أراضيهم.

استقلّت سيندي وفانونو، يداً بيد، طائرة الخطوط الجوّية البريطانية رقم 504 المتّجهة إلى روما في 30 سبتمبر 1986. وعندما حطّت الطائرة في أرض المطار عند الساعة 9:00 مساء، تمّ استقبال العاشقين من قبل إيطالي بشوش يحمل باقة أزهار. أقلّهما بسيارته إلى منزل شقيقة سيندي. في أثناء الرحلة، لم تتوقّف سيندي عن احتضان فانونو السعيد وتقبيله.

توقّفت السيارة بالقرب من منزل صغير، وفتحت لهما فتاة الباب. كان فانونو أوّل من دخل. فجأة، أُغلِق الباب وراءه، وانقضّ عليه رجلان، وضرباه وأسقطاه على الأرض. لاحظ أنّ أحدهما كان أشقر الشعر. وبينما كانا يقيّدانه، مالت الفتاة نحوه، وغرزت حقنة في ذراعه، فزاغت عيناه وغرق في نوم عميق.

وُضِع فانونو في سيّارة نقل تجارية، اتّجهت به إلى شمال البلاد. دامت الرحلة عدّة ساعات، وكان إلى جانبه رجلان وامرأة واحدة. بعد بضع ساعات، تلقّى فانونو حقنة أخرى. أمّا سيندي فقد اختفت. وصلت السيّارة إلى ميناء لا سبيتسيا. وهناك، تمّ تقييد فانونو إلى حمّالة، ونُقل إلى قارب سريع انطلق به إلى عرض البحر، حيث كانت بانتظارهم سفينة نقل إسرائيلية من طراز تبوز. (استناداً إلى مصدر آخر، كانت من طراز نوغا أس إي). أُمر طاقم السفينة بدخول القمرة والبقاء في الداخل. لكنّ الملاّحين المناوبين رأوا القارب وهو يقترب. أُنزل سلّم من الحبال، وصعد عليه رجلان وامرأة. كانوا يحملون رجلاً فاقداً وعيه. أخذوه إلى قمرة القبطان، وأغلقوا الباب خلفهم، فيما انطلقت السفينة على الفور عائدة إلى إسرائيل.

أمضى فانونو الرحلة بكاملها محتجزاً في القمرة الصغيرة. لم يرَ سيندي مجدّداً. كان قلقاً عليها، فهو لم يعرف ما حلّ بها، ولم يدرك أيضاً أنّها كانت عضواً في فريق الموساد. كانت قد تركته عند عتبة المنزل الآمن، وغادرت إيطاليا؛ على الأرجح في الليلة نفسها. أمّا المرأة التي رافقت فانونو على متن السفينة، فكانت طبيبة واصلت حقنه بالمخدّرات في أثناء الرحلة.

رست السفينة على مسافة قريبة من الشاطئ الإسرائيلي، ونُقل فانونو على متن زورق حربي تابع للبحرية الإسرائيلية. استقبله هناك ضبّاط الشرطة وعملاء الشاباك الذين ألقوا القبض عليه على الفور واقتادوه إلى سجن شيكما في عسقلان.

خلال التحقيق الأوّلي، علم فانونو أنّه حين كان في طريقه إلى إسرائيل، بدأت صحيفة صنداي تايمز بنشر السلسلة استناداً إلى المعلومات التي كشفها. وأعادت عشرات الصحف في أنحاء العالم كافّة نشر المقالات المعزّزة بالصور والرسومات. وأفادت صنداي تايمز أنّ كل التقديرات السابقة لقوّة إسرائيل النووية كانت خاطئة. فحتّى ذلك الوقت، اعتقد الخبراء أنّ إسرائيل تمتلك ما بين 10 و20 قنبلة ذرّية بدائية. لكنّ المعلومات التي جلبها فانونو أثبتت أنّ إسرائيل أصبحت قوّة نووية، وأنّ ترسانتها تضمّ ما لا يقلّ عن 150-200 قنبلة متطوّرة؛ هذا فضلاً عن قدرتها على إنتاج أسلحة الهيدروجين والنيترون. شعر فانونو بالفزع لدى معرفته تلك المعلومات الخطيرة، وتوجّس من قيام الإسرائيليين بقتله. كما خاف على سيندي، ولم يصدّق أنّها كانت شريكة في المؤامرة التي حيكت ضدّه.

مرّ أربعون يوماً لم يعرف فيها العالم ماذا حلّ بفانونو. ونشرت الصحافة تقارير مثيرة لا تمتّ إلى الحقيقة بصلة. فوصفت الصحف البريطانية بالتفصيل كيفيّة خطفه في لندن وتهريبه إلى إسرائيل داخل «صندوق دبلوماسي». فيما نقل آخرون عن «شهود» رأوه مع شابّة على متن يخت أخذه إلى إسرائيل. عندها، طلب أعضاء البرلمان في لندن إجراء تحقيق، واتّخاذ إجراءات صارمة ضدّ إسرائيل.

تمّ توجيه اتّهام رسمي إلى فانونو في أواسط نوفمبر، ومثل أمام المحكمة بضع مرّات. قرّر أن يُخضِع سجّانيه. فقد كان يعرف تماماً أين سينتظر الصحفيون عند إحضاره إلى المحكمة. في إحدى الرحلات إلى المحكمة، جلس فانونو على المقعد الخلفي داخل سيارة الشرطة، وانتظر توقّف السيّارة أمام مجموعة من الصحفيين والمصوّرين. فجأة، أخرج كفّه من النافذة، فقرأ الصحفيون والمصوّرون الجملة التي كتبها على كفّه:

vanunu m was hijacked in rome, itl, 30.9.86. 21:00.
came to rome by fly ba 504.

اختُطف فانونو في روما، إيطاليا، في 30-9-86، عند الساعة 21:00. وصل إلى روما على متن الرحلة 504 التابعة لخطوط الطيران البريطانية.

تلك الحقيقة لم تؤثّر على علاقات القدس بلندن، لأنّها أوضحت أنّ فانونو غادر بريطانيا بمحض إرادته، على متن رحلة تجارية منتظمة. لكن، ثارت حفيظة رؤساء أجهزة المخابرات في روما، إلاّ أنّ الإسرائيليين تمكّنوا من إصلاح علاقتهم بروما بعد مدّة.

وُجّهت لفانونو تهمة التجسّس والخيانة، وحُكم عليه بالسجن لمدة ثمانية عشر عاماً. لكنّه في الخارج لم يُعتبر كذلك، بل ظهرت جمعيات ورابطات باسمه في أوروبا وأميركا بين ليلة وضحاها، وصُوّر أنّه مناضل جريء من أجل السلام، خاطر بحياته لوقف المشروع النووي الإسرائيلي.

بالطبع، لم يكن فانونو كذلك. كانت الشعارات البطولية والأيديولوجية مجرّد غطاء للارتباك الذي طغى على سلوك العامل في المعهد 2. فهو لم يحاول الاحتجاج على البرنامج النووي الإسرائيلي في أثناء عمله في ديمونة. ولو لم يتمّ الاستغناء عن خدماته، لربّما استمرّ بالعمل هناك حتّى هذا اليوم. وحتّى عندما غادر البلاد، فهو لم يسرع لشنّ حربه المقدّسة، بل لفّ العالم، وتجوّل في نيبال وتايلاند، واعتنق المسيحية في أستراليا. ولو لم يلتقِ غيريرو، لظلّ يحتفظ بصور «شرفة غولدا» ومختبرات تجميع القنبلة في قعر حقيبته.

إلاّ أنّ الناس طيّبي القلوب والأبرياء في أنحاء العالم رأوا فيه بطلاً ناضل ضدّ الخطر الذرّي الإسرائيلي. وقام زوجان أميركيان طيّبا القلب بتبنّيه؛ على الرغم من أنّ أسرته ما زالت على قيد الحياة، في حين رشّحه مسيحيون آخرون لنيل جائزة نوبل للسلام.

بعد 18 عاماً أطلق سراح فانونو، فاختار العيش في كنيسة في القدس. وما زال يعبّر علناً عن كراهيّته لإسرائيل، ويرفض العيش هناك، كما يرفض أن يتكلّم العبرية، ويسمّي نفسه جون كروسمان، وينشر إعلانات في الصحف العربية بحثاً عن زوجة عربية أو فلسطينية («المهم أن تكون غير إسرائيلية»).

أمّا في ما يتعلق بسيندي، فاتّضح أنّه نظراً إلى ضيق وقت العمليّة في لندن، لم يتمكّن الموساد من بناء غطاء مناسب لها. فاستخدمت اسم شقيقتها سيندي حنين، وجواز سفرها؛ الأمر الذي أتاح للصحفيين البريطانيين والإسرائيليين الكشف عن

هويتها الحقيقية بمنتهى السهولة. فوجدوا أنّ اسمها الحقيقي هو شريل بن توف، وكنيتها الأصلية حنين. وهي ابنة مليونير أميركي حقّق ثروة من تجارة إطارات السيّارات. كانت صهيونية متعصّبة، هاجرت إلى إسرائيل حين كانت في السابعة عشرة من عمرها. خدمت في الجيش الإسرائيلي، وتزوّجت من ضابط سابق في جهاز أمان. جنّدها عميل في الموساد لتعمل في المنظّمة. فقد كانت درجة ذكائها عالية، وحافزها قوياً، وجواز سفرها الأميركي مفيداً. خاضت تدريباً مرهقاً لمدّة عامين، قبل أن تسافر على نحو عاجل إلى لندن مع بقيّة أعضاء عمليّة كانيوك. بعد اختطاف فانونو والانفجار الإعلامي الذي أحاط بها، اضطرّت إلى الاستقالة من نشاطها العملياتي.

تعيش شريل حنين بن توف اليوم في أورلاندو، في فلوريدا. وتعمل هي وزوجها في تجارة العقارات، ويعيشان حياة أسرة أمريكية يهودية نموذجية. أدّت قضية فانونو إلى إحراق شريل كعميلة موساد؛ الأمر الذي أسف عليه زملاؤها فعلاً؛ نظراً إلى ذكائها وجمالها ودهائها. بفضلها، نجحت إسرائيل في إخراج فانونو من إنكلترا من دون خرق القوانين.

تمكّنت مارغريت تاتشر بسهولة من كبح غضب أعضاء البرلمان عندما تبيّن أنّ الإسرائيليين لم يرتكبوا عملاً غير قانوني على الأراضي البريطانية.

لكن، سرعان ما رجع الموساد إلى عاداته السابقة. فبعد مرور عامين، زرع عميلا الجهاز، آرييه ريغيف ويعقوب باراد، فلسطينياً في لندن ليكون عميلاً مزدوجاً. تمّ القبض على الفلسطيني واعتقاله، وأمرت تاتشر بإغلاق مركز الموساد في لندن وطرد ريغيف وباراد.

وعد جهاز الموساد مجدّداً بأن يحسن السلوك. وهذا ما فعله حتّى قضيّة محمود المبحوح.

الفصل السادس عشر

مدفع صدّام العملاق

في 23 مارس 1918، في ذروة الحرب العالمية الأولى، انفجرت قذيفة مدفعية ضخمة في وسـط سـاحة لا ريبوبليك في باريس. بعد سـاعة، تبعتها قذيفة أخرى أصابت وسط باريس، وأودت بحياة ثمانية أشخاص. أرعب الانفجاران الباريسيين، وذلك لأنّ المدينة كانت بعيدة جدًّا عن الخطوط الأمامية، ومن المفترض أن تكون آمنة. عندها، أرسل قائد منطقة باريس على الفور عدّة فرق لمسح الغابات المحيطة بالعاصمة، والتي يمكن أن تكون وحدة مدفعية ألمانية قد اختبأت فيها. لكنّ البحث لم يسفر عن شيء. فاعتقد الفرنسيون أنّ القذائف أطلقت من منطاد؛ على الرغم من عدم رصد أيّ منها. بعد ستّة أيّام، في يوم الجمعة العظيمة، انفجرت قذيفة أخرى في باريس. هذه المرّة، أصابت الضربة مباشـرة كنيسـة سـان جيرفيه التي تقع في المنطقة الإدارية الرابعة، وأسفر الانفجار عن مقتل 91 شخصاً وجرح 100 آخرين.

عـمّ الذعـر أرجاء المدينة، وانتشـرت دوريـات الجيش خارج العاصمة، لكنّها لم تجد شـيئاً. أساسـاً، لم يسـمع أحد عن مدفع قادر على قصف باريس من هذه المسـافة البعيـدة. قارنـت الصحـف الوحش الذي قصف المدينـة من بعيد بالمدفع الضخم الذي وصفه جول فيرن في كتابه من الأرض إلى القمر. وذلك لأنّ مدفع جول فيرن الخيالي يستطيع إطلاق سفينة فضائية كاملة إلى القمر.

كان الفرنسيون محظوظين. فقد انتهت الحرب في العام نفسه بانتصار الحلفاء علـى ألمانيـا الإمبرياليـة. وبدأت المعلومات تتقاطر ببطء عن المدفع الرهيب الذي نشر الموت والذعر في العاصمة الفرنسية. سمّاه البعض «مدفع باريس»، في حين أطلـق عليـه البعـض الآخر اسـم «مدفع فيلهيلـم»؛ تيمّناً بفيلهيلم الثانـي، إمبراطور

ألمانيا. تبيّن أنّه من صناعة كروب للأسلحة الثقيلة، التي أنتجت ثلاثة من تلك المدافع الغامضة. كان المدفع يمتاز بمدى غير مسبوق يبلغ 128 كلم. وكانت قذائفه بطول ثلاث أقدام، مع شحنة بارود بطول 12 قدماً. كانت قذائفه تصل إلى ارتفاع 42 كلم، وهو رقم قياسي لم تحطّمه سوى صواريخ في - 2 الألمانية في الحرب العالمية الثانية. صنعت شركة كروب المدافع الثلاثة بسرّية بالغة. كان يتمّ جرّ المدافع بواسطة قاطرات خاصّة من موقع إلى آخر يوميًّا تقريباً. وكان 80 جندياً من رجال المدفعية يشرفون على كل منها، وكانوا ممنوعين من التحدّث إلى أيّ شخص كان، وملزمين بإحاطة تلك الأسلحة الوحشية بالسرّية التامّة.

مع اقتراب الحرب من نهايتها، تدهورت بسرعة قدرات المناورة لتلك الأسلحة العملاقة. فقد اكتشفت الطائرات البريطانية أمرها، وطاردتها، واستمرّت بقصفها. كما قصفها الفرنسيون من المواقع القريبة من خطوط الجبهة. إلاّ أنّ أيًّا من تلك الهجمات لم ينجح. والمدفع الوحيد الذي تمّ تحييده هو ذاك الذي انفجر في أثناء إطلاق النار، وأودى بحياة خمسة جنود. أمّا المدفعان الآخران، فاختفيا عند انتهاء الحرب من دون أي أثر، وبقي مصيرهما لغزاً غامضاً. ربّما تمّ تفكيكهما، أو إخفاؤهما في كهف عميق أو منجم مهجور.

تحوّلت المدافع العملاقة إلى أسطورة، واعتقد كثيرون أنّ سرّها لن يكشف أبداً. لكن، عام 1965، وصلت امرأة ألمانية مسنّة إلى كندا، والتقت عالِماً يبلغ من العمر 37 عاماً، ويدعى د. جيرالد بول. كان جيرالد مسؤولاً عن برنامج البحوث عالية الارتفاع في جامعة ماكغيل في مونتريال. أما المرأة فكانت إحدى قريبات فريتز راوزنبيرغر، مدير التصميم الراحل في شركة كروب. أحضرت لبول مخطوطة ضائعة عثرت عليها في أرشيف الأسرة، تصف بالتفصيل المدفع العملاق وطريقة تشغيله.

ألهبت المخطوطة خيال بول الذي كان مشهوراً بعبقريته. فقد حصل على شهادة الدكتوراه في سنّ الثالثة والعشرين، وكان أصغر خرّيج دكتوراه من جامعة كندية. حلم بول بصنع مدافع عملاقة من شأنها إطلاق القذائف على أهداف تبعد مئات الأميال، وحتّى إطلاق أقمار صناعية إلى الفضاء الخارجي. استخدم

المخطوطة، وألّف كتاباً عن مدافع فيلهيلم والإمكانيّات التي تقدّمها للعلماء في المستقبل.

لكنّ الكتاب لم يكن كافياً. لذا، حصل بول على تمويل من الحكومتين الأميركية والكندية، ومن جامعته. وعلى أرض تجارب في باربادوس، قام باختبار مدفعه العملاق، وكان أطول مدفع صنع في العالم. بلغ طوله 36م، وعياره 424 ملم. شارك مئات العمّال، والفنّيون، والمهندسون - والكثيرون منهم من أبناء المنطقة - في صناعة السلاح الناري الهائل واختباره.

برع مدفع بول في الاختبار، وأطلق شحنات ثقيلة مسجّلاً ارتفاعات قياسية. وادّعى أنّه لو تمّ تسليح مدفعه - عوضاً عن القذائف - بصواريخ الوقود الصلب، فإنّ بمقدوره إطلاق صاروخ يزن 200 باوند لمسافة 4,000 كلم أو على ارتفاع 250 كلم.

شكّل مدفع بول إنجازاً عظيماً، لكنّ الحكومتين الأميركية والكندية قرّرتا إيقاف تمويل المشروع لأسباب مختلفة. وفي عام 1968، أجبر بول على مغادرة باربادوس. شعر بإحباط لا يوصف، وهاجم بحقد وكراهية البيروقراطيين الذين أجهضوا مشروعه.

قام لمدّة من الزمن بإنتاج قذائف مدفعية، حتّى إنّه صدّر 50,000 قذيفة إلى إسرائيل لاستخدامها مع قذائف أميركية الصنع. وكوفئ بمنحه جنسيّة أميركية فخرية. إلاّ أنّه لم يكن بارعاً في ضبط أعصابه، أو في إمساك لسانه، ولطالما تصادم مع كبار الضبّاط والمسؤولين الذين التقاهم. فالذلّ الذي شعر به عند إغلاق حقل الاختبار في باربادوس كان يتآكله، وشعر أنّه على استعداد لفعل أيّ شيء من أجل الاستمرار بصنع مدافعه الضخمة. أصبح هذا الأمر هاجسه، ولم يعد بإمكان شيء أن يوقفه عن السعي إلى تحقيقه.

بنى أوّلاً المدفع GC-45 الذي كان الأكثر تطوّراً في زمانه وبلغ مداه 40 كلم. عرض بول بيع المدفع لمن يرغب في شرائه. وعلى الرغم من الحظر الذي فرضته الأمم المتّحدة على بيع الأسلحة إلى جنوب أفريقيا، باع بول مدافعه إلى جيشها الذي كان يحتاج إليها في حربه ضدّ أنغولا المجاورة. كما باع جنوب أفريقيا أيضاً

ترخيصاً لبناء المدافع على أراضيها.

يقول البعض إنّ السي آي إيه دعمت بول سرًّا في نشاطه غير المشروع. لكن، حالما كُشفت المسألة إلى العلن، اختفى أصدقاء بول في السي آي إيه، وواجه بمفرده اتّهامات الأمم المتّحدة له بأنّه تاجر سلاح لا يرحم. أُجبر على العودة إلى الولايات المتّحدة، وهناك كانت بانتظاره مفاجأة غير سارّة؛ فقد أدانته إحدى المحاكم الأميركية بتجارة الأسلحة غير المشروعة، وحكمت عليه بالسجن لمدّة ستّة أشهر. وعندما أطلق سراحه وعاد إلى كندا، تمّ تغريمه بمبلغ 55,000 دولار. انتقل إلى بلجيكا وهو يشعر بالسخط والمرارة، وأسّس هناك شركة جديدة، وذلك بالتعاون مع شركة أعمال البارود المتّحدة (Poudreries Réunies de Belgique).

لكنّ هوسه لم يهدأ. فقد ظلّ يحلم ببناء مدفع ضخم يجاري ذاك الذي تخيّله جول فيرن. وعلى غرار غوتيه فاوست، كان على استعداد لبيع روحه من أجل تحقيق حلمه. وبالفعل، وجد من يشتريها: زعيم العراق المصاب بجنون العظمة، صدّام حسين.

في ثمانينيات القرن المنصرم، كان العراق يخوض حرباً قاسية ضدّ إيران. فباع بول العراقيين 200 مدفع GC-45، تمّ صنعها في أستراليا وتهريبها عبر مرفأ العقبة في الأردن المجاورة. لكنّ تلك لم تكن سوى البداية.

كان صدّام حسين – شأنه شأن بول – يشعر بإحباط عميق بعد قيام إسرائيل بقصف مفاعل تمّوز النووي، وتحطيم حلمه بتحويل العراق إلى قوّة نووية. كان يشعر أيضاً بغيرة كبيرة من إسرائيل التي كانت على وشك إطلاق أقمار صناعية إلى الفضاء.

عرض بول على صدّام أن يبني له أكبر وأطول مدفع في العالم. ووعده أنّه سيتمكّن بواسطة هذا المدفع من إطلاق أقمار صناعية إلى الفضاء، وإطلاق قذائف لمسافة تتجاوز 1,000 كلم. أدرك صدّام أنّه بذلك سيكون قادراً على ضرب المراكز السكّانية في إسرائيل، وقبل عرض بول بسرور. فأطلق بول على مشروعه اسم "مشروع بابل".

وضع بول مخطّطات بابل: مدفع بطول 150 م، يزن 2,100 طن، ومن عيار

متر واحد! لكن، قبل أن يبدأ بصنع المدفع العملاق، قرّر بول صنع نموذج أصغر حجماً، واختباره. أطلق على المدفع الأصغر اسم "بابل الصغير"، مع أنّ هذا الصغير كان أكبر من كلّ أسلافه. كان المدفع بطول 45م، وقد ذهل قائد مدفعية صدّام بأدائه. إلاّ أنّ ذاك المدفع لا يمكن أن يقارن إطلاقاً بالمدفع الحقيقي الذي كان يخرج من الصحراء العراقية.

اختار بول وضع مدفعه العملاق على تلّة جرداء، وثبّت قطعاً أطول وأثمن مدفع في العالم على المنحدر. بعد اختيار الموقع، اختار أجزاء مدفعه من مصانع فولاذ أوروبية مختلفة. كان العنصر الأساسي بالطبع هو الماسورة التي أراد بول تجميعها باستخدام عشرات أنابيب الفولاذ الضخمة. طلب الأنابيب من إنكلترا، وإسبانيا، وهولندا، وسويسرا. وتمّ تمويه الطلبات على أنّها "أجزاء من خطّ كبير لأنابيب النفط". لكن، بما أنّ العراق كان خاضعاً لقيود دولية صارمة على استيراد المواد الاستراتيجية، تمّ تسجيل الطلبات باسم الأردن.

بدأت الأنابيب بالوصول. ونظراً إلى ضخامة العمليّة برمّتها، فإنّ معظم الدول والشركات المعنية في إنتاج الأنابيب فهمت أنّ تلك الأنابيب لم تكن سوى أجزاء من سلاح فتّاك وعملاق. لكن، بسبب جشعها وعدم مبالاتها بحروب الشرق الأوسط، تعاونت من دون اكتراث. فمُنحت الأنابيب الضخمة تراخيص تصدير، وحُمّلت على طائرات الشحن، وأرسلت في طريقها. وقد وصل الكثير منها إلى العراق من دون مشاكل.

بدأ جيش بول الخاصّ من الفنّيين والمهندسين بتجميع قطع المدفع، وتوجيهها غرباً؛ نحو إسرائيل. لكنّ بول لم يكتف بذلك، بل بنى للعراقيين مدفعين ذاتيَي الدفع؛ المجنون والفاو. وتمّ دمج المجنون في سلاح المدفعية العراقية على الفور.

وافق بول أيضاً على تحسين صواريخ سكود في ترسانة صدّام، وتحسين رؤوسها الحربية؛ فضاعف مدى صاروخ سكود وأداءه. وستُستخدم هذه الصواريخ لاحقاً ضدّ إسرائيل خلال حرب الخليج الأولى.

غير أنّ بول تخطّى هنا خطّاً أحمر. فاستناداً إلى شهادة ابن بول، حذّر العملاء الإسرائيليون والده، وطلبوا منه إيقاف أنشطته الخطيرة. إلاّ أنّ بول رفض

الإصغـاء إليهـم. ولم تكن إسـرائيل وحدها هـي التي ترغب في إيقاف العالِم، فقد كانت المخابرات الأميركية والبريطانية تشعر بالقلق، وكذلك كانت لدى الإيرانيين حسابات عالقة معه. ففي الحرب الإيرانية العراقية، استخدم العراقيون ضدّهم مدافع صنعها جيرالد بول. بالتالي، من الواضح أنّ بول لم يكن يفتقر إلى الأعداء الذين كانوا مصمّمين على وضع حدّ لمشاريعه.

نظـراً إلـى تجاهلـه التحذيـرات، بدأ العملاء الخارجيون نشـاطهم. ففي شـتاء 1990، تمّ اقتحام شـقّته في حيّ أوكل في بروكسـل عدّة مرّات من قبل مجهولين. لم يأخذوا شيئاً، بل اكتفوا بقلب الأثاث، وإفراغ الخزائن والأدراج؛ تاركين إشارات واضحـة علـى زيارتهـم. كان ذلـك تحذيراً آخر لبـول: نحن هنا، ويمكننا أن ندخل منزلك كما يحلو لنا، وقد نذهب إلى القيام بما هو أبعد من ذلك.

مجـدّداً، تجاهـل بـول التحذيـرات. كانت أجـزاء المدفع تصل، ويتـمّ تركيبها واحـداً تلـو الآخـر، علـى التلّة الجرداء في العراق. بدا أنّ شـيئاً لن يوقف مشـروع بابل، باستثناء أمر واحد.

فـي 22 مـارس 1990، عـاد بـول إلى شـقّته في بروكسـل. وبينمـا كان يبحث عن مفاتيح الشـقّة في جيبه، خرج رجل من الرواق المظلم، حاملاً مسدّسـاً كاتماً للصوت، وأطلق خمس رصاصات على رأس بول من الخلف. فسقط أبو المدفع العملاق، ومات على الفور.

غرقـت الصحافـة العالميـة في التكهّنات حول هويّة القتلة. قال البعض إنّه تمّ إرسالهم من قبل السي آي إيه، في حين وجّه آخرون أصابع الاتّهام إلى المخابرات البريطانية، وأنغولا، وإيران... لكنّ معظم المراقبين أجمعوا على إسـرائيل. فتحت الشـرطة البلجيكية تحقيقاً، لكنّها لم تتوصّل إلى شـيء، ولم يتمّ العثور على قتلة جيرالد بول.

مـع وفـاة بـول، توقّف العمل على المدفع العملاق فوراً، وتشـتّت مسـاعدوه ومهندسوه وباحثوه وزبائنه في مختلف أنحاء العالم. كانوا على اطّلاع على أجزاء من المشروع، لكنّ الخطّة الرئيسة كانت محفوظة في رأس بول، وهو الوحيد الذي

كان يعرف كيفيّة إكمالها. وبموت بول، مات مشروع بابل كذلك.

بعد أسبوعين من مقتل العالِم، خرجت السلطات البريطانية من سباتها الطويل. فقامت أخيراً بإرسال وحدة جمركية إلى ميناء تيسبورت، وتمّ الحجز هناك على ثمانية أنابيب ضخمة للنفط من صنع شركة شيفيلد؛ كانت قد أدرجت في بيان تصدير على أنّها "أنابيب نفط". كانت تلك محاولة جيّدة، لكنّها أتت متأخّرة. فقد فوّتت بريطانيا 44 "أنبوب نفط" أصبحت أساساً بين الأيدي العراقية. في الأسابيع التالية، تمّ حجز المزيد من مكوّنات المدفع العملاق في خمس دول أوروبية أخرى. وحاول تحقيق رسمي في إنكلترا أن يُظهر كيف يمكن لشركات محترمة مثل شيفيلد تجاهل أهداف صدّام حسين الملتوية، وتوريد أنابيب فولاذية من أجل صنع المدفع العملاق.

عندما احتلّ الجيش الأميركي العراق عام 2003، وجد أكواماً من الأنابيب العملاقة التي يتآكلها الصدأ بين مخلّفات الإسكندرية الواقعة على بعد 30 ميلاً جنوب بغداد. كانت الأنابيب الصدئة هي كلّ ما تبقّى من خطط د. جيرالد بول العملاقة.

أتى اغتيال جيرالد بول في فترة التغيير العميق في سلوك الموساد. فقد وجد الرامسـاد الجديد، عميل الموساد المخضرم شبتاي شافيت، جهازاً مختلفاً تماماً عن ذاك الذي كان عليه الموساد عندما تولّى منصبه عام 1989. بدا شافيت الرجل المناسب للوظيفة لكونه مقاتلاً سابقاً في سايريت ماتكال ورئيس سيزاريا. لكن، بدءاً من مطلع السبعينيات، تحوّل تركيز الموساد من الاستخبارات إلى العمليّات الخاصّة، وذلك مع التصفية المنهجية لقادة أيلول الأسود، ومن ثمّ على نحو أكثر حدّة في الثمانينيات والتسعينيات. فقد أخذ الموساد على عاتقه معظم العمليّات ضدّ المخاطر غير العسكرية وغير التقليدية التي تهدّد دولة إسرائيل. وكانت أجهزة الدولة الرسمية غير قادرة على مكافحة الإرهاب بكفاءة. إذ عاش قادته في الخارج، بأمان نسبي، وخطّطوا لهجماتهم، وأرسلوا رجالهم ضدّ الأجهزة الإسرائيلية أو المدنيين في مختلف أنحاء العالم. وحتّى عندما عرفت إسرائيل هويّتهم وماهيّة

أنشطتهم، لم تتمكّن من اعتقالهم وتقديمهم للعدالة. فكانت الطريقة الوحيدة المتبقّية أمام الموساد هي إيجادهم وقتلهم. كانت تلك الأعمال وحشيّة وخطرة بالنسبة إلى منفذيها – أمثال ديفيد مولاد – إلاّ أنّها حقّقت أهدافها؛ لأنّ قتل القادة قضى على منظّماتهم أو جمّدها لسنوات عديدة. وتُعتبر مطاردة قادة أيلول الأسود أفضل مثال على ذلك. كما كانت لقضيّة جيرالد بول نتائج مشابهة. فعلى الرغم من عدم اكتشاف الجهة التي قتلته رسمياً، إلاّ أنّ موته قضى على مشاريعه الظلامية. والأمر نفسه حدث مع وديع حدّاد.

بدأ كلّ شيء بعلبة من الشوكولاته.

كان د. وديع حدّاد، رئيس الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، أحد أخطر أعداء إسرائيل. وكان اختطاف طائرة الخطوط الجوّية الفرنسية التي كانت في طريقها من تل أبيب إلى باريس في 27 يونيو 1967 أشهر عملياته. إذ قام عدد من العرب، والألمان، والأفريقيين الجنوبيين بإجبار الطيّار على الهبوط في عنتبي، عاصمة أوغندا، وطلبوا تبادل الرهائن اليهود والإسرائيليين مع أخطر المطلوبين في العالم. وفي واحدة من أكثر عمليّات الإنقاذ بطولية، سافر رجال الكوماندوس الإسرائيليون آلاف الأميال، وهبطوا في عنتبي، وقتلوا الخاطفين، وحرّروا الرهائن. بعد عمليّة عنتبي، أدرك حدّاد أنّ حياته أصبحت في خطر، فنقل مقرّه إلى بغداد، وشعر هناك بأمان أكبر. ومن العراق، واصل شنّ عمليّاته ضدّ إسرائيل.

كان جهاز الموساد مصمّماً على قتل وديع. لكن كيف؟ ولتحقيق هذه الغاية، تمّ إطلاق عمليّة مضنية، هدفها اكتشاف كلّ شيء عن حدّاد؛ لا سيّما نقاط ضعفه وعيوبه.

بعد عام على حادثة عنتبي، اكتشف عملاء الموساد أنّ حدّاد يعشق الشوكولاته، لا سيّما الشوكولاته البلجيكية الفاخرة. وقد أتت المعلومات عن نقطة ضعف حدّاد السرّية من مصدر فلسطيني موثوق تسلّل إلى داخل الجبهة الشعبية.

قدّم الرامساد إسحاق هوفي المعلومات إلى رئيس الوزراء الإسرائيلي الجديد مناحيم بيغن، الذي وافق على العمليّة على الفور. عندئذ، قام عملاء الموساد

بتجنيد أحد مساعدي حدّاد الموثوقين الذي كان في مهمّة في أوروبا. فقام بشراء علبة شوكولاته كبيرة لرئيسه من ماركة غوديفا الشهيّة. وعمد خبراء الموساد إلى حقن سمّ بيولوجي قاتل في الشوكولاته المحشوّة بالكريما الحلوة. وافترضوا أنّ حدّاد الذي يعشق شوكولاته غوديفا سيلتهمها كلّها بنفسه، ولن يتقاسمها مع أحد.

قدّم العميل الهديّة الملفوفة إلى حدّاد الذي ما إن أصبح بمفرده حتّى التهم الشوكولاته؛ واحدة تلو الأخرى. وفي غضون أسابيع، بدأ حدّاد ممتلئ الجسم يفقد شهيّته ويخسر وزنه. أشارت تحاليل الدم التي أجراها أطبّاؤه إلى إصابته بنقص مناعي حادّ. ولم يفهم أحد في بغداد ما الذي حلّ بزعيم الجبهة الشعبية.

ساءت حالة حدّاد، وصار ضعيفاً، ونحيلاً، ومقعداً في سريره. وحين أصبحت حالته حرجة، نُقل على وجه السرعة إلى عيادة في ألمانيا الشرقية. فعلى غرار معظم بلدان الكتلة السوفييتية، قدّمت ألمانيا الشرقية دعماً كبيراً للفلسطينيين، هذا فضلاً عن التدريب والأسلحة والمأوى التي قدّمتها للمقاتلين الفلسطينيين. غير أنّ خبرتهم لم تساعدهم هذه المرّة؛ إذ لم يتمكّن أطبّاء ألمانيا الشرقية من إنقاذ حدّاد الذي توفّي في 30 مارس 1978 «لأسباب مجهولة». وترك الرجل البالغ من العمر 48 عاماً لشقيقته ملايين الدولارات التي جمعها في أثناء قيادته حربه الوطنية في سبيل فلسطين.

بحسب تشخيص الأطبّاء الألمان، توفّي حدّاد نتيجة مرض قاتل هاجم جهازه المناعي. ولم يشتبه أحد بالموساد. اتّهم بعض مساعدي حدّاد المقرّبين السلطات العراقية بأنّها سمّمته لأنّه كان يحرج النظام. ولم يسمح للكتّاب الإسرائيليين بنشر حقيقة تورّط الموساد في موت حدّاد المفاجئ سوى بعد مرور سنوات عديدة. عند وفاة ياسر عرفات بعد 30 عاماً، اتّهم مساعدوه إسرائيل بالتسبّب في موته. غير أنّ هذا الاتّهام لم يثبت قط؛ على الرغم من الفحوصات والاختبارات الدقيقة التي أجراها أطبّاء عرفات الفرنسيون.

بموت حدّاد انهارت منظّمته، فتوقّفت هجمات مجموعته ضدّ إسرائيل بالكامل تقريباً، وانتهت المعركة الطويلة مع واحد من ألدّ اعداء إسرائيل.

بعد بول وحدّاد، حان دور الشقاقي.

في أواسط القرن التاسع عشر، أرسلت الدولة العثمانية قائد القوّات البحرية الملكية، وكان أميرالاً يتمتّع بالشهرة والإعجاب، لفتح جزيرة مالطا في البحر الأبيض المتوسّط. أبحر الأميرال وتجوّل لأشهر عديدة في البحر المتوسّط، لكنّه لم يجد مالطا.

عاد الأميرال إلى إسطنبول، وأعلن للسلطان قائلاً: «مالطا يوك!». (أي بالتركية، مالطا غير موجودة).

لكن في أيّامنا، ثمّة من عثر على مالطا. لم يجدوا الجزيرة فحسب، بل وجدوا أيضاً رجلاً وصل إليها متنكّراً، تحت هويّة مزيّفة، وكان يسافر بسرّية تامّة. كان ذاك الرجل هو د. فتحي الشقاقي، رئيس حركة الجهاد الإسلامي.

في 26 أكتوبر 1995، في ساعة متأخّرة من الصباح، خرج فتحي الشقاقي من فندق ديبلومات في بلدة سيلما في مالطا. كان في طريقه للتسوّق قبل عودته إلى دمشق التي عاش فيها خلال السنوات الأخيرة. وضع الشقاقي شعراً مستعاراً، وحمل جواز سفر ليبيًا باسم إبراهيم شاووش. شعر بأمان تامّ في البلدة المالطية الهادئة، ولم يعرف أنّ عدّة عملاء من الموساد كانوا في أعقابه منذ أن سافر قبل أسبوع، من مالطا إلى ليبيا، للمشاركة في مؤتمر للمنظّمات الفلسطينية السرّية. قبل تسعة أشهر من ذلك، في 22 يناير، عمد انتحاريان ينتميان إلى حركة الجهاد بتفجير نفسيهما على مقربة من محطّة حافلات عند تقاطع بيت لد، على مسافة قريبة من مدينة نتانيا. أسفرت العمليّة عن مقتل 21 شخصاً، معظمهم من الجنود، وجرح 68. كانت تلك العملية إحدى أكثر العمليات دموية في تاريخ إسرائيل. أصيب رئيس الوزراء إسحاق رابين بصدمة عميقة بعد أن هُرع إلى بيت لد، ورأى المذبحة. وبلغ غضبه ذروته عندما تباهى الشقاقي في مقابلة مع مجلّة تايم قائلاً: «هذا أكبر هجوم عسكري داخل فلسطين [خارج الحروب العربية الإسرائيلية].

التايم: يبدو أنّه يرضيكم؟

الشقاقي: إنّه يرضي شعبنا».

فأمر رابين غاضباً رئيسَ الموساد شبتاي شافيت بقتل رئيس حركة الجهاد.

كان شافيت يطارد الشقاقي منذ مدّة طويلة.

واستناداً إلى مجلّة دير شبيغل الأسبوعية، اقترح الموساد تصفية الشقاقي في مقرّه في دمشق، لكنّ رابين رفض ذلك. فقد كان يجري محادثات سلام سرّية مع الرئيس السوري حافظ الأسد، ولم يرغب في المخاطرة بالفرص الضئيلة لإنهاء الصراع مع جارة إسرائيل الشمالية. فطلب رابين من الموساد تقديم خطط بديلة لتنفيذ العمليّة. شرح شافيت أنّ المهمّة بالغة التعقيد لأنّ الشقاقي يعرف أنّه هدف للموساد. لهذا السبب، نادراً ما كان يغادر سوريا. مع ذلك، رفض رابين إعطاء الإذن بتنفيذ العمليّة في دمشق، وأمر الموساد بتصفيته خارج الحدود السورية.

لكن، أين؟ ظلّ قادة الموساد في حيرة من أمرهم لمدّة من الزمن. لكن، أخيراً حالفهم الحظّ، إذ تمّت دعوة الشقاقي إلى مؤتمر للمنظّمات الفلسطينية يُعقد في ليبيا. في البداية، اعتذر عن حضور المؤتمر، لكن قيل له إنّ خصمه اللدود سعيد موسى – رئيس منظّمة أبو موسى – ينوي المشاركة في المؤتمر. افترض خبراء الموساد أنّ الشقاقي لن يترك الميدان لخصمه، وأنّه سيحضر المؤتمر مهما كلّفه الأمر. وبالفعل، وصل إلى الموساد تقرير سرّي من دمشق أكّد أنّ الشقاقي ذاهب إلى ليبيا. في القدس، أعطى رابين الضوء الأخضر.

ادّعت المصادر الأوروبية أنّ الاستعدادات للضربة بدأت عندما تحقّق خبراء في الموساد من سجلّ رحلات الشقاقي السابقة إلى ليبيا. إذ تبيّن لهم أنّه يختار دائماً السفر إلى طرابلس الغرب عن طريق مالطا. فقرّر الموساد تنفيذ العمليّة في مالطا عوضاً عن ليبيا، لأنّها تُعتبر مكاناً أكثر ملاءمة وهدوءاً. انتظر عملاء الموساد الشقاقي في مطار فاليتا، إذ كان من المفترض أن يتوقّف هناك لوقت قصير في طريقه إلى ليبيا. إلاّ أنّ الشقاقي خدع صيّاديه تقريباً عندما هبط في مالطا على متن الرحلة اليومية الثالثة القادمة من دمشق؛ متنكّراً تماماً. أمضى وقتاً قصيراً في صالة الترانزيت، قبل أن يستقلّ الطائرة المتوجّهة إلى ليبيا.

في 26 أكتوبر، في الصباح الباكر، عاد إلى مالطا وحجز في فندق ديبلومات الذي سبق له أن نزل فيه. حصل على الغرفة 616، وغادر الفندق على الفور. راح اثنان من عملاء الموساد يتبعانه أينما ذهب على متن درّاجة نارية زرقاء. أمضى بضع ساعات في زيارة المتاجر والأسواق، وكان في طريق عودته إلى الفندق عندما

توقّفت الدرّاجة النارية الزرقاء بجانبه ونزل منها أحد العميلين - الذي وُصف لاحقاً بأنّه ذو ملامح شرق أوسطية - واقترب منه، وأطلق عليه ستّ رصاصات من مسافة قريبة بواسطة مسدس كاتم للصوت. سقط الشقاقي على الرصيف، في حين هرب القاتل إلى زقاق مجاور حيث كان شريكه بانتظاره على الدرّاجة النارية التي كان محرّكها يعمل. واندفع الاثنان إلى شاطئ قريب، ثمّ قفزا على متن قارب سريع أقلّهما إلى سفينة شحن كانت تنتظر في عرض البحر. كانت السفينة رسمياً تنقل الإسمنت من حيفا إلى إيطاليا. لكن، بالإضافة إلى الإسمنت، كانت على متنها حمولة أخرى: شبتاي شافيت نفسه، الذي راقب العمليّة من موقع قيادة مرتجل على متن السفينة. كان قد تمّ التخطيط لطريق الفرار جيّداً، ولم يتبع أحد العميلَين اللذين وصلا إلى السفينة الأمّ سالمين.

بعد وفاة الشقاقي، حاول مساعدوه في حركة الجهاد الإسلامي حلّ اللغز الكبير: من كان الخائن الذي سرّب المعلومات عن الرحلة إلى الموساد؟ كان القتلة يعرفون كلّ شيء: تاريخ انطلاقه إلى مالطا، ورقم الرحلة، وهويّته المزيّفة، وتاريخ عودته إلى مالطا ودمشق... وبعد خمسة أشهر من التحقيقات، اعتقل قادة الجهاد الإسلامي طالباً فلسطينياً كان مساعداً مقرّباً من الشقاقي، واتّهموه بالخيانة. انهار الطالب تحت الاستجواب، واعترف أنّه جُنّد من قبل الموساد في أثناء دراسته في بلغاريا. وقد أمره مشغّلوه بالانتقال إلى دمشق والانضمام إلى مجموعة الشقاقي. وخلال السنوات الأربع التالية، كسب ثقة الشقاقي، لا بل وأصبح واحداً من القلّة المطّلعين على تحرّكاته.

خلافاً لحماس وحزب الله اللذين استثمرا جزءاً كبيراً من مواردهما في الأنشطة الاجتماعية، كان للجهاد الإسلامي هدف أوحد: العمليات. فقد ارتكزت الحركة على عدد صغير جدًّا ومجزّأ جدًّا من الخلايا المؤلّفة من فلسطينيين لم يكن لديهم هدف آخر سوى قتال إسرائيل.

كانت منظّمة الشقاقي مسؤولة عن لائحة طويلة من الهجمات الدموية: 16 قتيلاً في هجوم على الباص 405 على الطريق الذي يربط بين تل أبيب والقدس، في 6 يوليو 1989. 9 قتلى في هجوم على باص للسيّاح الإسرائيليين بالقرب من

القاهرة، في 4 فبراير 1990. 8 قتلى في تفجير باص على مقربة من كفر داروم في جنوب إسرائيل، في 20 نوفمبر 2000. 3 قتلى من الجنود في هجوم على حاجز نتساريم في قطاع غزّة، في 11 نوفمبر 1994. والتفجير المروّع في بيت لد الذي أودى بحياة 21 جندياً في 22 يناير 1995. لا شكّ إذاً أنّه استحقّ حكم الإعدام الذي نفّذه الموساد في أحد شوارع مالطا. بعد موت الشقاقي، انهارت حركة الجهاد الإسلامي تقريباً، واستغرقت سنوات لتتجاوز محنة مقتل زعيمها.

لم تتبنَّ إسرائيل مسؤوليّة الاغتيال مطلقاً. وقال رئيس الوزراء إسحاق رابين: «لا أعرف شيئاً عن الاغتيال. لكن، إن كان ذلك صحيحاً فلن أشعر بالأسف».

بعد ذلك بمدّة قصيرة، تمّ اغتيال إسحاق رابين نفسه، ليس على يد فلسطيني، بل على يد يهودي متطرّف.

الفصل السابع عشر

فشل ذريع في عمّان

«أبوي! أبوي!». صرخت الفتاة الصغيرة، ثم قفزت من سيّارة الجيب السوداء، وركضت وراء أبيها إلى داخل مبنى إداري كبير في قلب عمّان، في الأردن.

نادت مجدّداً: «أبوي!». وتسبّبت بأحد أسوأ الحوادث في تاريخ الموساد.

تـمّ التخطيـط للعمليّـة بأدقّ تفاصيلها. ورغم أنّهـا كانت معقّدة قليلاً، إلاّ أنّها كانـت تتمتّـع بـكلّ فـرص النجـاح. كان هدفهـا هـو اغتيـال خالد مشـعل الذي تمّ تعيينه للتوّ رئيسـاً للمكتب السياسـي لحركة حماس. كان مشـعل مهندس كمبيوتر في الحادية والأربعين من عمره، وكان رجلاً وسيماً ذا لحية سوداء مهذّبة. كان قائداً صاعداً لحركة حماس التي أصبحت خلال السنوات القليلة الماضية من ألدّ أعداء إسـرائيل. حلّت هذه المنظّمة محلّ منظّمة التحرير الفلسـطينية في الحرب الشرسـة ضدّ إسرائيل؛ بعدما اتّخذ ياسر عرفات وإسحاق رابين خطوة باتّجاه السلام، وقاما بالتوقيـع علـى اتّفاقيـات أوسـلو معاً في سـبتمبر 1993. كانت قيادات الموسـاد قد اقترحـت اسـم مشـعل كهـدف للاغتيـال بعد عملية القدس فـي 30 يوليو 1997. إذ أقـدم شـخصان علـى تفجير نفسـيهما في سـوق محانيه يهودا، وخلّفـا وراءهما 16 قتيلاً إسـرائيلياً و169 مصاباً. دعا رئيس الوزراء بنيامين (بيبي) نتنياهو إلى اجتماع طارئ لمجلس الوزراء، وقرّر اغتيال أحد قادة حماس. وكلّف نتنياهو بدوره رئيس الموساد الجنرال داني ياتوم الذي تمّ تعيينه في منصبه عام 1996، بتحديد القيادي المرشّح للاغتيال.

كانت لدى ياتوم حياة مهنية عسكرية طويلة. كان رجلاً أصلع الرأس ومفتول العضلات ودائم الابتسام، قاتَل واحتلّ منصب نائب قائد في سايريت ماتكال، ومن

ثمّ منصب ضابط في فيلق المدرّعات، ورئيس القيادة المركزية الإسرائيلية برتبة لواء. كرّس نفسه قلباً وروحاً لخدمة رئيس الوزراء إسحاق رابين، وكان أمين سرّه العسكري. بعد وفاة رابين، تمّ تعيينه رئيساً للموساد في قرار فاجأ الكثيرين. فكلّ من يعرفه كان يقدّر كفاءته وسجلّه العسكري، لكنّه بدا مفتقراً إلى الصفات التي يحتاج إليها رجل يتربّع على عرش منظّمة سرّية. لذا، بدا تعيينه أقرب إلى تكريم لرابين منه إلى اختيار الرجل المناسب للوظيفة.

بعد اجتماعه مع نتنياهو في مطلع أغسطس 1997، دعا ياتوم إلى اجتماع عاجل في مقرّ الموساد في تل أبيب. فاستدعى إلى غرفة المشاورات رؤساء الأقسام العليا في الموساد. كان هؤلاء هم عليزا ماجين؛ نائب ياتوم، وب رئيس شعبة سيزاريا؛ شعبة العمليّات الخاصّة، وإسحاق برزيلاي؛ رئيس شعبة تيفيل المسؤولة عن التعاون مع وكالات الاستخبارات الأجنبية، وإيلان مزراحي؛ رئيس شعبة تسوميت، وهي شعبة جمع المعلومات الاستخبارية، ود رئيس شعبة نفعيوت؛ وهي الشعبة المسؤولة عن اختراق أهداف العدوّ، وكذلك رؤساء قسم البحوث ومكافحة الإرهاب. والاسمان اللذان تمت الإشارة إليهما بالحرفين ب ود لا يزالان قيد الخدمة الفعلية.

في البداية، وصلت المناقشات إلى نفق مسدود. لم تكن لدى الموساد لائحة كاملة بأسماء قادة حماس. كان أبرز قادة حماس هو موسى محمّد أبو مرزوق، إلاّ أنّ الرجل يحمل جواز سفر أميركيًّا، وأيّ اعتداء عليه قد يؤدّي إلى تعقيدات مع الولايات المتّحدة. بالمقابل، اعتُبر خالد مشعل هدفاً مناسباً بالإجماع، إلاّ أنّ مكتبه كان في عمّان. وبعد التوقيع على اتّفاق السلام مع الأردن، في أكتوبر 1994، حظّر رئيس الوزراء الراحل إسحاق رابين على الموساد القيام بأيّ عمليّات هناك. وقد حرص الجنرال ياتوم، عندما كان أمين سرّ رابين العسكري، على تنفيذ تعليماته بكلّ حذافيرها. لكن، بعد أن أصبح ياتوم رئيساً للموساد، قرّر تجاهل تعليمات رابين الراحل، واقترح اسم مشعل على رئيس الوزراء نتنياهو. ولقد حظي قراره بتأييد كلّ من رئيس شعبة سيزاريا، وميشكا بن ديفيد ضابط المعلومات الاستخبارية في الشعبة.

قَبِل نتنياهو، لكنه ظلّ مصمّماً على تجنّب أزمة مع الأردن، وأمر بتنفيذ عمليّة «هادئـة»، وغيـر اسـتعراضية. كلّـف ياتـوم وحـدة كيدون - وهي وحـدة النخبة في سيزاريا - بتنفيذ العمليّة. اقترح دكتور في الكيمياء الحيوية، من العاملين في قسم البحوث في الموساد، استخدام سمّ قاتل وفتّاك تمّ تطويره في المعهد البيولوجي في نيس تسيونا. فمن شأن قطرات معدودة من هذا السمّ أن تتسبّب في وفاة إنسان إن لامست جلده، ولا يمكن كشفه حتّى عند تشريح الجثّة. تمّ استخدام سمّ مشابه في الماضي، في قضيّة غوديفا ضدّ وديع حدّاد، زعيم الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين.

سأل الصحفي الإسرائيلي رونين بيرغمان ميشكا بن ديفيد بعد سنوات: «ألم تزعجك مسألة دسّ السم؟ فهي طريقة مقزّزة جدًّا للقتل...».

أجاب بن ديفيد: «أخبرني، هل إطلاق رصاصة على الرأس أو صاروخ على السيّارة أكثر إنسانية من السمّ؟... لكان من الأفضل بالطبع، لو لم تكن ثمّة حاجة للقتـل، لكـن فـي الحـرب لا يمكن تجنّـب ذلك. قرار رئيس الـوزراء بتنفيذ عمليّة هادئة حفاظاً على العلاقات مع الأردن، كان قراراً منطقياً».

في صيف 1997، رأى بعض المارّة في أحد شوارع تل أبيب شابّين يخضّان علبتـي كوكاكـولا ومـن ثـمّ يفتحانهما. فارت المياه الغازيـة مصدرة صوتاً. للحظة، صـوّب المـارّة نظـرات غاضبة على الشـابّين، ثمّ مضوا في طريقهـم. لم يعرفوا أنّ الشـابّين عميلان للموسـاد يتمرّنان على اغتيال مشـعل: إذ يقوم أحدهما بفتح علبة كوكاكـولا علـى مقربـة منـه من أجل صرف انتباهه، وفي الوقت نفسـه، يقوم الآخر برشّ بضع قطرات من السمّ على رقبته من الخلف.

قبل ستّة أسابيع من تنفيذ العمليّة، في أغسطس 1997، وصلت الدفعة الأولى من عملاء الموساد إلى الأردن. كانوا يحملون جوازات سفر أجنبية، وراقبوا مشعل لمعرفـة روتيـن حياتـه اليومـي: وقـت مغادرته منزله، ومن يسـتقلّ السـيّارة معه في الصباح، والطريق التي يسلكها، والمكان الذي يذهب إليه، وحالة المرور في أثناء تنقّله. قام العملاء بقياس الوقت الفاصل بين نزوله من السيّارة ودخوله هذا المبنى أو ذاك، وتحقّقوا ممّا إذا كان يتوقّف للحديث مع أشخاص آخرين يدخلون المبنى

نفسه، وجمعوا كلّ المعلومات الأخرى التي قد تؤثّر على الخطط التنفيذية.

أوجز التقرير الذي أرسله الفريق إلى مقرّ كيدون نتائج المهمّة الأوّلية: كلّ صباح، يغادر مشعل بيته من دون حراسة. يستقلّ سيّارة جيب يقودها مساعده ويتوجّه إلى المكتب الفلسطيني للإغاثة في مبنى شامية سنتر في عمّان. وبعد أن يترجّل مشعل من السيّارة، يمضي السائق في طريقه. يقطع مشعل المسافة القصيرة إلى المبنى سيراً على الأقدام ويدخل. كان المكتب الفلسطيني للإغاثة اسماً مموّهاً لمقرّ حماس في العاصمة الأردنية.

اقترح تقرير المراقبة أيضاً أفضل الطرق لاغتيال مشعل: في الصباح، على الرصيف، بعد أن يترجّل من السيّارة ويتوجّه إلى المبنى.

استمرّت الاستعدادات طوال الصيف: مراقبة، إرسال فرق مساعدة أخرى إلى عمّان، استئجار منازل آمنة وسيّارات. فجأة، في 4 سبتمبر، هزّ هجوم آخر القدس، إذ قام ثلاثة أعضاء من حماس بتفجير أنفسهم في شارع بن يهودا، وأسفر الانفجار عن مقتل 5 إسرائيليين، وإصابة 181 شخصاً. عندها، عيل صبر إسرائيل؛ حان وقت العمل.

في 24 سبتمبر 1997، قبل يوم واحد من تنفيذ العمليّة، خرج سائحان للتنزّه بجوار حوض السباحة في فندق كبير في عمّان. كان الرجل يرتدي ثوب حمّام أبيض. أخبر موظّفي الفندق أنّه في فترة نقاهة من أزمة قلبية، وأثبتت خطواته البطيئة والحذرة أنّه ما زال يعاني من آثار المرض. كانت الشابّة التي ترافقه طبيبة تتحقّق من وقت إلى آخر من نبضه وضغط دمه. كانا يمضيان معظم الوقت متمدّدَين على كرسيّين مجاورين للمسبح. كان "مريض القلب" هو ميشكا بن ديفيد المكلّف بالاتّصالات بين مقرّ الموساد والعملاء في الميدان. أمّا المرأة، فكانت عميلة موساد أيضاً، وهي طبيبة فعلاً، وكانت تحمل بين أدواتها حقنة ترياق ضدّ السمّ الذي سيستخدم لقتل مشعل. فمن شأن هذا العقار إبطال مفعول السمّ عند الضرورة. وسيستخدم في حال تعرّض عملاء كيدون عن طريق الخطأ لبعض قطرات السمّ في أثناء تنفيذ العمليّة. فالوسيلة الوحيدة لإنقاذهم من الموت المحقّق هي عبر

حقنهم بالترياق فوراً.

بينما كان المريض المزيّف والطبيبة ينتظران بجوار حوض السباحة، أكمل طاقم العمليّة استعداداته. في الأيّام الأخيرة، وصل إلى عمّان عدد من العملاء المسؤولين عن قيادة سيّارات الفرار وتأدية أدوار ثانوية أخرى. بعدهم، وصل فريق الاغتيال؛ عميلان من وحدة كيدون متنكّران في هيئة سائحَين يحملان جوازَي سفر كنديَّين باسم شون كيندل وباري بيدس. وقد نزل الاثنان في فندق إنتركونتنيتال. لاحقاً، طُرحت أسئلة مزعجة بشأن هذين الاثنين: لماذا تمّ اختيارهما رغم أنّهما لم يعملا سابقاً في دولة عربية؟ ولماذا أُعطيا جوازَي سفر كنديَّين، مع أنّ أبسط التحقيقات كانت ستُثبت أنّهما ليسا كنديّين؟ فلغتهما الإنكليزية كانت ركيكة، ولكنتهما الإسرائيلية واضحة، وغطاؤهما سينهار بالتأكيد عند أيّ تحقيق جادّ. إلاّ أنّ كلّ هذا لم يكن شيئاً مقابل الخطأ الذي ارتكبه فريق المراقبة، والذي لم يظهر إلاّ بعد إطلاق العمليّة.

كان من المفترض تنفيذ عمليّة الاغتيال عند مدخل مبنى شامية سنتر الذي يقع فيه مكتب مشعل. وكان من المفترض للمواجهة بين عميلَي كيدون ومشعل أن تكون سريعة وحاسمة. كان على شون وباري الاقتراب من مشعل، ورشّ السمّ على مؤخّر عنقه، والفرار في السيّارة التي تنتظرهما في الجوار. كان "الكنديان" على أهبة الاستعداد بعد التدريبات التي خضعا لها في شوارع تل أبيب. سيحمل شون علبة كوكاكولا، وسيقف في وجه مشعل، ويفتح الغطاء، ويرشّ الكوكاكولا باتّجاهه "عن طريقة الصدفة". لكنّ الكوكاكولا لم تكن بالطبع جوهر القصّة. كان باري الذي يحمل عبوة السمّ الصغيرة هو اللاعب الرئيس في العمليّة. فخلال ثوان معدودة، سيقوم برشّ السمّ من العبوة باتّجاه مشعل. كان من المفترض صرف انتباه الهدف عن السمّ بواسطة الكوكاكولا. وهكذا، سينتشر السائل على بشرته وسيموت إثر "ذبحة قلبية".

كان من المفترض أيضاً أن يقوم "سائحان" آخران، رجل وامرأة، بالانتظار داخل ردهة المبنى؛ تحسّباً في حال احتاج فريق الاغتيال للمساعدة. مثلاً، قد يتوجّه مشعل إلى المبنى بسرعة، من دون أن يتمكّن الكنديان من الإيقاع به. في هذه

الحالـة، يُفتـرض بالسـائحَين الخـروج من المبنى، والارتطام بمشـعل، وتأخيره إلى حين وصول عنصرَي الاغتيال.

بتلك الطريقة، اعتقد مخطّطو الموساد أنّهم لن يواجهوا تعقيدات مع الأردنيين.

كان مفتـاح النجـاح يكمـن فـي الوضع الميداني، أي أن يكون مسـرح العمليّة خالياً من الحرّاس، وأفراد الأسـرة، والمعارف، وضبّاط الشـرطة، ومقاتلي حماس، وغيرهـم مـن الأشـخاص الذين قد يجهضـون العمليّة. وبالفعـل، كانت التعليمات التـي أعطيـت إلـى العمـلاء الثمانيـة الذين أرسـلوا إلى الأردن واضحـة: لا تنفّذوا العمليّـة إلاّ فـي حال توفّر الشـروط المذكورة. ويؤكّـد داني ياتوم أنّه قال للعملاء: "إن اختلفـت الشـروط عـن المخطّـط الأصلـي، فبإمكاننا التنفيـذ في وقت لاحق". على حدّ علمنا، هذا ما حدث بالفعل. فقد أتى العملاء إلى مسـرح الاغتيال عدّة مرّات، لكنّهم أجهضوا العمليّة بسـبب مشـاكل غير متوقّعة؛ كوجود عناصر شـرطة أردنيين في المكان، أو حرّاس يرافقون مشعل، أو قرار مشعل في اللحظة الأخيرة عدم الذهاب إلى المكتب في ذلك اليوم.

في 25 سبتمبر 1997، اليوم الموعود.

تمركز قائد العمليّة في الشارع، أمام مبنى المكاتب. وكان قد اتُّخذ قرار بعدم استخدام الهواتف الخلوية أو وسائل الاتّصال الإلكترونية في المنطقة الهدف، وأن يتواصل العملاء بإشارات الأيدي والجسد. وفي حال اضطرّوا إلى إجهاض العمليّة، ينبغي أن يقوم القائد بإبلاغ العميلَين بذلك عبر نزعه قبّعته.

خلف المبنى، كانت سيّارة الفرار بانتظار الرجلين اللذين سينفّذان الاغتيال.

اتّخذ شون وباري مكانيهما، وكذلك فعل العميلان في بهو المبنى.

أصبح كلّ شيء جاهزاً.

في منزل مشعل، استيقظ أفراد الأسرة على صباح روتيني، باستثناء أمر واحد؛ فقـد طـرأ تغييـر فـي اللحظة الأخيرة. إذ طلبت زوجة مشـعل منـه أن يوصل طفليه إلى المدرسة اليوم. عادة، كانت هي التي تهتم بذلك. لكن، في هذا اليوم، استقلّ الطفـلان سـيارة الجيـب مـع أبيهما، ولـم يلاحظ فريق المراقبة في الموسـاد ذلك،

بل وصلت تقارير إلى وحدة كيدون تفيد بأنّ مشعل في طريقه إلى المكتب، وأنّه بمفرده في السيارة مع السائق. ولم يلاحظ العملاء الطفلين الجالسَين على المقعد الخلفي. فنوافذ السيارة داكنة، ولا يمكن رؤيتهما من الخارج.

وصل مشعل إلى شامية سنتر، فترجّل من السيّارة، وعبر الرصيف، ثمّ بدأ يصعد الدرجات المؤدّية إلى مدخل المبنى. اقترب منه العميلان، عشرة أمتار، خمسة، ثلاثة... فجأة، خرجت ابنة مشعل الصغيرة من السيّارة. نادته: «أبوي! أبوي!»، وبدأت تركض نحو والدها. قفز السائق من السيّارة وتبع الطفلة. لاحظ قائد العمليّة المتمركز في الجهة المقابلة من الشارع ما يجري، فخلع قبّعته في محاولة منه للإشارة إلى رجليه بإجهاض العمليّة. لكن، خلال هذه الثواني الحرجة، كان العميلان يمرّان خلف أحد الأعمدة الخرسانية الموجودة عند مدخل المبنى في طريقهما نحو مشعل، وفقدا الاتّصال بقائدهما. لا بل الأسوأ من ذلك أنهما لم يريا الفتاة الصغيرة والسائق الذي يجري وراءها.

استمرّ منفّذا العمليّة في أداء مهمّتهما. وصلا إلى مشعل، ورجّ شون علبة الكوكاكولا وفتح الغطاء. لكن اليوم، وللمرّة الأولى، نُزع لسان الغطاء من دون أن تُفتح العلبة. فشلت عمليّة صرف الانتباه. مع ذلك، رفع باري يده لرشّ السمّ على عنق مشعل. لكنّ سائق مشعل الذي كان يجري خلف الطفلة رأى الرجل الغريب يرفع يده، واعتقد أنّه يحاول طعن سيّده. فبدأ السائق بالصراخ، وانطلق باتّجاه باري، وحاول ضربه بواسطة صحيفة مطويّة. سمع مشعل صراخ السائق فالتفت نحو الوراء. في تلك اللحظة تحديداً، قام باري برشّ السمّ، وسقطت بضع قطرات منه على أذن مشعل. لم يشعر مشعل سوى بلدغة خفيفة، إلاّ أنّه أدرك وجود خطب ما، وراح يجري بأسرع ما يمكن. أمّا شون وباري فانطلقا باتّجاه السيّارة التي كانت بانتظارهما.

في تلك اللحظة، دخلت شخصية أخرى مسرح الأحداث: محمّد أبو سيف، وهو مقاتل في حماس كان في طريقه لتسليم مشعل بعض الوثائق. فقد سمع الصراخ، ورأى المواجهة التي وقعت بين زعيمه والعميلَين. وبينما هرب مشعل لإنقاذ حياته، حاول أبو سيف إيقاف شون وباري اللذين كانا على وشك الذهاب

إلى السيّارة، وهو الخطأ الثالث في تلك العمليّة المشؤومة. تعارك مع شون، فضربه العميل بعلبة الكوكاكولا التي فشلت في أداء مهمتها الأولى. ثمّ تمكّن شون وباري من القفز إلى داخل السيّارة التي انطلقت بأقصى سرعتها.

غير أن العملاء ارتكبوا عندئذ أفدح خطأ في العمليّة برمّتها. فقد أخبر السائق شون وباري أنّه رأى أبو سيف وهو يدوّن رقم السيّارة. عندها، قرّر الرجلان النزول منها خوفاً من أن يعمد أبو سيف إلى إبلاغ الشرطة. وفي حال وصلا إلى الفندق بتلك السيّارة - كما كان مخطّطاً - فسيتمّ اعتقالهما. لم يكن لديهما عنوان منزل آمن، ولا طريق فرار آخر. فترجّل باري وشون من السيّارة بعدما قطعت مسافة قصيرة، وانطلق السائق للتخلص منها.

اتّضح أنّ أبي سيف، المجاهد المخضرم الذي حارب في أفغانستان ضد الروس، لم يستسلم. إذ كان الرجل العنيد يلاحق سيّارة الإسرائيليين. كان شون وباري اللذان غادرا السيارة يمشيان الآن على جانبي الشارع، ولم يلاحظا أبا سيف إلى أن انقضّ على باري، وأمسكه من قميصه، وبدأ يصيح قائلاً إنّ هذا الرجل حاول إيذاء مشعل. فهبّ شون الذي كان يسير على الرصيف المقابل لنجدة شريكه. هاجم أبو سيف، وضربه على رأسه مسبّباً له جرحاً طفيفاً، ثمّ رماه جانباً. تواصل العراك، وسرعان ما تجمّع حشد من الناس حول الغريبَين اللذين كانا يضربان عربياً. ثم ظهر شرطي في المكان، وفرّق المحتشدين، وأوقف سيّارة أجرة، وأدخل إليها الغريبَين وأبو سيف الجريح، واقتادهم جميعاً إلى مركز الشرطة.

في مركز الشرطة، اعتقد الضبّاط في البداية أنّ أبا سيف هو من هاجم الغريبَين، لكن بعدما استعاد قوّته، اتّهمهما بالاعتداء على مشعل. تحقّق الأردنيون من جوازَي سفر الغريبَيْن. وعندما اتّضح لهم أنّهما كنديان أبلغوا القنصلية الكندية. تحدّث الدبلوماسي مع شون وباري لمدّة قصيرة، ثمّ قال للأردنيين: «لا أعرف من يكون هذان الرجلان، لكنّني متأكد من أمر واحد: ليسا كنديَين».

لم يدرك الأردنيون بعد أيّ كنز ثمين سقط بين أيديهم، وقرّروا التحفّظ على الغريبَين والسماح لهما بإجراء مكالمة هاتفية واحدة. فاتّصل العميلان بالمقرّ التنفيذي للموساد في أوروبا وأبلغاه باعتقالهما. في الوقت نفسه، فهمت إحدى

العميلات التي شاركت في العمليّة ورأت ما حدث أمام شامية سنتر أنّ خطأً فادحاً قد وقع، وقرّرت إبلاغ «مريض القلب»، ميشكا بن ديفيد، الموجود في العاصمة الأردنية. فاندفعت إلى الفندق. وعندما رآها، فهم على الفور أنّ الأسوأ قد وقع. كانت الأوامر تنص على عدم اقتراب أحد منه إلاّ في حالة واحدة: إن فشلت العمليّة وتحتّم إخراج العملاء كافّة من البلد فوراً.

خلع بن ديفيد رداءه، وارتدى ملابسه بسرعة، ثم انطلق إلى المكان السرّي الذي تمّ تحديده مسبقاً. بعد قليل، وصل قائد العمليّة أيضاً. وكان على علم بفشل الاغتيال؛ غير أنّ أيًا منهما لم يتخيّل الفوضى التي ستعمّ في الساعات القادمة.

أرسل ميشكا تقريراً إلى مقرّ الموساد فوراً. فناقش الرامساد داني ياتوم الوضع مع قيادات مختلف الوحدات، وقرّر إعطاء تعليمات للعملاء باللجوء إلى السفارة الإسرائيلية في عمّان، وعدم استخدام طريق الفرار التي تمّ التدرّب عليها مسبقاً. وفي الأردن، غادر الجميع مكان الاجتماع وتوجّهوا إلى السفارة، ولم يبقَ في الفندق سوى الطبيبة.

في تلك الأثناء، في حيّ آخر من أحياء عمّان، كان السمّ القاتل قد بدأ يعطي مفعوله، فانهار مشعل وتمّ نقله إلى المستشفى. أدرك الإسرائيليون أنّه إن لم يأخذ الترياق فسيموت خلال بضع ساعات.

تلقّى نتنياهو خبر فشل العمليّة وهو في سيّارته، بينما كان في طريقه للاحتفال بالعام الجديد في... مقرّ الموساد. كانت صدفة مدهشة. أبلغ ياتوم رئيس الوزراء بما حدث، فأصيب نتنياهو بالذعر، وأمر الرامساد بالسفر إلى عمّان على وجه السرعة، والاجتماع بالملك حسين، وإخباره القصّة كاملة، من دون خداع أو أكاذيب. ومن مقرّ الموساد، اتّصل رئيس الوزراء بالملك حسين وأبلغه أنّه سيبعث إليه برئيس الموساد لمسألة هامّة جدًا. فوافق الملك على الفور، مع أنّه لم يعرف سبب الاجتماع.

يروي مساعدو نتنياهو الذين رافقوه في تلك الساعات أنّه كان متوتّراً للغاية، وأصدر تعليمات لياتوم بالموافقة على كلّ ما يطلبه الملك مقابل إعادة العملاء إلى إسرائيل. كما أمر ياتوم بإعطاء الأردنيين الترياق وإنقاذ مشعل من الموت المحقّق.

قال شارون لاحقاً: «رأيت نتنياهو في قضيّة مشعل. كان منهاراً تماماً، حيث اضطررنا إلى لملمة شتاته... كان جاهزاً للتنازل عن كلّ شيء من شدّة توتره...».

أصغى الملك حسين إلى تقرير ياتوم مصدوماً، وأمر رجاله بالتحرّي عن حالة مشعل. جاء التقرير الدقيق على الفور: حالة الرجل تتدهور بسرعة. فأمر الملك بنقله إلى المستشفى الملكي فوراً، وقَبِل عرض ياتوم بإعطائه الترياق الذي سينقذ حياته. وهكذا، في انعطافة عبثية لتلك القضية الشائكة، دخل الإسرائيليون والأردنيون في سباق مع الزمن لإنقاذ الهدف المراد تصفيته.

عاد ميشكا بن ديفيد إلى الفندق حاملاً في جيبه قارورة الترياق. قال لاحقاً في مقابلة مع رونين بيرغمان: «كنت أتنقّل والقارورة بحوزتي. عرفت أنّها لم تعد ذات فائدة، لأنّ أحداً من رجالنا لم يتأذَّ بالسمّ، بل كان الهدف وحده في حالة حرجة. لذا، قرّرت التخلّص من الترياق خشية ضبطه معي. لكنّني تلقّيت مكالمة هاتفية من قائد الوحدة في إسرائيل. سألني إن كانت المادّة لا تزال معي، وعندما رددت بالإيجاب، طلب منّي الذهاب إلى بهو الفندق. كان نقيب من الجيش الأردني ينتظرني هناك على حدّ قوله، وسيأخذ منّي الترياق على الفور لإيصاله إلى المستشفى».

في هذه اللحظة، ظهرت مشكلة أخرى غير متوقّعة. فقد رفضت الطبيبة التي كان من المفترض أن تحقن مشعل المحتضر بالترياق تنفيذ ذلك؛ ما لم تتلقَّ الأوامر من الرامساد شخصياً. عندها، اتصل بها داني ياتوم، وكان قد غادر القصر الملكي متوجّهاً إلى السفارة، وأمرها بالذهاب مع ميشكا. لكن، عند وصولهما إلى المستشفى، رفض الأردنيون أن تقوم طبيبة إسرائيلية بحقن مشعل بالترياق. وربّما خافوا أن تحاول إكمال مهمّة الاغتيال...

ما زاد الأمور تعقيداً، أنّ طبيب الملك الذي كان مكلّفاً بإنقاذ حياة مشعل رفض إعطاء مشعل الترياق من دون أن يعرف الصيغ الكيميائية للسمّ والترياق. فهو لم يشأ تحمّل المسؤولية عن مصير مشعل؛ خوفاً من انطواء الأمر على حيلة من جانب الإسرائيليين لقتل الرجل. هكذا، وقعت أزمة جديدة. فقد تشبّث الجانبان بمواقفهما، فطلب الأردنيون الصيغ ورفض الإسرائيليون إعطاءهم إيّاها.

في تلك الأثناء، كانت حالة مشعل تتدهور بسرعة. فقد توقّف عن التنفّس، وتمّ ربطه بجهاز تنفّس اصطناعي في قسم العناية المركّزة في المستشفى الملَكي. كان واضحاً لجميع المعنيين أنّه في حال موت مشعل، سيطرأ تدهور كبير على العلاقات بين البلدين. حتّى إنّ الملك، الذي شعر بإهانة كبيرة من التّصرف الذي قام به الإسرائيليون، هدّد بأمر جيشه باقتحام السفارة واعتقال عملاء الموساد الأربعة الذين لجأوا إليها. كما قال إنّه سيضع حدًّا لأيّ تعاون سياسي وعسكري مع إسرائيل.

مرّت الساعات، وازداد معها التوتّر. أعلن الملك أنّه في حال وفاة مشعل، فسيحكم على قاتليه، أيّ العميلين الموجودين في عهدة الشرطة الأردنية، بالإعدام. كما أجرى اتّصالاً عاجلاً بالرئيس الأميركي بيل كلينتون.

بدأ الأميركيون يضغطون على إسرائيل لتسليم الصيغ إلى الأردنيين. وغرق نتنياهو في سلسلة ماراتونية من الاجتماعات مع مختلف المستشارين والوزراء. وفي النهاية، رضخ للأمر الواقع، وسلّم الأردنيين الصيغة.

قام الطبيب الأردني بإعطاء مشعل الترياق، وكانت النتيجة فورية، إذ فتح مشعل عينيه مباشرة.

عندما وصل خبر تعافي مشعل إلى إسرائيل، تنفّس الجميع الصعداء، وكأنّ أخاً عزيزاً قد عاد إليهم.

تمكّن ميشكا بن ديفيد والطبيبة من مغادرة الأردن، وبقي ستّة عملاء موساد في عمّان، أربعة في السفارة واثنان لدى الشرطة الأردنية.

في وحدة العناية المركّزة، كانت صحّة مشعل في تحسّن مستمرّ. أرسلت إسرائيل وفداً رفيع المستوى إلى عمّان، تضمّن رئيس الوزراء بنيامين نتنياهو، ووزير الخارجية آرييل شارون، ووزير الدفاع إسحاق موردخاي. غير أنّ الملك حسين رفض مقابلة الوفد، وأرسل شقيقه حسن عوضاً عنه.

استدعت الحكومة أيضاً إفرايم هاليفي، الذي كان نائباً لرئيس الموساد، وصديقاً شخصياً للملك حسين. كان هاليفي في ذلك الوقت سفير إسرائيل لدى الاتّحاد الأوروبي في بروكسل. سافر إلى عمّان على الفور، وعرض صفقة على

الملك. مقابل العملاء الأربعة الموجودين في السفارة، ستفرج إسرائيل عن مؤسّس حركة حماس وزعيمها؛ الشيخ أحمد ياسين. وافق الملك على ذلك العرض، وعاد العملاء الأربعة مع هاليفي.

أُوكلت المفاوضات النهائية إلى آرييل شارون الذي كان على علاقة وثيقة بالملك.

طلب شارون الإفراج عن عميلَي كيدون المعتقلَين لدى الشرطة الأردنية. ومقابل ذلك، طلب الأردنيون الإفراج عن عشرين سجيناً أردنياً لدى إسرائيل، فوافق شارون. لكن في اللحظة الأخيرة، تراجع الأردنيون، وطلبوا المزيد من التنازلات من إسرائيل. هنا نفد صبر شارون في حضور الملك، وقال غاضباً: «إن استمررتم على هذا النحو، فسنترك رجليْنا لديكم، وسنقطع عنكم الماء (كانت إسرائيل تزوّد الأردن بالماء)، وسنقتل مشعل مرّة أخرى».

آتت ثورة شارون أُكلَها، وتمّ التوقيع على الاتّفاق. فهبطت مروحيتان إسرائيليتان في الأردن، أقلّت إحداها عميلَي كيدون إلى إسرائيل وأحضرت الأخرى الشيخ ياسين الذي فُكّ أسره.

انتقدت وسائل الإعلام الإسرائيلية والدولية عمليّة الموساد في الأردن وسخِرت منها. كما نال نتنياهو نصيبه من التقريع على الطريقة التي أدار بها القضية. ولم يجد خياراً أمامه سوى تشكيل مجلس تحقيق في «الإخفاق العمليّاتي في الأردن».

برّأ المجلس رئيس الوزراء تماماً، لكنّه ألقى اللوم على الرامساد بشأن «أخطاء في أدائه» وبشأن إطلاق عمليّة محكوم عليها بالفشل منذ البداية. لكنّه لم يطلب استقالة ياتوم.

بعد الإخفاق في عمّان، تدهورت علاقات الأردن بإسرائيل مجدّداً. وكسب خالد مشعل الذي كان لا يزال شخصية غير بارزة في حماس مكانة في المنظّمة، وأصبح أحد كبار قادتها. وبعد وفاة الشيخ ياسين، استلم مشعل القيادة العامّة في حماس. من جهة أخرى، تضرّرت هيبة الموساد في إسرائيل وفي العالم، وحتّى في أعين قادته وعملائه. فتعرّض داني ياتوم الذي فشل في العمليّة للنقد اللاذع

من قبل الكثير من كبار ضبّاط الموساد. أمّا عليزا ماجين، نائب ياتوم، فقالت عنه بصراحة إنّه ليس مؤهّلاً ليكون رئيساً للموساد.

على الرغم من النقد، لم يقدّم ياتوم استقالته. كان الشخص الوحيد الذي تحمّل مسؤوليّة الحادث هو رئيس سيزاريا الذي قدّم استقالته على الفور. ولم يرضخ ياتوم ويقدّم استقالته إلاّ بعد مرور خمسة أشهر، في فبراير 1998، عندما اعتقل عميل للموساد في سويسرا حاول التنصّت على خطّ هاتف أحد رجال حزب الله. قال ياتوم في حوار مع صحيفة هآرتس: «لقد تحمّلت المسؤوليّة القيادية، وقرّرت الاستقالة بسبب الحوادث المؤسفة في الأردن وسويسرا».

حلّ مكانه إفرايم هاليفي، وهو نائب سابق لرئيس الموساد، خاض مفاوضات ناجحة مع الملك حسين من أجل إطلاق العملاء الأربعة الذين شاركوا في فشل عمليّة مشعل.

الفصل الثامن عشر

صداقة مع كوريا الشمالية

في إحدى أمسيات شهر يوليو من عام 2007 في لندن، غادر أحد نزلاء فندق كنسينغتون غرفته، ثمّ استقلّ المصعد ونزل إلى البهو، وصعد إلى السيّارة التي كانت بانتظاره عند المدخل. كان مسؤولاً سورياً بارزاً، وصل من دمشق عصر ذلك اليوم، وهو الآن في طريقه لحضور اجتماع.

في اللحظة التي خرج فيها من باب الفندق، نهض رجلان من حيث كانا جالسين في زاوية بعيدة من البهو. كانا يعرفان بالضبط إلى أين سيذهبان. وصلا إلى غرفة السوري، ودخلا بواسطة جهاز إلكتروني خاصّ. استعدّا لتمشيط الغرفة بطريقة منهجية، لكنّ مهمّتهما كانت سهلة هذه المرّة. فقد كان الحاسوب المحمول موضوعاً على المكتب. شغّله الرجلان، وقاما خلال دقائق بتثبيت نسخة متطوّرة من برنامج حصان طروادة. كان البرنامج يتيح لهما مراقبة كلّ الملفّات المحفوظة في ذاكرة الحاسوب ونسخها عن بعد. بعد إتمام المهمّة، غادر الرجلان الفندق بسلام.

قام محلّلو الموساد في تل أبيب بدراسة ملفّات الحاسوب، فأصابهم الذهول. وفي اجتماع عاجل لرؤساء الأقسام، وصفوا المعلومات الثمينة التي وقعت بين أيديهم: مجموعة من الملفّات والصور والرسومات والوثائق التي تكشف للمرّة الأولى عن البرنامج النووي السرّي السوري. كانت تلك الموادّ في غاية الأهمّية، وتتضمّن خطط بناء مفاعل نووي في منطقة صحراوية نائية، والمراسلات بين الحكومة السورية ومسؤولين رفيعي المستوى في إدارة كوريا الشمالية، فضلاً عن صور تُظهر المفاعل المحاط بالإسمنت. أظهرت صورة أخرى رجلَين، أحدهما مسؤول بارز في المشروع الذرّي لكوريا الشمالية، والآخر هو إبراهيم عثمان؛ رئيس

هيئة الطاقة الذرّية السورية.

أكّدت الاكتشافات صحّة عدد من التقارير التي بلغت المخابرات الإسرائيلية في عامي 2006 و2007، وأشارت إلى أنّ الحكومة السورية تعمل على بناء مفاعل نووي بسرّية تامّة في موقع صحراوي في دير الزور، في أقصى شمال شرق البلاد. كان الموقع النائي محاذياً للحدود التركية، وعلى بعد حوالى مئات الأميال من الأراضي العراقية. وربّما كانت أكثر التفاصيل إثارة للدهشة في التقارير هي أنّ المنشأة السورية تخضع لتخطيط خبراء نوويين من كوريا الشمالية وإشرافهم، وتموّلها إيران.

بدأ التعاون الوثيق بين سوريا وكوريا الشمالية مع الزيارة التي قام بها رئيس كوريا الشمالية كيم إيلسونغ إلى دمشق عام 1990. خلال تلك الزيارة، وباقتراح من الرئيس حافظ الأسد، تمّ التوقيع على اتّفاق تعاون عسكري وتكنولوجي بين الدولتين. وعلى الرغم من طرح الموضوع النووي في ذلك الحين، قرّر الأسد تنحيته جانباً والاكتفاء بتطوير سلاح كيميائي وبيولوجي، كما جمّد برامج شراء مفاعلات من روسيا. في فبراير 1991، في أثناء عمليّة عاصفة الصحراء، وصلت أوّل شحنة من صواريخ سكود من كوريا الشمالية إلى سوريا. وصلت التقارير التي تُفيد بوجود الصواريخ موشيه آرنز؛ أي وزيرَ الدفاع الإسرائيلي. فاقترح عدد من جنرالات الجيش شنّ ضربة عسكرية لتدمير الصواريخ قبل أن تصبح جاهزة للاستخدام. إلاّ أنّ آرنز رفض الفكرة؛ تجنّباً لإشعال المنطقة.

في جنازة حافظ الأسد في يونيو 2000، اجتمع ابنه وخلفه بشّار الأسد مع وفد آخر من كوريا الشمالية. وتناقش الفريقان سرًّا في موضوع بناء منشأة نووية في سوريا، تشرف عليها «الوكالة السورية للأبحاث العلمية». وفي يوليو 2002، جرى لقاء سرّي آخر في دمشق بين مندوبين سوريين وإيرانيين وكوريين شماليين، وفيه تمّ التوصّل إلى اتّفاق ثلاثي تقوم بموجبه كوريا الشمالية ببناء مفاعل نووي في سوريا، بتمويل من إيران. وبلغت كلفة المشروع بأكمله – بدءاً من التخطيط وحتّى إنتاج سلاح البلوتونيوم – مليارَي دولار.

خلال السنوات الخمس التالية، وعلى الرغم من المعلومات المجزّأة التي وصلت من دمشق، لم تكن السي آي إيه والموساد على علم بالمشروع السوري. وعلى الرغم من ورود عدّة تحذيرات، إلاّ أنّها لم تؤخذ بجدّية. ولم تحسن أجهزة المخابرات الأميركية تفسير المعلومات التي وصلت إليها، في حين أساء جهازا الموساد وأمان تقدير إمكانيّات سوريا ورغبتها في الحصول على أسلحة نووية. كما أنّ أحداً لم يكبّد نفسه عناء إثبات خطأ هذا المفهوم؛ مع أنّ الأدلّة كانت واضحة. ففي عام 2005، غرقت سفينة شحن محمّلة بالإسمنت، تدعى ‹أندورا› في طريقها من كوريا الشمالية إلى سوريا، قبالة ساحل مدينة نهاريا الإسرائيلية. وفي عام 2006، ضبطت قبرص سفينة شحن كورية شمالية، تحمل علم بانما، وعلى متنها حمولة إسمنت أخرى مع محطّة رادار محمولة. في الحالتين، كان «الإسمنت» عبارة عن معدّات للمفاعل النووي من دون شكّ. أخيراً، في أواخر 2006، قام خبراء نوويون إيرانيون بزيارة إلى دمشق لمتابعة تقدّم بناء المنشأة. علمت المخابرات الإسرائيلية والأميركية بأمر تلك الزيارة، لكنّها لم تدرك أنّها ترتبط بمشروع دير الزور.

اتّخذ السوريون احتياطات قصوى لحماية سرّية مشروعهم، ففرضوا تعتيماً إعلامياً كاملاً على العاملين في الموقع جميعاً، كما حظروا عليهم حيازة الهواتف المحمولة، وكان يتمّ تبادل الرسائل عن طريق مبعوثين يحملون الرسائل ويوصلونها إليهم يداً بيد. ولم تتمكّن الأقمار الاصطناعية الأميركية والإسرائيلية من معرفة ماهيّة النشاط الذي يدور في الموقع من الفضاء، مع أنّها كانت تمرّ فوقه باستمرار.

فجأة، في 7 فبراير 2007، وصل مسافر إلى مطار دمشق. كان يدعى علي رضا أصغري، وهو لواء إيراني ونائب سابق لوزير الدفاع، كان ينتمي في الماضي إلى قيادات الحرس الثوري (انظر إلى الفصل 2). مكث في المطار إلى أن تلقّى تأكيداً بأنّ أسرته غادرت إيران. بعد ذلك، سافر إلى تركيا، ثمّ اختفى أثره بعد وقت قصير من وصوله إلى إسطنبول.

بعد مرور شهر، اتّضح أنّ أصغري قد انشقّ لصالح الغرب في عمليّة خطّطت لها السي آي إيه بالتعاون مع الموساد. خضع أصغري للاستجواب في قاعدة أمريكية في ألمانيا، وهناك كشف النقاب عن مخطّطات نووية سورية وإيرانية، وعن

اتّفاق بين كوريا الشمالية وإيران وسوريا. وقال للمحقّقين إنّ إيران لا تكتفي بتمويل مشروع دير الزور، بل تمارس أيضاً ضغوطاً قوية على سوريا لإكماله بأسرع ما يمكن. كما زوّد السي آي إيه والموساد بكنز من التفاصيل حول تقدّم المشروع، وبمعلومات عن أبرز المسؤولين المعنيين به في كلّ من سوريا وإيران.

سبّبت هذه المعلومات الجديدة صدمة للموساد، ودفعت الجهاز إلى الانتقال فوراً إلى العمل. منذ عام 2002، كان الموساد برئاسة مئير داغان الذي حلّ مكان إفرايم هاليفي (انظر إلى الفصل 1). استناداً إلى معلومات أجنبية، كلّف داغان وحدات وعملاء من الموساد بالتحقّق من صحّة تقرير أصغري. ودعا رئيس الوزراء إيهود أولمرت إلى اجتماع لرؤساء أركان الجيش ووزارة الدفاع وأجهزة الاستخبارات، فاتّفقوا بالإجماع على الدعوة إلى تنفيذ عمليّة عاجلة، من أجل الحصول على أدلّة دامغة وموثوقة حول مفاعل دير الزور. فإسرائيل لا تستطيع أن تقبل بتحوّل عدوّتها اللدودة سوريا إلى قوّة نووية.

بعد خمسة أشهر فقط من انشقاق أصغري، حقّق عملاء الموساد اختراقهم الأكبر عبر حاسوب المسؤول السوري. وأصبح بإمكان رؤساء الموساد وأمان أن يقدّموا لرئيس الوزراء أولمرت الدليل القاطع الذي تحتاج إليه الحكومة.

وسرعان ما حقّق داغان إنجازاً آخر. ففي عمليّة تتّسم بالجرأة والدهاء، تمكّن ضابط موساد من تجنيد أحد العلماء العاملين في المفاعل نفسه. وقام هذا الأخير بتصوير المفاعل بالتفصيل، من الداخل والخارج، لا بل وسجّل شريط فيديو للأبنية وما فيها من معدّات. كانت تلك هي الصور الأولى التي حصل عليها الموساد للمفاعل، والملتقطة من الأرض. كشفت الصور بوضوح عن مبنى أسطواني ضخم ذي جدران سميكة. وأظهرت صور أخرى سقالة خارجية مصمّمة لتدعيم جدران المفاعل من الخارج. كانت بينها أيضاً صور لمبنى آخر أصغر حجماً مجهّز بمضخّات الوقود، ومحاط بعدّة شاحنات مركونة حوله. هذا بالإضافة إلى مبنى ثالث، بدا بوضوح أنّه برج يزوّد المفاعل بالماء.

حرص الموساد على إطلاع الأميركيين على تفاصيل كلّ خطوة، وزوّدوهم بنسخ عن التقارير والصور كافّة؛ بما في ذلك صور الأقمار الصناعية، وتسجيلات المكالمات الهاتفية بين سوريا وكوريا الشمالية. وتحت ضغط كبير من إسرائيل، شغّلت الولايات المتّحدة أقمار التجسّس الخاصّة بها في تلك القضية. فأشارت كلّ من صور الأقمار الصناعية والتجسّس الإلكتروني على المكالمات الهاتفية أنّ أعمال البناء جارية على قدم وساق.

في يونيو 2007، سافر رئيس الوزراء إيهود أولمرت إلى واشنطن حاملاً في جعبته المعلومات التي جمعتها إسرائيل. وهناك، اجتمع بالرئيس بوش، وأخبره أنّ إسرائيل قرّرت ضرب المفاعل السوري. اقترح أولمرت أن تقوم الولايات المتّحدة بتوجيه ضربة جوّية للمفاعل، لكنّ الرئيس الأميركي رفض ذلك. وبحسب المصادر الأميركية، أجاب البيت الأبيض أنّ «الولايات المتّحدة تفضّل عدم الهجوم [على المفاعل]». وحاولت وزيرة الخارجية كوندوليزا رايس ووزير الدفاع روبرت غيتس إقناع إسرائيل «بمواجهة [السوريين] من دون هجوم». أعرب بوش ومستشار الأمن القومي ستيف هادلي عن تأييدهما المبدئي للعمل العسكري، لكنّهما طلبا تأجيل العمليّة للقيام بمزيد من التحرّيات.

خلال شهر يوليو 2007، نفّذت إسرائيل دوريات استطلاع جوّي فوق الموقع، وبرمجت قمرها الاصطناعي أفق 7 لالتقاط صور مفصّلة للمفاعل. وعندما تمّ تحليل تلك الصور بواسطة خبراء أميركيين وإسرائيليين، أصبح من المؤكّد أنّ سوريا تبني مفاعلاً نووياً على غرار المنشأة النووية في يونغبيون في كوريا الشمالية. وأظهر شريط فيديو عرضته إسرائيل على الولايات المتّحدة أنّ مكوّنات المفاعلين متشابهة، بما في ذلك طريقة وضع قضبان اليورانيوم في المفاعل. حتّى إنّ أشرطة الفيديو الأخرى أظهرت وجوه مهندسين من كوريا الشمالية يعملون داخل المفاعل. وعلاوة على ذلك، قدّم قسم اعتراض المخابرات الهاتفية في أمان، الوحدة 8200، نصوص المكالمات الكاملة التي جرت بين دمشق وبيونغ يانغ.

أرسلت كلّ هذه المعلومات إلى واشنطن، لكن الأميركيين أرادوا أدلة دامغة تؤكّد أن المبنى مخصّص للاستخدام كمفاعل نووي، وأنّ المكان يحتوي بالفعل

على مواد مشعّة. بناء عليه، قرّرت إسرائيل توفير هذه المعلومات أيضاً.

في أغسطس 2007، عثرت إسرائيل على الدليل القاطع على أنّ منشأة دير الزور مفاعل نووي. وقد أحضرت هذا الدليل وحدة الكوماندوس النخبوية سايريت ماتكال، في عمليّة عرّضت حياة عشرات الجنود الإسرائيليين للخطر. فقد سافر كوماندوس سايريت ماتكال إلى سوريا ليلاً، على متن مروحيّتين، وكانوا يرتدون الزيّ العسكري السوري. تجنّبوا الأماكن المأهولة، والقواعد العسكرية، ومحطّات الرادار، وهبطوا سرًّا على مقربة من دير الزور، ثمّ اقتربوا من موقع المفاعل وجمعوا عيّنات من التربة المحيطة به. وعندما قاموا بتحليل العيّنات في إسرائيل، تبيّن أنّها مشعّة بدرجة عالية؛ الأمر الذي يثبت من دون أدنى شكّ وجود مواد مشعّة في المكان.

تمّ عرض هذا الدليل على ستيف هادلي. وعندما تحقّق خبراؤه من العيّنات، أدرك أنّ المسألة بالغة الخطورة، فسارع إلى استدعاء أقرب مساعديه، وقدّم النتائج التي خلصوا إليها إلى الرئيس بوش، وذلك خلال التقرير اليومي الذي كان هادلي يقدّمه في المكتب البيضاوي. بعد ذلك، أجرى هادلي محادثات مع داغان، واستنتج أنّ المفاعل يشكّل تهديداً واضحاً وحقيقياً. اقتنعت الولايات المتّحدة الآن بضرورة تدمير المفاعل، وأطلقت على عمليّة دير الزور اسم «البستان». كتب جورج بوش في مذكّراته أنّه فكّر في ضرب المفاعل، لكنه بعدما ناقش الخيارات مع فريق الأمن القومي، عدل عن تلك الفكرة أخيراً. فقد شعر أنّ «الاعتداء على دولة ذات سيادة من دون إنذار مسبق أو تبرير سيؤدّي إلى ردّ فعل خطير». كما استبعد فكرة غارة سرّية ينفّذها جنود أميركيون.

مع ذلك، اتّصل أولمرت بالرئيس بوش وطلب منه تدمير المفاعل. خلال المكالمة الهاتفية، كان الرئيس الأميركي في المكتب البيضاوي محاطاً بمساعديه المقرّبين: وزيرة الخارجية كوندوليزا رايس، ونائب الرئيس ديك تشيني، فضلاً عن ستيف هادلي ونائبه إليوت أبرامز، وآخرون. وفي المشاورات الأوّلية، أقنعتهم رايس برفض طلب إسرائيل.

قال أولمرت: «جورج، أنا أطلب منك قصف المجمّع».

أجاب بوش: «لا أستطيع تبرير اعتداء على دولة ذات سيادة، ما لم تتدخّل وكالاتي الاستخبارية وتعلن أنّه برنامج تسلّح». وأوصاه بوش «باستخدام الدبلوماسية».

قال أولمرت بفظاظة: «استراتيجيّتكم تزعجني كثيراً. سأفعل ما أجده ضرورياً لحماية إسرائيل».

قال بوش لاحقاً: «هذا الرجل جريء، ولذلك يعجبني».

بحسب صحيفة صنداي تايمز، عقد رئيس الوزراء الإسرائيلي إيهود أولمرت اجتماعاً مع وزير الدفاع إيهود باراك ووزيرة الخارجية تسيبي ليفني. وناقش الثلاثة مع رؤساء أجهزة الدفاع والمخابرات الأدلّة الجديدة، والتبعات المحتملة لعمليّة عسكرية ضدّ سوريا. أخيراً، استقرّ القرار على تدمير المفاعل السوري. أبلغ رئيسُ الوزراء زعيمَ المعارضة بنيامين نتنياهو بتفاصيل العمليّة وحصل على دعمه الكامل.

تمّ تحديد تاريخ الضربة العسكرية في ليل 5 سبتمبر 2007.

في اليوم السابق، واستناداً إلى تقرير نشرته لاحقاً صحيفة صنداي تايمز، وصلت وحدة كوماندوس أخرى تدعى شلداغ (طائر الرفراف) إلى منطقة دير الزور. أمضى رجالها يوماً كاملاً تقريباً مختبئين بالقرب من المفاعل. كانت مهمّتهم إضاءة المفاعل بأشعة الليزر في الليلة التالية لكي تتمكّن طائرات سلاح الجوّ من إصابة الهدف مباشرة. عند الساعة 11:00 ليلاً، في 5 سبتمبر، أقلعت عشر طائرات أف 15 من قاعدة سلاح الجوّ رامات ديفيد وتوجّهت غرباً، فوق البحر المتوسط. بعد ثلاثين دقيقة، صدر أمر لثلاث طائرات بالعودة إلى القاعدة. أمّا السبع الباقية، فتلقّت أوامر بالتوجّه إلى الحدود السورية التركية، والانعطاف جنوباً نحو دير الزور. في الطريق، قصفت محطّة للرادار، حيث أعاقت قدرة الدفاع الجوّي على اكتشاف اقتراب طائرة غريبة. بعد دقائق، وصلت إلى دير الزور، ومن مسافة محسوبة بعناية، أطلقت صواريخ مافيريك جوّ أرض وقنابل زنة نصف طنّ مُصيبة الهدف بدقّة شديدة. وهكذا تمّ في غضون ثوان تدمير المفاعل السوري المصمّم لإنتاج قنابل

ذرّية بهدف تدمير إسرائيل.

توجّس رئيس الوزراء الإسرائيلي من الردّ السوري، فسارع إلى الاتّصال برئيس الحكومة التركية رجب طيب أردوغان، وطلب منه نقل رسالة إلى الرئيس الأسد. شدّد أولمرت على أنّ إسرائيل لا تنوي شنّ حرب على سوريا، إلاّ أنّها لا تستطيع أن تقبل بوجود قوّة نووية سورية على عتبة بابها. غير أنّ تطمينات أولمرت لم تكن ضرورية. ففي اليوم التالي لقصف المفاعل، خيّم صمت مطبق على دمشق، ولم يصدر أيّ بيان عن المتحدّثين باسم الحكومة. عند الساعة الثالثة عصراً، صدر بيان رسمي عن الوكالة العربية السورية للأنباء، أفاد أنّ طائرة إسرائيلية اخترقت الأجواء السورية عند الساعة الواحدة صباحاً. «أجبرتها قوّاتنا الجوّية على الانسحاب بعدما أطلقت قذائف على منطقة صحراوية. ولم تسبّب أيّ خسائر مادّية أو بشرية».

كانت وسائل الإعلام العالمية توّاقة لمعرفة كيفية نجاح الموساد في اختراق المشروع السوري والتقاط صور وأشرطة فيديو من داخل المفاعل. وذكرت شبكة التلفزيون الأميركية ABC أنّ إسرائيل ربّما زرعت عميلاً داخل المفاعل السوري، أو ربّما نجح الموساد في تجنيد أحد المهندسين الذي قام بدوره بتسريب صور للمنشأة.

في شهر أبريل 2008، بعد قرابة سبعة أشهر من ضرب المفاعل، أعلنت الإدارة الأميركية أخيراً أنّ المنشأة التي تعرّضت للقصف في سوريا كانت مفاعلاً نووياً تمّ بناؤه بمساعدة كوريا الشمالية، "وليس مصمّماً لأغراض سلمية". ورأى بوش أنّ قيام أولمرت "بتنفيذ الضربة" ضدّ المفاعل السوري أعاد إليه ثقة الإسرائيليين به التي فقدها خلال حربهم على لبنان عام 2006، والتي شعر بوش أنّها لم تكن متقنة.

عرض رؤساء الأجهزة الاستخبارية الأميركية على أعضاء الكونغرس ومجلس الشيوخ المذهولين صوراً تؤكّد أوجه الشبه الكبيرة بين المنشأة السورية والمفاعل النووي الكوري الشمالي في منطقة يونغبيون. وأكدّت صور الأقمار الصناعية، والرسومات، والمخطّطات، فضلاً عن أشرطة الفيديو، مصدر هذه المواد.

* * *

نجحت إسرائيل في التزام الصمت على مدى أسبوعين، رفضت خلالهما

الاعتراف بأنها هي التي نفّذت الاعتداء على المفاعل. لكنّ قائد المعارضة بنيامين نتنياهو أعلن في مقابلة على الهواء: «عندما تتّخذ الحكومة عملاً من أجل أمن إسرائيل، فإنّني أقدّم لها الدعم الكامل... وهنا أيضاً كنت شريكاً في هذه القضية منذ اللحظة الأولى وقدّمت لها دعمي الكامل».

كانت آخر مرحلة من مراحل مشروع المفاعل السوري في 2 أغسطس 2008، أي بعد 11 شهراً. في ذلك المساء، أقيمت مأدبة فاخرة على شرفة منزل على شاطئ الرمال الذهبية، شمال مرفأ طرطوس في سوريا. كان المنزل القريب من الشاطئ يشرف على منظر خلاّب للبحر الأبيض المتوسّط. وكانت الشرفة المطلّة على الأمواج ملاذاً من رطوبة الساحل السوري. هبّ نسيم عليل من البحر خفّف من حرارة الأجواء الصيفية الملتهبة. جلس الضيوف حول طاولة مستطيلة، وكانوا من الأصدقاء المقرّبين لصاحب الدارة، اللواء محمّد سليمان، الذي دعاهم لتمضية إجازة الأسبوع.

كان سليمان مستشاراً مقرّباً من الرئيس الأسد في الشؤون العسكرية والأمنية. وقد أشرف على بناء المفاعل وإدارته الأمنية. كان يُعتبر بين أوساط كبار رجال الحكم في سوريا أنّه ظلّ الرئيس الأسد. وكان مكتبه يقع في القصر الرئاسي، بجانب مكتب الرئيس، إلاّ أنّه لم يكن معروفاً سوى لدى قلّة مختارة داخل البلاد وخارجها.

لم يكن اسمه يذكر في الإعلام السوري مطلقاً، لكنّ الموساد عرفه وتتبّع أنشطته عن كثب. درس سليمان البالغ من العمر 47 سنة في كلّية الهندسة في جامعة دمشق، وربطته هناك صداقة مع طالب آخر هو باسل الأسد، الابن المدلّل ووليّ عهد الرئيس حافظ الأسد. عندما قُتل باسل في حادث سيّارة عام 1994، قام الأسد بتعريف سليمان على ابنه الأصغر، بشّار. توفّي حافظ الأسد بمرض السرطان عام 2000، وخلفه ابنه بشّار في سدّة الرئاسة، فعيّن سليمان كاتماً لأسراره ومستشاره المقرّب.

سرعان ما أصبح سليمان رجلاً واسع النفوذ في سوريا. فقد كلّفه الرئيس الأسد بالإشراف على المسائل العسكرية الحسّاسة كلها. وهكذا أصبح صلة الوصل الرئيسة بين الأسد والمخابرات الإيرانية؛ لا سيّما في المسائل المتعلّقة بتعاون الطرفين السرّي في الشرق الأوسط. كان أيضاً الممثّل السوري الأوّل في العلاقات مع حزب الله، وأقام مع القائد العسكري لتلك المنظّمة، عماد مغنية، علاقة وثيقة. بعد انسحاب إسرائيل من المنطقة الأمنية في جنوب لبنان، في مايو 2000، أخذ سليمان على عاتقة نقل السلاح من إيران وسوريا إلى حزب الله، لا سيّما الصواريخ طويلة المدى. وخلال حرب لبنان الثانية عام 2006، تمّ توجيه أحد تلك الصواريخ مباشرة إلى معامل سكّة الحديد الإسرائيلية في حيفا، ممّا أسفر عن مقتل ثمانية عمّال. لاحقاً، زوّد سليمان حزب الله بصواريخ مضادّة للطائرات سورية الصنع؛ الأمر الذي عرّض الأنشطة الجوّية الإسرائيلية في سماء لبنان للخطر.

تولّى سليمان أيضاً موقعاً آخر فريداً وبالغ السرّية، فقد كان عضواً بارزاً في اللجنة السورية للبحوث التي اهتمّت بتطوير الصواريخ بعيدة المدى، والأسلحة الكيميائية والبيولوجية، والبحوث النووية. أشرف على العلاقات مع كوريا الشمالية، ونسّق عمليّات نقل أجزاء المفاعل إلى سوريا، كما أشرف على الترتيبات الأمنية لعزل الفنيين والمهندسين الكوريين الشماليين العاملين على بناء المفاعل.

شكّل تدمير إسرائيل للمفاعل ضربة شديدة بالنسبة إلى سليمان. لكن، بعدما أفاق من الصدمة الأولى، بدأ بالتخطيط لبناء مفاعل آخر، لم يتمّ تحديد مكانه بعد. لكنّ مهمّة سليمان أصبحت أكثر صعوبة. إذ أدرك الآن أنّه بات مطلوباً من أجهزة المخابرات الأميركية والإسرائيلية على السواء. هكذا، وقبل خوض الجولة التالية، أخذ إجازة لبضعة أيّام في منزله في الرمال الذهبية. وبدا له أنّ تمضية أسبوع هادئ مع الأصدقاء، وتناول الطعام الشهيّ أفضل طريقة لتخفيف التوتّر.

من حيث يجلس في الوسط، راقب سليمان الأمواج التي تتدحرج نحو الشاطئ. لكنّه لم يلاحظ، الشخصين المختبئَين من دون أيّ حركة في الماء، على بعد نحو 150 ياردة. كانا قد سبحا في البحر، بعد أن أنزلهما قارب على

بعد ميل واحد من منزل سليمان. كانا قنّاصَين خبيرَين ينتميان إلى كوماندوس البحرية الإسرائيلية، حملا معدّات الغطس، وسبحا تحت الماء وصولاً إلى الشاطئ المقابل للمنزل. عندما لامست أقدامهما قعر المياه، وقفا ورصدا منزل سليمان. تأمّلا المنزل والشرفة، وتفحّصا جميع الحاضرين، ثمّ ركّزا على هدفهما: اللواء الجالس بين ضيوفه.

حوالى الساعة التاسعة مساءً، عيّر القنّاصان جهاز التسديد وعدّلا المدى. كانت الشرفة مكتظّة، وكان الضيفان غير المدعوَّين الواقفان بملابس الغطس حريصَين على إصابة اللواء من دون إيذاء أحد آخر. خرجا من الماء وتقدّما بضع خطوات، ثمّ وجّها سلاحيهما المزوّدين بكاتم صوت على رأس سليمان. صفرت إشارة إلكترونية في سمّاعاتهما، فأطلقا النار في وقت واحد. كانت الرصاصات قاتلة. ارتدّ رأس سليمان إلى الخلف، ثمّ انهار إلى الأمام على الطاولة المليئة بألوان الطعام. لم يفهم الضيوف ما جرى في البداية. ولم يدركوا أنّ سليمان تعرّض إلى إطلاق نار إلاّ عندما لاحظوا الدماء التي سالت من رأسه، فأصابتهم حالة من الهلع الشديد. منهم من هبّ لنجدة مضيفه، ومنهم من انحنى أرضاً أو حاول الهرب من دون وعي وسط الصياح والصراخ. في تلك الفوضى، اختفى القنّاصان.

نشرت صحيفة صنداي تايمز رواية مختلفة قليلاً. إذ أفادت أنّ القنّاصين كانا ينتميان إلى وحدة الكوماندوس البحرية الإسرائيلية، الأسطول 13، ووصلا إلى الشاطئ السوري على متن يخت ينتمي إلى رجل أعمال إسرائيلي، ثمّ عادا أدراجهما على الفور بعد تنفيذ مهمّتهما.

وصلت الأنباء إلى دمشق وسبّبت صدمة كبيرة، لكنّ الحكومة لزمت الصمت ولم تجب عن أسئلة الإعلاميين. ارتبكت المؤسّستان العسكرية والأمنية. كيف يمكن لفريق اغتيال الوصول إلى طرطوس التي لا تبعد سوى 140 ميلاً عن دمشق؟ كيف تمكّن من الهرب؟ ألم يعد في سوريا مكان آمن لزعمائها؟

مرّت بضعة أيّام قبل أن يُنشر خبر يعلن أنّ «سوريا تجري تحقيقاً للعثور على مرتكبي هذه الجريمة». لكنّ صحافة الدول العربية الأخرى لم تنتظر ردّ الفعل

الرسمي هذا. بل نشرت منذ البداية تقريراً مفصّلاً، وطرحت تكهّنات بشأن هويّة منفّذي عمليّة الاغتيال. ركّزت الصحف على أصحاب المصلحة في تصفية هذا اللواء، ووجّهت أصابع الاتّهام إلى إسرائيل، زاعمة أنّ إسرائيل نفّذت الاغتيال بسبب ضلوع سليمان في إنشاء مفاعل دير الزور.

أمّا ردّ فعل وسائل الإعلام الغربية فكان مختلفاً. وذلك لأنّ أيًّا منها لم يذرف دمعة واحدة على سليمان. وفي يونيو 2010، تمّ منح وسام للأسطول 13 من قبل القائد الأعلى للجيش الإسرائيلي على «عدّة إنجازات» لم تحدّد طبيعتها.

لا يمكن سوى أن نتساءل عمّا إذا كان التكريم الذي مُنح لوحدة الكوماندوس البحرية يرجع، جزئيًّا على الأقلّ، إلى عمليّة اغتيال سليمان.

الفصل التاسع عشر

إغتيال في دمشق

في 12 فبراير 2008، انتشر عدّة رجال خلسة حول مبنى سكني في حيّ دمشقي راقٍ. وقبيل المساء، رأوا سيّارة جيب فضّية من طراز ميتسوبيشي باجيرو تتوقّف بجوار المبنى. نزل من السيّارة رجل ملتحٍ يرتدي بزّة سوداء، ودخل المبنى. لم يكن يرافقه أيّ حرّاس. همس العملاء المتمركزون في الشارع عبر أجهزة الاتّصال الصغيرة أنّ "الرجل" قد وصل إلى دمشق، وهو في طريقه إلى الشقّة. كانوا يعرفون أنّ صاحب الملابس السوداء أتى للقاء نهاد حيدر.

أمضيا بضع ساعات في الشقّة الفخمة التي وضعها بتصرّفهما رامي مخلوف، رجل الأعمال الناجح وقريب الرئيس السوري بشّار الأسد.

قبيل الساعة العاشرة مساءً، غادر الرجل المبنى واستقلّ السيارة الفضّية. كان في طريقه إلى اجتماع في منزل سرّي في حيّ كفر سوسة، حيث سيلتقي مبعوثين إيرانيين، وسوريين، وفلسطينيين.

استناداً إلى صحيفة صنداي إكسبريس، تحقّق العملاء الذين كانوا في أعقاب الرجل من صورة حديثة له على شاشات هواتفهم المحمولة؛ للتأكّد من هويّته بما لا يدع مجالاً للشكّ. أبقوا خطوط الاتّصال مفتوحة، وأبلغوا قيادة الموساد بكلّ تحرّكات الهدف.

بعدما غادر الرجل المبنى الذي تقيم فيه نهاد، تمكّن العملاء من مقارنة وجهه بالصور الموجودة على شاشاتهم، ثمّ أكّدوا هويّته لزملائهم في دمشق وفي المقرّ الرئيس في تل أبيب. عمّ التوتّر جهاز الموساد، فاجتمعت القيادات في مكتب مئير داغان، وكان قد تمّ هناك وضع المعدّات اللازمة لمراقبة العمليّة خطوة خطوة.

شغّل الرجل محرّك سيّارة الباجيرو.

همس أحد العملاء عبر جهاز الاتصال: «إنّه في الطريق».

كان الرجل الموجود في السيّارة الفضّية هو عماد مغنية الذي يجرّ وراءه تاريخاً دموياً.

15 نوفمبر 2001

في أعقاب الهجوم على برجَي مركز التجارة في نيويورك، نشر مكتب التحقيقات الفيدرالي أف بي آي ملصقاً ضخماً يضمّ لائحة بأهم المطلوبين في العالم.

حمل الملصق رموز الأف بي آي، ووزارة الخارجية، ووزارة العدل.

وضمّت اللائحة 22 اسماً و22 صورة.

كان الاسم الأوّل هو أخطرها. أمّا جائزة من يعثر عليه فبلغت خمسة ملايين دولار.

حتّى وقوع الهجوم على البرجين التوأمين، اعتُبر الشخص الحيّ المسؤول عن مقتل أكبر عدد من الأميركيين.

ذاك هو عماد مغنية.

18 أبريل 1983 – تفجير السفارة الأميركية في بيروت، لبنان – 63 قتيلاً.

23 أكتوبر 1983 – تفجير مقرّ المارينز في بيروت، لبنان – 241 قتيلاً.

23 أكتوبر 1983 – تفجير مقرّ المظلّيين الفرنسيين في بيروت – 58 قتيلاً.

هذا بالإضافة إلى اختطاف ضابط الاستخبارات الأميركية ويليام باكلي وقتله، وعدّة اعتداءات على السفارة الأميركية في الكويت، واختطاف طائرة ركّاب تابعة لشركة TWA، وطائرتين تابعتين لشركة الطيران الكويتية، وقتل الكولونيل هيغينز من قوّة المراقبين الدوليين التابعة للأمم المتّحدة في جنوب لبنان، وقتل عشرين جندياً أميركياً في السعودية...

عندما وصلت هذه اللائحة إلى إسرائيل، أضاف إليها الموساد بياناته الخاصّة:

4 نوفمبر 1983 – تفجير مقرّ قيادة الجيش الإسرائيلي في صور، لبنان – 60 قتيلاً.

10 مارس 1985 - الهجوم على قافلة الجيش الإسرائيلي بالقرب من المطلة، على الحدود الإسرائيلية اللبنانية - 8 قتلى.

17 مارس 1992 - تفجير السفارة الإسرائيلية في الأرجنتين - 29 قتيلاً.

18 يوليو 1994 - تفجير مركز الجالية اليهودية في بوينس آيرس - 86 قتيلاً.

هذا بالإضافة إلى اختطاف ثلاثة جنود إسرائيليين في قطاع هار دوف الحدودي وقتلهم، واختطاف رجل الأعمال الإسرائيلي الحنان تننباوم، والتفجير بالقرب من كيبوتس متسوبا، والاعتداء الأكثر خطورة على الإطلاق: اختطاف الجنديّين ريغيف وغولدفاسر على الحدود الإسرائيلية اللبنانية وقتلهما؛ وهو الحادث الذي أشعل فتيل حرب لبنان الثانية.

كان عماد مغنية المسؤول عن كلّ هذا أقرب إلى شبح دائم التنقّل بين عواصم الشرق الأوسط. وقد هرب من المصوّرين، ورفض إجراء المقابلات الصحفية. عرفت أجهزة المخابرات الغربية الكثير عن أنشطته، إلا أنها لم تعرف أيّ شيء تقريباً عن شكله وعاداته وأماكن تواجده. فقد عُرِف عنه أنّه ولد عام 1962 في إحدى قرى جنوب لبنان. واستناداً إلى عدّة تقارير، كان أبواه شيعيّين متديّنين، انتقل في سنّ المراهقة إلى بيروت، ونشأ في حيّ فقير تقطنه غالبية فلسطينية من مؤيّدي منظّمة التحرير. أصبح لاحقاً الحارس الشخصي لأبي إياد، نائب عرفات، وعضواً في القوّة 17؛ وهي الوحدة الأمنية الخاصّة لمنظّمة فتح، تشكّلت في أواسط السبعينيات تحت قيادة علي حسن سلامة، الأمير الأحمر (انظر إلى الفصل 12). لكن في العام 1982، شنّت إسرائيل الحرب على لبنان، وأطلقت عليها اسم عمليّة سلام الجليل، فاجتاحت لبنان، وسحقت منظّمة التحرير الفلسطينية التي تمّ طرد أعضائها الأحياء، وعلى رأسهم ياسر عرفات، إلى تونس. لكنّ مغنية فضّل البقاء في لبنان، وانضمّ إلى النواة الأولى لمنظّمة حزب الله.

حزب الله منظّمة مسلّحة تأسّست عام 1982 ردًّا على الاجتياح الإسرائيلي للبنان. استلهم الحزب تعاليمه من آية الله الخميني، وتمّ تدريبه وتموينه من قبل الحرس الثوري الإيراني، ليصبح عدوّ إسرائيل اللدود، وليضع نصب عينيه هدفاً

وحيداً؛ ألا وهو "خروج إسرائيل نهائياً من لبنان كمقدّمة لمحوها كلّياً". منذ اليوم الأوّل، انخرط الحزب في أعمال عنف ضدّ إسرائيل. وكان مغنية مجنّداً مثالياً بالنسبة إلى المجموعة الناشئة.

بصفته رجل ظلّ فعليًّا، اختار مغنيّة العمل سرًّا وامتنع عن الظهور العلني. وكانت التقارير الواردة عنه ناقصة وغامضة في أغلب الأحيان. فوصفه أحد التقارير أنّه الحارس الشخصي للشيخ فضل الله؛ الزعيم الروحي لحزب الله، فيما زعم آخر أنّه أصبح رئيس عمليّات المنظّمة، والعقل المدبّر لأكثر عمليّات الحزب جرأة، والتي كانت تنتهي بحمّامات من الدماء. خلافاً لزعيم حزب الله الحالي، السيّد نصر الله، لم يظهر مغنية على شاشات التلفاز إطلاقاً، ولم يلقِ خطباً، لكنّه كان عملياً أكثر خطورة منه. وسرعان ما ارتقى إلى مرتبة أخطر المطلوبين وأكثرهم مراوغة في العالم، مثل كارلوس في زمانه.

اتّسم مغنية بالقسوة والدهاء. ظهر فجأة، عندما خطّط لسلسلة من العمليات الكبرى في لبنان وتولّى قيادتها، وذلك في أعقاب عمليّة سلام الجليل. لم يكن يتجاوز الحادية والعشرين من عمره في ذلك اليوم من شهر أكتوبر 1983، عندما أرسل شاحنات محمّلة بالمتفجّرات، قادها انتحاريون، إلى مقرّ المارينز والمظلّيين الفرنسيين في بيروت. وبعد بضعة أيّام، كرّر السيناريو نفسه ضدّ قيادة الجيش الإسرائيلي في مدينة صور. في سنّ الثانية والعشرين، قاد مجموعة في هجوم على السفارة الأميركية المحصّنة في الكويت، ثمّ اختطف أوّل طائرة له هناك. وبعد كلّ عمليّة، كان يختفي وكأنّ الأرض قد انشقّت وابتلعته. في سنّ الثالثة والعشرين، اختطف مغنية طائرة تابعة لشركة TWA كانت في طريقها من أثينا إلى روما، وأجبر طيّارها على الهبوط في مطار بيروت. في أثناء عمليّة الاختطاف، قتل غوّاص البحرية، روبرت دين ستاتهام، وألقى جثّته من باب قمرة الطيار. هرب مغنية بعد عمليّة الاختطاف التي استغرقت سبعة عشر يوماً، لكنّه ترك وراءه علامة مميّزة هذه المرّة: بصمات أصابعه في حمّام الطائرة.

لم يُعرف شيء تقريباً عن حياته الشخصية، باستثناء زواجه من قريبته التي أنجبت له صبيًّا وبنتاً. أدرك في سنّ يافعة أنّه مستهدف من قبل عدّة أجهزة مخابرات

غربية، وحاول إخفاء هويّته. فخضع لجراحة تجميلية بدائية في ليبيا، وأطلق لحيته، وهرب من الأضواء. صورة واحدة مؤكّدة لمغنية تسرّبت إلى أجهزة الاستخبارات الغربية: بدين ملتحٍ يضع نظّارة ويعتمر قبّعة. حتّى أوصافه لم تكن دقيقة، فقد أورد مكتب الأف بي آي أنّه "من مواليد لبنان، يتحدّث العربية، ذو شعر ولحية بنّيّي اللون، طوله نحو 170 سنتيمتراً، ووزنه نحو 60 كلغ". لكن، يصعب أن نتخيّل كيف يمكن لحجم مغنية الكبير أن يتّسع في جسد وزنه 60 كلغ... لكنّ الوصف أكّد أنّ مغنية حمى نفسه جيّداً، ونجح في تضليل أعدائه.

بفضل الاعتداءات والتفجيرات وعمليّات الاختطاف التي نفذها، أصبح مغنية بطلاً واسع الشعبية في حزب الله. وتلقّى الثناء والتمجيد على جرأته ودهائه ومواهبه العملياتية التي جعلت الجناح العسكري في حزب الله مرهوب الجانب من قبل الأجهزة الاستخبارية في العالم. وكلّما تزايدت قوّته، أصبح هدفاً ملحًّا للاغتيال لدى إسرائيل والغرب. أدرك مغنية ذلك جيّداً، وعاش حياة من الشك والتخفي الدائم. شكّ في الجميع، بمن في ذلك أقرب مساعديه، وكثيراً ما كان يستبدل حراسه الشخصيين، وينام كلّ ليلة في مكان مختلف. وكانت رحلاته بين بيروت ودمشق وطهران تتمّ تحت غطاء كثيف من السرّية.

استناداً إلى المعلومات الشخصية الموجودة لدى إسرائيل وأجهزة الاستخبارات الأخرى، كان مغنية شخصاً وحيداً، ومتهوّراً للغاية، يتمتّع بجاذبية وحضور طاغٍ، ولديه خبرة كبيرة في استخدام أحدث الوسائل الإلكترونية. كانت لديه قدرة على تقمّص شخصيات وانتحال هويّات متعدّدة؛ الأمر الذي مكّنه من الهرب من أعدائه مراراً وتكراراً.

قال عنه ضابط أمان، ديفيد بركائي، وهو رائد سابق في وحدة المخابرات 504 التي جمعت المعلومات الشخصية عن مغنية، وذلك في حديث له مع صحيفة صنداي تايمز البريطانية: «حاولنا تصفيته عدّة مرّات في أواخر الثمانينيات. جمعنا عنه معلومات كثيرة، لكن كلّما اقتربنا منه قلّت معلوماتنا عنه؛ لم ننجح في العثور على نقطة ضعف واحدة لديه كالنساء، أو المال، أو المخدّرات، لا شيء».

استمرّت مطاردة مغنية سنوات عديدة. أوشكت السلطات الفرنسية على اعتقاله في العام 1988، عندما هبطت طائرته في محطّة لها في باريس. وكانت السي آي إيه قد زوّدت الفرنسيين بمعلومات عنه، بما في ذلك صورته الشخصية وتفاصيل عن جواز السفر المزيّف الذي يستخدمه. لكنّ الفرنسيين خشوا من أن يؤدّي اعتقاله إلى قتل الرهائن الفرنسيين المحتجزين في لبنان في ذلك الحين، لذلك فضّلوا غضّ الطرف عنه، والسماح له بمواصلة الرحلة. كما حاولت أجهزة المخابرات الأميركية اعتقاله في أوروبا في العام 1986، ومرّة أخرى في المملكة العربية السعودية في عام 1995، إلا أنّه استطاع التملّص منها كالعادة.

في تلك الأثناء، عمل مغنية بشكل مكثّف في التخطيط لعمليات ضدّ إسرائيليين ويهود في الأرجنتين وتنفيذها. وفي عام 1992، ترأس عمليّة تفجير شاحنة مفخّخة قادها انتحاري بجوار السفارة الإسرائيلية في بوينس آيرس، ممّا أسفر عن مقتل 29 شخصاً. نسب بعض رؤساء الأجهزة الأمنية العمليّة إلى حزب الله، ورجّحوا أنّها جاءت انتقاماً لاغتيال الأمين العام لحزب الله، الشيخ عباس الموسوي، في هجوم نفّذته مروحيّة في جنوب لبنان.

بعد مرور عامين، هزّ انفجار آخر مدينة بوينس آيرس، واستهدف هذه المرّة مركز الجالية اليهودية مخلّفاً 86 قتيلاً. فرجّح بعض الخبراء مجدّداً أنّها عمليّة انتقامية من حزب الله؛ ردًّا على اختطاف إسرائيل أحد قادة الحزب في لبنان، مصطفى الديراني.

استنتجت فرق المخابرات الإسرائيلية والأميركية التي وصلت إلى بوينس آيرس للتحقيق في التفجيرَين أنّهما مترابطان. فأسلوب العمل كان متشابهاً؛ تحميل شاحنة بالمتفجّرات، وإرسالها إلى هدفها بواسطة انتحاري. كانت هذه تحديداً هي الطريقة التي انتهجها مغنية في بيروت وصور في بداية مسيرته. كما اتّضح أنّ المخابرات الإيرانية وعملاء محلّيين شاركوا في تنفيذ العمليّة. على الأقلّ، في إحدى الشاحنتين؛ وتحديداً تلك التي استُخدمت لضرب السفارة، فقد تمّ بيعها لمنفّذي العمليّة من قبل تاجر سيّارات شيعي يدعى كارلوس ألبرتو طل الدين. وقادت الأدلّة بوضوح إلى عماد مغنية.

خلال تلك السنوات، مكث مغنية في إيران لفترات طويلة. فبعد اغتيال الشيخ الموسوي، خشي من إقدام إسرائيل على تصفيته أيضاً، فأنشأ في طهران فريق عمليّات مؤلّفاً من مقاتلين في حزب الله وضبّاط مخابرات إيرانيين. وشاركه في تأسيس ذلك الفريق قائد الحرس الثوري محسن رضائي، ووزير المخابرات علي فلاحيان. ويبدو أن تلك الوحدة هي التي نفّذت عمليّتَي بوينس آيرس اللتين أسفرتا عن نتيجة واحدة: أصبح مغنية هو المطلوب رقم واحد في إسرائيل. بأفعاله، حكم على نفسه بالإعدام. إلاّ أنّ أعواماً طويلة ستنقضي قبل أن يتمّ تنفيذ الحكم في حقّه.

في ديسمبر 1994، ظهر مغنية في بيروت. وبعد مدّة قصيرة، أفلت من محاولة اغتيال في الضاحية الجنوبية بواسطة سيّارة مفخّخة. سرعان ما نشرت الشرطة اللبنانية نتائج تحقيقاتها: تمّ زرع عبوة ناسفة تحت سيّارة مركونة بالقرب من المسجد الذي يلقي فيه الشيخ فضل الله خطبته. أسفر التفجير عن تدمير متجر فؤاد مغنية – شقيق عماد – الذي تمّ العثور على جثّته تحت الأنقاض. لكنّ عماد الذي كان من المفترض وجوده هناك، عدل عن رأيه في اللحظة الأخيرة، وفضّل عدم المجيء؛ فنجا من الموت المحقّق.

بعد عدّة أسابيع من التفجير، اعتقلت السلطات الأمنية اللبنانية بالتعاون مع حزب الله، عدّة مواطنين لبنانيين بتهمة التورّط في التفجير والعمالة لحساب الموساد. وكان المشتبه به الأوّل رجلاً يدعى أحمد حلاق.

جاء في البيان الرسمي أنّ «حلاق وزوجته ركنا سيّارتهما بالقرب من متجر فؤاد مغنية. دخل حلاق المتجر للتأكّد من أنّ فؤاد في الداخل، وصافحه، ثمّ عاد إلى السيّارة وشغّل القنبلة». ونقلت صحيفة السفير اللبنانية عن مصادر مطّلعة قولها إنّ أحمد حلاق شارك في لقاء جرى في قبرص مع ضابط كبير في الموساد، أعطاه تعليمات حول كيفيّة استخدام القنبلة، ودفع له نحو 100,000 دولار لتنفيذ العمليّة. وقد تمّ إعدام حلاق لاحقاً.

نجا مغنية هذه المرّة أيضاً، لكنّ عملاء الموساد لم ييأسوا، وجمعوا بدقّة التفاصيل الصغيرة التي تمكّنوا من الوصول إليها كلّها، فضلاً عن تقارير من أجهزة الاستخبارات الأجنبية، ودرسوا أساليب مغنية الشخصية. في العام 2002،

استلم الموساد تقريراً آخر بشأنه، يربطه بعمليّة شحن 50 طناً من الأسلحة إلى الفلسطينيين. إلاّ أنّه اختفى مجدّداً، على الرغم من الشائعات التي أفادت أنّه أصبح القائد العام لحزب الله، وخليفة الشيخ نصر الله. كانت علاقته الأساسيّة مع المخابرات الإيرانية، وقيل إنّه عمل بالتعاون مع سرايا القدس المكلّفة بالتعاون مع الجاليات الشيعية في أنحاء العالم كافّة، ومع المنظّمات التي تديرها إيران. فرض المنصب الجديد على مغنية مضاعفة تدابيره السرّية. وأكّدت الشائعات المستمرّة حوله أنّه غيّر شكله الخارجي مجدّداً؛ مستعيناً ربّما بجراحة تجميلية أخرى.

استناداً إلى المصادر الأوروبية، جنّد الموساد – مع انتهاء حرب لبنان الثانية – عدداً من الفلسطينيين من معارضي حزب الله في لبنان. كانت لدى أحدهم ابنة عمّ تعيش في قرية مغنية، فأخبرت العميل الفلسطيني أنّ مغنية سافر إلى أوروبا وعاد إلى لبنان بوجه مختلف تماماً.

أصبح لدى الموساد الآن هدف جديد؛ ألا وهو التحرّي عن مراكز الجراحات التجميلية في أنحاء أوروبا كافّة.

سُجّل الاختراق غير المتوقّع في برلين. فاستناداً إلى الكاتب البريطاني غوردون توماس، التقى عميل الموساد المقيم في برلين، روفين، مُخبراً ألمانياً على علاقة سرّية بأشخاص في برلين الشرقية سابقاً. فأبلغه المخبر أنّ عماد مغنية خضع مؤخّراً إلى جراحات تجميلية غيّرت ملامحه تماماً. وتمّت الجراحة في عيادة كانت تنتمي في السابق إلى شتازي؛ جهاز استخبارات ألمانيا الشرقية سابقاً. وكان هذا الجهاز قد استخدم العيادة لتغيير أشكال العملاء الذين كان يرسلهم لتنفيذ مهمّات سرّية في الغرب.

بعد مفاوضات طويلة، وافق روفين على دفع مبلغ مالي كبير للعميل الألماني الذي سلّمه بالمقابل 34 صورة حديثة لمغنية.

أظهر تحليل الصور على أيدي خبراء مئير داغان أنّ مغنية خضع لجراحات في الفكّ. فقد تمّ قطع الفكّ الأسفل وتطعيمه بعظام أُخذت منه لمنحه ذقناً أضيق؛ الأمر الذي أضفى عليه شكلاً نحيفاً ومضغوطاً. كما تمّ خلع عدد من الأسنان الأمامية واستبدالها بأسنان اصطناعية ذات شكل مختلف، وتمّت معالجة

العينين أيضاً من خلال شـدّ الجلد المحيط بهما. واستُكمل ذلك كله بصبغ شـعره باللون الرمادي واستبدال نظّارته بعدستين لاصقتين. لم يعد مغنية يحمل أيّ شبه بصورتـه «الأصليـة»، وباتت صوره القديمـة التي جمعتها أجهزة المخابرات الغربية منذ الثمانينيات بلا فائدة.

استناداً إلى المصادر الأجنبية، بدأ الموساد بالتخطيط لاغتيال مغنية. لذا، جمع رئيس الموساد خيرة رجاله، من بينهم رئيس شعبة سيزاريا، وقائد وحدة كيدون، وعـددٌ مـن كبـار الضبّـاط الذين يتابعون ملفّ مغنية. وسـرعان ما بـات واضحاً أنّه مـن غيـر الممكـن ضـرب مغنيـة في دولة غير إسلامية. فمن النادر جدًّا أن يسـافر إلى الغرب؛ لأنّه لا يشـعر بالأمان سـوى في إيران وسـوريا. أدرك الإسـرائيليون أنّ أيّ عمل سيتم على أراضي هاتين الدولتين سيكون محفوفاً بالمخاطر. صحيح أنّ إسـرائيل عملت في الماضي في دول عربية، ونفّذت ضربات في بيروت في أثناء عمليّـة غضـب اللـه، حتّـى إنّ عملاءها وصلـوا إلى تونس، واغتالوا هناك بحسـب المزاعم أبو جهاد، لكنّ طهران ودمشق أكثر ريبة، وأقوى تسلّحاً، وأكثر خطورة من بيروت وتونس. علاوة على ذلك، أدرك رئيس الموسـاد، مئير داغان، الأثر الكبير لعمليّة ناجحة من هذا النوع. فاغتيال مغنية في دمشـق سـيثبت أنّ أحداً لن يكون بمنأى عن يد الموساد الطويلة. والوصول إلى معقل أعداء إسرائيل وحصنهم سيبثّ الرعب في القلوب، وسيولّد ارتباكاً وشعوراً بانعدام الأمان لدى البقية.

اسـتناداً إلـى صحيفـة إندبياندنت اللندنية، ارتكـزت الخطّة التي خرج بها قادة الموساد على احتمال وصول مغنية إلى دمشق في 12 فبراير 2008. في ذلك اليوم، كان من المفترض أن يجتمع بمسؤولين إيرانيين وسوريين سيشاركون في الاحتفال بالذكرى السنوية للثورة الإيرانية.

بعد دراسـة الاحتمالات، تقرّر تنفيذ عمليّة الاغتيال باسـتخدام سـيّارة مفخّخة تقف مباشرة بالقرب من سيّارة مغنية.

انخـرط الموسـاد فـي نشـاط محمـوم للحصـول علـى معلومـات مفصّلة من المصادر كافّة؛ بما في ذلك وكالات الاسـتخبارات الأجنبية. هل سـيأتي مغنية إلى دمشق بالفعل؟ وفي حال أتى، فتحت أيّ هوية؟ وبأيّ سيّارة؟ وأين سيمكث؟ ومن

سيرافقه؟ ومتى سيذهب إلى الاجتماع المقرّر مع المندوبين الإيرانيين والسوريين؟ هل تمّ إبلاغ السلطات السورية بمجيئه؟ هل سيكون قادة حزب الله على علم بسفرته المرتقبة؟

أتت المعلومات التي رجّحت كفّة عمليّة الاغتيال من مصدر موثوق للغاية أكّد عزم مغنية على السفر إلى دمشق. وتأكّدت تلك المعلومات - استناداً إلى ما أفادت به صحيفة البلد اللبنانية - من قبل عملاء زرعوا أجهزة تعقّب في سيّارات مغنية وقيادات حزب الله.

تدخّلت آلة سيزاريا في هذه المرحلة؛ فوصلت مختلف فرق كيدون إلى دمشق عبر طرق متعرّجة، وقام فريق خاصّ بتهريب المتفجّرات إلى العاصمة السورية.

في اللحظة الأخيرة، وصلت معلومات جديدة بالغة الأهمّية من مُخبر قديم في الموساد. ذكر التقرير أنّ مغنية اعتاد على مقابلة نهاد حيدر كلّما قصد دمشق. كانت تلك هي المرة الأولى التي يسمع فيها عملاء الموساد عن العلاقة بين مغنية ونهاد.

تلقّت فرق المراقبة رسائل عاجلة. هل سيزور مغنية نهاد هذه المرّة أيضاً؟ وهل تعرف بأمر مجيئه؟

عشية تنفيذ العمليّة، وصل فريق الاغتيال إلى دمشق. كان أعضاء الفريق قد سافروا إلى العاصمة السورية على متن رحلات منفصلة، ومن مدن أوروبية متفرّقة. بحسب صحيفة إنديباندنت، تألّف الفريق من ثلاثة عملاء. أتى الأوّل من باريس على متن طائرة تابعة لشركة آير فرانس. وأقلع الثاني من ميلانو مع شركة أليتاليا. أمّا الثالث فجاء من عمّان على متن الخطوط الجوّية الأردنية. أشارت أوراق العملاء الثلاثة المزيّفة إلى أنّهم رجال أعمال؛ يعمل اثنان منهم في تجارة السيّارات، والثالث وكيل سفر. أعلنوا عند وصولهم أنّهم أتوا لتمضية إجازة قصيرة، ومرّوا عبر مكتب الهجرة من دون مشاكل. توجّهوا إلى المدينة في سيّارات منفصلة، ولم يجتمعوا معاً إلاّ بعدما تأكّدوا أنّهم غير ملاحقين. التقوا لاحقاً بعض المساعدين الذين جاءوا من بيروت، وتمّ اصطحابهم إلى موقف سيّارات منعزل. وهناك وجدوا بانتظارهم سيّارة مستأجرة، وبجانبها شحنة متفجّرات تحتوي على عبوات بلاستيكية وكرات معدنية صغيرة.

اختبأ العملاء الثلاثة في الموقف، وقاموا بإعداد العبوة الناسفة، ثمّ وضعوها في السيّارة المستأجرة. خلافاً لما نشرته بعض الصحف لاحقاً، لم تُزرع العبوة تحت مقعد سيّارة مغنية، بل في حجيرة الراديو الخاصة بالسيارة المستأجرة.

قام فريق آخر من مراقبي الموساد برصد وصول مغنية من بيروت. وكان هذا الفريق مكلّفاً بمراقبته عن كثب، والتواجد على مقربة من المبنى السكني الذي سيلتقي فيه نهاد، والإبلاغ عن خروجه، كما كان ينبغي له ملاحقته، والتأكّد من وصوله إلى الاجتماع المزمع عقده في كفر سوسة. من بين المجتمعين، كان سيلتقي هناك السفير الإيراني الجديد في دمشق، والرجل الأكثر سرّية في سوريا؛ اللواء محمّد سليمان. كان سليمان مكلّفاً – من بين أمور أخرى – بنقل أسلحة من إيران وسوريا إلى حزب الله، وكان على علاقة وثيقة بعماد مغنية. (كان سليمان متورّطاً في المشروع النووي السوري السرّي، ولن يعيش أكثر من ستّة أشهر بعد ذلك. إذ سيتمّ اغتياله بصورة غامضة في 2 أغسطس، خلال عشاء مع أصدقائه في منزل على الشاطئ. راجع الفصل 16).

في ذلك المساء، أعدّت السفارة الإيرانية احتفالاً بالذكرى السنوية للثورة في المركز الثقافي الإيراني في كفر سوسة؛ على مقربة من البيت الآمن الذي سيجتمع فيه مغنية بالمسؤولين الإيرانيين والسوريين. إلاّ أنّه قرّر عدم المشاركة في الاحتفال، والاكتفاء بالاجتماع مع شركائه، ومن ثمّ مغادرة دمشق.

في صباح 12 فبراير، كانت فرق الموساد جاهزة. تمركز المراقبون حول المبنى السكني الذي سيشكّل وُجهة مغنية الأولى. قبيل المساء، أعلنوا أنّ مغنية وصل إلى شقّة نهاد. وفي المساء، أبلغوا رؤساءهم أنّه انطلق في طريقه إلى وجهته الثانية، آملين أن تكون الأخيرة.

اجتازت سيّارة الباجيرو شوارع دمشق، ووصلت إلى كفر سوسة. تبع المراقبون مغنية، وأبلغوا عن تحرّكاته كافّة. وصلت السيّارة المفخّخة إلى المنطقة التي سيركن فيها مغنية سيّارته: كان من المقرّر إعطاء إشارة التشغيل من مسافة بعيدة جدًّا بواسطة أجهزة إلكترونية متقدّمة. أمّا العملاء الذين فخّخوا السيّارة، فقد

غادروا المنطقة منذ مدّة طويلة، وكانوا في طريقهم إلى المطار.

تتبّعت أجهزة التعقّب الإلكترونية سيّارة الجيب الفضّية التي توقّفت، وترجّل منها شخص يرتدي بذلة سوداء. فقام أحد المساعدين بركن السيّارة المفخّخة على مقربة من سيّارة الباجيرو الفضّية.

قبيل الساعة العاشرة مساء، هزّ انفجار هائل حيّ كفر سوسة، بالقرب من مدرسة إيرانية (كانت خالية في تلك الساعة) وحديقة عامّة. ففي اللحظة التي ترجّل فيها مغنية من سيّارته، انفجرت السيّارة المفخّخة.

قتل مغنية.

سبّب مقتله صدمة عنيفة لحزب الله، وضربة قوية للحكومة السورية بعد بضعة أشهر فقط من قصف مفاعلها النووي السرّي.

بعد ستّة أشهر من وفاة مغنية، في شهر نوفمبر 2008، أعلنت السلطات اللبنانية عن اكتشاف شبكة تجسّس تعمل لصالح الموساد. كان أحد المعتقلين ويدعى علي جرّاح يبلغ من العمر خمسين عاماً، ويقيم في سهل البقاع، ويعمل لحساب الموساد منذ قرابة عشرين عاماً مقابل راتب شهري قدره 7,000 دولار. اتُّهم بالسفر إلى سوريا عدّة مرّات لتنفيذ مهمّات للموساد. وفي فبراير 2008، قبل العمليّة بأيّام معدودة، سافر إلى كفر سوسة. اكتشفت الأجهزة اللبنانية عند اعتقال جرّاح معدّات تصوير متقدّمة، وكاميرا فيديو، وجهازاً لتحديد المواقع GPS تمّ إخفاؤها في سيّارته جيّداً. انهار جرّاح تحت الاستجواب، واعترف أنّ جهاز الموساد أعطاه تعليمات لمراقبة الأحياء التي سيزورها مغنية وتصويرها وجمع معلومات عنها؛ بما في ذلك الشقّة التي يقابل فيها نهاد.

أنكرت إسرائيل أيّ علاقة لها بالاغتيال، لكنّ المتحدّثين باسم حزب الله اتّهموا تكراراً «الإسرائيليين الصهاينة» بقتل «البطل المجاهد الذي سقط شهيداً».

كان لدى المتحدّث باسم الخارجية الأميركية، شون ماك كورماك، رأي آخر. إذ وصف مغنية أنّه «مسؤول عن قتل أرواح لا تعدّ ولا تحصى بدم بارد».

وختم ماك كورماك كلامه قائلاً: «بات العالم مكاناً أفضل من دونه».

الفصل العشرون

تحت المراقبة

في مطلع شهر يناير 2010، عبرت سيّارتا أودي أيه 6 سوداوان البوّابة المحصّنة لمبنى رمادي يقع على قمّة تلّة شمال تل أبيب. كان المبنى المسمّى «الكلّية» هو مقرّ الموساد. استقبل الرامساد مئير داغان رئيس الوزراء بنيامين نتنياهو عندما ترجّل من السيّارة الثانية. فمنذ مدّة قصيرة، قام نتنياهو بتمديد ولاية داغان لعام آخر.

شعر داغان وقيادات الموساد بالنشوة والثقة بعد النجاحات المتوالية لعمليّاتهم الأخيرة التي تمثّلت بتدمير المفاعل السوري، وتصفية مغنية وسليمان. وكان المطلب الملحّ حاليًّا هو قطع رابط آخر بين إيران والمقاتلين، ويدعى ذلك الرابط: المبحوح. استناداً إلى الصحفي رونين بيرغمان، سمّيت عمليّة اغتيال المبحوح «شاشة البلازما».

في غرفة الاجتماعات، قدّم داغان وكبار مساعديه خطّتهم لاغتيال محمود عبد الرؤوف المبحوح؛ أحد قادة حماس، والركن الأساسي في نظام تهريب الأسلحة من إيران، عبر السودان ومصر وشبه جزيرة سيناء إلى قطاع غزّة. قال رجال داغان إنّ المبحوح سيُقتل في دبي؛ إحدى الإمارات العربية المتّحدة في الخليج العربي.

وافق نتنياهو على تنفيذ «شاشة البلازما»، وبدأت الاستعدادات على الفور. تقضي الخطّة بقتل المبحوح في غرفته في أحد فنادق دبي. وأوردت صحيفة صنداي تايمز اللندنية أنّ أعضاء الفريق المكلّف بتنفيذ العملية قد تدرّبوا عليها في أحد فنادق تل أبيب من دون إبلاغ إدارة الفندق.

ولد محمود المبحوح، الملقب «أبو عبد»، عام 1960 في مخيّم جباليا للاجئين، شمال قطاع غزّة. في أواخر السبعينيات، انضمّ إلى الإخوان المسلمين،

وشـارك في أعمال ضدّ مقاهٍ عربية يمارَس فيها القمار. عام 1986، اعتقله الجيش الإسرائيلي بتهمة حيازة كلاشينكوف، غير أنه تم إطلاق سراحه بعد أقلّ من عام، وانضمّ إلى كتائب عزّ الدين القسّام، الجناح العسكري لحماس.

قام صلاح شحادة، قائد المبحوح، بتكليفه وعدد من أعضاء حماس بمهمّة خاصّـة: اختطـاف جنود إسـرائيليين وقتلهـم. في 16 فبراير 1989، عمد المبحوح مع عضو آخر في حماس إلى سرقة سيّارة، ثم تنكّر بزيّ يهودي متشدّد وعرض علـى أحـد الجنـود - ويدعى آفي ساسـبورتاس - أن يقلّـه معه. وكان قد وجده واقفـاً عنـد مفتـرق طرق، يحاول إيقاف سـيّارة للعودة إلى المنزل. وعندما دخل ساسـبورتاس السـيّارة، اسـتدار المبحوح نحوه، وأطلق عليه النار في وجهه. ثمّ قام المبحوح ومساعدوه بدفن الجندي بعد أن التقطوا صوراً لأنفسهم مع الجثّة. بعد ثلاثة أشهر من قتل ساسبورتاس، قام المبحوح مع أعضاء آخرين في منظّمة حماس باختطاف جندي آخر يدعى إيلان سعدون عند تقاطع الريم، وقتلوه أيضاً. لاحقـاً، اعتـرف المبحـوح فـي حوار مع محطّـة الجزيرة بضلوعه فـي الاغتيالين ودفن الجثّتين.

بعـد عمليّـة الاغتيـال الثانيـة، هـرب المبحـوح إلى مصر، ومنهـا إلى الأردن، وواصـل أنشـطته؛ لا سـيّما تهريـب الأسـلحة والمتفجّـرات إلى غزّة. فـي القاهرة، اعتقلته السـلطات المصرية، وأمضى معظم عام 2003 في سـجن مصري، ثمّ هرب إلـى سـوريا. اعتُبـر مطلوباً خطيراً من الشـرطة الإسـرائيلية، والمصريـة، والأردنية. واعتبـره رؤسـاؤه ماهـراً فـي التنظيـم، فترقّى في هرم حمـاس، وركّز معظم جهوده على تهريب الأسلحة من إيران إلى قطاع غزّة.

أدرك المبحـوح أنّـه مطلـوب من قبل الموسـاد بسـبب أنشـطته، كما أدرك أنّ إسـرائيل لن تنسـى أو تسـامحه على قتل الجنديَين؛ فاتّخذ احتياطات صارمة، وغيّر هويّاته تكراراً، وتنكّر بشـخصية رجل أعمال يسـافر بين مدن الشـرق الأوسط سعياً وراء صفقات شرعية. كما أخبر أحد أصدقائه أنّه كلّما نزل في أحد الفنادق، حصّن باب غرفته بالكراسي «تجنّباً للمفاجآت السيّئة».

وفي مقابلة نادرة له مع محطّة الجزيرة، ظهر المبحوح وقد غطّى رأسه بقماش

أسـود. قـال: «لقـد حاولـوا اغتيالي ثلاث مـرّات، وكادوا أن ينجحوا. مرّة في دبي، ومرّة في لبنان قبل ستّة أشهر، ومرّة ثالثة في سوريا قبل شهرين؛ بعد اغتيال عماد مغنية. هذا هو الثمن الذي يدفعه من يقاتلون الإسرائيليين».

في الواقع، أجرى المبحوح المقابلة خلافاً لرغبته؛ فقد رأى فيها مجازفة غير ضرورية، ولكنّه اضطُرّ إلى تنفيذ أوامر واضحة من قيادة حماس. أكّد البعض لاحقاً أنّ المقابلة سـاعدت الموسـاد على إيجاده. فقد وافق المبحوح على الظهور أمام الكاميرات تحت شرط واحد: أن يكون وجهه مموّهاً تماماً. وبعد تسجيل المقابلة، تمّ إرسـال الشـريط إلى غزّة للاطّلاع عليه. تبيّن أنّ عمليّة تمويه الوجه قد فشـلت، وطُلـب منـه تسـجيل المقابلـة مجـدّداً، فتمّ تأجيـل المقابلة الجديـدة (التي لم تُبثّ سوى بعد مقتل المبحوح). سأل المبحوح عمّا تم فعله بالتسجيل الأوّل، فقيل له إنّ الشريط محفوظ في أرشيف حماس. غير أنّ البعض يعتقد أنّ الشريط قد تسرّب إلى أيدي عملاء كانوا يحاولون إيجاده.

بعد بضعة أسابيع من التسجيل، تلقّى أحد كبار أعضاء حماس اتّصالاً هاتفياً مـن عربـي ادّعـى أنّـه علـى علاقـة بمجموعة متخصّصة بتهريب الأسـلحة وغسـل الأمـوال، وقـدّم لمنظّمة حماس المتعطّشـة للسـلاح عروضـاً لا يمكن أن ترفضها، ثمّ طلب مقابلة المبحوح في دبي. كان اختياره دبي كمكان للقاء أمراً غريباً؛ فمدينة دبـي التـي تعـجّ بالحياة كانت فـي الواقع المكان الذي يجتمع فيه المبحوح بنظرائه الإيرانييـن. وربّمـا كانـت هـذه المكالمـة الهاتفية الغامضة هي حكـم الإعدام بحقّ المبحوح.

عندئـذ، تـمّ تصويـر وتسـجيل حدث غير مسـبوق في تاريخ الحروب السـرّية عبر كاميرات مراقبة تمّ تركيبها في أنحاء دبي كافّة، بدءاً من المطار، ووصولاً إلى ردهات الفنادق، وأروقتها، ومصاعدها.

شـكّلت تلـك الأشـرطة وثائـق فريدة من نوعهـا للعمليّة المرتقبـة ومراحلها، وأتاحـت لمئـات ملاييـن المشـاهدين فـي مختلـف أنحـاء العالم، الجالسـين على مقاعدهم باسترخاء، متابعة عمليّة سرّية ينفّذها فريق اغتيال.

الاثنين، 8 يناير 2010

وصل عدد من عملاء الموساد إلى دبي. شكّلوا مقدّمة لفريق كبير مؤلّف من 27 عميلاً سيتوافدون إلى دبي في الساعات الأربع والعشرين التالية. سيحمل 12 منهم جوازات سفر بريطانية، و4 منهم سيحملون جوازات سفر فرنسية، فيما سيحمل 4 آخرون جوازات سفر أسترالية، وسيكون بينهم حامل جواز سفر ألماني، و6 مع جوازات سفر إيرلندية.

نزل العملاء في فنادق مختلفة في المدينة.

الثلاثاء، 19 يناير 2010

12:09 صباحاً – وصل إلى دبي عميلان للموساد، أحدهما هو مايكل بودنهايمر الأصلع، البالغ من العمر 43 سنة، والذي يحمل جواز سفر ألمانيًّا، وصديقه جايمس ليونارد الذي يحمل جواز سفر بريطانياً. استناداً إلى الشرطة المحليّة، شكّل الاثنان طلائع المجموعة المكلّفة بتصفية المبحوح.

12:30 صباحاً – وصل إلى دبي قائد العمليّة كيفن دافيرون الذي يتميّز بلحيته الخفيفة ونظّارته، وذلك على متن رحلة مباشرة من باريس. ترافقه نائبه غيل فوليارد، وهي فتاة مرحة حمراء الشعر. وكان الاثنان يحملان جوازَي سفر إيرلنديَين.

01:21 صباحاً – نزلت غيل فوليارد في فندق جميرا الفخم، وحصلت على غرفة في الطابق الحادي عشر. وعندما سألها موظف الاستقبال عن عنوان منزلها، أجابت من دون أن يرفّ لها جفن: 78 شارع ميمير، دبلن، إيرلندا. سيتبيّن لاحقاً أنّه لا وجود لهذا العنوان.

01:31 بعد منتصف الليل – انضمّ القائد كيفن دافيرون إلى نائبه، ونزل في فندق جميرا، وحصل على الغرفة 3308.

02:29 بعد منتصف الليل – وصل إلى دبي بيتر إلفينغر – المنسّق اللوجستي للعمليّة – بجواز سفر فرنسي. كان رجلاً رشيقاً وملتحياً، يضع نظّارة حديثة الطراز. استناداً إلى الشرطة، كان يحمل حقيبة "مريبة".

02:36 بعد منتصف الليل – في المطار، التقى بيتر عضواً آخر في الفريق، وذهبا معاً إلى أحد فنادق المدينة.

10:15 صباحاً - انطلق محمود المبحوح من دمشق إلى دبي على متن رحلة مباشرة تابعة للخطوط الجوّية الإماراتية. كان من المفترض أن يقوم هناك بالتنسيق مع المبعوث الإيراني لتهريب شحنة أسلحة أخرى إلى غزّة.

10:30 صباحاً - غادر بيتر منسّق العمليّة الفندق، والتقى فريق الاغتيال في مركز تجاري كبير.

10:50 صباحاً - انضمّ القائد ونائبه - كيفن وغيل، إلى الاجتماع في المركز التجاري. لم يكن كيفن يضع نظّارة حينها، كما اختفت لحيته الخفيفة.

12:18 ظهراً - انتهى الاجتماع، وتفرّق أعضاء الفريق. عاد كيفن إلى فندق جميرا وأنهى الحجز. أظهرته كاميرات المراقبة وهو يدخل فندقاً آخر بعد أن وضع شعراً مستعاراً، ونظّارة، وشارباً مزيّفاً.

02:12 ظهراً - دخل عميلان يرتديان زيّ التنس فندق البستان روتانا الفخم. كانا مراقِبَين ينتظران المبحوح الذي يُفترض أن يصل خلال ساعة.

03:12 عصراً - غادرت غيل فندق جميرا أيضاً، ودفعت مبلغ 400 دولار لقاء الليلة التي أمضتها فيه.

03:15 عصراً - وصل المبحوح إلى دبي، وقدّم لمكتب الهجرة جواز سفر عراقيًّا مزيّفاً، وأعلن أنّه يعمل في تجارة النسيج.

03:25 عصراً - انتقلت غيل إلى فندق آخر، وقامت بتبديل ملابسها، وتجميل وجهها، ووضعت شعراً مستعاراً.

03:28 عصراً - وصل المبحوح إلى فندق البستان روتانا. عند الحجز، طلب غرفة ذات نوافذ مغلقة ومن دون شرفة. فأعطي الغرفة 230 في الطابق الثاني. استقلّ المصعد إلى الطابق الثاني، ولم ينتبه إلى عميلَي الموساد اللذين استقلاّ المصعد معه مرتديَين زيّ التنس.

03:30 عصراً - نقل المراقبان - بواسطة جهاز اتصال خاصّ - أنّ المبحوح دخل غرفته وأنّ الغرفة المقابلة تحمل الرقم 237.

03:53 عصراً - وصل المنسّق بيتر إلى فندق المبخوح، ودخل المركز التجاري. اتصل بمكتب الاستقبال، وحجز الغرفة 237.

04:03 عصراً – حلّ فريق مراقبة جديد مكان الفريق الأوّل، وانتظر خروج المبحوح من غرفته.

04:14 عصراً – أصبح جميع أعضاء فريق الاغتيال في فندق البستان روتانا.

04:23 عصراً – غادر المبحوح غرفته، وتأمّل الردهة للتأكّد من أنّ المكان «خالٍ»، ثمّ غادر الفندق، فتبعه المراقبون.

04:24 عصراً – أرسل المراقبون إلى قائد الفريق تفاصيل عن السيّارة التي استقلّها المبحوح باتّجاه وسط المدينة.

04:27 عصراً – دخل المنسّق بيتر ردهة الفندق، وأعطى كيفن دافيرون حقيبته التي احتوت على الأرجح على الأدوات اللازمة لاغتيال المبحوح.

04:33 عصراً – ذهب بيتر إلى مكتب الاستقبال، ثمّ قام بالحجز، واستلم مفتاح الغرفة 237 المقابلة لغرفة المبحوح.

04:40 عصراً – أعطى بيتر كيفن مفتاح الغرفة، وغادر الفندق إلى وجهة غير معروفة.

04:44 عصراً – دخل كيفن الغرفة 237. تحقّق من النافذة وثقب الباب الذي يستطيع أن يراقب المبحوح من خلاله وهو يدخل غرفته.

05:06 عصراً – دخلت غيل الغرفة 237. راجعت مع كيفن الجدول الزمني، وواصلا استلام التقارير عن تحرّكات المبحوح في المدينة.

05:36 عصراً – دخل أحد المراقبين الفندق معتمراً قبّعة. وفي إحدى زوايا الرواق الخالي، استبدلها بشعر مستعار.

06:21 مساءً – غادرت غيل الغرفة 237 حاملة الحقيبة التي سلّمها بيتر إلى كيفن. ذهبت إلى موقف السيّارات التابع للفندق، وسلّمت الحقيبة إلى أحد أعضاء فريق الاغتيال.

06:32 مساءً – غادرت أوّل مجموعة في فريق الاغتيال موقف السيّارات ودخلت بهو الفندق.

06:34 مساءً – دخلت المجموعة الثانية في فريق الاغتيال الفندق، وجلست على إحدى الأرائك في زاوية بعيدة من البهو الفخم، أبعد ما يمكن عن المجموعة

الأولى.

06:43 مساءً - غادرت أوّل مجموعة من المراقبين الفندق، أي العميلان اللذان يرتديان ملابس التنس.

07:30 مساءً - غادر بيتر، المنسّق اللوجستي، دبي على متن رحلة متجهة إلى ميونخ في ألمانيا.

08:00 مساءً - غادر موظّف الفندق الذي قام بتنظيف الطابق الثاني المكان، فحاول فريق الاغتيال دخول غرفة المبحوح.

08:04 مساءً - أعطى كيفن الواقف قرب المصاعد أعضاء فريق الاغتيال إشارة لدخول الغرفة، لأنّ أحد المصاعد توقّف في الطابق الثاني، ودخله أحد نزلاء الفندق. فسجّل نظام المراقبة الإلكترونية عملية اقتحام الغرفة 230، أي غرفة المبحوح.

08:20 مساءً - عاد المبحوح إلى الفندق، فأبلغ المراقبون كيفن أنّه متّجه إلى المصعد.

08:27 مساءً - دخل المبحوح غرفته. كان كيفن وغيل يتولّيان الحراسة في رواق الطابق الثاني، بالقرب من المصاعد. في الغرفة 230، تمّت عمليّة الاغتيال.

08:46 مساءً - غادر أربعة أعضاء في فريق الاغتيال الفندق.

08:47 مساءً - غادرت غيل وعضو آخر في فريق الاغتيال الفندق.

08:51 مساءً - دخل كيفن غرفة المبحوح بعد قتله، وعلّق إشارة عدم الإزعاج على مقبض الباب.

08:52 مساءً - غادر فريق المراقبة الفندق.

10:30 مساءً - غادر كيفن وغيل دبي على متن رحلة مباشرة إلى باريس. وفي الوقت نفسه تقريباً، رحل أعضاء الفريق كافّة باتّجاهات مختلفة.

عند الساعة 10:00 مساءً، اتّصلت زوجة المبحوح به على هاتفه الخلوي. رنّ الهاتف، وتمّ تحويل الاتّصال إلى البريد الصوتي. اتّصلت مراراً وتكراراً، لكن ما من مجيب. حاول صديق مقرّب آخر الاتّصال بالمبحوح، لكن من دون جدوى.

ظلّت الرسائل الواردة للمبحوح من دون جواب. مرّ الوقت في صمت مطبق. عندها، اتّصلت الزوجة القلقة بعدد من كبار الضباط في حماس، فقرّروا إرسال أحد أعضاء حماس المقيمين في دبي إلى فندق البستان روتانا. فتوجّه الرجل إلى مكتب الاستقبال واتّصل بالغرفة 230، لكن لم يردّ عليه أحد.

بعد منتصف الليل، صعد موظّفو الفندق إلى غرفة المبحوح أخيراً، وفتحوا الباب، ووجدوا جثّته. أتى طبيب إلى الفندق على وجه السرعة، وفحص الجثّة، واستنتج أنّ الوفاة ناتجة عن توقّف في القلب.

نشرت حماس بياناً رسمياً عَزَتْ فيه وفاة لمبحوح إلى «أسباب طبّية». لكنّ أسرة المبحوح رفضت التشخيص الطبّي، وأصرّت على أنّ المبحوح قُتل على يد الموساد. أُرسلت جثّته إلى طبيب شرعي في دبي، في حين تمّ إرسال عيّنة من دمه إلى أحد مختبرات فرنسا. أتت نتيجة التقرير بعد تسعة أيّام. أعلنت على أثرها منظّمة حماس أنّ عملاء الموساد قاموا باغتيال المبحوح، أوّلاً من خلال صعقه بصدمة كهربائية، ومن ثمّ خنقه بوسادة. في الوقت نفسه، أعلنت شرطة دبي عدم العثور على آثار للسمّ في دم المبحوح. مع ذلك، سرعان ما استنتجت شرطة دبي أنّ عملاء الموساد قتلوا المبحوح على أراضيها. في 31 يناير، أي بعد 12 يوماً من مقتل المبحوح، نشرت صحيفة صنداي تايمز مقالة عن موته مسموماً على يد الموساد. فادّعى مراسلو الصحيفة أنّ الإسرائيليين دخلوا غرفة المبحوح وحقنوه بسمّ يسبّب أعراضاً مشابهة لأعراض الذبحة القلبية، قبل أن يقوموا بتصوير الوثائق التي كانت بحوزته ويغادروا الغرفة تاركين وراءهم إشارة عدم الإزعاج.

في 28 فبراير، أبلغ نائب رئيس شرطة دبي الصحافة أنّ المختبر الفرنسي عثر في دم المبحوح على آثار لمسكّن قوي يرتكز على الهيدروكلوريد، يُستخدم كمخدّر قبل الجراحة. وقال إنّ هذه المادّة تسبّب ارتخاءً عضلياً يتبعه غياب للوعي. وافترض أنّ القتلة حقنوا ضحيّتهم بالمخدّر، ثمّ خنقوه لتبدو الوفاة طبيعية.

نشر الصحفي غوردون توماس مقالاً في صحيفة تلغراف اللندنية عن «رخصة الموساد في القتل». فأكّد توماس أنّ طريقة العمل التي اتُّبعت لتصفية المبحوح

شبيهة بعمليّات الاغتيال الأخرى التي نفّذها الموساد في الماضي. وأضاف أنّ أعضاء فريق الاغتيال الأحد عشر، وبينهم ستّ نساء، اختيروا من بين 48 عضواً في وحدة كيدون العمليّاتية. وشدّد يوسي ميلمان، من صحيفة هآرتس، على أنّ تحرّكات القتلة - كما أظهرتها كاميرات المراقبة وغيرها من الأدلّة - شبيهة بعمليّات الموساد السابقة: الوصول على متن رحلات مختلفة من مناطق عدّة من العالم، والنزول في فنادق مختلفة، وإجراء مكالمات هاتفية عبر مكاتب دولية، واستخدام الملابس التي تصعّب عمليّة تحديد الهويّة، ومحاولة التنكّر كسيّاح حقيقيين أو رجال أعمال يحاولون الجمع بين العمل والمتعة. لكنّ خبراء آخرين رفضوا تلك النظريّة، قائلين إنّ هذه هي بالضبط الطرق المستخدمة من قبل معظم أجهزة المخابرات الغربية، وبالتالي من غير الممكن التأكّد من هويّة منفّذي الاغتيال.

كشفت مجلّة دير شبيغل الأسبوعية الألمانية أنّ وكالة المخابرات الألمانية بي إن دي أبلغت أعضاء البرلمان الألماني أنّ المبحوح قُتل على أيدي الموساد. ووصفت دير شبيغل أيضاً كيف أنّ مايكل بودنهايمر، المولود في إسرائيل، قد تقدّم عام 2009 بطلب للحصول على جواز سفر ألماني لأنّ والديه وُلِدا في ألمانيا. وباستخدام جواز السفر الجديد هذا، سافر في 8 نوفمبر 2009 من فرانكفورت إلى دبي، ومنها إلى هونغ كونغ، وهو خطّ سير مشابه لرحلاته قبل عمليّة الاغتيال وبعدها. واستناداً إلى الأسبوعية الألمانية، سافر تسعة عملاء إلى دبي في اليوم نفسه من شهر نوفمبر 2009، وذلك من مطارات مختلفة في أوروبا. ويبدو أنّها كانت بروفا للعمليّة الفعلية التي نُفّذت في يناير 2010.

في مقابلة مع صحيفة العربية، أوضح رئيس شرطة دبي، ضاحي خلفان تميم، سبب تيقّنه من أنّ الموساد هو الذي قتل المبحوح: «أوّلاً، لدينا بعض عيّنات الحمض النووي وبصمات الأصابع. ثانياً، [أعضاء فريق الاغتيال] كافّة يحملون جوازات سفر أجنبية حقيقية تفاصيلها مزيّفة. واتّضح أنّ بعض أصحاب [الجوازات] من إسرائيل، ما رأيكم؟ هل تظنون أنّ منظّمة السلام هي التي قتلت المبحوح؟ إن الموساد هو الفاعل؛ مئة بالمئة!».

سرعان ما أصبح رئيس شرطة دبي نجماً إعلامياً، وأمضى ساعات وهو يُجري

مقابلات مع من لديه الاستعداد للاستماع في مختلف محطات التلفزة في العالم. وأصبح الشخصية المفضّلة لمراسلي المحطّات التلفزيونية، وذلك بفضل كاميرات المراقبة المنتشرة في دبي. عرض أمام الصحافة شريط فيديو تمّ تجميعه في الواقع من أشـرطة كاميرات المراقبة المنتشـرة في جميع أنحاء دبي. وأوضح تميم بذكاء وأظهـر كذلـك كيفيّـة تنقّل أعضـاء فريق الاغتيال في مختلف أنحاء الإمارة، وكيفية دخولهـم وخروجهـم من الفنادق، ومراكز التسـوّق، والمطـار، في جهودهم الرامية إلى تتبّع المبحوح، وكيفية تبديلهم ملابسهم وتنكّرهم.

وفقـاً لتميـم، كان جوهـر فريـق الاغتيـال يتألّف من أحد عشـر عضـواً: ثلاثة مواطنين إيرلنديين، وستّة بريطانيين، وفرنسي، وألماني. وصلوا إلى دبي على متن عدّة رحلات جوّية من مطارات أوروبية مختلفة. بعضهم أتى عشـية العمليّة، فيما وصـل آخـرون في الوقت نفسـه مع المبحـوح، وتأخّر عدد منهم ووصل قبل بضع سـاعات من العمليّة. وسـاعدت 648 سـاعة من تسجيل الكاميرات شرطة دبي على إعادة بناء الأحداث التي بلغت ذروتها بمقتل المبحوح.

الأشرطة والصور التي تمّ التقاطها من قبل سلطات الهجرة لجميع المسافرين الذيـن دخلـوا وخرجـوا مـن دبـي دفعت رئيس شـرطة دبي إلى الاسـتنتاج أنّ عدد عمـلاء الموسـاد الذيـن شـاركوا فـي العمليّة يفوق أحد عشـر عميـلاً. وكان العدد الرسـمي الـذي ذكـره هـو 27، لكنّـه أضاف لاحقاً بضعة أسـماء أخـرى إلى لائحة المشتبه بهم.

غير أنّ استنتاجاته أثارت عدّة تساؤلات: ألم يكن الموساد يعرف بوجود شبكة كاميرات أمنية في مختلف أنحاء دبي؟ استناداً إلى تميم، قام العملاء الإسرائيليون بزيـارة دبـي عـدّة مرّات اسـتعداداً للعمليّة. ألم يروا كاميـرات المراقبة؟ وإن فعلوا، فهـذا يعنـي ربّمـا أنّ جزءاً كبيراً مـن التحرّكات من وإلى الفنادق، وتغيير الملابس، والشـعر المسـتعار، والشـوارب لم تكن سوى عرض أمام الكاميرات. كما أنّ عدداً غير قليل من المشاركين لم يكن لهم دور في تنفيذ العمليّة، بل اقتصرت مهمّتهم على تضليل من سيراقبون الأشرطة لاحقاً.

ثمّة نقطة أخرى: تباهى رئيس الشرطة أنّ أعضاء فريق الاغتيال تمّ تصويرهم

عند مرورهم بمكتب الهجرة. ألم يعرف الموساد بوجود هذا الإجراء في دبي؟ ألم يحرص على أن تكون وجوه العملاء مموّهة حيث يستحيل التعرّف عليها لاحقاً؟

بالإضافة إلى ذلك: كيف تمكنت كاميرات المراقبة من تسجيل كلّ ثانية من تحرّكات العملاء السرّيين باستثناء دخول فريق الاغتيال وخروجه من غرفة المبحوح؟

كشف رئيس الشرطة للصحافة أنّ أعضاء فريق الاغتيال استخدموا رقم هاتف في النمسا لاتّصالاتهم. وبفحص سجلاّت الهاتف، تمكّن تميم من تحديد هويّات الأجانب الذين استخدموا هذا الرقم، وكانوا على ما يبدو أعضاء في فريق الموساد. وأشار أيضاً إلى أنّ عدّة عملاء سدّدوا نفقاتهم في دبي بواسطة بطاقة ماستر كارد الائتمانية القابلة لإعادة الشحن بايونير، وهي شركة مقرّها ولاية إيوا، ولديها مركز بحوث وتنمية في إسرائيل.

من الحقائق الأكثر إثارة للاهتمام التي تمّ كشفها خلال التحقيق أنّ معظم أعضاء فريق الاغتيال استخدموا جوازات سفر حقيقية لمواطنين إسرائيليين مزدوجي الجنسية، ولم يقم سوى عدد قليل جدًّا منهم باستخدام جوازات سفر مزوّرة. كان لذلك سبب على ما يبدو؛ فالفريق كان يعمل على أرض عربية تُعتبر أرضاً معادية. وفي حال تمّ إلقاء القبض عليهم، يمكنهم أن يطلبوا حماية قنصليات بريطانيا العظمى، وألمانيا، وفرنسا، وأستراليا... ولو تحقّق القناصل من أجهزة الكمبيوتر الخاصّة بهم، لوجدوا أنّ هؤلاء الأشخاص موجودون فعلاً، ولوافقوا على مساعدتهم. أمّا لو قام الفريق باستخدام جوازات سفر مزوّرة، فإنّ الخدعة ستنكشف على الفور، وسيُتركون من دون حماية.

بعدما أصبح كلّ ذلك معروفاً، تعرّضت إسرائيل لانتقادات لاذعة من قبل البلدان التي استُخدمت جوازات سفرها في دبي. قامت بريطانيا العظمى، وأستراليا، وإيرلندا بطرد ممثّلي الموساد من أراضيها. أمّا بولندا، فاعتقلت رجلاً يدعى أوري برودسكي في مطار وارسو وسلّمته إلى ألمانيا. فقد اشتبهت أنّ برودسكي ساعد العميل مايكل بودنهايمر على الحصول على جواز سفر ألماني بموجب ادّعاءات

كاذبة. (تمّ إطلاق سراح برودسكي لاحقاً في ألمانيا بعد أن دفع غرامة قدرها 60000 يورو، في حين لم يتمّ العثور على بودنهايمر). وعبّرت دول أخرى عن سخطها وغضبها. بدت ردود الفعل تلك مشوبة بالنفاق، لأنّ استخدام جوازات سفر مزيّفة هو قاعدة عمل أجهزة المخابرات عادة، فالدول التي تتّهم إسرائيل كانت وما زالت تستخدم جوازات سفر مزيّفة تماماً كما فعل الموساد. لكن، عندما تمّ اكتشاف شبكة تجسّس روسية في الولايات المتّحدة في أواخر عام 2010، لم يتّهم أحد أعضاءها أنّهم استخدموا أوراقاً بريطانية وأميركية مزوّرة.

أعطت التقارير التي نشرتها الصحافة العالمية الانطباع بأنّ عمليّة دبي كانت ناجحة، لكنّها مشوبة بخطأ فادح نتج عن قلّة تقدير إسرائيل لدبي والدول الغربية التي تمّ توريطها في العمليّة. تعرّضت صورة إسرائيل الدولية لضربة قوية، لكنّ نشاطها السرّي لم يتأثّر. إذ سرعان ما تمّ استبدال مبعوثي الموساد المطرودين بآخرين. ووعود رئيس شرطة دبي بإلقاء القبض على أعضاء فريق الاغتيال لأنّ هويّاتهم معروفة في جميع أنحاء العالم لم تلقَ تجاوباً. ولم تتعرّف الشرطة في أيّ بلد من بلدان العالم على أيّ عميل في فريق دبي أو تعتقله.

مع ذلك، أصبحت عمليّة دبي رمزاً للتحدّيات الجديدة التي تواجه أيّ جهاز سرّي في العالم المتغيّر. لقد انتهى زمن العباءة والخنجر بكلّ تأكيد. فكاميرات المراقبة، والصور، والبصمات التي تؤخذ في مكاتب الهجرة، والقدرة على التحقّق السريع من جوازات السفر، وفحوص الحمض النووي... كلّ ذلك يفرض استخدام وسائل وأساليب أكثر تعقيداً بكثير على أشباح هذا العالم الذين انطلقوا في مهامهم المظلمة والمخيفة.

في 7 أبريل 2011، أطلقت طائرة مجهولة صاروخاً على سيّارة ركّاب، على طريق يبعد 15 كلم عن جنوب بور السودان، في دولة السودان الأفريقية. استناداً إلى مصادر إسرائيلية، تعرّضت السيّارة للهجوم من قبل طائرة شوفال بدون طيّار يمكن أن تطير لمسافة 400 كلم من دون التزوّد بالوقود، كما يمكن أن تنقل على متنها حمولة بوزن طن واحد. شوفال هو جيل جديد من الطائرات بدون طيّار

التي تستخدمها إسرائيل الآن في مهام خطرة وراء الحدود، عوضاً عن الطائرات التي يقودها طيّارون. وتقوم الطائرات الإسرائيلية بدون طيّار، التي تُعتبر من أفضل الطائرات في العالم، بتنفيذ مهام استخبارية وهجومية في أنحاء الشرق الأوسط كافّة.

قيل إنّ أحد الرجلين اللذين قُتلا في الهجوم قيادي في حركة حماس. فقد كانت حماس تقوم بتهريب الأسلحة من إيران إلى غزّة عن طريق السودان. فتصل الأسلحة بالقارب، ثمّ تفرّغ الحمولة في ميناء السودان، وتُنقل في قافلة سيّارات عبر مصر وسيناء إلى سائقي غزّة الذين يستخدمون الرشى لعبور الحدود ونقاط التفتيش.

اتّهمت الحكومة السودانية إسرائيل فوراً بتنفيذ الهجوم.

كانت إسرائيل قد اعتُبرت مسؤولة عن هجوم غامض آخر على قافلة أسلحة في يناير 2009؛ إذ تمّ تدمير الشاحنات المحمّلة بالسلاح، والصواريخ، والمتفجّرات، وقُتل أربعون شخصاً كانوا داخلها.

ومن الرجال الذين زُعم أنّهم قُتلوا قيادي في حركة حماس كُلّف بتهريب الأسلحة من إيران إلى غزّة.

الفصل الحادي والعشرون

من أرض ملكة سبأ

دخلت مجموعة من الأطفال الأثيوبيين، سود البشرة وبيض الملابس، مسرح قاعة كبيرة في القدس. راقب الأطفال بجمالهم الفريد وعيونهم السوداء الكبيرة المليئة بالفضول والاعتزاز الجمهور الذي يملأ القاعة، ثمّ جلس الملحّن الإسرائيلي الشهير، شلومو غرونيتش، أمام البيانو. أبحرت أولى النوتات الموسيقية بسلاسة فوق رؤوس الحشد الصامت، ثمّ علا صوت الأطفال بأغنية جميلة تقشعرّ لها الأبدان:

من السماء يراقبنا القمر
على ظهري كيس طعام صغير
وتحت أقدامنا تمتدّ الصحراء بلا نهاية
تعد أمّي إخوتي الصغار:
«قليلاً بعد، قليلاً بعد
ارفعوا أقدامكم، خطوة بعد
إلى القدس».

كانت تلك هي «أغنية الرحلة» التي ألّفها الشاعر محاييم إيديسيس، والتي يصف فيها الرحلة الملحمية ليهود أثيوبيا إلى أرض الميعاد؛ إلى إسرائيل. راح الجمهور يهلّل ويصفّق. ربّما لم يكن ذلك ما قصده إيديسيس، وربّما لم يلاحظ الحشد المتحمّس، لكنّ الأطفال كانوا يُنشدون الفصل الأكثر إثارة للمشاعر والأكثر

فظاعة لعليا[1] يهود أثيوبيا إلى أرض أجدادهم:

جمد القمر

وضاع كيس طعامنا...

هجم قطّاع طرق في الليل

بسكّين وسيف حادّ

ابتلّت رمال الصحراء بدم أمّي

والقمر شاهِد

فرحت أعِد إخوتي الصغار:

«قليلاً بعد، قليلاً بعد

سيتحقّق الحلم

قريباً سنصل إلى أرض إسرائيل».

لم يسبق لأيّ جالية إسرائيلية أن عانت الويلات التي عانتها القبيلة الأثيوبية في طريقها إلى إسرائيل.

لقد تحوّلت تلك المعاناة إلى أسطورة حيّة.

بدا وكأنّ وجودها بحدّ ذاته مأخوذ من حكاية خيالية؛ قبيلة يهودية معزولة عن العالم الخارجي، ومتجذّرة في قلب أفريقيا، عاشت في جبال أثيوبيا ووديانها، أرض ملكة سبأ. لآلاف السنوات، تشبّثت هذه القبيلة بعقيدتها الصافية والبريئة.

كانت هذه القبيلة الهادئة والخجولة ضائعة بالنسبة إلى التاريخ. علّم زعماؤها - الذين اعتادوا على ارتداء الجلابيب البيضاء - رعاياهم القواعد القديمة لليهودية، والعادات الأساسيّة للحياة المعاصرة. وعاشت قبيلتهم في سلام وصفاء بين جيرانها تارة، وتعرّضت للاضطهاد من قبل حكّام قساة تارة أخرى. غير أنّ حاخاماتها وخبراءها اللاهوتيين واجهوا الذلّ والمهانة من العالم الخارجي الذي لم يعتبر يهود أثيوبيا، المعروفين باسم الفلاشا، يهوداً حقيقيين.

لكنّ اليهود الأثيوبيين لم يستسلموا، وظلّوا يحلمون من جيل إلى جيل باليوم

---

(1) كلمة عبرية تشير إلى الهجرة اليهودية إلى أرض فلسطين.

الذي سيشقّون فيه طريقهم إلى أرض إسرائيل، تلهمهم التقاليد التي توارثوها أباً عن جدّ.

أتى عدد قليل جدًّا من الأثيوبيين إلى إسرائيل في السنوات الثلاثين الأولى من وجودها. وحتّى خلال حكم الإمبراطور هيلا سيلاسي، «أسد يهودا»، الذي كان حليف إسرائيل وصديقها الودود، لم تُبذل جهود جدّية لجلب اليهود من أثيوبيا إلى الدولة اليهودية. غير أن الأمور بدأت تتغيّر عام 1973، عندما أصدر حاخام إسرائيل الأكبر عفاديا يوسف حُكماً لا لبس فيه يقضي باعتبار اليهود الأثيوبيين، الذين يسمّون أنفسهم «بِيتا إسرائيل»، يهوداً بكلّ معنى الكلمة. وبعد عامين، قرّرت الحكومة الإسرائيلية تطبيق قانون العودة على يهود أثيوبيا. وعندما أصبح مناحيم بيغن رئيساً للوزراء عام 1977، استدعى مدير الموساد الجنرال إسحاق (هاكا) هوفي.

قال بيغن للرامساد: «أحضر لي يهود أثيوبيا!».

كانت هيكلية الموساد حينها تشتمل على وحدة خاصّة تدعى بيتزور. وكانت مكلّفة بحماية اليهود في بلاد العدو، وبتنظيم هجرتهم من تلك الدول إلى إسرائيل. وعلى الفور، بدأت بيتزور – التي سُمّيت لاحقاً تزافريريم – بالعمل.

بعد وقت قصير من الأمر الذي أصدره بيغن إلى هاكا، وصل ديفيد (ديف) كيمحي إلى أديس أبابا عاصمة أثيوبيا. كان ديف نائب مدير الرامساد، ورئيس شعبة تيفيل للعلاقات السرّية الدولية، فذهب للقاء حاكم أثيوبيا، منغيستو هيلا مريم. في تلك الأيّام، كانت أبواب أثيوبيا موصدة في وجه المهاجرين اليهود. لكنّ حرباً أهلية شرسة كانت تمزّق البلاد، فطلب منغيستو مساعدة إسرائيل ضدّ المتمرّدين. رفض كيمحي العمل ضدّ المتمرّدين لصالح منغيستو، لكنّه وعده بتزويده بالأسلحة؛ وذلك تحت شرط واحد: السماح لليهود بالهجرة. قال كيمحي، كلّ طائرة هرقل إسرائيلية تهبط هنا محمّلة بالمعدّات العسكرية، نريدها أن تقلع محمّلة باليهود. فوافق منغيستو، وهكذا بدأت هجرة اليهود من أثيوبيا.

دام هذا الترتيب مدّة ستّة أشهر؛ إلى أن قضت عليه في فبراير 1978 «زلّة لسان» لوزير الشؤون الخارجية في ذلك الحين موشيه دايان. فقد قال دايان لصحيفة

سويسرية إنّ إسرائيل تزوّد جيش منغيستو بالأسلحة. ادّعى البعض أنّ دايان سرّب تلك المعلومة عمداً، لكونه معارِضاً صفقة الأسلحة مع نظام منغيستو الماركسي والموالي للاتّحاد السوفييتي.

ثار غضب منغيستو؛ فهو لا يستطيع أن يقرّ علناً بأنّه يقيم علاقات سرّية مع إسرائيل. وألغى الاتّفاق مع الموساد على الفور. وهكذا، أُغلقت القناة المباشرة لهجرة اليهود، لكنّ الأمر الذي أصدره بيغن لهاكا ظلّ سارياً.

أوصدت أبواب أثيوبيا مجدّداً، لكنّ رسالة وصلت إلى مقرّ الموساد من الخرطوم عاصمة السودان، وجارة أثيوبيا، وفتحت فجأة طريق فرار آخر لليهود الأثيوبيين.

كانت الرسالة موقّعة باسم فريدا أكلوم، وهو يهودي أثيوبي ومدرّس، نجح بعبور الحدود إلى السودان. من وجهة نظر إسرائيل، كانت السودان دولة معادية عانت من المجاعة، والجفاف، والحروب القبلية والدينية. وتجمّع آلاف اللاجئين من مختلف أنحاء البلاد فيها؛ وكذلك من أثيوبيا المجاورة، في مخيّمات بائسة. أرسل أكلوم عدّة رسائل إلى إسرائيل، وإلى منظّمات الإغاثة في جميع أنحاء العالم، في محاولة يائسة للحصول على مساعدة عاجلة لهجرة اليهود الأثيوبيين. وصلت إحدى تلك الرسائل إلى مقرّ الموساد، وجذبت انتباه أحد كبار المسؤولين. كتب أكلوم يقول: «أنا في السودان، أرسِلوا إليّ تذكرة طائرة». عوضاً عن إرسال التذكرة، أرسل الموساد إلى السودان أحد رجاله، داني ليمور؛ للقاء أكلوم.

عندما التقيا، اتّفقا على أن يحاول أكلوم العثور على اليهود في مخيّمات اللاجئين، وإبلاغ داني بالأمر. وخلال بضعة أشهر، تمكّن من إيجاد 30 يهودياً، ونظّم الموساد هجرتهم إلى إسرائيل سرًّا. وبعد شهر، قام جهاز الموساد باستمالة أكلوم للتعاون معه، وكلّفه بتعقّب اليهود في الخرطوم. غير أنّه لم يجد يهوداً هناك، فقرّر مبعوث الموساد العودة إلى إسرائيل. قبل رحيل ليمور، طلب من أكلوم أن يسافر إلى إسرائيل أيضاً. لكنّ أكلوم فضّل البقاء ومواصلة البحث عن يهود في أجزاء أخرى من السودان. بيد أنّ ليمور كان حاسماً، وأمر أكلوم بإيقاف نشاطاته والعودة إلى إسرائيل في غضون أسبوع.

غير أنّ أكلوم عصى الأوامر، وبدأ ينتقل من مدينة إلى أخرى، ومن مخيّم للاجئين إلى آخر، على أمل العثور على يهود. بيد أنّه لم يجد يهودياً واحداً، وأدرك أنّه إن عاد إلى إسرائيل الآن، فسيضع ذلك حدًّا لهجرة يهود أثيوبيا عبر السودان. لذا، كتب تقريراً كاذباً ذكر فيه أسماء العديد من اليهود الذين زعم أنّهم موجودون في السودان، وأرسله عبر الفاكس إلى الموساد، ثمّ أعلن أنّه باق في السودان «ليعتني بهم».

كان اليهود الذين ذكرهم أكلوم في تلك اللوائح موجودين فعلاً، لكن ليس في السودان، بل ما زالوا يعيشون في قراهم في أثيوبيا. بدأ أكلوم الآن يعمل في أثيوبيا كذئب وحيد. زار القرى، وحاول إقناع اليهود المحلّيين بالهجرة إلى أرض إسرائيل. ذاعت شائعة وجود طريق سرّية إلى القدس وانتشرت كالنار في الهشيم. بدأ الأمر مع بضعة رجال، تبعهم عدد من الأسر، ومن ثمّ قرى بأكملها حزم أهلها حقائبهم وانطلقوا. غادر آلاف الأشخاص - بمن فيهم العجائز، والنساء، والأطفال - أثيوبيا سرًّا؛ مستلهمين من حلم مسيحي، ووعود الكتاب المقدّس بالعودة إلى أرض اللبن والعسل.

أعدّوا الطعام والماء، وعبروا الحدود، وبدأوا رحلة مرهقة وخطيرة في الصحراء. ساروا ليلاً ونهاراً، واختبأوا في الكهوف والزوايا المظلمة. مرض الكثيرون منهم ولقوا حتفهم. كما مات الأطفال بين أذرع أمّهاتهم بسبب الجفاف. خسر أحد الآباء أطفاله الأربعة خلال تلك الرحلة الرهيبة. وتعرّض البعض للدغات الثعابين والعقارب، أو سقطوا ضحايا الأمراض المعدية. لم تكن كمية الماء والطعام التي أخذوها معهم كافية، كما تعرّضت بعض المجموعات لغزوات اللصوص الذين سلبوها ممتلكاتها، وغالباً ما تركوا وراءهم أكواماً من الجثث. بعد سنوات، وصفت الممثّلة ميهيريتا باروش التي شاركت في تلك الرحلة الويلات التي عانتها. قالت إنّ المسافرين كانوا يعدّون كلّ صباح جثث أصدقائهم. في بعض الأحيان، كانوا يجدون عشر جثث منتشرة على الرمال، وأحياناً أخرى خمس عشرة جثة. ما من أسرة لم تفقد على الأقلّ واحداً من أبنائها.

في صيف 1981، عاد داني ليمور وفريق الموساد إلى السودان، وبدأوا يعملون

سرًّا. أطلقوا على أنفسهم اسم «هافيس»، وهي الأحرف الأولى من عبارة «قوّة هاكا في السـودان». كان هدفهم هو الاتّصال باليهود الأثيوبيين الموجودين في مختلف أنحاء السودان.

لكنّ اليهود الذين ظلّوا على قيد الحياة واجهوا صعوبات أخرى عندما حاولوا الاتّصـال بمبعوثـي الموسـاد. فحتّـى أولئك الذيـن وصلوا إلى مخيّمـات اللاجئين حـول الخرطـوم كانـوا فـي غاية الحزن. فقـد توجّب عليهم إبقـاء هويّتهم اليهودية طيّ الكتمان، ومع ذلك تجنّبوا تناول الطعام غير المباح الذي كانت وكالات الإغاثة توزّعه على اللاجئين. تعرّضت النساء للاغتصاب، والفتيات الصغيرات للخطف من قبـل الفتـوّات والمجرميـن الذيـن كانوا الحكّام الفعلييـن للمخيّمات. كما تعرّضت مجموعـة مـن مئـة فتـاة للاختطاف واختفين جميعاً. وفي عـدّة حالات، تمّ التعرّف علـى اليهـود مـن قبـل جيرانهـم في المخيّمـات، فأُلقـي القبض عليهـم، وتعرّضوا للتعذيـب علـى يد الشـرطة السـودانية. بقـي الكثيرون منهم فـي مخيّمات اللاجئين لأشهر وحتّى سنوات، إلى أن تمكّنوا من السفر إلى إسرائيل.

دفع يهود أثيوبيا ثمناً باهظاً لتحقيق حلمهم الكبير بالسفر إلى القدس. ومات أكثـر مـن 4,000 يهـودي خـلال مختلـف مراحل رحلتهم. كان هنـري غولد يهودياً كندياً يعمل كمتطوّع في مخيّمات السودان وأثيوبيا، وصُدم بشدّة حين شاهد وضع اليهود الذين وجدهم هناك، كما انتقد بقسوة المبعوثين الإسرائيليين لعدم تنفيذهم مهمّتهم بشكل صحيح.

إلاّ أنّ الموسـاد كان يبحـث عـن طريقـة آمنـة لإيصـال اليهـود إلى إسـرائيل. بدأت هجرة اليهود من السودان برحلات تجارية منتظمة، وباستخدام جوازات سفر مزوّرة. لكن، سـرعان ما قرّر الموسـاد نقل اللاجئين إلى إسـرائيل بحراً؛ بواسـطة قوارب تقلّهم عبر البحر الأحمر ومضيق تيران إلى ميناء إيلات.

أسّـس الموسـاد في أوروبا شـركة سـياحة وسـفر لاسـتخدامها كغطاء. وقال عميل الموساد يوناتان شيفا، أحد قادة العمليّة: «من أجل العمل في هذه المنطقة، يحتاج المرء إلى غطاء. فمن دونه، سيسألونك بعد أسبوع: ماذا تفعل هنا؟ هل أنت سـائح؟ ماذا يوجد هنا لتراه؟». اسـتأجرت الشـركة منتجعاً مهجوراً على مقربة من

بوينس آيرس سودان يدعى «العروس»، ووقّعت عقداً مع الحكومة السودانية لتطوير الرياضات البحرية في البحر الأحمر. تمّ تفويض يهودا غيل الذي كان يُعتبر آنذاك أحد أفضل ضبّاط الموساد بالتعاملات الإدارية كافّة. قصد غيل الخرطوم، واجتمع مع مسؤولي النظام، واستخدم الكثير من الدهاء في الشرح والإقناع، كما استخدم الرشوة؛ إلى أن تمكّن أخيراً من الحصول على الرخص والتصاريح اللازمة لتشغيل منتجع العروس. وكان الرجل المكلّف بإعداد هذا المنتجع وإدارته هو يوناتان شيفا الذي شارك في الكثير من عمليّات الموساد. في الواقع، تمّ بناء منتجع العروس كقرية، مع أكواخ فردية وبعض الأبنية العامّة. وتمّ إرسال عدد من عملاء الموساد الذين يحملون جوازات سفر مزوّرة من إسرائيل، وأصبحوا مدرّبين وموظّفين في المنتجع. ملأوا مخزن المنتجع بمعدّات غطس، وأجهزة للتنفّس تحت الماء، وأقنعة، وزعانف، وأنابيب غطس. كما أُخفي في المخزن جهاز إرسال واستقبال، أبقاهم على اتّصال دائم مع مقرّ الموساد. تلقّى إيمانويل ألون الذي اشترك مع شيفا في العديد من العمليّات – بما في ذلك إنقاذ العذارى السوريات – مكالمة من يوناتان. «قال لي إنّه يحتاج إليّ في أمر خاصّ. هذه المرّة، العمليّة لا تشتمل على قتل، بل إنها عمل إنساني. وقال إنّ عواطفه تتحرّك وهو يتحدّث معي، وإنّه يريد تأسيس قرية سياحية في السودان». كانت القرية مفتوحة للعامّة، وسرعان ما انتشرت ملصقاتها على جدران وكالات السفر الأوروبية.

أمضى الكثير من السيّاح إجازاتهم في منتجع العروس، ومن وجهة نظرهم على الأقلّ، كان المنتجع ناجحاً. أمضوا نهارهم في الغطس، والسباحة، واستمتعوا بشاطئ البحر الأحمر. لكنّهم لم يدركوا أنّ عملاء الموساد كانوا يخرجون من المنتجع كلّ ليلة تقريباً لجلب اليهود من مخيّمات اللاجئين. اخترع «مدرّبو الغطس» قصّة للموظّفين المحلّيين في المنتجع، والذين كانوا مواطنين سودانيين، فأخبروهم أنّهم يذهبون لتمضية لياليهم مع الممرّضات السويديات العاملات في مستشفى الصليب الأحمر في بلدة كسالا. وعندما بدأت تلك الرحلات تتكرّر على نحو مريب، بدأ الموظّفون المحلّيون يشتبهون بها، لكنّهم فضّلوا صرف أنظارهم عمّا يحصل ما داموا يقبضون رواتب سخية.

كانـت الرحـلات الليليـة تتـمّ بواسـطة أربـع شـاحنات قديمـة، يقودها عملاء الموسـاد تحـت إشـراف دانـي ليمـور إلى جـوار المخيّمات. وهنـاك، يقوم أعضاء شباب في منظّمة أثيوبية سرّية تسمّى اللجنة بجمع اليهود ونقلهم إلى الشاحنات.

لكنّ هذا الأمر لم يكن سـهلاً، إذ كان الإسـرائيليون عرضة لمخاطر عديدة. اعتبـر أحـد قـادة العمليّة، ويدعى ديفيد بن أوزييل، أنّ الاقتراب من المخيّمات هو «الجـزء الأخطـر مـن المهمّـة». «كنّـا قريبين جـدًّا من المخيّمـات، حيث يمكن أن ينكشف أمرنا، وكان علينا الانتهاء من هذا الجزء بأسرع ما يمكن».

وبينما كانت اللجنة تحاول إيجاد اليهود في مخيّمات اللاجئين، امتنع كثيرون عن كشـف هويّتهم خوفاً من الشـرطة السـودانية. لم يكن يهود القرى الجبلية في أثيوبيـا قـد سـبق لهـم رؤية رجـل أبيض من قبل، ورفضوا تصديق أنّ الإسـرائيليين كانـوا يهـوداً أتـوا لإنقاذهـم، لأنّهم لم يعرفوا بوجود يهود بيض أيضاً. ولـم يصدّقوا أنّ دانـي ليمـور يهـودي إلاّ عندمـا أتى للصلاة معهم؛ غريـب يصلّي بطريقة غريبة، إلاّ أنّه يهودي مثلهم.

خشـية تسـرّب الخبـر، امتنـع عملاء الموسـاد عـن تحذير اليهود مسـبقاً. وقد أخبرهم أعضاء اللجنة بضرورة الاستعداد للمغادرة في أيّ لحظة، كما أخبروهم أنّه عندما يتمّ الاتّصال بهم عليهم ترك كلّ شيء والرحيل. وهكذا، تسلّلت مجموعات اليهود المقيمة في المخيّمات ليلة بعد ليلة، وتوجّهت خلسة إلى نقطة الالتقاء في واد صغير مجاور حيث كان عملاء الموساد ينتظرون هناك.

كانت الشـاحنات الأربع تسـافر مئات الكيلومترات إلى شـاطئ البحر الأحمر. وفي الطريق، كانت تمرّ بنقاط تفتيش للجيش والشرطة، فيقوم داني برشوة الحرّاس، كـي يُسـمح للشـاحنات بمتابعـة طريقها. وعنـد نقطة الالتقاء على الشـاطئ، تكون البحرية الإسرائيلية بانتظارهم.

يرسو قارب للبحرية على مسافة من الساحل، ويأتي منه رجال الكوماندوس بالـزوارق المطّاطيـة لنقـل اليهـود إلى متن القـارب الأمّ. كان القارب الرئيس الذي يصل كلّ أسـبوع إلى الشـاطئ السـوداني هو بات غاليم. لن ينسـى عملاء الموساد وكومانـدوس البحريـة أبـداً اللقـاء المشـحون بالعواطف بين الأثيوبييـن وإخوانهم،

ورحيلهم الدراماتيكي إلى إسـرائيل. وصف عميل الموسـاد ديفيد بن أوزييل نقل اليهود إلى القوارب على شـريط مسـجّل، فقال: «كان البحر هائجاً، وكنّا نمسـك إخواننا بين أذرعنا كي لا يغرقوا. كانت عواطف رجالنا مشحونة، وقال البعض إنّ المشهد ذكّرهم بأهلهم الذين أتوا إلى إسرائيل كمهاجرين غير شرعيين. وكانوا على وشك الانفجار بالبكاء عندوا رأوا إخواننا يصعدون على متن القارب».

أضاف غادي كرول، قائد القوّة البحرية: «أتوا في صمت تامّ. كانوا مسـنين، ونساء، وأطفالاً محمولين بين الأذرع. انطلقنا فوراً عبر البحر العاصف، بينما جلسوا من دون أن ينطقوا بكلمة واحدة. واصطحبتهم القوارب إلى إيلات».

في أحد الأيّام، أتى المتطوّع الكندي اليهودي هنري غولد إلى القرية السياحية. كان متعباً من العمل الشاقّ في مخيّمات اللاجئين، فأقنعه بعض أصدقائه بالاستراحة لبضعة أيّام، وبالاسترخاء تحت الشمس وممارسة السباحة والغوص. لم تكن لديه فكـرة عـن الأنشـطة السـرّية التـي تجري داخل المنتجـع وحوله. لكـن، عندما زار القرية، شـعر بوجود أمر غريب جدًّا، إذ تكوّن لديه انطباع بأنّه كان محاطاً بعملاء الموسـاد. فقـد بـدا الموظّفون غريبـي الأطـوار. «كانت لكنتهم غريبة. قالت إحدى النساء إنّها سويسرية، لكنّها لم تكن تملك لكنة سويسرية. والإيراني لم يكن يملك لكنة إيرانية. على العشـاء، قُدّمت على الطاولات سـلطة مفرومة إلى قطع صغيرة. زرت أماكن كثيرة في العالم، لكنّ مثل هذه السـلطة لا تُقدّم سـوى في إسـرائيل».

فـي صبـاح اليـوم التالـي، لم يتـردّد، وتوجّه إلى معلّـم الغطس، ثمّ سـأله بالعبرية: «أخبرني، ماذا تفعلون هنا؟». دُهش الشـابّ، واحمرّ وجهه من شـدة الارتباك، ثمّ انهار على أحد الكراسـي. أخيراً، سـأل غولد بالعبرية أيضاً: «من أنت؟». في اليوم نفسه، وصل ضابط كبير في الموساد، وأخذ غولد جانباً، فواجهه غولد غاضباً بشأن المعاملة السيّئة التي يتلقّاها اليهود في مخيّمات اللاجئين.

في إحدى العمليّات، في مارس 1982، وبينما كانت عدّة زوارق تنقل أثيوبيين إلى القارب الرئيس في الظلام الدامس، علق أحد الزوارق وعلى متنه أربعة عملاء من الموساد بين الصخور قرب الشاطئ. في تلك اللحظة، ظهرت فرقة من الجنود السودانيين المسلّحين ببنادق كلاشينكوف، وسدّدوا بنادقهم باتّجاه القارب الصغير.

استجمع داني ليمور شجاعته، وصاح في وجه الجنود متحدّثاً مع القائد باللغة الإنكليزية: «هل جننتم؟ هل ستُطلقون النار على سيّاح؟». وراح يصيح متحدّثاً عن السيّاح الذين جاءوا لممارسة رياضة الغطس في هذا المنتجع، وعن مساهمة العروس في التجارة السياحية في السودان، ثمّ هدّد بتقديم شكوى ضدّ قائد الفرقة في الخرطوم. عندها، اعتذر الضابط مرتبكاً، وشرح أنّه اعتقد أنّ ركّاب الزورق مهرِّبون، ثمّ أمر جنوده بمغادرة المكان على الفور.

لم يتعرّض عملاء الموساد للأذى، لكن بدا أنّ الرحلات البحرية لم يعد من الممكن أن تستمرّ. وكان لا بد من العثور على طريقة جديدة لنقل اليهود إلى إسرائيل. في صباح أحد الأيام، استيقظ سيّاح العروس ليكتشفوا أنّ جميع الموظّفين الأجانب قد اختفوا، باستثناء بعض المحلّيين الذين بقوا لإعداد الفطور للضيوف. في الليلة السابقة، غادر عملاء الموساد القرية، وتركوا رسائل اعتذار تفيد أنّه سيتمّ إغلاق المنتجع بسبب صعوبات مالية متعلّقة بالميزانية. أمّا بالنسبة إلى السيّاح، فسيستعيدون أموالهم عند عودتهم إلى بلادهم. وقد تمّ ذلك فعلاً، وسُدّدت الأموال إلى جميع السياح في الأسابيع التالية.

بعد نقاشات طويلة في مقرّ الموساد، قرّر الرامساد أن يتمّ جلب بقيّة اليهود جوًّا، بواسطة طائرة رينوس هرقل 130 التابعة لسلاح الجوّ الإسرائيلي. كانت هذه العمليّة محفوفة بالمخاطر؛ لأنّها تنطوي على اختراق المجال الجوّي السوداني والهبوط المتكرّر لجنود إسرائيليين على أرض معادية. لكن، لم يكن أمام إسرائيل حلّ آخر: لا بدّ من إنقاذ يهود أثيوبيا.

في مايو 1982، عاد عملاء الموساد إلى السودان. كانت مهمّتهم الأولى تتلخّص في تحديد الأماكن المناسبة للهبوط جنوب بور سودان. وجدوا مطاراً بريطانياً مهجوراً وقاموا بإصلاح مدرجه؛ ممّا جعله مناسباً لهبوط طائرات رينوس الثقيلة. تمّ إحضار أوّل مجموعة من اليهود من نقطة الالتقاء إلى المطار. واستُخدمت مصابيح اليد لإضاءة مكان الهبوط. لكن، عندما حطّت طائرة رينوس الضخمة التابعة لسلاح الجوّ، شعر اليهود الأثيوبيون بخوف شديد. فقد أصدر الطائر المعدني العملاق الذي يرونه للمرّة الأولى في حياتهم هديراً عالياً، وأثار

حوله سحباً من الغبار، وبدا وكأنّه يتوجّه نحوهم مباشرة. فرّ الكثيرون منهم هاربين، ولـم يوافقـوا علـى العـودة إلاّ بعد جهود مضنية بذلها فريق الموسـاد لإقناعهم، في حيـن رفـض آخـرون بعنـاد الدخول في بطن ذلك الوحـش المعدني. والطائرة التي كان يُفتـرض بهـا أن ترحـل فـوراً، أقلعت بعد سـاعة من التأخيـر حاملة على متنها 213 يهودياً.

تلقّـى العمـلاء برقيـة تهنئـة من المقـرّ، لكنّهم تعلّموا درسـاً هامًّا. في المرّات القادمـة، ستنتظر الشـاحنات هبـوط الطائـرة وإنـزال السـلّم قبل أن تتّجـه إلى ذيل الطائرة؛ حيث يدخل اليهود مباشرة عبر الباب المفتوح.

لم يدم ذلك النجاح طويلاً. فقد اكتشفت السلطات السودانية الحركة الغريبة في المطار المهجور، وتحتّم على عملاء الموسـاد إيجاد مهبط آخر. وسـرعان ما عثـروا علـى مـدرج جديـد على بعد 46 كلم جنوب غرب بور سـودان. هذه المرّة، قـرّر الموسـاد تنفيـذ عمليّة إنقاذ كبيرة تشـتمل على سـبع رحـلات جوّية على متن طائرات هرقل، حيث تحمل كلّ منها 200 يهودي.

تمّ تنفيذ عمليّة «الإخوة» تحت القيادة الشـخصية للرامسـاد، هاكا، وقائد فيلق المظلّيين، الجنرال عاموس يارون. في العامين التاليين، من أواسط عام 1982 حتّى أواسط عام 1984، تمّ نقل 1500 يهودي أثيوبي إلى إسرائيل.

أوشـكت تلـك العمليّـة الناجحـة أن تنتهـي بالفشـل. فقـد قـام مُخبـر لقوّات الأمـن السـودانية بكشـف أمر عميل الموسـاد فـي مخيّمات اللاجئيـن، فتمّ اعتقال أديس سـولومون، وهو يهودي أثيوبي، وتعرّض للتعذيب لمدّة 42 يوماً على أيدي السودانيين الذين أرادوا معرفة أسماء مشغّليه، وأماكن الالتقاء مع عملاء الموساد. لكنّ سولومون لم ينهَر ولم يكشف السرّ.

مع نهاية عام 1984، ازداد وضع المخيّمات سوءاً. فتسبّبت المجاعة والأمراض المعديـة بعـدد كبيـر مـن الوفيات بين الأثيوبيين. كما احتدمـت الحرب الأهلية في السـودان وهـدّدت نظـام جعفـر نميري، فأصبح بقاؤه معتمداً على مسـاعدات مالية وإمدادات غذائية عاجلة من الولايات المتّحدة.

طلبـت إسـرائيل مـن واشـنطن مسـاعدة السـودان إن سـمحت هـذه الأخيـرة

باستمرار الجسر الجوّي إلى إسرائيل. وافقت الإدارة الأميركية على طلب إسرائيل، وتلقّى السفير الأميركي في الخرطوم تعليمات بالتفاوض حول تلك النقاط. وأخيراً، تمّ التوصّل إلى تسوية: لن يُسمح لليهود بالسفر إلى إسرائيل مباشرة، بل عبر دولة ثالثة. ولن تشارك إسرائيل في العمليّة، وستكون التعويضات التي ستستلمها السودان على شكل شحنات من الغذاء والوقود.

أبلغت السفارة الأميركية في الخرطوم واشنطن أنّه يمكن إجلاء اليهود من السودان في غضون خمسة أسابيع أو ستّة.

وهكذا بدأت عمليّة موسى.

في غضون ذلك، تمّ استبدال الرامساد هاكا بنائبه ناحوم أدموني الذي تميّز في السنوات السابقة بجهوده الناشطة لتنظيم هجرة اليهود الأثيوبيين. فسمح أدموني لرجاله بإجلاء اليهود عبر بلجيكا. ووافق رجل أعمال يهودي يملك شركة طيران صغيرة بالمساهمة في العمليّة بواسطة طائرات بوينغ التابعة للشركة.

هكذا، في 18 نوفمبر 1984، عند الساعة 1:20 ليلاً، هبطت أوّل طائرة بلجيكية في السودان. صعد على متنها 250 لاجئاً يتضوّرون جوعاً، ويعانون من الإنهاك والخوف. لكنّ الطيّار البلجيكي رفض الإقلاع لأنّ الطائرة كانت مجهّزة بمئتين وعشرة أقنعة أوكسجين، وهي لا تكفي جميع الركّاب. فأخذه عميل الموساد جانباً، وهمس في أذنه بهدوء ولكن بحزم: «من فضلك، اختر بنفسك وقرّر من سيعيش ومن سيموت!». ثمّ أضاف، لكن بحدّة أكبر: «إن لم تدخل قمرة القيادة وتشغّل المحرّكات، فسأرميك من الطائرة، وسأحضر طيّاراً آخر مكانك».

كان كلام عميل الموساد مقنعاً جدًّا، فدخل الطيّار القمرة. وعند الساعة 2:40 ليلاً، انطلقت أوّل رحلة في عمليّة موسى إلى إسرائيل، وتوقفت في بروكسل. وخلال الأيّام السبعة والأربعين التالية، نفّذت طائرات بوينغ 36 رحلة سرّية، ونقلت على متنها 7,800 يهودي أثيوبي.

في إسرائيل، بذلت الرقابة العسكرية جهوداً يائسة لمنع تسرّب أيّ معلومات حول العمليّة. ونجحت جهودها تلك، إلى أن قام رئيس الوكالة اليهودية أرييه دولزن بنشر بيان صرّح فيه أنّ «إحدى القبائل اليهودية على وشك العودة إلى

الوطـن». بعـد هذا البيان، نشـرت صحيفة نيويـورك جويش بريس تفاصيل العمليّة، تلتها صحيفة لوس أنجلوس تايمز.

بعـد ثلاثـة أيّـام، قال رئيس الوزراء الإسـرائيلي شـيمون بيريز في الكنيسـت: «عملـت الحكومـة الإسـرائيلية، وستسـتمرّ بالعمـل، ضمن حدود سـلطاتها؛ وحتّى خارج تلك الحدود، لمواصلة العمليّة إلى أن يعود آخر يهودي أثيوبي إلى وطنه». في اليوم نفسـه، ألغت السـلطات السـودانية الرحلات الجوّية وتوقّفت العمليّة. فقد ثار غضب السـودانيين، ليس بسـبب المقالات الصحفية، بل بسـبب خطاب رئيس الوزراء الإسرائيلي الذي أكّد القصّة. أشار مسؤول أميركي في واشنطن: «لو التزم الإسرائيليون الصمت شهراً آخر، لكان من الممكن إنقاذ يهود أثيوبيا كافّة».

تأثّر نائب الرئيس جورج بوش الأب كثيراً بعمليّة موسـى، وبجهود إسـرائيل الراميـة إلـى إحضـار الأثيوبييـن على الرغم من المخاطر الكبيرة، فقرّر أن يتصرّف. وبعد عدّة أسابيع من إلغاء عمليّة موسى، هبطت سبع طائرات هرقل تابعة لسلاح الجوّ الأميركي في مطار القضارف السـوداني. كانت تحمل على متنها عدّة عملاء فـي المخابـرات المركزيـة الأميركية. أطلقت تلك القوّة الأميركية عمليّة ملكة سـبأ، ونقلت بقيّة يهود أثيوبيا البالغ عددهم 500 نسمة مباشرة من السودان إلى القاعدة الجوّية الإسرائيلية في ميتسبي رامون، في النقب.

بعـد شـهرين مـن ذلـك، تمّ خلـع جعفر نميري من قبل مجلس عسـكري من ضبّاط الجيش. وهُرع ضبّاط المخابرات الليبية إلى السـودان من أجل العثور على عملاء الموسـاد الذين كانوا لا يزالون في الخرطوم. اكتشـف الليبيون أمر العملاء الثلاثة المتبقّين هناك، والذين تمكّنوا من الهرب في اللحظة الأخيرة إلى منزل أحد عملاء السي آي إيه. خبّأهم الأميركي في منزله، ثمّ قام بتسفيرهم داخل صناديق إلى العاصمة الكينية، نيروبي. كان ديفيد مولاد أحد كبار ضبّاط الموساد في السودان، وتسـلّل مـن البلـد خلسـة. وكانـت عمليّة إنقاذ اليهـود الأثيوبيين إحـدى العمليّات الأخيرة التي شارك فيها قبل تقاعده من الموساد.

في عمليّتي موسـى وملكة سـبأ، كان التعاون الأميركي الإسـرائيلي ممتازاً، لا

بل مثالياً تقريباً. لسوء الحظّ، بعد مدّة قصيرة من ذلك، انفجرت قضيّة بولارد في واشنطن، إذ تمّ اعتقال موظّف يهودي في المخابرات الأميركية يدعى جوناثان بولارد بتهمة التجسّس لحساب إسرائيل. صُعقت الحكومة الأميركية لدى اكتشافها ذلك، وثار غضبها، وشعر رؤساء السي آي إيه أنّهم تعرّضوا للخيانة من قبل حليفهم الذي ساعدوه، وبالمقابل تجسّس عليهم.

استفاضت الحكومة الإسرائيلية بتقديم اعتذارها، وأعادت الوثائق التي سرقها بولارد إلى الولايات المتّحدة. لكنّ العلاقات الاستخبارية بين القدس وواشنطن تلقّت ضربة خطيرة. تبيّن أنّ مشغّل بولارد لم يكن سوى رافي إيتان، عميل الموساد الأسطوري الذي يترأس منظّمة استخبارية غامضة في وزارة الدفاع. تمّ حلّ المنظّمة التي تحمل اسم لاكام (مكتب العلاقات العلمية) على الفور، واتُّخذت إجراءات قضائية ضدّ إيتان في واشنطن. وحتّى هذا اليوم، ليس بمقدوره دخول الولايات المتّحدة خوفاً من التعرّض للاعتقال.

* * *

تعرّضت عمليّة موسى لانتقاد حادّ من قبل الكثير من اليهود الأثيوبيين، لأنّها تسبّبت بخسارة حوالى 4000 شخص. في الموساد أيضاً، اعترض قياديو سيزاريا التي كانت في ذلك الوقت برئاسة شبتاي شافيت اعتراضاً شديداً على تخطيط العمليّة من قبل شعبة بيتزور. وادّعى شافيت ورجاله أنّ بيتزور شعبة هامشية غير مجهّزة لعمليّة بحجم عمليّة موسى. غير أنّ ضبّاط بيتزور أصرّوا على أنّ العمليّة نجحت تحديداً بسبب طابعها العفوي والمرتجل. كما أشاروا إلى أنّهم جنّدوا بعضاً من أفضل عملاء الموساد لتنفيذ مختلف مراحل العمليّة.

لا يمكن للخلاف الداخلي أن يغيّر حقيقة عودة آلاف اليهود إلى أرض إسرائيل. لكن، حتّى بعد انتهاء عمليّتي موسى وملكة سبأ، بقي آلاف اليهود في أثيوبيا. هم أيضاً أرادوا الهجرة إلى إسرائيل، لكنّ الأبواب كانت موصدة. شعرت إسرائيل أنّ عليها إحضارهم، لاعتبارات أيديولوجية وصهيونية، ولأسباب إنسانية أيضاً. فقد تشتّت عدد كبير من الأسر، ووصل إلى إسرائيل أطفال من دون آبائهم، وآباء من دون أطفالهم، وأزواج من دون زوجاتهم... سبّب هذا التشتّت مشاكل

رهيبة، ومآسي شخصية كثيرة؛ كانتحار الشباب الذين لم يستطيعوا التأقلم مع الواقع الجديد من دون أسرهم. قام مبعوثو الوكالة اليهودية بنقل آلاف اليهود إلى مخيّمات موزّعة حول العاصمة أديس أبابا، وظلّ اليهود الأثيوبيون يصلّون من أجل الذهاب إلى أرض إسرائيل.

أخيراً، تمّ لهم ما أرادوا.

فبعد ست سنوات من عمليّة موسى، أي في مايو 1991، أُطلقت عمليّة سليمان. جرت تلك العمليّة في ذورة الحرب الأهلية؛ مع اقتراب المتمرّدين على المجلس العسكري الحاكم من أديس أبابا من جميع الجهات. أمكن تنفيذ العمليّة من خلال اتّفاق تمّ في اللحظة الأخيرة، بوساطة الولايات المتّحدة، بين الحكومة الإسرائيلية والحاكم المحاصر منغيستو قبل أيّام من سقوطه.

تمّ التفاوض على الاتّفاق بفضل النشاط السرّي لأحد رجال إسرائيل الغامضين ويدعى يوري لوبراني؛ الذي كان مبعوثاً خاصًا إلى إيران ولبنان. وقد اضطلع بهذه المهمّة بناءً على طلب رئيس الوزراء إسحاق شامير. وافقت إسرائيل على دفع 35 مليون دولار لأثيوبيا مقابل السماح بهجرة اليهود منها، في حين وعدت الولايات المتّحدة بعضاً من أبرز الشخصيات في حكومة منغيستو بمنحهم حقّ اللجوء السياسي في الولايات المتّحدة. في الوقت نفسه، تمّ التوصّل إلى اتّفاق مع زعماء المتمرّدين الذين وافقوا على هدنة لمدّة محدودة في أثناء تنفيذ العملية. استغرقت الهدنة 36 ساعة كانت كافية لتنفيذ العمليّة.

تمّ تكليف الجيش الإسرائيلي بتنفيذ عمليّة سليمان، فتولّى نائب رئيس هيئة الأركان، الجنرال أمنون ليبكين شحاك الإشراف على العمل. وبناء على أوامره، أرسلت إسرائيل إلى أديس أبابا "كلّ ما يملك جناحين". فأوفدت شركة طيران العال 30 طائرة إلى أثيوبيا، وأرسل سلاح الجوّ العديد من طائراته. كما تمّ إرسال فرق النخبة من كوماندوس شلداغ (طائر الرفراف) إلى أديس أبابا. رافق تلك الطائرات مئات الجنود من المشاة والمظلّيين من أصل أثيوبي الذين كانوا قد هاجروا إلى إسرائيل أطفالاً قبل بضع سنوات. انتشروا حول المطار، وقادوا اليهود إلى الطائرات. وخلال 34 ساعة، تمّ إحضار 14,400 يهودي إلى المطار.

استقلّوا الطائرات بسرعة البرق، وانطلقوا إلى إسرائيل. في تلك العمليّة، تمّ تحطيم رقم قياسي عالمي. فقد حملت إحدى طائرات بوينغ 747 التابعة لشركة العال على متنها 1,087 مهاجراً، لكن عند هبوطها كان على متنها 1,088 شخصاً. فقد ولد طفل في أثناء الرحلة.

لدى رؤية المهاجرين الجنود الأثيوبيين الشباب الذين أتوا من إسرائيل لإنقاذهم، اجتاحتهم مشاعر فيّاضة. حتّى إنّ المظلّيين الإسرائيليين القساة الذين يرتدون زيّ الجيش الإسرائيلي الأخضر ويعتمرون القبّعات الحمراء انفجروا بالبكاء.

اليوم، بعد مرور أكثر من عشرين عاماً على تنفيذ عمليّة سليمان، ما زال في أثيوبيا العديد من اليهود، وما زالت الجهود متواصلة لجلبهم إلى إسرائيل. لكنّ استيعاب الأثيوبيين في المجتمع الإسرائيلي لم يكن سهلاً، بسبب الهوّة الفاصلة بين المجتمع الأفريقي الريفي والمجتمع الغربي الحديث، وكذلك بسبب التمييز الحادّ وادّعاء بعض الزعماء الدينيين أنّ الأثيوبيين ليسوا يهوداً حقيقيين.

كما يقول المقطع الأخير من أغنية "الرحلة":

في القمر
أرى وجه أمّي ينظر إليّ
أمّي، لا تختفي!
لو كنت معي لأقنعتهم
أنّني يهودي.

الخاتمة

حرب مع إيران؟

مطار عنتبي، أوغندا، 4 يوليو 1976

في سواد الليل، هبطت أربع طائرات هرقل إسرائيلية خلسة في مطار عنتبي، من دون أن يكشفها الرادار الأوغندي. طارت مسافة 2,500 ميل من قاعدتها في إسرائيل، حاملة على متنها وحدة كوماندوس تابعة لسايريت ماتكال وعدداً من وحدات النخبة في الجيش. قبل أسبوع، عمد عرب وألمان إلى خطف طائرة تابعة للخطوط الجوّية الفرنسية كانت في طريقها من تل أبيب إلى باريس، وهبطوا بها في عنتبي. بحماية الديكتاتور الأوغندي الجنرال عيدي أمين ودعمه، احتفظ الخاطفون بخمسة وتسعين مدنياً إسرائيلياً كرهائن، فقرّرت إسرائيل شنّ عمليّة جريئة في قلب أفريقيا لإنقاذ الرهائن.

بعد دقائق من هبوط طائرات هرقل، انتشر رجال الكوماندوس الإسرائيليون في مختلف أنحاء المطار. وقاد يوني نتنياهو، قائد ماتكال، رجاله في هجوم على المحطّة التي احتُجز فيها الرهائن. وفي تبادل كثيف لإطلاق النار، سقط يوني فجأة، بعد أن أصيب بعيار ناري. انحنى ضابط آخر في ماتكال، هو النقيب تامر باردو، فوق قائده، وشغّل مكبّر الصوت، واتّصل برفاقه. قال لهم إنّ يوني قد أصيب. "موكي، تولّ القيادة!". تولّى موكي بيتزير، نائب يوني، القيادة وواصل العمليّة. بعد دقائق، انتهت المعركة. قُتل الخاطفون، وأُنقذ الرهائن، وأقلعت طائرات هرقل عائدة إلى إسرائيل.

تحوّل إنقاذ الرهائن من تلك المسافة البعيدة عن الوطن إلى أسطورة، إلاّ

أنّه كان باهظ الثمن. فقد توفّي ثلاثة من الرهائن خلال المعركة، هذا بالإضافة إلى أحد الجنود؛ الملازم الكولونيل يوني نتنياهو، شقيق رئيس الوزراء المستقبلي بنيامين نتنياهو. حزنت إسرائيل بأكملها على موت يوني. وفي تلك الليلة، قرع تامر باردو، ضابط الاتّصالات في سايريت ماتكال، باب أسرة نتنياهو في القدس. كان قد أرسل لإبلاغ أقارب يوني بظروف وفاته. ستنشأ علاقة حميمة بين أسرة نتنياهو وتامر باردو الذي كان بجانب يوني في لحظاته الأخيرة.

بعد 35 عاماً، تمّ تعيين تامر باردو البالغ من العمر 57 سنة رئيساً للموساد، مكان مئير داغان.

ولد باردو في تل أبيب لأسرة يهودية من أصل تركي وصربي. في سن الثامنة عشرة، تطوّع في فرقة المظلّيين، وتخرّج من أكاديمية الضبّاط، وخدم في سايريت ماتكال ووحدات كوماندوس شلداغ (الرفراف). بعد أربع سنوات من عمليّة عنتبي، التحق بالموساد، وشارك في عدّة عمليّات، ومُنح جائزة الأمن الإسرائيلي ثلاث مرّات. عام 1998، تمّ تعيينه رئيساً للجنة التحقيق في الموساد التي حقّقت في محاولة الاغتيال الفاشلة التي استهدفت خالد مشعل في عمّان. وبعد فترة وجيزة، أصبح رئيس شعبة "نفعيوت" في الموساد، وهي شعبة مكلّفة بجمع المعلومات في الدول الأجنبية إلكترونياً. تخصّص في التكنولوجيات الحديثة والتخطيط الإبداعي. وفي عام 2002، عندما عُيّن داغان رئيساً للموساد، أصبح باردو أحد نائبَيه، وترأّس خلال السنوات الأربع التالية هيئة أركان عمليّات الموساد. لكن، عام 2006، أمضى سنة مع الجيش الإسرائيلي برتبة جنرال في الجيش؛ مقدّماً المشورة لهيئة الأركان العامّة بشأن العمليّات الخاصّة. وقيل إنّه خطّط لعدّة عمليّات جريئة خلال حرب لبنان الثانية. تمّ استدعاء باردو عام 2007 ليكون إلى جانب داغان. وكان من المتوقّع أن يُعيَّن رئيساً للموساد عند انتهاء ولاية داغان عام 2009، لكنّ مجلس الوزراء الذي أُعجب بإنجازات داغان مدّد خدمته عاماً آخر. عندها، شعر باردو بخيبة أمل، واستقال من الموساد، ودخل مجال الأعمال التجارية من خلال شركة للخدمات الطبّية. لم يدم ذلك طويلاً، ففي 29 نوفمبر 2010، عيّنه رئيس الوزراء

نتنياهو رئيساً للموساد، وتسلّم مهامه في يناير 2011.

سار باردو على خطى سلفه في نواحٍ عديدة؛ فاستمرّت الحرب السرّية الشرسة التي تشنها إسرائيل ضدّ إيران. وفي نوفمبر وديسمبر من عام 2011، هزّت عدّة انفجارات قاعدة عسكرية كان اختبار صواريخ شهاب يجري فيها، بالإضافة إلى ضاحية في أصفهان يتمّ فيها تحويل غاز اليورانيوم، بعد فصله في أجهزة الطرد المركزي، إلى مادّة صلبة مجدّداً. ثمّ اغتيل عالم آخر هو الدكتور مصطفى أحمدي روشان، نائب مدير منشأة ناتانز السرّية، وهو يقود سيّارته في شوارع طهران. كانت طريقة العمل مماثلة لتلك التي استُخدمت في عدّة اغتيالات سابقة.

اتّهمت إيران إسرائيل بتنفيذ الهجمات، وأقسمت على الانتقام. وللمرّة الأولى، حاولت المخابرات الإيرانية تنفيذ عدّة ضربات ضدّ أهداف إسرائيلية في آسيا: تفجير سيّارة في نيودلهي أسفر عن إصابة زوجة دبلوماسي إسرائيلي، ومحاولة مماثلة في تيبيليسي في جورجيا؛ لكنّها فشلت، وعدّة تفجيرات في بانكوك في تايلند، أصيب في أحدها منفّذ العملية؛ وهو مواطن إيراني. وأحبطت المخابرات المصرية مؤامرة حاكها عملاء إيرانيون لتفجير سفينة إسرائيلية تمرّ عبر قناة السويس. بدأت الحرب السرّية بين إيران وإسرائيل تخرج إلى العلن. ووجّه محقّقو الشرطة في نيودلهي، وبانكوك، والقاهرة أصابع الاتّهام إلى المخابرات الإيرانية. ووصفت الصحافة العالمية بالتفصيل المحاولات الخرقاء للأشباح الإيرانيين للاعتداء على أهداف إسرائيلية في الخارج.

خرجت إلى العلن أيضاً تفاصيل جديدة عن العمليّات الإسرائيلية داخل إيران، فادّعت المصادر الغربية أنّ الموساد أسّس قواعد عمليّاتية في أذربيجان وكردستان؛ على الحدود الإيرانية مباشرة. استُخدمت تلك القواعد للتدريب وإرسال عملاء إلى داخل الأراضي الإيرانية. زعمت المصادر نفسها أنّ الكثير من عملاء الموساد العاملين داخل إيران ينتمون في الواقع إلى مجاهدي خلق المعارضين، وهم مسلمون إيرانيون تمكّنوا من الاختلاط بالسكّان المحلّيين أفضل من أيّ ضابط إسرائيلي. تمّ تدريب عدد من مجاهدي خلق في منشآت سرّية إسرائيلية، كما تمّ تدريبهم على تنفيذ بعض العمليّات في نماذج بُنيت خصّيصاً لذلك، كأحد شوارع

طهران، حيث يقومون بنصب كمين لسيّارة عالم نووي إيراني أو زرع قنبلة قرب منزله.

في حالات أخرى، تمّ الاتّصال بالمنشقّين الإيرانيين بطرق مختلفة. حتّى إنّ عدداً من سجلاّت السي آي إيه يؤكّد أنّ ضبّاط الموساد نفّذوا عمليّات تجنيد تحت "علم مزيّف". فادّعى الإسرائيليون أنّهم عملاء تابعون للسي آي إيه، وجنّدوا مقاتلين من منظّمة جند الله الباكستانية، وأرسلوهم لتنفيذ عمليّات اغتيال وتخريب داخل إيران. واستناداً إلى سجلاّت السي آي إيه، انتحل الإسرائيليون شخصيات ضبّاط مخابرات أميركيين للتحايل على اعتراض المسلمين الملتزمين على خدمة الدولة اليهودية.

في ربيع عام 2012، زعم المراقبون الدوليون القلقون أنّ المشروع النووي الإيراني على وشك الاكتمال، حتّى إنّ مصادر في الوكالة الدولية للطاقة الذرّية أعلنت أنّ إيران أنتجت 109 كلغ من اليورانيوم المخصّب، تكفي لتجميع أربع قنابل ذرّية. ولو قرّرت إسرائيل توجيه ضربة كبرى للمشروع الإيراني من خلال شنّ هجوم شامل على مراكزها النووية، لتحوّلت الحرب السرّية إلى حرب معلنة.

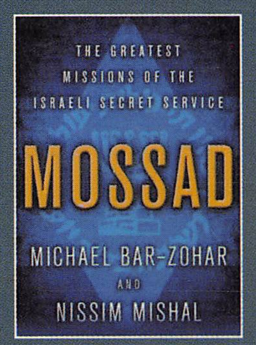
استناداً إلى الصحافة العالمية وبعض المتحدّثين الثرثارين، لم تكن إسرائيل هي الوحيدة التي تفكّر بالخيار العسكري، بل أكّدت المصادر الرسمية في القدس وواشنطن أنّ إسرائيل والولايات المتّحدة تعملان معاً، لكنّهما مختلفتان حول نقطة رئيسة: متى يجب إيقاف إيران بجميع الوسائل الضرورية، سواء أكانت عسكرية أمّ غير عسكرية. ادّعت الأجهزة الأميركية أنّ هذه اللحظة ستحين عندما يبلغ تخصيب اليورانيوم في إيران 80 بالمئة، وهي مرحلة حاسمة في تطوير قدرتها النووية. فعندما يبلغ تخصيب اليورانيوم هذا المستوى يمكن ترقيته بسرعة إلى نسبة 97 بالمئة؛ وهو المستوى اللازم لتجميع قنبلة ذرّية.

كان الجدول الزمني في إسرائيل مختلفاً؛ استناداً إلى تقارير واردة من الأرض والأقمار الصناعية. فقد اكتشف الموساد أنّ إيران تخوض سباقاً فوضوياً مع الزمن، وتبني عدداً كبيراً من المنشآت السرّية المدفونة على عمق مئات الأمتار. ويقوم الإيرانيون بنقل كلّ المواد الانشطارية التي يملكونها فضلاً عن مختبراتهم السرّية

تحت الأرض. كما زعمت تقارير استخبارية حصل عليها جهاز الموساد بمساعدة منظّمة مجاهدي خلق أنّ إيران قامت ببناء منشأة جديدة تحت الأرض بالقرب من فوردو. في القاعات الضخمة للمنشأة الجديدة، خطّط الإيرانيون لإقامة 3,000 جهاز طرد مركزي جديد، أسرع وأكثر تطوّراً بكثير من المعدّات الموجودة حاليًّا. في تلك المنشأة، يستطيع الإيرانيون تغذية اليورانيوم المخصّب حتّى 3.5 بالمئة، والاستمرار بتخصيبه حتّى يصبح جاهزاً للاستخدام. كانت إسرائيل مقتنعة أنّه لا بدّ من تدمير هـذا الكهف المشـؤوم؛ شـأنه شـأن الكثيـر من القواعد والمختبـرات الأخرى، قبل أن يتـمّ تجهيـزه بأجهـزة الطـرد؛ حيث يصبح محميًّـا تماماً ضدّ هجوم جوّي. وقال المبعوث الإسرائيلي للأميركيين: "عندما يبلغون مرحلة التخصيب الحرجة، سيكون الأوان قد فات على ضربهم. وعند ذلك، سيدخلون المنطقة المناعية التي لا يمكن فيهـا لأيّ تفجيـر أن يدمّـر مشـروعهم. بالتالـي، إنّ وقت العمـل هو الآن، في ربيع عام 2012".

لم تقتنع واشنطن بذلك، وفضّلت شنّ حملة من العقوبات القاسية. لم تصدّق إسرائيل أنّ العقوبات ستوقف إيران. وفي اجتماع قمّة في واشنطن في مطلع ربيع 2012، أشاد الرئيس أوباما ورئيس الوزراء نتنياهو بالحلف الاستراتيجي المتين بين الدولتين، لكنّ أوباما لم يوافق على المضيّ قُدماً بالقيام بعمل ضدّ المشروع النووي الإيراني. وظلّت تقارير الموساد تشير إلى أنّ طهران تسعى من دون هوادة لبناء قوّة نووية. في الوقت نفسه، هدّد زعماء إيران إسرائيل بالفناء التامّ. غير أنّ مجرّد فكرة الخطر الذي تمثّله إيران النووية والمتعصّبة على إسرائيل والعالم تذكّر الإسرائيليين بالجملة التلمودية: "إن أتى أحد لقتلك فقم واقتله أوّلاً".

شـعرت إسـرائيل مجـدّداً أنّهـا تقـف وحدهـا. وكمـا حصل عـام 1984؛ عام ولادتها، وعام 1967، عشية حرب الأيّام الستة، تواجه إسرائيل مجدّداً قراراً مصيرياً.



لم يشذ المؤلفان ميخائيل بار زوهار ونسيم ميشعال في كتابهما «الموساد: أكبر مهام جهاز المخابرات الإسرائيلية» عن القاعدة الأساسية غير المكتوبة والمتعارف عليها بالنسبة إلى دولة الكيان الإسرائيلي؛ ألا وهي تمجيد أعمال الموساد القذرة وإظهار الجرائم التي يرتكبها ضد العالم كما لو أنها أعمال نبيلة تهدف إلى حماية حق هذه الدولة الغاصبة بالوجود. إلا أن نشر هذا الكتاب باللغة العربية يهدف إلى تسليط الضوء على عدوانية هذا الجهاز تجاه العرب خصوصاً والعالم عموماً؛ ففيه عرض لبعض الأفكار والأساليب الجهنمية التي مارسها قادته عبر التاريخ، ولأهم عمليات تصفية الحسابات بين الإسرائيليين وفلول النازية من أمثال أدولف ايخمان وهربرتز كوكورز، بالإضافة إلى عرضه محاولات الموساد المستمرة لإعاقة البرنامج النووي الإيراني عبر اغتيال ماجد شهرياري الرئيس العلمي للمشروع النووي الايراني عام 2010، وداريوش رضائي نجاد في العام 2011؛ وهو الشخصية الرئيسية في البرنامج النووي الايراني، والدكتور اردشير حسين بور الخبير في الكهرومغناطسية، فضلاً عن عمليات أخرى تهدف إلى إرسال مواد معيبة تعيق العمل في المفاعلات عن طريق شركات وهمية أنشأها الموساد لتحقيق هذه الغاية. هذا ويعرض الكتاب في فصوله العديدة تفاصيل بعض المحاولات المستمرة لتصفية قادة المقاومة الفلسطينية من محاولة اغتيال رئيس المكتب السياسي في حركة حماس خالد مشعل إلى اغتيال فتحي الشقاقي مؤسس حركة الجهاد الاسلامي في فلسطين وصولاً إلى اغتيال محمود المبحوح القيادي في كتائب عز الدين القسام وذلك في دبي فضلاً عن قصة تصفية باسل الكبيسي وعلى حسن سلامة. أما على الجبهة السورية، فيعرض الكتاب لتصفية العميد محمد سليمان المستشار المقرب من الرئيس الأسد للشؤون الأمنية والعسكرية. كما يتطرق المؤلفان إلى محاولة اغتيال القائد العسكري لحزب الله عماد مغنية الفاشلة التي أودت بحياة شقيقه، قبل التمكن من النيل منه في دمشق في 12 فبراير 2008، والكثير غيرها من العمليات...


ISBN 978-614-01-0826-4
9 786140 108264





الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com



Cover photo: © BortN66 - Fotolia.com تصميم الغلاف: سامح خلف